

أنور السادات

البحث عن الذات قصة حياتي



أنور السادات

البحث عن الذات

قصة حياتي

أنا أنور السادات فلاح نشأ وترى على ضفاف النيل حيث شهد
الإيمان مولد الزمان - أهدى هذا الكتاب إلى القارئ في كل مكان . .
إنها قصة حياتي التي هي في نفس الوقت قصة حياة مصر منذ
١٩١٨ . . هكذا شاء القدر .

فقد واكبت أحداث حياتي الأحداث التي عاشتها مصر في تلك
الفترة من تاريخها . . ولذلك فانا أروي القصة كاملة لا كرئيس لجمهورية
مصر العربية . . بل كعصري ارتبطت حياته بحياة مصر ارتباطاً عضوياً
ممتد يدايني إلى الآن . .

وحياتي . . مثل قصة حياة أي منا . . ليست في الواقع إلا رحلة
بحث عن الذات . .

فكل خطوة حطوتها عبر السنين إنما كانت وما زالت من أجل مصر
والحق والحرية والسلام . .

هذه هي الصورة التي رسمتها لنفسي منذ الطفولة . . والآن وأنا أنظر
إلى بانوراما حياتي وحياة مصر نمند أمام عيني بكل ما شهدته وما صاحبها
من أحاسيس . . هل أستطيع أن أرى صورتي لنفسي وقد التقت بصورة
مصر كما كنت أحلم بها من فوق سطح القرن في قريني ميت أبو الكوم
وأنا ما زلت صبياً في العاشرة من عمره ؟

وهل يمكن أن أقول إن هذه الصورة قد تحققت أو على الأقل أصبح
في الإمكان التعرف عليها ؟

هذا ما أتركه للقارئ ليراه بنفسه .

السادات

الطبعة الأولى إبريل ١٩٧٨

الطبعة الثانية أكتوبر ١٩٧٨

الطبعة الثالثة أكتوبر ١٩٧٩

هذا الكتاب نشر باللغات التالية :

الإنجليزية - الألمانية - الفرنسية - البرتغالية - السويدية - الهولندية - الإيطالية -
الروسية - العبرية - الفنلندية - الدانماركية - الأسبانية - اليابانية .
كما نشرت أجزاء وفصول من الكتاب في الصحف والمجلات التالية :

الأهرام

مجلة التيم الأمريكية

باري ماتش الفرنسية

بانوراما الإيطالية

لاريوبليكا الإيطالية

الإوزرهر البريطانية

نادي الكتاب (كتاب الشهر) بأمريكا

يونيتيست بأمريكا

مجلة دير شبيجل الألمانية

Time Magazine

Paris Match

Panorama

La Republica

The Observer

Book Club

Book Digest

Der Spiegel

انوار السادات

البحث عن الذات قصة حياتي

المكتبة المصرية الحديث

السادات: المحادثات المصرية الحديثة
٢ شارع شريفات، جنينة اللوز بالقاهرة، تليفون ٢٤٤٣٢٧
لاشارع شوبارة بالاسكندرية، تليفون ٢٦٦٠٢

من أجل السلام

طبعة خاصة

مناسبة العيد التاسع لثورة ١٥ مايو وقد ساهم السيد الرئيس بحجاب من
التكلفة الفعلية بالإضافة إلى تنازله عن حقوق التأليف لهذه الطبعة .

جميع حقوق التأليف المادية المترتبة على نشر هذا الكتاب أو استعمال أجزاء منه
محصنة لتسبب وتطوير قرية بيت أبو الكوم .

الناشر : أحمد يحيى
٢ ش. شريف - محارة اللواء - القاهرة
للطباعة ٧٤٤١٢٧ - ٨٠١٠٨٠

البحث عن الذات قصة حياتي

أنا أنور السادات فلاح نشأ وترقى على ضفاف النيل حيث شهد
الإنسان مولد الزمان - أهدى هذا الكتاب إلى القارئ في كل مكان .
إنها قصة حياتي التي هي في نفس الوقت قصة حياة مصر منذ
١٩١٨ .. هكذا شاء القدر .
فقد واكبت أحداث حياتي الأحداث التي عاشتها مصر في تلك
الفترة من تاريخها . ولذلك فأنا أروي القصة كاملة لا أكريس لجمهورية
مصر العربية . بل كمصري ارتبطت حياته بحياة مصر ارتباطاً عضوياً
منذ بدايتي إلى الآن .
وحياتي .. مثل قصة حياة أي منا . ليست في الواقع إلا رحلة
نبحث عن الذات .
فكل خطوة خطوتها عبر السنين إنما كانت وما زالت من أجل مصر
والحق والحرية والسلام .
هذه هي الصورة التي رسمتها لنفسي منذ الطفولة .. والآن وأنا أنظر
إلى بانوراما حياتي وحياة مصر تمتد أمام عيني بكل ما شهدته وما صاحبها
من أحاسيس .. هل أستطيع أن أرى صورتي لنفسي وقد التقت بصورة
مصر كما كنت أحلم بها من فوق سطح القرن في قريني ميت أبو الكوم
وأنا ما زلت صبياً في العاشرة من عمره ؟
وهل يمكن أن أقول إن هذه الصورة قد تحققت أو على الأقل أصبح
في الإمكان التعرف عليها ؟
هذا ما أتركه للقارئ ليراه ..

السادات

من ميث أبو الكوم إلى سجن الأجاناب

العل وصل . . يعلن المنادى في أزقة وساحات القرية . . وتهرع جدتي وأنا
أمسك بيدها وأسير إلى جوارها نحو الرعة حيث رست مركب العسل القادمة إلى
(كفر زرقان) المجاورة لنا . .

ليس الطريق ضويلاً . . ولكن كل خطوة نخطوها تملأ قلبي فرحاً وفخاراً . .
فالرجس على طول الطريق تفت تحية بلدي - هذه المرأة التي لا تعرف
القراءة والكتابة ومع ذلك كنت أرى الجميع يلجأون إليها لتحل مشاكلهم
ولتشفيهم مما قد يصيبهم من أمراض بوصفات وأعشاب الطب العربي القديم التي
لم يكن في قرينتنا أو في القرى المجاورة من يتقنها مثلها . .

ونشترى زلعة العسل الأسود ونعود إلى دارنا . . أسير خلف جدتي صيماً
أسمر ضئيل الجسم حافي القدمين يرتدى جلباباً تحته قميص أبيض من البفتة . .
لا تفارق عينيه زلعة العسل . . ذلك الكنز الذي استطعنا الحصول عليه أخيراً . .
كم كان شياً عندما تخلطه باللبن الرايب (الريادي) . .

وكم كان يسعدني كما لا يسعدني أي شيء آخر . .

كل شيء في القرية كان في الحقيقة مصدر سعادة لي لا تماثلها سعادة
أخرى . .

عندما نخرج لنشترى الجزر لا من بائع الجزر . . بل من الأرض نفسها . .
عندما أضع بصلة في محمي القرن وهم يجيزون العيش ثم أعود آخر النهار فأخرج
البصلة وأكلها . .

وحينما كنت ألعب مع أقراني في القرية في ليالي القمر أو نسهر على المصطبة
نحن والطبيعة من حولنا والسماء فوقنا لا فاصل بيننا . .

وشروق الشمس .. عندما كنت أسير مع عشرات الصبية والفتية والرجال أصعب
اندواب وانهايم في موكب خروج الفلاحين للعمل وسط خضرة لا يحدها البصر
وبسطة الأرض التي تبدو كأن لا أرض بعدها .

كل شيء كان يسعدني في ميث أبو الكوم قريتي الوديعه القابعة في أحضان
دلتا النيل . . حتى برودة الماء في الشتاء عندما كنت أعرج في الفجر لأن التربة
قد امتلأت بالمياه ولكن لفترة لا تتعدى الخمسة عشر يوماً هي (النوبة) أو نصيب
قريتنا من الري . . ولذلك كان الإسراع بالعمل والمشاركة فيه أمراً ضرورياً
فنحن كل يوم في أرض واحد منا نرويها بطنبوره أو بطنبور غيره لا يم . .

المهم أنه بانتهاء النسبة تكون أرض القرية كلها قد ارتوت . .
هذا العمل الجماعي مع الغير ومن أجل الغير دون أن أنتظر منه ربحاً أو
فائدة لي جعلني أشعر أنني لا أنتهي إلى أسرتي الصغيرة في دارنا أو أسرتي الكبيرة
في قريتنا . . بل إلى شيء أكبر وأهم هو الأرض . .

ولذلك في رحلة العودة مع الغروب والدخان ينبعث من البيوت مؤذناً
بعشاء شهي ينتهي بعنده اليوم في القرية . . والهدوء يجيم على الجميع والسلام
يعمر قلوبنا . . كنت أتأمل الشجر والزرع وأحس برباط خفي من الحب
والصداقة يربطني بكل ما حولي . .

فهذه الشجرة الوارفة من صنع الله . . أراد لها أن تكون فكانت . . وهذا الزرع
اليناع الخضرة قد زرنا جاته بأيدينا ولكن لولا إرادة الله ما كان . . وهذه
الأرض التي أمشي فوقها . . ومياه الرعة تنساب بين ضفتيها . . كل شيء حولي
من صنع إله كبير يرعاه ويتولاه . . وكذلك أنا . .

الشجرة والحبة والثمرة كلهن إذن زميلاتي في الكون . . ألسنا جميعاً من
نبت الأرض وبدونها لا نكون ؟ .

والأرض قوية صلبة . . وكل من ينتهي إليها لا بد أن يكون مثلها . . وإذا
كانت هذه الحواطر تمر برأسي الصغير كنت أستعيد قول جدتي :
« لا شيء يساوي أنك ابن الأرض . . فالأرض هي الخلود لأن الله أودعها
كل مره . . »

كم كنت أحب هذه السيدة . . كانت شخصية في غاية القوة بالإضافة إلى
الحكمة . . حكمة الفطرة . . والتجربة . . والحياة . . وطوال فترة نشأتي
في القرية كانت هي رأس العائلة ، فقد كان والدي يعمل مع الجيش في
السودان . . وكانت هي ترعانا وتخرج وراء الأنفاس كأى رجل تتعهد الفدانين
والنصف التي اقتناها والدي . .

أم الأفندي . . هكذا كانوا يطلقون عليها في القرية . . ولهذا قصة . .
كان منتهي أمل القروى عندنا أن يدخل الأزهر . . ولكن جدي الذي كان
يعرف الكتابة والقراءة وهو أمر نادر في وقته . . أراد أن يشق لأبي طريقاً آخر . .
فأدخله التعليم العام حيث حصل على الشهادة الابتدائية . . وكانت في ذلك الوقت
تعتبر مؤهلاً هاماً . . فالاحتلال البريطاني كان في أول مراحلها . . وجميع المواد
كانت تدرس باللغة الإنجليزية . .

كان والدي أول من حصل على الشهادة الابتدائية في قريتنا . . ولذلك رغم
أن بقريتنا الآن مهندسين وأطباء وأساتذة جامعات إلا أنه عندما يأتي ذكر الأفندي
وأولاد الأفندي يعرف كل إنسان أنه والدي وأبنائه . .

ويبدو أن جدتي أرادت لي أن أسير في نفس الطريق الذي سار فيه والدي فأدخلتني
كتاب القرية حيث تعلمت الكتابة والقراءة وحفظت القرآن ثم نقلتني
إلى مدرسة الأقباط بطوخ حيث يوجد دير قديم مشهور مطرانه هو نفس
مطران دير وادي النطرون . .

لم تكن المدرسة تبعد عن قريتنا بأكثر من كيلو واحد ورغم أنني لم أستم
بها طويلاً إلا أنني ما زلت أذكر بوضوح مسبو (مينسا) المدرس الذي كان
يعلمنا كل شيء والذي كنا نخشاه ونحبه في نفس الوقت . . وما زالت ترن في
أذني دقات الجرس الكبير تعلن بدء اليوم الدراسي فيدق معها قلبي رهبة
واحتراماً للعلم . .

أما كتاب القرية فما زلت أراه بعين الخيال وكأني فارقته بالأمس . .
العريف الطيب الشيخ عبد الحميد رحمه الله الذي شيعت جنازته منذ فترة

غير بعيدة . . . وكنت أدين له بالكثير فهو أول من فتح لي أبواب المعرفة والإيمان . . .

وأقراني في الكتاب وأنا أجلس بينهم على الأرض أحمل اللوح (الصفحة) والقلم البسط . . . كل عدتي في تلقى العلم . . . وجيب جلابيتي الفضفاض الذي كنت أحشوه في الصباح بالبحن الناشف المخلوط بكسر الخبز التمه حفة بعد حفة أثناء الدروس وما بينها . . .

كان إقبالي على العلم يزايد يوماً بعد يوم ولكنه لم يشغلني يوماً عن القرية . . . كانت حياتي بها بهجة تتلوها بهجة . . . فكل يوم يأتي بشيء جديد . . . موسم الزرع . . . موسم الري . . . موسم حصاد القمح . . . الاحتفال بموسم الحصاد . . . وأفراح القرية وصواني الكنافة التي كنا نلتهمها في نهم . . . وموسم حصاد القطن الذي كان يأتي دائماً مع البلح . . . وكيف كنت أعترف القطن وأضعه في عبي ثم أهرع إلى بائعة البلح وأعطيه لها فتعطيني ما يقابله من البلح .

وعندما كنت آخذ البهائم إلى الترعة لشرب . . . أو أجلس على النورج لدرس القمح . . . أو أشترك مع غيري من الصبية في جمع القطن . . . كنت أحس في كل مرة أنني أفعل هذا لأول مرة . . . فقد كانت حياتي بالقرية اكتشافات تعقبها اكتشافات . . . وكانت ساقية تدور على بحر كل ما به دائماً جديد .

هذا الإحساس بأن كل شيء أفعله أو أراه جديد لم يفارقني أبداً طوال فترة نشأتي بالقرية . . . وكان مصدراً لا ينضب من مصادر سعادتي .

حتى القصص التي كانت تحكيها لي أي أحياناً وجدني أحياناً أخرى كل ليلة . . . كنت في كل مرة أستمع بها وكانت جديدة وكأنني لم أسمعها من قبل مع أنها هي نفس القصص لم تتغير .

ولم تكن هذه القصص حواديت الشاطر أو بطولات أبو زيد الهلالي . . . بل كانت أقرب إلينا وألصق بجاننا من تلك الأساطير البعيدة .

كانت إحدى هذه القصص تروى كيف دس الإنجليز السم لمصطفى كامل حتى لا يكمل كفاحه ضدهم . . . لم أكن أعرف في ذلك الوقت من هو مصطفى كامل

وأنه مات فعلاً في ريعان شبابه ولكني عرفت لأول مرة أن هناك قوماً اسمهم الإنجليز . . . وأنهم ليسوا منا . . . وأنهم أشرار لأنهم يضعون اسم للناس .

وكانت جدتي تحكي لنا أيضاً مواك أدهم الشرفاوي وبطلانه وكفاحه ودهاءه في محاربة الإنجليز والسلطة .

ولكن لعل مما ترك في نفسي أثراً عميقاً مواك زهران بطل دنشواي . . . وأنا أستمع إليه من أمي وقد اعتليت سطح الفرن لما قد وإن جاني الأرناب وإخوتي الصغار وقد استغرفوا جميعاً في النوم أما أنا فكنت بين اليقظة والنائم .

كان هذا الموال يستهويني كل مرة أستمع إليه . . . فدنشواي قرية لا تبعد عن قربتنا بأكثر من خمسة كيلو مترات . . . والمواك يحكي كيف أن عساكر الإنجليز عندما شاهدوا أبراج الحمام في دنشواي أطلقوا عليها الرصاص .

وطاشت طلقة أحرقت جرننا من أجران القمح . . . وتجمع الفلاحون فأطلق عليهم الرصاص أحد عساكر الإنجليز وجرى . . . جرى الفلاحون وراءه وأمسكوا به وحصلت معركة مات فيها العسكري الإنجليزي . . . وفي الحال قبضوا على الأهالي . . . وشكلت محكمة عسكرية في القرية . . . وعلقت المشائق قبل صدور الأحكام التي قضت بجلد عدد من الفلاحين وشنق عدد آخر .

وكان زهران بطل المعركة التي قامت مع الإنجليز وكان أول من حكوا بشنقه . . . ويحكي الموال عن شجاعة زهران وصموده في المعركة وكيف أنه تقدم من المشتقة مرفوع الرأس فخوراً مزهوا بنفسه لأنه استطاع أن يتصدى للمعتدين وأن يقتل أحدهم .

كنت أستمع إلى الموال ليلة بعد ليلة وأنا بين النوم واليقظة - كما قلت - ولعل هذا ما جعل عقلي الباطن يخترن القصة . . . وأطلق العنان لخيالي فكم رأيت زهران وعشت بطولته في الصحو وفي المنام . . . وكم تميت لو كنت زهران .

وهكذا أدركت من فوق سطح الفرن في دارنا بالقرية أن هناك خطأ مساً في حياتنا . . . وقبل أن أرى الإنجليز . . . وأنا ما زلت داخل قريتي . . . تعلمت أن أكره المعتدين الذين قتلوا وجلدوا أهلنا .

صدورنا من إحساس بالخوف والرهبة . . فجرد الإقتراب من أى شيء يخص الملك كان معناه الهلاك لى ولعائلى ولأى إنسان .

لم أكن أعرف فى ذلك الوقت المحيق أننى سأشارك وزملاء لى فى تغيير وجه التاريخ . . وأنى سوف أجتاز يوماً ما هذا السور الرهيب . . وأجلس فى نفس المقعد الذى كان يجلس عليه الملك فؤاد ومن بعده فاروق . .

قضيت بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية فترة التحضيرى وسنة أولى وثانية ابتدائى . . وأذكر أنى فى تلك المرحلة كنت متفوقاً فى التعليم فكنت أنتاب الأولوية على الفصل مع الدكتور حسن الشريف وزير التأمينات الأسبق رحمه الله . .

بعد السنة الثانية انتقلت إلى مدرسة السلطان حسين فى أول مصر الجديدة حيث أخذت الشهادة الابتدائية . . وبعدها التحقت أنا وأخى الأكبر طلعت بمدرسة فؤاد الأول الثانوية . .

كان ذلك فى سنة ١٩٣٠ . . وكان القانون يقضى بأن يدخل أحدنا مجاناً والآخى بمصاريف ولكن رفض طلبنا . . فاضطر والدى إلى دفع المصاريف لى ولأخى . . كان القسط الأول ستة عشر جنيهاً . . هى كل مرتب والدى . . أعطاه لى فدفعته للمدرسة . . ولما حل ميعاد القسط الثانى أخذه أخى طلعت من والدى ولكن بدلاً من أن يدفعه للمدرسة هرب به إلى حيث لا نعرف وانفقه إلى آخره ثم عاد ليعلم أنه لا يرغب الاستمرار فى التعليم . .

ربما كانت هذه مشيئة القدر . . فبدون إحجام أخى عن التعليم كيف كان سيتسنى لوالدى بدخلة الحدود الإنفاق على تعليمنا نحن الإثنين . . أغلب الظن أنه كان سيضطر إلى إيقاف تعليمى . . وخاصة أن طلعت هو أخى الأكبر . . فى المدرسة الثانوية تفتحت عينى لأول مرة على أهل المدينة وعرفت معنى الطبقة والفوارق . . فى المدرسة كان معى ابن وزير الحربية وابن وكيل وزارة المعارف . . وكان كل منهما ينتقل إلى المدرسة ويعود منها إلى البيت فى سيارة فاخرة (كونييل) كما كنا نسميها فى القرية . . منظر مبه

ولكن لم يكن هكذا كل ما تعلمته فى بيت أبو الكوم فقد تعلمت ما بقى بعد ذلك معى طول العمر وهو أننى أينما ذهبت وفى أى مكان كنت فسوف أعرف دائماً أين أنا . . لن أصل الطريق أبداً . . لأنى أعرف أن جذورى هناك حية متأصلة فى أرض قريتى التى انبتنى كما تبت لزروع والشجر . .

هكذا قضيت السنوات الأولى من حياتى فى قريتى الوادعة إلى أن كان يوم وجدت نفسى فيه أنتقل فجأة مع أسرى إلى القاهرة لأن والدى - كما قالوا لى - قد عاد من السودان . .

كم كان عمري حينذاك ؟ لم أكن أعرف . . عرفت فقط بعد ذلك أن أحداث حياتى كانت تسير جنباً إلى جنب مع أحداث التاريخ . .

هكذا - كما يبدو شاء القدر . .

٢

جئت إلى القاهرة فى سنة ١٩٢٥ فى أعقاب مقتل سردار الإنجليزى سيرلى ستاك قائد الجيش المصرى فى سنة ١٩٢٤ . . فقد كان من أهم العقوبات التى وقعها إنجلترا على مصر أن يعود الجيش المصرى من السودان . . فعاد وعاد معه والدى كنا نكن فى بيت صغير بكوبرى القبة وكان على أن أكمل تعليمى العام الذى بدأته بمدرسة طوخ فاختار لى والدى مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية لأنها كانت مدرسة أهلية ومصاريفها تناسب دخله

وبالفعل أخذت أوراقى وذهبت إلى المدرسة لألتحق بها . . عندئذ فقط ومن واقع الأوراق التى تقدمت بها عرفت أنى ولدت فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٨ . .

كانت المدرسة فى الزيتون وكنت أذهب إليها وأعود كل يوم سيراً على الأقدام . . وفى الطريق كنت أمر بسرارى القبة . . أحد قصور الملك فؤاد فى ذلك الوقت . .

ومازلت أذكر كيف كنت وبعض أقرانى فى المدرسة نلتكاً حول سور حديقة السراى فى الربيع لتتطلف بعض ثمار الشمس . . رغم ما كان يعتلج فى

المحدود بعول أسرة مكونة من ثلاثة عشر ولداً وبناتاً . . . ولذلك فرغم أننا كنا نعيش في القاهرة كان نمزج لنا قرن نخب في العيش . . . إذ أن شراء الخبز من السوق كما يفعل أهل المدينة . . . كان أمراً لا طاقة لنا به . . .

وكان مصروف يدي ملبين في اليوم وبهذا المبلغ الضئيل كنت أشتري كوباً من الشاي بالبن وأشربه وأنا أحس أني أسعد إنسان في العالم . . . في حين كنت أرى زملائي من حولي يشترون أفخر أنواع الشكولاته والحلوى من (كاتنين) المدرسة . . . وكان لدى الواحد منهم أكثر من حلة فاخرة يختار من بينها ما يروق له فهو دائماً أتق متجدد . . . أما أنا فكانت عندي حلة واحدة أكل عليها الدهس وشرب ولكني لا أملك تغييرها أو حتى تحديدها . . .

وحين أتذكر هذه الأشياء الآن لا أذكر أنها يوماً جعلتني أحس أنني أقل من زملائي في شيء بل وفي تلك السن المبكرة لم تكن على الإطلاق مدعاة إلى أن أقارن بيني وبينهم . . .

أذكر فقط أني عندما تقدمت للحصول على شهادة إتمام الدراسة الثانوية كان علينا أن نرفق بالاستمارة صورة شخصية . . . وكان لهذه الصورة أهمية خاصة في نظر أي طالب . . . فشهادة التوجيهية هي بطبيعة الحال نقطة تحول في حياته . . . ولذلك ذهبت إلى والدي وطلبت منه حلة جديدة أتصور بها هذه الصورة التاريخية . . . وأدرك والدي أهمية مطلبي ولكنه قال . . . « مهلني يوماً أو اثنين لأدبر المبلغ » . . . وفي اليوم الثالث جاء إلى وهو باسم الوجه وقال « وجدت الحل . . . اذهب إلى وكالة البيع . . . هناك الدكاكين كلها متشابهة ولكن هذا هو اسم صاحب الدكان الذي أريدك أن تذهب إليه . . . » وأعطاني مائة وخمسين قرشاً . . .

لم يكن حجم الدكان يزيد على متر ونصف في مترين . . . وفي واجهة الدكان طاولة بطوله نفسياً يقف وراءها صاحب المحل وخلفه أبواب القماش وقد رصت على عدة رفوف . . . وفي الزاوية ماكينة خياطة . . . انتصت القماش وتناولته مني الرجل وأعمل فيه المقص ثم جلس إلى ماكينته . . . وبعد ساعة ونصف ناولني حلتى الجديدة . . .

للغاية ولكنه لم يترك في نفسي أي أثر للغيرة أو الحقد . . . وطبعاً زملائي في الفصل كانت ملابسهم أفضل من ملابسى بكثير ولكن هذا لم يصيبني بأى عقدة . . . كان لي أصدقاء كثيرون من أولاد الذوات وكانوا يعيشون في بيوت فخمة لم أرها من قبل ولكني لا أذكر أنني تطلعت يوماً إلى ما هم فيه . . . إطلاقاً . . . في البلد عندنا دارنا وبها نحننا والجميع يعرفون أنني ابن الأندى - وقبل كل شيء - عندنا الأرض التي اتنى إليها . . . صلبة . . . دائمة . . . لا تزول . . . تماماً مثل قيم القرية التي لا يعرفها أهل المدينة . . .

في الحارة التي كنا نساكن فيها بالقاهرة نزلت مرة لأشتري علبه كبريت من البقال . . . قلت « أنا عاوز علبه كسفرت » . . . اندهشت فيما يضحكون ؟ قالوا لي وفجأة انفجر الزبائن بالضحك . . . اندهشت فيما يضحكون ؟ قالوا لي « ضروري تقول كبريت . . . صممت على « كسفرت » . . . واستمرت سخرتهم مني . . . وفي مواجهة هذه السخرية جاءني شعور بأنني أقوى منهم . . . فمن هم لكي يسخروا مني ؟

إن أفضلهم في نظرهم أغناهم مالا وأكثرهم حباً ونسباً . . . أما نحن في القرية فلا نغير مثل هذه الأشياء أي اهتمام . . . الرجل الذي على خلق عندنا قيمة عليا في ذاته رغم ما قد يكون عليه من قعر مدقع . . . وفي القرية عندنا شيء اسمه العيب . . . ونحن ينتى بعضنا إلى البعض بالتأخي والتعاون والحب . . . أما هم في المدينة فينتسبون إلى مالهم وسلطانهم وبيوتهم الكبيرة الفاخرة وكلها عرض زائل فاقد القيمة . . .

وهكذا كانت مجموعة القيم التي نشأت عليها في القرية ولم أجد مثلها في المدينة سداً لي في تلك المرحلة المبكرة من حياتي فقد عمقت إحساسى بالتفوق الداخلى الذي لم يفارقني لحظة منذ أن نشأت والذي هو في الحقيقة - كما أدركت بمرور الأيام - قوة داخلية لا تستند إلى أي مصدر مادي . . . بل بالعكس . . . فربما كان هذا الشعور بالتفوق الداخلى أقوى ما يكون عندما تتعلم أو تكاد المصادر المادية الخارجية . . .

في مرحلة التعليم الثانوى كنت أعيش تحت خط الفقر فقد كان والدى يدخله

لم تكن بالطبع لتقارن بما أعده زملائي في المدرسة لهذه المناسبة ولكني كنت سعيداً بها كل السعادة . . . فهي تنى بالفرض ولا يهم على الإطلاق إذا كانت خشنة الملمس أو رخيصة المظهر . . . ثم بها أو بدونها أنا هو أنا . . . ذلك الفسوى الصغير الذي يرى في فلاة الأرض ما يميزه ويميز من يمارسها على أهل المدينة الذين يعبثون على التجارة . . .

هكذا كانت حياتي طوال مدة تعليمي بالقاهرة سلسلة من المقارنات أو المقارقات المستمرة بين المدينة والقرية . . . ولكنها لم تكن في أي وقت في صف المدينة بأى حال من الأحوال . . . على العكس أشياء كثيرة أزعجتني في القاهرة . . . مثلاً منظر (الكونستابل) الإنجليزي على الموتوسيكل يجوب الشوارع ليل نهار وبدون انقطاع كالمجنون . . . بوجهه الذي في لون الطماطم فظ . . . بليد . . . وعينيه الجاحظتين وفمه المفتوح دائماً كضم الأبله . . . ورأسه المنتفخة يغطيها طربوش طويل قرمزي يصل إلى أذنيه . . .

كان الجميع يخشونه . . . أما أنا فكنت أكره النظر إليه . . . وأتساءل في نفسي . . . ما الذي أتى بهذا الغريب القبيح المنظر إلى المدينة ؟

لو أتى إلى قريتنا لما استطاع أن يسير خطوة واحدة . . . ولكنه لم ولن يأتي . . . لأنه لا يجرؤ . . .

ووابور الزلط الذي في كل مرة أصادفه كنت أراه يسير ورائي . . . أسرع الخطى فيسرع خطاه . . . أجرى فيجرى خلتي . . . ما قصده بالضبط ؟ واضح أنه يسعى ليدوسني تحت عجلاته الحديدية الضخمة . . . ولكن لم ؟ وأنا لا أعرفه وهو لا يعرفني . . . ؟ ولم تنفعني هذه الأسئلة في شيء . . . فكلما نظرت خلتي رأيته يلاحقني فيزداد دُعري . . . ولم يكن لينقذني منه كل مرة إلا إذا انعطفت في حارة ضيقة لا تسمح بمروره أو أطلقت ساقى للريح بحيث لا أراه ولا يراي . . . فقد كان واضحاً أنه رغم جبروته ورغم ضآلتي إلا أنني كنت أسرع منه بكثير .

وأول مرة دخلت فيها السينما في حياتي . . . كان ذلك يوماً عصيباً . . . فقد شاهدت قطار سكة حديد قادمًا من أقصى الشاشة ومنتدفاً بسرعة مذهلة نحوي . . . ماذا أفعل ؟ أغضت عيني ورجعت بجمدي إلى الوراء . . . ولكن صوت القطار ما زال

يدوي في أذني . . . فقيم الانتظار ؟ قمت لتوى من مقعدى وبسرعة رحمت اخترق الصفوف مهرولاً في طلب النجاة . . . ولقت نظري أن الناس كلها قابضة في مقاعدها وكأن شيئاً لم يحدث . . . هذا شأنهم قلت في نفسي . . . ولكن بمجرد أن بلغت نهاية الصف - وعيناي قد تسمرتا على الشاشة - لم أجد القطار . . . وجدت بدلا منه رجلا وامرأة يتناولان الطعام في مقهى صغير فاخرقت الصف مرة أخرى وعدت إلى مقعدى . . . أرقب أحداث الفيلم في هدوء كما يفعل الآخرون . . .

كم انبهرت ذلك اليوم بما رأيت . . . وكان من نتيجة انبهاري أن حجزت تذكرة الحفلة التالية من الساعة الثالثة إلى السادسة بعد الظهر . . . وتسمرت في مقعدى لأشاهد القطار العجيب مرة أخرى .

كنت في ذلك الوقت قد انتقلت من السنة الثانية الثانوية إلى السنة الثالثة . . . ولكن بمجموع صغير فطلبوا مني أن أعيد السنة الثانية حفاظاً على النتيجة العامة للمدرسة في شهادة الكفاءة وهي شهادة عامة كنا نتقدم لها بعد السنة الثالثة . . . رفضت . . . وسحبت أوراقى من المدرسة (مدرسة فؤاد الأول) وقدمتها إلى مدرسة أهلية هي مدرسة الأهرام حيث قبلوني بالسنة الثالثة . . . وحصلت على شهادة الكفاءة في نفس السنة .

وبإرادة التحدى - التي لم أكن بعد قد اكتشفتها في نفسي في ذلك الوقت المبكر - أخذت أوراقى مرة أخرى إلى مدرسة فؤاد الأول حيث التحقت بالسنة الرابعة ولكن في الإمتحان في السنة الرابعة إلى الخامسة وهي نهاية مرحلة التعليم الثانوى تكرر ما حدث لى عندما انتقلت من السنة الثانية إلى الثالثة فسحبت أوراقى من فؤاد الأول وذهبت بها ثانية إلى مدرسة الأهرام حيث قبلوني بالسنة الخامسة . . . وتقدمت في نهاية العام للحصول على شهادة التوجيهية . . . ونجحت في جميع المواد ولكني رسبت في المجموع .

كانت هذه نقطة تحول . . . فقد أدركت أن رسوبى إنما كان دليلاً على عدم رضاه الله عنى وعقاباً لى منه عز وجل . . . لاستهتارى ربما . . . وربما للثقة الزائدة عن الحد في نفسي . . . لم يكن أمامى من ملجأ سوى قيم القرية تحفظ على نفسي كما

فعلت دائماً . . . وبهذا الإحساس الغامض بالذنب والتوبة معاً نقلت أوراقى إلى مدرسة رقى المعارف بشبرا وحصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية .

٣

قد يوحى ما حكيت عن إحساسى بالتوبة أنى أثناء تعليمى تخليت عن القرية ولو لبعض الوقت ولكن هذا لم يحدث على الإطلاق . . . فبمجرد أن تنتهى الدراسة كنت أهرع إلى قريتى وأرغمى بين أحضانها . . . مجتمعى المثلث الذى كنت أجد فيه نفسى . . . بل وأجد فيه الوطن بأجمعه فلفترة طويلة كانت مصر عندى هى ميت أبو الكوم أما المفهوم الشمولى للوطن فلم أدركه ولم أشعر به إلا بعد انتهاء مرحلة التعليم الثانوى .

ولم يكن هذا بالأمر المستغرب فقد بدأ إحساسى بشىء أفتقده . . . وبأن هناك وضعاً خاطئاً يجب إصلاحه وأنا أستمع إلى موال زهران ليلة بعد ليلة على سطح القرن فى دارنا بميت أبو الكوم .

كان زهران مرتبطاً فى وجدانى بمصطفى كامل وبأدهم الشرقاوى فكلمهم رجل واحد . . . أو هكذا بدوا لى فى تخديهم للإنجليز البرابرة المعتدين الذين شفقوا وجلدوا أهلنا فى قرية دنشواى المتاخمة لقريتنا ولكن عندما جئت إلى القاهرة رأيت فى بيتنا صورة كمال أتاتورك وسألت عنه أبى فقال إنه رجل عظيم . . . وكان أتاتورك فى ذلك الوقت مثلاً أعلى فى العالم الإسلامى يتردد إسمه على كل لسان فقد قام ليحرر بلاده . . . ويعيد بناءها . . . وكان والدى شديد الإعجاب به كما كان معجباً بنابليون الذى حدثنى عنه طويلاً وذكر لى فيما ذكر أنه عندما نفاه الإنجليز فى سانت هيلانة تعمد الحاكم الإنجليزى للجزيرة أن يجعل بوابة بيت نابليون قصيرة بحيث يضطر القائد الفرنسى الأسير إلى أن يحنى قامته فى كل مرة يدخل بيته أو يخرج منه . . . ولكن نابليون لم يمكنه من غرضه فكان يجلس على الأرض ويدخل أو يخرج زاحفاً ولكنه رافع الرأس .

طبعاً هذه لم تكن إلا خرافة . . . ولكنها تعكس صورة البطل فى وجدان الشعب المصرى وخاصة إذا كان هذا البطل خصماً قوياً من خصوم الإنجليز الذين كنا

نعانى من احتلالهم لبلادنا ونرفض وجودهم بيننا بكل الوسائل التى كانت فى أيدينا فى ذلك الوقت .

من هنا كان إعجابى بسعد زغلول بدليل أنى كنت أخرج إلى شارع الخليفة المأمون كل مساء لانتظار خليفته النحاس باشا عندما ينتقل من بيته فى مصر الجديدة إلى بيت الأمة وعندما يعود . . . فقد كنت أرى فى النحاس وفى الوفد فى ذلك الوقت رمزاً لكفاح المصريين جميعاً ضد الإنجليز .

لا أستطيع أن أقول إن كان وعبى السياسى قد نضج أو حتى تشكل فى هذه الفترة المبكرة من حياتى . . . كنت أشارك طبعاً فى الأحاسيس الوطنية التى كانت تعتلج فى صدر كل مصرى فأخرج فى المظاهرات . . . وأساهم فى تكسير الأصحون وحرق الترموايات وفى الهتاف بسقوط صدق باشا وإعادة دستور سنة ١٩٢٣ . . . دون أن أدرك ماذا كان ذلك الدستور .

ولكنى أستطيع أن أقول إنه إلى أن تركت المدرسة الثانوية كان قد تأصل فى نفسى شعور دفين بالكراهة للمعتدين وبالحب والإعجاب لكل من يحاول تحرير بلده . . . أذكر أنه فى سنة ١٩٣٢ مر غاندى بمصر فى طريقه إلى إنجلترا . . . وامتلاّت الصحف والمجلات المصرية بأخباره وتاريخه وكفاهه فأخذت به واستولت صورته على وجدانى فما كان منى إلا أن قلدته . . . خلعت ملابسى وغطيت نصى الأسفل بزارر وصنعت مغزلاً واعتكفت فوق سطح بيتنا بالقاهرة عدة أيام إلى أن تمكن والدى من إقناعى بالعدول عما أنا فيه . . . فلن يفيدنى ما أفعله أو يفيد مصر فى شىء بل على العكس كان من المؤكد أن يصيبنى بمرض صدرى وكان الوقت شتاء قارس البرودة .

وعندما زحف هتلر من ميونخ على برلين ليخلص بلاده من آثار هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ويعيد بناءها كنت فى ذلك الوقت أقصى الصيف فى القرية . . . فجمعت أقرانى وقلت لهم إننا يجب أن نفعل كما فعل هتلر وإننى أتوى الزحف على القاهرة من ميت أبو الكوم . . . كان عمرى فى ذلك الوقت ١٢ سنة فضحكوا منى وانصرفوا عني .

كانت هذه فى أغلبها إرهابات تلقائية بخط كفاح لم أكن بعد قد تبينته ولكن

من بين هذه الإرهاصات التي كانت في الحقيقة مجموعة انفصالات وتفاعلات مع الأحداث - بقى لي شيء واحد هو حى لكامل أناتورك . فن أناتورك استهوتى البداة العسكرية وهو لم يستطع أن يفعل شيئاً ويحقق ثورته إلا بالقوات المسلحة .

كانت أحداث حياتى تسير جنباً إلى جنب مع أحداث التاريخ كما سبق أن قلت . . فقد انتهت من إتمام دراسى الثانوية سنة ١٩٣٦ وفى نفس السنة كان النحاس باشا قد أبرم مع بريطانيا (معاهدة ١٩٣٦) . . . وبمقتضى هذه المعاهدة سمح لهيئس المصرى بأن يتسع . . وهكذا أصبح فى الإمكان أن التحق بالكلية الحربية . . قبل ذلك التاريخ كان الجيش المصرى ضيق الرقعة ضئيل الفاعلية وكان دخول الكلية الحربية قاصراً على أبناء الطبقة العليا .

ولكن رغم هذه التسهيلات الجديدة التي واكبت رغبتى فى دخول الكلية الحربية لم يكن التحاق بهذه الكلية - وهو منتهى أمل حينذاك - بالأمر السهل .

صحيح أنهم سمحوا لأبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة بدخول الكلية ولكن كان باستئارة الدخول شرطان . . دخل الأب وثورته ثم الوساطة . . وفى كشف الهيئة كان ينادى رسمياً علينا . . فلان ابن فلان . . وواسطه فلان .

بالنسبة للشرط الأول كان والدى موظفاً بالحكومة فهو على الأقل عنده دخل ثابت أما الوساطة فن أبن لى بها والدى كما سبق أن ذكرت - مجرد باشكاتب بالقسم الطبى - لا يعرف أحداً من الباهوات أو الباشوات ؟

قالوا له إن رئيس اللجنة التي تقبل الطلبات هو اللواء إبراهيم باشا خيرى ولا بد من الوصول إليه ولكن كيف ؟

كان إبراهيم باشا يمثل فة الأرستقراطية فى ذلك الوقت . . فهو الذى عهد إليه الملك فؤاد بتعليم قاروق فى صدر شبابه الفرنسية . . هو إذن معلم الملك وإلى جانب هذا هو وكيل وزارة الحربية . . ثم إنه متزوج سيدة من العائلة المالكة . . باختصار كان إبراهيم باشا نجماً من نجوم المجتمع . . فكيف الوصول إليه ونحن لا نملك الوصول حتى لى سكرتير وزير ؟

أخيراً اهتدى والدى ببساطته المعهودة إلى أنه أيام خدمته فى السودان كان يعرف أحد الصولات .

وتصادف أن كان هذا الصول فى خدمة إبراهيم باشا فرتب لى ولوالدى - لا أعرف كيف - فرصة للقاء إبراهيم باشا . . وذات صباح توجهت مع والدى إلى قصر الباشا فى حدائق القبة أحد أحياء القاهرة الأرستقراطية فى ذلك الوقت . دخلنا الفيلا الأنيقة ووقفنا فى الأنتريه . . هكذا كان الترتيب بحيث لا بد أن يمر بنا الباشا فى طريقه إلى الخروج فنستلفت نظره ويسألنا عما نريد . . وفعلاً نزل الباشا بعد قليل .

واقترب منه الصول وهمس فى أذنه ببعض الكلمات . . التفت بعدها إبراهيم باشا إلى والدى وقال له بكل عنجهية :

« آه . . آه . . أنت باشكاتب القسم الطبى . . ودا الولد ابنك اللى . . طيب . . طيب . . » ومضى مسرعاً نحو الباب . . وأنى يسير خلفه وهو يتمم بكلمات لم أدركها ولا أحسب أنه هو نفسه كان يدرك ما يقول .

تجربة لم تهرح وجدانى أبداً ولا أظن أنى سأنساها مدى الحياة فقد كانت هذه أول مرة أدخل فيها بيت باشا أو التى بأحد أفراد هذه الطبقة . . وتشاء الصدفة أن ألتقى بإبراهيم باشا نفسه بعد ذلك بسنوات وكان ذلك عندما استقبلته فى مكنتى وأنا رئيس مجلس الأمة . . كانت عنده مشاكل خاصة بأبنائه وفرض الحراسة وما شابه ذلك . . فساعدته فى حل جميع مشاكله وبعدها ذكرته بلقائنا الأول فى منزله ولكنى قلت له :

« إياك أن تتصور أن هذا اللقاء ترك فى نفسى أى أثر بالنسبة لك . . بالعكس أرجو أن تعتبر أنى فى أى وقت مستعد لتلبية جميع طلباتك . . فأنا أدين لك بالكثير : لا بالنسبة للقائنا فى قصرك بحدائق القبة . . بل لأنك كنت رئيس لجنة القبول التي أدخلتني الكلية الحربية كما أدخلت جمال عبد الناصر وجميع ضباط مجلس قيادة الثورة . . فلولاك ما قامت الثورة . . » .

متناقضات ومفارقات لا نهاية لها ولكن لعل أبرزها أن الإنجليز الذين كان

هذقي من دخول الكلية الحربية خلاص البلاد منهم هم الذين ساعدوني على الالتحاق
بالكلية .

فبعد أن تم لفاوتنا مع إبراهيم باشا نخيري في قصره كان لابد أن أجد
الواسطة كما تنص استمارة القبول كما أسلفت . . لم يجد والدي أحداً يلجأ إليه إلا
حكيمباشي الجيش المصري الذي كان والدي يعمل معه وهو انجليزى اسمه الدكتور
فيتس باتريك . . واستجاب الرجل للطلب وكتب التزكية كما أوصى بي كبير
المعلمين بالكلية وهو عضو لجنة القبول وانجليزى مثله .

وهكذا قبلت بالكلية الحربية وكان ترتيبى آخر المقبولين وعددهم إثنا وخمسون
وذلك لأن واسطى كانت أقل الوساطات شأناً . . ففي ذلك الوقت كانت
الوساطات تتدرج من الأمير محمد على ولى العهد إلى الباشوات والباكوات من
ذوى النفوذ .

ولكن بعد أن قبلت وذهبت لأدفع المصاريف حدثت مفاجأة لم تكن في
الحساب . . فقد كان حمدى باشا سيف النصر وزير الحربية مع التحاس باشا في
مونتريه لعقد معاهدة لإلغاء الإمتيازات الأجنبية التي كانت تعنى الأجانب من
الخصوع للقانون المصري (وكان أمراً شاذاً ومفززاً أن يرتكب الأجنبي الجنابة في
مصر فلا تستطيع الحكومة المصرية أن تحاسبه أو تلتق عليه القبض وإنما تملك ذلك
سفارته فقط ويحاكم أو يعفى من المحاكمة بمقتضى تلك الإمتيازات) أعود
إلى القصة فأقول إن وزير الحربية وهو في مونتريه لما أرسلوا له طلب التصديق
على قبولنا بالكلية الحربية كما يقضى القانون أرسل برقية يطلب حجر ستة أماكن
لبعض أقربائه . . فاضطرت إدارة الكلية إلى حذف أسماء الست الأواخر وكنت أنا
طبعاً أول المستبعدين .

عناء بعد ذلك كثير . . فقد التحقت بكلية الآداب ثم كلية الحقوق فكلية
التجارة . . ثم عاد حمدى سيف النصر وألقى أقرابه بالكلية . . وبعدها تدخل
حكيمباشي الجيش وكبير المعلمين الإنجليز . . وأخيراً وبعد أن فقدت الأمل
تماماً . . فوجئت ذات صباح بوالدئى تطلب منى أن أتوجه فوراً إلى أبى في مقر

عمله لآخذ منه مصاريف الكلية الحربية فقد قبلت بها . . وكان قد مضى على
دخول أقرانى في الدفعة ستة وعشرون يوماً كاملة .

في الكلية الحربية كان أثنانورك مازال مثلئ الأعلى . . فبدأت أقرأ عن الثورة
التركية . . ورجعت أيضاً إلى تاريخ مصر لكن ليس إلى أبعد من حملة نابليون . .
فقد كنت أركز على الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ والحديعة التي دخل بها
الإنجليز مصر وما ترتب عليها من المأساة التي كنا نعيشها .

مصطفى كامل كنت مازلت أحبه ولكنى أخذت عليه أنه لم يلجأ إلى القوة . .
وكان إيماني أن الإنجليز لن يخرجوا إلا بالقوة .

ولكن هل كان الإنجليز هم المدانون وحدهم ؟

ماذا عن العائلة المالكة وهي أجنبية ؟ وماذا عن الخديوى توفيق واستعراضه
لجيش الإنجليز في ميدان عابدين وكأنه بذلك يقر شرعية الاحتلال الإنجليزى
في مصر بعد هزيمة الجيش المصري بالحديعة عام ١٨٨٢ ؟

إن نظام الحكم كان المشول الأول عما حدث ويحدث لنا . . ففي حادث دنشواى
مثلا كان القاضي والمحامى والنيابة كلهم من المصريين .

ومع هذه التساؤلات تطرح نفسها على الواحدة بعد الأخرى . . بدأت مداركى
تفتح على الأوضاع شيئاً فشيئاً وبت أنتظر يوم تخرجى من الكلية الحربية بفارغ
الصبر حتى أستطيع أن أفعل شيئاً . . فقد كنت أزخر بالعديد من الأمانى والآمال
لمصر ولكنها كانت كلها مازالت حبيسة في صدرى لم تترجم بعد إلى واقع .

٤

تخرجت من الكلية الحربية في فبراير سنة ١٩٣٨ ومع خروجى إلى الحياة
بدأت الطاقة المخترنة في عقلى الباطن منذ سنين في الإنطلاق .

في طفولتى - كما حكيت - كنت أستمع إلى موال زهران كل ليلة قبل أن
أنام . . وكنت أرى زهران وهو يصعد إلى المشنقة بخطى ثابتة . . رافع الرأس لا
يخشى الإنجليز الذين حكموا بإعدامه ولا يخاف الموت الذى سيلاقه بعد دقائق . .

فرغم قوة العدو وجبروته إلا أن زهران كان أقوى منه بكثير لأنه يملك أقوى الأسلحة وأمضاها وهو سلاح الرفض لكل ما يسعى إلى قهره وقهر أهله .
لم يفارقني طيف زهران بعد ذلك . . التفتيت به كثيراً في الصحو وفي المنام . .
وفي كل مرة كنت أتمنى أن أكون زهران وأن تحكى الناس قصتي كما جعلوا من قصته موالاً تتغنى به الأجيال .

ومرت الأيام وبدأ الوعي بندو . . فعرفت مصطفي كامل ومن قبله عرابي ثم أناتورك . . وكانوا جميعاً موضع إعجابي ولكن زهران ظل أقربهم إلى قلبي أرى نفسي فيه وأتمنى أن أفعل ما فعل ولكن بدلاً من أن يحكم على الإنجليز بالإعدام أقود أنا ثورة تؤدي إلى هلاكهم وخلاص البلاد من حكمهم .
إن سلاح الرفض كان وسيظل دائماً أقوى أسلحة أهل الأرض الطيبة التي أحبا أكثر من أي شيء في الوجود . . وهل يملك الإنسان إلا أن يكون ابن أرضه وورث أسلافه ؟

كان إحاسي بالقوة الداخلية مازال بلازمني بطبيعة الحال ولكن كان يصاحبه الآن إحساس بقوة خارجية فقد أصبحت ضابطاً بالقوات المسلحة وكنت أومن بأنه لن يخلص مصر من الإنجليز وفساد الحكم إلا القوة .

فيم الإنتظار إذن؟ لا بد من عمل تنظيم يهدف إلى ثورة تقوم بها القوات المسلحة . . هذا هو طريق الخلاص . . ولا طريق غيره . . ولكن هل يمكن أن تقوم الثورة من فراغ ؟ لا بد من تهيئة النفوس وهذا لا يتأتى إلا بخلق وعي كامل على قدر المستطاع بالأوضاع التي تعاني منها مصر في ذلك الوقت .

قلت أبدأ بوضعنا نحن كضباط في الجيش المصري فأقرب الطرق إلى قلب الإنسان ما يمه هو شخصياً ولذلك ركزت في أحاديثي مع زملائي الضباط على وضعين لم يكن أحد يختلف على أنهما يسيئان إلى الجيش وإلى حياتنا في القوات المسلحة وهما البعثة العسكرية البريطانية ومالها من سلطات مطلقة ثم جيل كبار الضباط المصريين وانساقهم الأعمى إلى ما يأمر به الإنجليز . .

كنا في ذلك الوقت في متعباد وكانت الاجتماعات تتم في حجرتي بميس الضباط فقد كانت بالصدفة حجرة ضابط عظيم . . شقة صغيرة تقريباً . .

إذ عند نقلي إلى متعباد كانت حجرات صغار الضباط أمثالها كلها مشغولة فأعطوني هذه الحجرة . .

كنا نجتمع فيها كل ليلة نشرب الشاي ونسامر ، وفي أثناء السمر كنت أعمل - دون تعمد واضح - على تفتيح أعين زملائي على أوضاع البلد عامة ووضع الإنجليز بصفة خاصة . .

كانت جلساتنا تستغرق وقتاً طويلاً . . وكانت تدور بيننا مناقشات لا حصر لها ولكنها كانت ليلة بعد ليلة تضيف إلى إدراك زملائي الضباط لأوضاع البلد وتعمق إحساسهم بخطئها . . أغلبهم كانت تنقصه الثقافة السياسية . . وكنت أنا أبدأ إلى التاريخ أنتقي منه الصور المناسبة ثم أعقد المقارنات بين هذه الصور وبين الحاضر الذي نعيشه بمشاكله ومآسيه . . ولكني كنت . . عن عمد . . أتمحشى لإقتراح الحلول . . وكان لهذا الأسلوب في الإثارة والإقناع أثره الفعال فقد كنت أرى الزملاء ينصتون إلي في صمت ثم يستفسرون ويسألون ويستوعبون .
وإذ كانت مداركهم تتفتح شيئاً فشيئاً كنت أرى بعضهم يثير قضايا جديدة ويقلبون الأمور على وجه بعد وجه والحماس يملأ صدورهم والألم أحياناً يعتصر قلوبهم . . وكانت كل القضايا تدور دائماً حول مصر وخلص مصر مما تعانيه حتى أنهم أطلقوا على حجرتي الكبيرة بميس الضباط (بيت الأمة) . .

طبعاً كان يتخلل حديثنا بعض المزاح والنكات والسمر . . وكنت أشاركهم في المزاح كما أشاركهم في الجدل . . فقد كنا جميعاً شباباً لا يتجاوز أكبرنا سنناً العشرين من عمره . . هذا إلى جانب أن هذه كانت الطريقة المثلى . . فلم يكن من المصلحة في شيء أن أنعزل عن إخواني أو أن أشعرهم أنني أختلف عنهم . .

المرة الوحيدة التي شعرت فيها بأني أختلف عن زملائي كانت عندما زارنا عزيز باشا المصري بصفته المفتش العام للجيش المصري وأخذنا معه لزيارة الدير المحرق الذي لم يكن يبعد عن المعسكر كثيراً في الوجه القبلي . .

كان قصده من هذه الزيارة تثقيفنا فقد كان دائم الدعوة إلى الثقافة . . المهم أننا عندما دخلنا الدير المحرق . . ولم يكن أحد منا قد رآه من قبل . . وجدنا

القيس أو الكاهن الصغير يعيش في صومعة .. وهي قاعة ليست لها شاييك فيما عدا فتحة صغيرة في الحائط لا يزيد قطرها على البوصتين .. وينام على مصطبة من الطين .. . ودعش الجميع من هذا الأسلوب في الحياة وأشفقوا على القيس من كل هذا التقشف أما أنا فلم أدهش ولم أجد في هذه الحياة أى تقشف .. . فقد ولدت في صومعة مشابهة وإن كنا في القرية نسميها القاعة .. أما المصطبة فهي نفس المصطبة التي قضيت فوقها أيام وليالي حياتي في ميت أبو الكوم .

تركت زيارة عزيز المصرى أثراً عميقاً في نفسى فقد شاهدت بعيني هذه الشخصية الأسطورية التي شاركت في الثورة التركية مع أتاتورك كما كان أحد مؤسسى جمعية الاتحاد والترقى وجمعية تحرير الأمة العربية .. هذا إلى جانب تاريخه الطويل المليء بالكفاح .. وولعه بالثقافة والدعوة إليها ..

والثقافة كانت دائماً تسهوينى وبوجه خاص في تلك المرحلة المبكرة في حياتي فجنباً إلى جنب مع الخط السياسى الذى بدأته مباشرة بعد تخرجى من الكلية الحربية ألزمت بخطط ثقافى لم يكن في نظرى يقل أهمية عن الخط السياسى لأنه في الواقع يدعمه ويقويه .. ولذلك حاولت الالتحاق بالمعهد البريطانى بالقاهرة للحصول على البكالوريوس في الآداب من جامعة لندن .. وكنت مولعاً بالقراءة وأتصيد الكتب من على سور الأزبكية كلما ذهبت إلى القاهرة أما وأنا في الأقاليم فكنت أكتب إلى الناشرين والمكتبات في طلب قوائم الكتب أنتنى منها ما يروفتى فيرسلونها إلى الملازم ثان محمد أنور السادات .. أينما كنت .. في هذا بالذات كنت أختلف عن بقية زملائى .. أذكر ونحن في منقباد كان يحملنا عصر كل خميس أتوبيس عسكري خاص إلى أسبوط لقضاء ساعات المساء بها .. وكان زملائى يذهبون إلى السينما أو أماكن اللهو الأخرى .. أما أنا فكنت أجلس في مقهى وسط ميدان قريب من محطة السكة الحديد أذخن الشيئة وأقرأ الكتب التى تسوقها من القاهرة وأنا في غاية السعادة إلى أن يعود لإخوانى من لهوهم ويعود بنا الأتوبيس جميعاً إلى المعسكر ..

كانت جلساتنا في حجرتى بالميس تتسع يوماً بعد يوم وكان عدد الضباط الذين يشاركون فيها يزداد وأذكر أنى رأيت جمال عبد الناصر لأول مرة

في هذه الجلسات فقد لحق بنا هو الآخر مع كتيبتى في منقباد .. وكان انطاعى عنه أنه شاب جاد لا يميل إلى المزاح مثل غيره من الزملاء ولا يقبل أن يضاخكه أى إنسان لأنه كان يرى في هذا مساساً بكرامته مما جعل أغلب الزملاء يتبعون عنه بل ويتحاشون الكلام معه حتى لا يسيء فهمهم .. كان ينصت إلى مناقشاتنا باهتمام ولكنه لا يتكلم إلا في القليل أنادر وقد توسمت فيه بخدية لأون وهلة وكنت تواقاً إلى المزيد من التعرف عليه .. ولكن كان من الواضح أنه يقيم بينه وبين غيره من الناس حاجزاً من الصعب اجتيازه .. فقد كان منطوياً على نفسه بشكل يلفت النظر ولذلك فكل ما قام بيننا - في تلك الترحلة - لم يخرج عن نطاق الاحترام المتبادل ولكن عن بعد ..

استمرت الجلسات ولم ينقطع الكلام أو الحوار عن أوضاع مصر ومشاكلها ولكن كل هذا كان يدور في نطاق محدود .. وكنت أريد مجالاً أوسع لتنفيذ الخطة التى وضعها للعمل السياسى عند تخرجى وكان هذا المجال الذى أتضبه هو القاهرة بطبيعة الحال .. ولكنى كنت بعيداً عنها وسأضل كذلك ما دمت في سلاح المشاة ..

من هنا بدأت أضيف بالخدمة في هلبة السلاح إلى جانب ترمى بالبعثة البريطانية وبقائد محطتنا في منقباد الذى كنا نسميه السلطان عبد الحميد لقسوته وبضبه الذى كان يحاول عن طريقه إخفاء جهله من جهة وإرضاء رؤسائه الإنجليز من جهة أخرى .. ولكن أين المفسر ؟

وأخيراً حانت الفرصة فقد كنت واحداً من الضباط الذين اختارتهم القيادة للحصول على فرقة إشارة بمدرسة الإشارة بالمعادي قرب القاهرة .. كان ذلك في أوائل سنة ١٩٣٩ وكان معى في نفس الفرقة عبد الناصر الذى وصل منقباد بعد وصولنا بستة أشهر ولكن كان الحاجز مازالم قائماً بيننا ..

انتهى التدريب بعد شهرين ونصف وهى المدة المحددة للفرقة وعقد الامتحان ثم أقاموا لنا حفل تكريم قبل أن نعود إلى وحداتنا .. لم يكن عندى أى أمل في أن التحق بسلاح الإشارة الذى أنشئ حديثاً في الجيش .. فقد كان في ذلك الوقت أهم الأسلحة جميعاً ولا بد لدخوله من واسطة كبيرة مثل كل شئ آخر .. وعهد إلىى بالقاء كلمة في حفل الوداع نيابة عن زملائى ..

وقد وجدت في إعدادها متعة لم أعرفها من قبل وهنا اكتشفت لأول مرة أن لدى قدرة على الكتابة وسياق مفاهيم ومعاني جديدة مترابطة . . . كانت كلمتي هادفة ولها معنى متكامل ولم أقرأها من الورق بل أنفيتها من الذاكرة ويبدو أنها راقت قائد سلاح الإشارة الأميرالاي إسكندر فهمي أبو أسعد وكان أديباً فما أن عدت إلى كتيبي بمقتباد حتى نقلت للعمل بسلاح الإشارة بالمعادي وكان ذلك من أسعد أيام حياتي فأخيراً أتيت في الفرصة التي انتظرتها طويلاً . . .

بدأت الاتصالات فوراً وعلى نطاق واسع شمل أغلب أسلحة الجيش في القاهرة التجمع الأكبر من الضباط . . . وبدلاً من حجرتي بمقتباد بدأنا تلتقي في شقّي بكوبرى القبة . . . في نادي الضباط . . . وفي المقاهي وبيوت بعضنا . . .

كان الاتصال أول الأمر قاصراً على زملاء السلاح والسن في دفعتي . . . ولكن انتصارات هتلر المتلاحقة في سنة ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ . . . وهزائم الإنجليز شجعتني على أن أوسع الدائرة شيئاً فشيئاً حتى شملت الكثيرين ممن التحقوا بالجيش بعدنا ونقرأ غير قليل ممن كانوا أسبق في الخدمة منا .

كان الجميع يستجيبون للدعوة بسرعة وحماس . . . وكانت الدعوة أننا يجب أن ننهر الفرصة ونقوم بثورة مسلحة ضد الإنجليز في مصر . . .

هكذا قام أول تنظيم سرى من الضباط وكان ذلك في سنة ١٩٣٩ . . . كان ضمن أعضائه عبد المنعم عبد الرؤوف وكان يعتبر الرجل الثاني بعدى . . . وعبد اللطيف بغدادى وحسن إبراهيم وخالد محيي الدين وأحمد سعودى حين الله يرحمه . . . وحسن عزت والمشير أحمد إسماعيل . . . الذى كان يحضر اجتماعاتنا دون مشاركة سياسية فقد كان يرحمه الله رجل عسكرية كرس حياته لعمله وتخصه . . .

لم ألتجأ إلى الخلايا السرية للدفع بهذه الثورة المسلحة لبلوغ أهدافها كما فعل عبد الناصر بعد عودته من السودان في ديسمبر سنة ١٩٤٢ وتسلمه التنظيم في أوائل سنة ١٩٤٣ بعد اعتقاله في صيف ١٩٤٢ في تلك السنة كان خط

هتلر قد بدأ في الإنكسار وبالتالي استعاد الإنجليز قوتهم في مصر فكان على عبد الناصر أن يخطط للمستقبل . . .

أما أنا فلماذا أخطط لثورة على مدى زمني بعيد ؟ كانت الأحداث وما أعقبها من ردود أفعال - أى انتصارات هتلر المتلاحقة وهزائم الإنجليز كنتيجة حتمية لهذه الانتصارات قد جعلت الباب أمامى مفتوحاً للعمل المباشر . . . فقيم الإعداد للمستقبل والفرص المتاحة أمامنا وواجبنا أن ننهزها قبل أن تفوت .

في هذا الاتجاه سرت وأسرت الخطى . . . فإلى جانب اتصالاتي الواسعة بالضباط وتشكيل الهيكل التنظيمي للثورة بدأت أتصل بالجنود في وحدتي بالمعادي وألقى عليهم محاضرات عن المعركة والموقف العسكري في العالم وموقفنا من الإنجليز والأوضاع في مصر . . . كيف كانت وكيف أصبحت . . . وإلى جانب هذا كنت أحدثهم عن الوطن والوطنية كما كنت أصلى بهم . . .

وتصادف وجود بعض الإخوان المسلمين بين جنودى ففوجئت يوم مولد النبي سنة ١٩٤٠ بأحدهم يهمس في أذني بأن بالباب رجل ممتاز في الدين يريد أن يقول كلمتين للجنود بمناسبة المولد وكنت ضابط التوبة في تلك الليلة . . . سألت من يكون . . . ولما عرفت أنه الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين رحبت به وجعلته يلقى المحاضرة على الجنود بدلاً مني . . .

كان ممتازاً في اختياره للموضوعات وفهمه للدين وشرحه وإلقائه . . . من كل النواحي فعلاً كان الرجل مؤهلاً للزعامة الدينية . . . هذا إلى جانب أنه كان مصرياً صميمياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من دماءة خلق وسماحة وبساطة في معاملة الناس . . .

كنت قد سمعت الكثير عن الإخوان المسلمين وكنت أتصور أنها جماعة دينية هدفها الوحيد الإصلاح الخلقى وإحياء قيم الإسلام . . . ولكنى بعد أن استمعت إلى الشيخ البنا بدأ مفهومي يتغير بعض الشيء فقد كان الرجل يتكلم عن الدين والدينيا معاً . . . وبأسلوب جديد لم نألفه من رجال الدين .

أعجبت به كل الإعجاب فبعد أن أنهى من المحاضرة هنأته من كل قلبي . . . وجلسنا نتبادل الحديث لبعض الوقت . . . وقبل أن يخرج دعاني لحضور درس

الثلاثاء الذي كان يليه كل أسبوع بعد صلاة المغرب في مقر المركز بالحلمية الجديدة .

وذهبت إليه وحضرت بعض الدروس وفي كل مرة كان يصطحبني إلى مكتبه الخاص لتتجاذب أطراف الحديث .. ولفت نظري ما كان عليه الإخوان من تنظيم وما كانوا يحفظون به المرشد العام من احترام وتبجيل يكاد يصل إلى درجة التقديس حتى أنهم في معاملتهم لي كادوا يقبلون الأرض بين يديّ لجرد أنه كان يدعو للجلوس معه في مكتبه ..

كان الإخوان دون شك قوة لا يستهان بها ويكفي للتدليل على هذه القوة أنه كانت أمام مقرهم بالحلمية فيلا رائعة أراد الشيخ بنا أن يجعلها مقراً جديداً للجمعية فطرحها للاكتتاب وفي أقل من يوم غطى الاكتتاب واشتراها ..

بعد سماعي لعدد من دروس الثلاثاء وقبل ذلك المحاضرة التي ألقاها على جنودي يوم مولد النبي ساورني الظن بأن الشيخ بنا إنما كان يعمل على مستوى سياسي وبطريقة ذكية للغاية فهو في أحاديثه لا يتعرض للسلطة على الإطلاق .. وإنما يتكلم عن الإسلام فحسب ديناً ودنيا .. وكيف أنه صالح للروح كما أن لا صلاح للحكم بدونه ..

وأكد هذه الظنون ما سبق أن دار بيني وبين الضابط العظيم لفرقتي من حديث حول الشيخ بنا .. فبعد محاضرته في الجنود يوم مولد النبي .. زارني الضابط العظيم في حجرتي في ساعة متأخرة من الليل .. قلت : خيراً ..

قال إنه إنما جاء ليقول لي كل سنة وأنت طيب بمناسبة المولد .. ثم دخل في الموضوع مباشرة فأخبرني أن المخابرات قد علمت بزيارة الشيخ بنا .. فحركاته مرصودة من الدولة لأن تنظيمه في الواقع تنظيم سياسي ولذلك فهو يحاول أن يجند أفراد القوات المسلحة لبلوغ أهدافه ..

وعرفت بعد ذلك ما لم يقله لي الضابط العظيم أن عند الشيخ بنا وتنظيم الإخوان ضابطاً متقاعداً اسمه محمود لبيب هو رئيس الفرع العسكري بالإخوان قد استطاع بالفعل تجنيد بعض الجنود والضباط .

كان هذا أول نفيه لي .. ومع ذلك داومت على حضور دروس الثلاثاء .. ولكن لم يكن يعجبني منظر الإخوان وهم يقبلون يد المرشد العام .. فأنا لا أميل بضعي إلى هذا النوع من العلاقة بين الناس فكلنا بشر وكلنا سواء (ولو أنني كنت أقبل يد أي إلى أن مات وبعد ولايتي كرئيس للجمهورية) ولذلك تعمدت بعد ذلك أن أذهب لبقائه قبيل انتهاء الدرس فيصطحبني كما دعت إلى مكتبه الخاص ويبدأ الحديث معي ..

كان دائماً في منتهى اللباقة والحرص فهو يتلمس طريقته إلى قلبي في كل حوار يدور بيننا أما الأسئلة التي يوجهها إلي فقد كان هدفه منها استكشاف نواياي ومقاصدي .. وكنت أنا على وعي تام بما يحاول صنعه في إحدى اجتماعاتنا قلت له ..

- اسمع يا شيخ حسن .. واضح أنك حريص أكثر من اللازم في الحديث معي وأنا لا أرى داعياً لهذا .. بصراحة أنا أسعى إلى عمل تنظيم عسكري هدفه قلب الأوضاع في البلد ..

باغتت الرجل هذه المفاجأة .. فنظر إلي في دهشة ولم يعرف ماذا يقول .. ربما كنت أحد رجال المخابرات .. وربما كنت مدسوساً عليه من جهة أو أخرى .. وقطعت عليه صمته بقولي :

- نعم أنا أسعى إلى ثورة مسلحة .. ومعى عدد كبير من الضباط من كل أسلحة الجيش .. وحركتنا تسير .. بدأ يسألني أسئلة محددة .. أي أسلحة الجيش معكم ؟ وما مدى قوتكم ؟ وكم عدد الضباط الذين يمكن أن تعتمد عليهم للقيام بهذه الثورة ؟

وأجبت .. وفجأة طلب مني أن ننسق العمل معاً .. قلت له :

- لقد صارحتك بكل شيء .. وأحب أن أقول لك بنفس الصراحة .. نحن تنظيم لا يخضع ولا يعمل لحساب أي حزب أو هيئة وإنما لمصلحة مصر ككل .. وأرجو أن يكون ذلك واضحاً منذ البداية ..

وأمن الرجل على كلامي وقال :- يكفي فقط أن نتعاون ..

ولم ينص بعد ذلك وقت طويل حتى كان قد جسد لحساب الإخوان عبد المنعم عبد الزووف الرجل الثاني بعدى في تنظيم الضباط الأحرار .

٥

كنت مقنناً بشخصية عزيز المصري منذ لقائنا في متعباد وكان معروفاً عنه أنه يكره الإنجليز حتى أن سير مايلز لاميسون السفير البريطاني في ذلك الوقت طلب من علي ماهر إقالته من منصبه بالجيش ولكن علي ماهر اكتفى باعطائه إجازة مفتوحة . . .

كنا بحاجة إلى الإفادة من خبرات هذا المحارب العظيم وإرشاداته . . .

هكذا أحست . فطلبت من الشيخ حسن البنا أن يجمعني به وكان ذلك في سنة ١٩٤٠ وهي نفس السنة التي التقيت فيها بالشيخ البنا . . .

واستجاب الرجل على الفور . . . فطلب مني أن أتوجه إلى عيادة الدكتور إبراهيم حسن بالسيدة زينب . . . وكان في ذلك الوقت وكيل الإخوان . . . وأحجز تذكرة كأى مريض عادى ثم أدخل للكشف وبعد ذلك يقوم الدكتور حسن بالمطلوب . . . وفعلاً بمجرد أن دخلت على الدكتور حسن وقدمت التذكرة . . . فتح باب حجرة مكتبه وهناك وجدت عزيز باشا في انتظارى . . .

حيثه وذكرته بلقائنا في متعباد ثم بدأت أتكلم في شؤون البلد وأحوال الإنجليز وأحوالنا . . . فن أنسى أبدأ هذا اللقاء الأول مع عزيز المصري . . . كان متردداً في التحدث معي . . . وصارحنى بأنه متشكك في أمرى . . . وأنى ربما كنت أحد رجال المخابرات أو أى شيء من هذا القبيل . . . قلت له . . . لو كان الأمر كذلك لالتقيت بك مباشرة ولكنى كما ترى أتيت إليك عن طريق الشيخ حسن البنا وأظنك تثق به . . .

فلما اطمان سألنى : ما سبب مجيئك وماذا تريد منى ؟

قلت : نحن ضباط في مرحلة تنظيم يهدف إلى طرد الإنجليز من مصر وتغيير الأوضاع في مصر . . . وباعتبارك شخصية عسكرية كبيرة نتطلع إليها جميعاً . . . نرجو أن تسمح لنا بأن نرجع إليك من أن لآخر لكي ترشدنا وتفيدنا بخبرتك وتجاربك . . .

قال : أول درس أقوله لكم . . . اعتمدوا على أنفسكم . . . ولا تنتظروا أى رائد . . . المبادرة يجب أن تأتى منكم أنتم . . . نابليون وحصل لرتبة جنرال وكان زعيماً وعمره سبعاً وعشرون سنة . . . كم سنك أنت ؟

قلت : ٢٢ سنة . . .

قال : عال . . . تعاونوا مع بعضكم البعض . . . وهذا يكفى . . .

ثم أخذ يشكو لى من البلد وأنه قد احتك بأناس كثيرين للقيام بأعمال من هذا القبيل ولكن كانوا كلهم نصايين وانتهى الأمر كل مرة إلى لا شيء . . . قلت له إننا جادون وإنه سيرى ذلك بنفسه عندما يسمح لنا بمداومة الاتصال به للشورى وتبادل الرأى . . .

قال : عظيم . . . أول شيء كما قلت . . . لا بد أن تعتمدوا على أنفسكم . . . ثانياً شيء الثقافة . . . لا بد أن تثقفوا أنفسكم . . . والثقافة ليست بالشهادات . . . الثقافة بالقراءة . . . اقرأوا في كل الاتجاهات وفي كل المجالات . . . الشيء الثالث الذى أوصيكم به هو أن تجعلوا تنظيمكم محكماً بحيث لا يتسرب إليه أى غريب أو تنال منه أية دسياسة . . . لقد عانيت الكثير في حياتى من الحيوانات والغدر . . . ثم التفت لى وسألنى فجأة . . .

ماهى علاقتكم بالإخوان المسلمين ؟

قلت : لقد صارحت الشيخ البنا منذ البداية أننا نعمل من أجل مصر لا من أجل أى حزب أو كتلة .

قال : رائع ! . . . هذه هى نقطة البدء . . . سلم .

في نهاية اللقاء اتفقنا كيف نتقابل وأين . . . كان بيته في عين شمس ولكنه كان مراقباً من المخابرات المصرية والبريطانية . . . قلت إنه يمكننا التغلب على هذا . . . فمعنا في التنظيم بعض ضباط الشرطة وفعلاً كنت أذهب لزيارته في بيته وأحياناً كنا نلتقى في جرونى . . . وفي مرحلة من المراحل كان يسكن في بنسيون وسط البلد اسمه الفينواز . . . وكنت ألتقى به هناك أيضاً . . .

وهكذا استمرت اتصالاتى بعزيز باشا المصرى . . . كما لم تنقطع صلتى

بالشيخ حسن البنا . . وفي هذه الأثناء كنت أوسع دائرة الضباط الأحرار يوماً بعد يوم . .

تلاحقت الأحداث فتوات هتلر بتجنح أوروبا بسرعة غير متوقعة ومركز الإنجليز يزداد ضعفاً كل يوم وفي كل مكان . . بحيث جعل الفرصة تبدو أمامنا قريبة جداً لكي نضرب ضربتنا ونتخلص من المستعمر والأحزاب . . في هذه الأثناء صدرت الأوامر بتقلي إلى مرسى مطروح في أقصى الشمال كضابط إشارة لآلاى المدفعية . . وهناك تابعت نشاطي بشكل مكثف بين الضباط . .

كان الجيش المصرى إلى ذلك الوقت يشترك مع القوات البريطانية في الدفاع عن الصحراء الغربية ضد قوات المحور مما جعل مصر طرفاً في النزاع العالمى رغم أن المحور لم يعلن الحرب علينا . . وأصبحت الصورة بهذا أننا نحارب لحساب إنجلترا مما ينتقص بطبيعة الحال من سيادة مصر التي نصت عليها معاهدة سنة ١٩٣٦ . . هذا إلى جانب الشعور العام بأن عدونا الأصيل إن لم يكن الوحيد هو إنجلترا وليست أية قوة خارجية أخرى . .

لم يكن الرأى العام في مصر راضياً بأى حال من الأحوال عن هذا الوضع بل كان في الواقع ساخطاً عليه كل السخط . . ففي حديث دينى لشيخ الجامع الأزهر محمد مصطفى المراغى . . وكان شخصية مرموقة . . قال عبارة أصبحت تتردد على كل لسان . . وهي أنه لا ناقة لنا ولا جمل في هذه الحرب . . ثم جاء على مامر رئيس الوزراء في ذلك الوقت وأعلن في البرلمان سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب . . وهي السياسة التي أقرها البرلمان على الفور وبالإجماع وبناء عليه صدرت إلينا الأوامر بالزول من مرسى مطروح وكان هذا معناه أن يتولى الإنجليز وحدهم الدفاع عن القطاعات الثلاثة الموجودة في المنطقة - وكنا قبل ذلك نتولى نحن الدفاع عن قطاعين منها . .

أغضب الإنجليز هذا الإجراء فطلبوا منا تسليم أسلحتنا قبل انسحابنا من مواقعنا . . وهنا ثارت ثائرتى ولكنى سعدت لأن هذا الطلب كفيل بتعبئة الشعور العام للضباط ضد الإنجليز وضد قيادة الجيش المصرى التي وافقت على

الطلب فهذه إهانة عسكرية لنا ثم إننا بحاجة إلى السلاح . . اتصلت بجميع الضباط وكانت النتيجة الإجماع على عده التخلي عن السلاح . . وإذا صمم الإنجليز على تجريدنا منه فليس أمامهم وأماننا إلا القتال . . ولما علمت إدارة الجيش بقرارنا سلموا بمطالبنا فصدرت الأوامر بالانسحاب مع الاحتفاظ بالسلاح . .

كان هذا في صيف ١٩٤١ وهنا دبرت أول خطة لأول ثورة . . فانفتحت مع جميع الوحدات المنسحبة من مرسى مطروح على أن نلتقى في وقت محدد عند فندق مينا هاوس في نهاية طريق الإسكندرية القاهرة الصحراوى وهناك بدأ التجمع وندخل القاهرة فنضرب الإنجليز . . ونستولى على السلطة . .

إلى هذا الحد كان الإنجليز في ذلك الوقت على قدر من الضعف جعلنى وزملائى تقدم على هذه المغامرة دون أن نحسب حساب نتائجها . . نعم . . كانت هناك خطة مرسومة وكانت تفاصيلها كلها معى ولم يكن للإخوان المسلمين أو لأى تنظيم مدنى آخر أى دور فيها . . ولكن هل كان هذا يكفي؟ المهه أنى أخذت وحدتى من مرسى مطروح وفي قفزة واحدة وصلنا إلى العجمى عند مدخل الإسكندرية . . حيث قضينا ليلتنا وأنا في غاية المعادة في القيد سوف ألتقى بالوحدات الأخرى عند مدخل مينا هاوس وسوف ندرس الخطة معاً ونوزع الواجبات ونختار الوقت المناسب ثم ندخل القاهرة ونحقق ثورتنا . .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . . فعند مينا هاوس لم تكن هناك أية تجمعات ففلسنا العربات . . وجلست أنا وجنودى في انتظار الوحدات . . ولكن عيباً . . لا بد أنهم سبقونا إلى القاهرة . . قلت في نفسى . . وبعد طول الانتظار . . أمرت وحدتى بالسير إلى معسكرنا في المعادى . .

وهكذا لم تتحقق لنا أول ثورة دبرتها . . ولكن ربما كان هذا من فضل الله . . فلو أن هذه الثورة قامت ثم فشلت لتنبه المسئولون ولشددوا الرقابة على الجيش ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو . .

أخذت المسألة بروح رياضية ولذلك بدلا من أن يعرف اليأس طريقه إلى قلبى رحت أكثف اتصالاتى بجميع أسلحة الجيش . .

واتسعت الدائرة كما لم تسع من قبل في كل يوم كان ينضم أعضاء جدد إلى تنظيم الضباط الأحرار . . كان عبد المنعم عبد الرؤوف نائبي . . وكنا نعقد الاجتماعات في بيته بالسيدة زينب أو عندي في كوبري القبة أو في فيلا حسن عزت وسعودي بكوبرى القبة أيضاً . . وفي هذه المرحلة بدأنا في عمل اللجان فكانت هناك لجنة للإتصالات بالهيئات السياسية ولجنة للإتصال بالضباط المنتظمين للتنظيم في الأسلحة المختلفة . . ولجنة ثالثة لا أذكر الآن ماذا كانت مهمتها بالضبط . . وفي نفس الوقت داومت على اتصالي بالإخوان المسلمين وعزيز المصري .

٦

في أواخر عام ١٩٤١ التفت بعزيز المصري في جروف بناء على طلبه . . كان بحاجة إلى مساعدة تنظيم الضباط الأحرار لتمكينه من السفر إلى العراق . . فقد وصلته رسالة من الألمان يطلبون فيها سفره لمعاونة رشيد عالي الكيلاني في ثورته التي قام بها في العراق ضد الإنجليز . . في هذه الأثناء كان الإنجليز قد أفلحوا في استصدار أمر من الحكومة المصرية بإحالة عزيز باشا إلى المعاش . . وكانت المخابرات على علم باتصالي به فأندروني بالابتعاد عنه ولكني لم أعبأ بإنذارهم فقد كان من واجبي مساعدته . . إلا أننا - كما قلت له - لا نملك من الوسائل سوى ما قد يمكنه من بلوغ بيروت وهناك يستطيع أن يتصرف . .

بعد ذلك بقليل أبلغني عزيز باشا أنه تسلّم رسالة ثانية من الألمان يقولون فيها إن طائرة ألمانية ستكون في انتظاره عند جبل رزة في مدخل طريق القيسوم في يوم معين ساعة الغروب . .

هنا أدركت سر مجموعات الرحالة الألمان الذين كانوا يفقدون إلى الصحراء الغربية ويضلون طريقهم فيها - كما كنا نقرأ في الجرائد قبل الحرب . . كانت هذه الرحلات في الحقيقة بعثات استكشاف فقد أصبح من الواضح أن الألمان قد درسوا توبوجرافيا الصحراء دراسة كاملة وإلا فكيف توصلوا إلى معرفة جبل الرزة وهو نقطة صغيرة على الخريطة لا تكاد العين تبينها ؟

اشترينا عربة من نوع (البيك آب) الصالح للسير في الصحراء ولكن صاحب المحل أبلغ عن بيع السيارة طبقاً للأوامر حينذاك . . عرفت المخابرات أنني اشتريتها . . شكوا في الأمر فصدرت الأوامر بلبعادي إلى مكان اسمه الجراولة لا يبعد كثيراً عن مرسى مطروح . . تمارضت ودخلت المستشفى العسكري حيث أعطوني إجازة لمدة أسبوع لم تكن كافية لتنفيذ خطة هروب عزيز باشا فوضعت الخطة بين يدي عبد المنعم عبد الرؤوف وذهبت إلى الجراولة حيث التقيت لأول مرة بالدكتور يوسف رشاد طبيب الملك فاروق بعد ذلك . . والذي لعب دوراً مرموقاً دون أن يدري في مسيرة ثورتنا نتيجة للصدقة التي نشأت بيننا . .

لا أعلم ما الذي حدث للعربة الـ (بيك آب) . . أغلب الظن أن الإنجليز استولوا عليها . . وإلا لما لجأ عبد المنعم عبد الرؤوف بالاشتراك مع حسين ذو الفقار صبري وكلاهما طيار ماهر إلى الاستيلاء على طائرة حربية وضعا فيها عزيز المصري وحقائبه للسفر إلى بيروت (التي كانت في ذلك الوقت خاضعة لحكومة فيشي التي سلمت للألمان) . ولكن بعد أن أقلعت الطائرة بدقائق معدودة اكتشف حسين ذو الفقار صبري أن الزيت قد نفذ فيبدو أنه بدلا من أن يفتح طلبه الزيت أغلقها فاضطر إلى الهبوط فوق شجرة في أحد الحقول بجوار بنها . . ومن هناك استطاع ثلاثتهم بمساعدة مأمور قليوب الوصول إلى القاهرة حيث اختبأوا . .

في هذه الأثناء اكتشفت حادثة الطائرة واكتشفت أيضاً حقيقة في مكان الحادث وعليها الحرفان A.M. أي . . عزيز المصري . . فالتجته الشكوك إليه وخاصة بعد أن وجدوا أن الطائرة كانت موجهة إلى بيروت . . ولعلمهم بميوله المعادية للإنجليز أدركوا أنه كان في طريقه للاتصال بالألمان في العراق . .

ولما كانوا على معرفة باتصالي به قبضوا على فوراً في الجراولة ونزلوا في إلى القاهرة وأنا تحت الحراسة . .

وصلت القاهرة في الصباح المبكر فتوجهوا بي إلى وزارة الحربية حيث جلست في مكتب سكرتير الوزير أقرأ في كتاب أرسترونج « الذئب الأعبر »

وهو كتابه المعروف عن أتاتورك . . كنت مستغرقاً في القراءة فلم أشعر إلا بعد فترة أن هناك من يقف أمامي ينظر إلى ويتفحصني . . كان إبراهيم باشا عطا الله رئيس الأركان ومن حوله طاقمه . . وقفت على الفور وأديت له التحية العسكرية . . نظر إلى من حوله وقال :

- هذا هو البيوزباشي محمد أنور السادات ؟

أخبروه أنني قد وصلت في الصباح من الصحراء الغربية فنظر إلى في ازدراء ومضى . .

قلت في نفسي إنه لو كلف خاطره ونظر إلى الكتاب لأدرك الكثير . . ربما . . وربما لم يكن ليذكر شيئاً على الإطلاق . .

استدعوني في المساء للقاء وكيل النيابة وانتظرت دوري . . كان الرجل مشغولاً في أخذ أموال شهود حادث الطائرة وشهود سلاح الطيران وكان عددهم كبيراً فانتظرت طويلاً وفي هذه الأثناء كنت قد أعددت نفسي للقاء إعداداً كاملاً . . فقد قرأت الجرائد وعرفت منها كل ما حدث . . أخيراً وفي منتصف الليل استدعيت وسألني وكيل النيابة . .

- هل لك صلة بعزيز المصري ؟ وهل كنت تزوره ؟

وأجبت : نعم لي صلة به وقد طلبت مني المخابرات قطع هذه الصلة ولكنني لم أستمع إليهم فليس في هذه الصلة في نظري أي جرم أو مخالفة . . وعاد يسألني :

- هل تعرف عبد المتعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبري ؟

- طبعاً ونحن دفعة واحدة وأصدقاء

- ألم يتصل بك عزيز المصري بشأن سفره خارج القطر ؟

وأجبت : أنا اتصالي بعزيز باشا تقوم كلها على الحب والوفاء . . فمنذ أن زارنا في متعباد وأنا معجب به . .

واستمرت في وصف تلك الزيارة وكيف أخذنا إلى الدير المحرق وماذا رأينا هناك إلى أن اختتمت حديثي الطويل بقولي :

- بعد أن أحيل عزيز باشا إلى المعاش وجدت أنه من باب الوفاء أن أزوره بين الحين والحين . . هذا كل ما في الأمر .

وعاد وكيل النيابة إلى سؤالي :

- هل عندك أية معلومات عن محاولة السفر أو أية اتصالات تمت بينه وبين الألمان ؟

قلت : ومن أين لي مثل هذه المعلومات وأنا على بعد ٥٥٠ كيلو من القاهرة وقد سافرت إلى الجزائر قبل الحادث بخمسة أيام ؟

لم يجد وكيل النيابة أي دليل على إدائتي فأمر بالإفراج عني وعودتي إلى عملي بالجزائر . .

«هذه ميزة سيادة القانون» قلت في نفسي وأنا في طريق العودة إلى الصحراء . . ولم يكن هذا كل ما قلته . . كان الحوار بيني وبين نفسي طويلاً . . ما الذي حدث لعبد المتعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبري ؟ لم أكن أعرف . . وعزيز المصري . . ماذا كان مصيره ؟ وتساءلت عن سبب قلتي لفشل سفره إلى العراق . . وجاءني الجواب . .

مما لا شك فيه أنه كان سيساعد في نجاح ثورة رشيد عالي الكيلاني للتخلص من الإنجليز في العراق . . وكل ما من شأنه إضعاف مركز الإنجليز في الشرق الأوسط كان يهني في المقام الأول .

أليس في إضعاف العدو - أيما كان - مزيداً من الفرص لكي تضرب ضربتنا . . ؟

V

في أواخر عام ١٩٤١ صدرت إلينا الأوامر بالزول من مرمى مطروح وأذكر أن كتيبة عبد الناصر كانت على مقربة منا في جهة اسمها الحمام . . ولكنه لم يكن فيها . . كان في السودان ولم يعد منها إلا في ديسمبر سنة ١٩٤٢ . . في القاهرة أخذت فرقة للترقي وفي أثناء عملي بالفرقة داومت نشاطي السياسي في بناء تنظيم الضباط الأحرار .

كان ذلك في أوائل سنة ١٩٤٢ وقد وصل روميل إلى ليبيا مع فرق البانزر (الدبابات) الألمانية وكان الشعور العام في مصر معادياً للإنجليز وبالطبع في صف أعدائهم . . . وكان الإنجليز يعلمون ذلك . . . فطلبوا من فاروق في فبراير ١٩٤٢ أن يكلف النحاس زعيم الأغلبية بتشكيل الوزارة أملاً منهم في استقالة الرأي العام المصري . . . ولكن فاروق رفض فما كان من السفير البريطاني لورد (كيلرن) إلا أن حاصر قصر عابدين بالدبابات يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ فلما أن يستجيب فاروق لمطلبهم أو يتنازل عن العرش . . . وأمام هذا التهديد استدعى فاروق النحاس وكنفه بالوزارة .

كان ذلك في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ . . . تاريخ لا ينساه جيلنا . . . ففي ذلك اليوم سقط النحاس في نظرتنا . . . إذ كيف يقبل أن يفرضه المستعمر على البلد بقوة السلاح ؟ فتجمع الضباط بالقاهرة وسرنا إلى قصر عابدين تحية للملك الذي خرج لرد التحية .

لم تكن طبيعة الحال راضين عن فاروق ولكن ما حدث كان إهانة لمصر جيشاً وشعباً واعتداء على سيادتها بصرف النظر عن شخص من يمثل هذه السيادة . . . لذلك عندما سمعنا أن لورد (كيلرن) قد وجه إنذاراً ثانياً إلى فاروق إثر حادث وقع في مطار القاهرة بعد أيام من حصار عابدين جرحت فيه كرامة إنجلترا . . . اتفقنا نحن الضباط الأحرار أن نخط بالقصر الملكي ونشتبك مع الإنجليز لو حاصروا القصر بدباباتهم مرة أخرى . . . ومن ثم استعرت عربة زكريا محيي الدين وكان الوحيد بيننا الذي يملك عربة خاصة . ورحت أطوف بها حول القصر طوال الليل أُرصد الحركة من قريب ومن بعيد لأنذر إخواننا لو حدث ما كنا نتوقعه . . . ولكن الليل اتقضى دون أن يحدث شيء فرجعت بالعربة في الصباح المبكر وأعدتها لصاحبها .

كان الشعور العام ضد الإنجليز يزداد يوماً بعد يوم إلى أن أتى الصيف وحطم روميل الجيش الثامن السبريطاني ووصل إلى العلمين وهي تبعد ٧٠ كيلو متراً عن الإسكندرية . . . وهنا كشف المصريون عن شمتهم في الإنجليز فخرجت المظاهرات تنادي « إلى الأمام يا روميل » فقد كانت الجماهير ترى في هزيمة الإنجليز الطريق الوحيد لخلاص البلاد منهم .

وأصاب الإنجليز الذعر فراحوا يحرقون وثائقهم وأوراقهم ويرحلون رعاياهم والمواطنين لهم إلى السودان . . . فبعد أن سقطت العلمين في يد روميل أصبح الطريق أمامه مفتوحاً لغزو مصر .

لم يكن هناك أي شك في أن روميل سوف يواصل سيره إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة . . . المسألة فقط مسألة وقت . . . ووقت قصير أيضاً .

وكان مقرراً أن تكون مصر من نصيب إيطاليا وإن موسوليني قد جهز بالفعل حصاناً أبيض ليدخل القاهرة على ظهره كما كانت العادة أيام الإمبراطورية الرومانية .

اجتمعت مع إخواني في تنظيم الضباط الأحرار وقلت لابد من عمل شيء . . . فكيف نترك روميل يغزو مصر بدون أية مقاومة ؟ اتفقنا على أن نرسل أحدنا إلى روميل في العلمين ليقول له إننا مصريون شرفاء وإن لنا تنظيمنا داخل الجيش ونحن مثلكم ضد الإنجليز وعلى استعداد لكي نجند من بيننا فرقاً كاملة تخارب إلى جانبكم وأن تزودكم بصور جميع خطوط ومواقع القوات البريطانية بمصر وفوق هذا كله فنحن نتكفل بأن لا يخرج عسكري إنجليزي واحد من القاهرة . . . كل هذا مقابل أن تنال مصر استقلالها التام فلا تكون من نصيب إيطاليا أو تحكها ألمانيا وأن لا يتدخل أحد في شئونها الداخلية أو الخارجية بأي حال من الأحوال .

كانت هذه هي شروط المعاهدة التي أمليتها وحملها المرحوم الطيار أحمد سعودى على طائرة هرب بها من القاهرة إلى العلمين وأنا عندي ٢٢ سنة بعد أن عرضتها على إخواني وحازت قبولهم ولم يكن عبد الناصر معنا فقد كان في السودان كما سبق أن أوردت .

وتعزيزاً لحركة المقاومة وضماناً لتنفيذ بنود مشروع المعاهدة اهتديت إلى سوق الزجاج حيث اشترت عشرة آلاف زجاجة أعددناها على هيئة كوكتيل مولوتوف . ثم قام بغدادى وحسن إبراهيم مع سعودى وحسن عزت بتصوير المواقع البريطانية بالطائرة ووضعنا الأفلام ومشروع المعاهدة في حقيبة وعهدنا إلى سعودى بتوصيلها إلى روميل في العلمين .

في ذلك اليوم كانت طائرة حسن إبراهيم هي التي تحت الإنذار فأعطاهما لسعودى الذى طلع بها كأنه في دورية عادية ثم اتجه إلى العلمين .

كانت طائرة من طراز بريطاني طبعاً يسمى جلادياتور ولذلك فرغم إشارة الصداقة أطلق الألمان نيرانهم عليها فوق العلمين فانفجرت بسعودى وما فيها . وعندما اكتشف فقدان الطائرة قدم حسن إبراهيم للمحاكمة وتأخرت أقدميته ولكنهم لم يتمكنوا من الكشف عما وراء الحادث من تنظيم .

في ذلك الوقت كنت أعمل سلاح الإشارة في الجبل الأصفر بالقرب من القاهرة . . . وكنت أنتظر إشارة من سعودى أو من الألمان ولكن طال الإنتظار فبدأت أقلق . . . في هذه الأثناء حدثت مفاجأة لم أكن أتوقعها فقد أتى إلى زميلى حسن عزت ليقول إن ضابطين من الجيش الألماني يريدان الاتصال في لتعاون ففرحت وقلت هذه نجدة من السماء .

كان أحدهما واسمه (ابلر) من أم ألمانية متزوجة من مستشار مصرى أنجبت منه ولدا اسمه حسن جعفر . . . كان حسن الخلق . . . أما (ابلر) واسمه العربى حسين جعفر فقد طرده زوج أمه المستشار لسوء سلوكه بعد أن عاش فترة غير قصيرة من عمره في مصر ولذلك عندما التقيت به وجدته يتكلم العربية كأحد أبناءها . . . أما الضابط الآخر زميله - وكان ضابط إشارة فلم يكن يعرف العربية إطلاقاً . . . سألتها كيف دخلا مصر فعرفت أنهما تنكرا في ملابس ضباط الجيش الثامن البريطانى ثم عن طريق طرق القوافل التي لا يعرفها إلا بدو الصحراء دخلا إلى الواحه الخارجة ومنها إلى أسبوط فالقاهرة .

في القاهرة توجه أبلر ومعه زميله ساندى إلى ملهى (الكيت كات) يسهران ويعربدان ليلة بعد أخرى دون حساب فقد كانت معهما كميات كبيرة من الجنيتات الاسترلينية المطبوعة في اليونان . . . ولفت البذخ الذى يعيشان فيه أنظار الجميع فأبلغت عنهما إحدى راقصات (الكيت كات) . . . ومنذ ذلك اللحظة وضعا تحت رقابة المخابرات البريطانية . . . كل هذا عرفته بعد ذلك . . . أما عندما التقينا فلم أكن أعرف سوى أمهما يعيشان في دهبية على النيل قرب (الكيت كات) أستأجرتها لهما حكمت فهمى إحدى فنانات ملهى بدبعية مضابنى . . . وأن معهما جهاز لاسلكى ألماني ولكنه معطل . . .

ذهبت معهما إلى الدهبية لأرى الجهاز فوجدت جهازين أحدهما ألماني وهو المعطل وآخر أمريكى جديد تماماً Hallicrafter Sky Challenger وهو جهاز قوى تماماً وممتاز ولكن أبلر أخبرنى أنه بعد عطل الجهاز الألماني اتصل سرأً بسفارة سويسرا التي كانت ترعى شؤون ألمانيا في مصر . . . وأن التأم على هذه الرعاية وهو ألماني قد أمدهما بجهاز لاسلكى أمريكى وجدت أنه أفضل بكثير من الجهاز الألماني المعطل ولكن ليست عند الجاسوسين مفاتيح فاقترحت أن أشغله بمفاتيح مصرية . . .

ووافقا وبالفعل أخذت الجهاز معى وناديت (تاكسى) وضعته فيه وتوجهت إلى بيتى في كوبرى القبة . . .

في البيت جربت الجهاز فوجدته في منتهى القوة وبخودة . . . وكنت سعيداً بذلك كل السعادة فأخيراً ستمكن من الاتصال بروميل وتعرض عليه شروطنا التي سبق أن ضمنها مشروع المعاهدة معه والتي بت اعتقد أنها لم تصله . . . وإلا فقيم هذا الصمت وإلى متى نترك الأمور كما هي والنوقت بحرى بسرعة وروميل قد يدخل القاهرة في أية لحظة وإذا حدث هذا دون اتفاق سابق ودون علم بوجود حركة مقاومة مصرية ضد الإنجليز ومدى ما يمكن أن يقدمه التنظيم له من مساعدات مقابل استقلال مصر فسوف يكون مصير البلاد استبدال الاحتلال البريطانى باحتلال آخر ألماني أو إيطالى . . . ونحن لا نريد هذا بأى حال من الأحوال . . .

لم يكن أمامى أى مخرج من هذا المأزق سوى الاتصال بروميل . . . وها أنا أخيراً قد حصلت على وسيلة الاتصال بعد أن قشلت الوسيلة الأولى كما أصبح واضحاً . . .

لم يبق أمامى إلا أن آخذ الجهاز إلى الورشة عندى في الجبل الأصفر وأجربه تجربة نهائية ثم نبدأ الاتصال . . .

لم تكن عندى أية فكرة أن أبلر وزميله ساندى مراقبان . . . ولذلك فوجئت في الصباح عندما وصلتني أنا وحسن عزت رسالة من عبد الفتى سعيد - وهو الأصل في صلتنا بالجاسوسين - بأن أبلر وزميله قد قبض عليهما بمعرفة المخابرات البريطانية . . .

كان لا بد من إخفاء الجهاز فأخذته وذهبت مع حسن عزت إلى صديق له يسكن في شبرا ولكن لسوء الحظ وجدنا بيته مغلقاً وقالوا لنا إنه سافر إلى قريته فعدت بالجهاز إلى بيتي في كوبرى القبة وأخفيت في حجرة من الحجرتين اللتين كنت أشغلهما . . وفي نفس الليلة وصل زوار الفجر . . قرعوا الباب مرة . . مرتين . . عدة مرات حتى استيقظ أهل البيت . .

– اليوزباشى أنور السادات ساكن هنا ؟

– نعم . .

دخلوا مباشرة . . فرقة ضباط كاملة من المصريين والإنجليز . . وحوالي ٢٠ أو ٣٠ غير مملأوا الحديقة والبيت كله حتى أصبح من الصعب معرفة عددهم وكان عندنا في الحديقة كلب بلدى عادى فما أن شاهد هذا الجيش من الغزاة الغرباء حتى اتخذ لنفسه موقفاً إلى جانب الفرن وأخذ ينبح بشدة ولا يكف عن النباح محتجاً ربما . . ولكن في أغلب الظن مدافعاً عن الفرن مصدر لقمة العيش لأهل هذا البيت الهادئ المطمئن الذى يأوى إليه والذى هو في الواقع أحد أفراد . .

– أين حجرتك . . ؟

سألوني فأشرت إلى إحدى حجرتين كنت أشغلها في بيت أبى وكانت حجرة نومى . . فتشوها وفي أثناء التفتيش لاحظ سيف اليزل ضابط المخابرات المصرى وجود مدس آخر إلى جانب مدسى العسكرى فما كان منه إلا أن تناوله ووضع في جيبه ببساطه . . لم أكن أعرفه معرفة خاصة أو يعرفنى ولكن كانت تربطنا صلة أقوى من أبة صلة . . وهى الوطنية المتأججة في صدر كل مصرى . . أيا كانت وظيفته .

بعد الانتهاء من تفتيش حجرة نومى طلبوا تفتيش الحجرة المجاورة وكانت حجرة مكنتى . . قلت لهم إن حريم الأسرة بهذه الحجرة وإن تقاليدنا تقتضى إخلاءها قبل دخولهم . . فسمحوا لي بذلك . .

ودخلت الحجرة . . كان بها جهاز اللاسلكى وصفيحة بارود كنا نصنعه في القرية من خشب شجر الصفصاف والسماد . . طلبت من أخى الأكبر

طلعت أن يأخذ الصفيحة والجهاز ويخفيهما في أى مكان . . وفعلنا أخذهما طلعت وخرج من الباب الخلقى للبيت حيث دفن الجهاز في وقود الفرن وتركه والصفيحة في حراسة الكلب الطيب الذى غطى نباحه المستمر جميع تحركات طلعت . .

في حجرة المكتب لم يجدوا غير بعض الكتب فأخذوها . . وطلبوا منى أن أذهب معهم . . وأخذوني إلى سجن الأجانب . . رفضت دخوله فالقانون يقضى بأن حبس أى ضابط في الجيش المصرى لا يكون إلا في ميس الضباط حيث يقوم على حراسته ضابط مثله . . هكذا قلت لهم . . وخضعوا لسيادة القانون . . واقترحوا أن أفضى بقية ليلتى ضيفاً على البوليس في مكاتب الفرقة (ب) بجاردن سبى إلى أن ترسل قيادة الجيش في طلبى في الصباح . .

قبلت . . وفي اليوم التالى كنت في ميس الفرسان . . وكان هناك أيضاً زميلى حسن عزت . . ولكن أنا في طرف وهو في الطرف الآخر . . لا نجمعنا إلا وجبة الإفطار حيث يجلسنا المرحوم أحمد رياض قائد الفرسان جنباً إلى جنب ويهمس إلينا بأن ننهى حديثنا بسرعة إذ لا بد بعد الإفطار أن يتوجه كل منا إلى مكانه . . تماماً كما حدث عندما وضع سيف اليزل مدسى في جيبه لاتقاضى . . مصريون كلنا ومتعاونون . . ضد العدو والسلطة . . ورغم وظائفنا المتباينة . . ورغم واجباتنا الرسمية . . ودائماً . . رغم كل شئ . . لأن واجب الوطن كان فوق كل شئ . .

ثلاثة أيام بلياليها لم أذق طعم الأكل . . كنت فقط أشرب الماء ولا أرتوى وكان شيئاً يخرق بداخلى . . فقد كان عقلى يعمل ليل نهار بحثاً عن مخرج مما أنا فيه . .

لم يكن هناك سبيل إلى الإنكار . . كنت أعلم ذلك جيداً فقد قابلت أبلر مرات ومرات . . الطريق الوحيد إلى الخلاص هو التبرير . . والتبرير المقنع المتكامل . . لكل ما حدث . . ولكن كيف . . ؟

بعد جهد وعناء مستمر وفي نهاية الأيام الثلاثة كنت قد ألفت في رأسى قصة كاملة تتضمن كل ردودى ومخارجى وتسد على الخصم جميع الطرق . .

أطلعت زميلي حسن عزت على تفاصيل القصة كلها حتى لا تتناقض أقوالنا في التحقيق . . . وبعد ذلك استرحت وعدت إلى حياتي الطبيعية آكل وأشرب وأنام . . .

أخذونا بعد ذلك إلى رئاسة الجيش حيث وقفنا في طابور . . . ليتعرف علينا الجاسوسان مرة بعد مرة كالصاروخ . . . كان ابلر يتوجه إلى مباشرة ودون أي تردد . . . أما ساندی فكان أقل جرأة من زميله فهو يسير أمام الطابور إلى أن يصل إلى مكاني ثم يشير إلى . . .

قدمونا للمحاكمة أمام مجلس التحقيق تمهيداً للمجلس العسكري العالی . . . وكان مجلس التحقيق يتكون من اثنين من الضباط الإنجليز وضابطين من الجيش المصري وضابط بوليس هو كمال رياض من الفرقة (ب) شرطة . . . تشكيل خاطيء دون شك .

وبدأت المحاكمة :

— تعرف ابلر ؟

— لا .

— تعرف حسين جعفر ؟

— لا .

— تعرف هذا الذي تعرف عليك ؟ (وأشاروا إلى ابلر) .

قلت : طبعاً أعرفه . . . إنه ماجور إبراهيم من الجيش الإنجليزي .

ارتبك المجلس لحظات . . . ثم استمرت المحاكمة .

— ألم تأخذ منه جهاز لاسلكي ؟

— جهاز لاسلكي ؟ . . . طبعاً لا . . . هذا الرجل قدم لي نفسه وزميله على أنهما من ضباط سلاح الإشارة الإنجليزي . . . وأنا بطبيعة عملي أتعاون مع هذا السلاح ولذلك التقينا أكثر من مرة .

ولما كانت أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم . . . التفت إلى ابلر وسألته فجأة :

— أتذكر لقاءنا في محل الجمال يا ماجور إبراهيم ؟

— نعم أذكره . . . ولكني لم أقل لك أن إسمي إبراهيم بل قلت لك إنني ألماني واسمى ابلر .

— لو قلت لي هذا كنت أبلغت عنك .

قال : وماذا عن الذهبية ؟

أنكرت ضِعماً مكان الذهبية . . . قال يذكرني :

— هل نسيت عندما نبح الكلب وأنت خارج من الذهبية ومعك الجهاز ؟

من غيظي ضغطت على قدمه بكل قوة .

وقف على التو من الألم وقال :

— لماذا تدوس على قدمي الآن ؟

قلت مندهشاً : — أنا دست على قدمك ؟ لماذا تدعى على بما لم يحدث ؟

الذهبية . . . والجهاز . . . ونباح الكلب . . . والآن قدمك ؟ ما قصدك من كل هذا ؟

قال : لا فائدة . . . لقد اعترفت بالكامل . . . ويجب أن تعترف مثلنا .

قلت بمنتهى الهدوء : اعترف بماذا ؟ . . . أنا أعرفك فعلاً . . . ولكن كضابط

إنجليزي .

قال : وماذا عن مصر الجديدة ؟

كنت قد قابلته بعزير المصري في مصر الجديدة ولكنني قلت : —

— نعم حدث . . . لقد التقينا في مصر الجديدة .

وعاد إلى السؤال : وفي مصر الجديدة من كان معنا ؟

اخترعت قصة كاملة مؤداها أنه أتى إلى في محل (صولت) بمصر الجديدة ويومها

أخبرني أن زميله ساندی مريض .

أتوا بحسن عزت وكانت أقواله مطابقة تماماً لأقوالى .

بعد ذلك أتوا بساندی ففعلنا به ما فعلناه بأبلر .

انهارت أركان القضية . . . فأعادوني وحسن عزت إلى ميس الضباط معتقلين .

في هذه الأثناء . . . وفي شهر يوليو عام ١٩٤٢ على وجه التحديد . . . جاء تشرشل

إلى مصر في زيارة سرية وغير القيادة وعين موننجومري وذهب إلى العلمين ليرفع الروح المعنوية بين القوات البريطانية .

وكما علمت بعد ذلك . . . التي بالجاسوسين أبلر وزميله ووعدهما بحياتهما إذا اعترفا وكان هذا سر اعتراف أبلر الكامل .

بقيت معتقلاً في ميس الضباط إلى أن أتى رمضان وفي يوم قبل المغرب بساعة تقريباً دخل على أتى شاحب الوجه يبدو عليه الإعياء والإنهايار . . . كان يقوم على حراستي ضابط المدفعية . . . فقام لتوه وتركنا وحدنا حتى نتكلم بحرية . . . سألت أتى عن سر الزيارة فأجاب وهو يجمع أنفاسه :

— اليوم أتى إلى اللواء على باشا موافى رئيس إدارة الجيش . . . وقال لي إن موقف إينك في القضية ميئوس منه والأفضل له أن يعترف . . . في هذه الحالة سيصدر عليه حكم مخفف أما إذا لم يعترف فسوف يقتلونه رمياً بالرصاص في الفجر .

أدركت ساعتها أن جميع جهودهم لإقامة قضية قد فشلت تماماً . . . ولذلك فهم يلجأون إلى هذه الخيلة الرخيصة كمحاولة أخيرة .

قلت لأتى : لكي يضربوني بالرصاص لا بد من مجلس عسكري عال وتهمة تثبت على . . . هذا هو النظام في الجيش . . . ولو كانت هذه التهمة في أيديهم فعلاً لما لجأوا إليك لتطلب مني الاعتراف .

اقتنع الرجل . . . وكان رحمه الله يأخذ كلامي أمراً مسلماً به . . . فاسترد أنفاسه وزال اضطرابه . . . وخرج بعد أن تناول الإفطار معي وهو مطمئن كل الإطمئنان أن لا خطر على حياة ابنه على الإطلاق .

في اليوم التالي . . . كما عرفت بعد ذلك . . . زاره في مكتبه موافى باشا ليعرف نتيجة اللقاء وكان رد أتى عليه .

— اسمع يا باشا . . . إذا كان ابني مخطئاً فاضربه بالرصاص . . . وإذا كان بريئاً فواجبكم أن تعيدوه إلى عمله .

وحذره موافى باشا من نتيجة إصراري على عدم الاعتراف . . . وكان تعليق أتى الوحيد أن افعلوا ما شئتم . . . ولكن ليس لدى أكثر مما قلته .

في هذه الأثناء كان موننجومري قد حشد حشوداً هائلة حتى يضمن المعركة مائة في المائة وقطع على روميل خطوط إمداداته في البحر الأبيض . . . وبذلك بدأت أعصاب الإنجليز تهتد فتغيرت نظرتهم إلى قضيتنا . . . وكانت النتيجة أنه في يوم ٢٦ رمضان سنة ١٩٤٢ قبل المغرب بساعة طلبني رئيس أركان حرب قسم القاهرة وأبلغني أنه قد صدر النطق الملكي السامي بالإستغناء عن خدماتي .

خلعت الرتب . . . وتقدم مني محمد إبراهيم رئيس القسم السياسي بالبوليس وقال : — تعال معنا إلى المحافظة لعمل بعض الإجراءات .

فهمت أنهم بصدد اعتقالى فسألته :

— إلى أين نحن ذاهبون بالضبط حتى يعرف المراسلة أين أنا فيحضر لي طعام الإفطار ؟ — فأجاب باختصار . . . « سجن الأجانب » .

وفي رمضان ١٩٤٢ عندما ألتقوا القبض على مقابيل جهودي للتخلص من الإستعمار الإنجليزي سرت إلى سجن الأجانب .

وطوال الطريق . . . كان يرتفع أمام عيني طيف زهران وهو يسير رافع الرأس سعيداً بما فعل لا يخشى الموت الذي سيلقاه . . . بعد قليل .

لقد فعلت أخيراً ما فعله زهران . . . وإذ غامرني هذا الشعور أدركت — كما لم أدرك من قبل — أن زهران لم ينهزم قط . . . ورغم أنهم حكموا عليه بالإعدام إلا أن إرادته لم تمت .

ألم أكن أنا امتداداً لهذه الإرادة التي سرت في كياني منذ طفولتي ؟ إرادة النصر والتحدى ؟ .

بلغنا السجن وإذ كنت أصعد السلم في طريقي إلى حجرتي كان يغامرني فرح غريب بما في داخلي من قوة لا يدرك مداها سوى .

لقد انتصرت كما انتصر زهران من قبل .

رغم موته . . . ورغم تجريدى من رتبتي واعتقالى . . . رغم كل شيء .

الفصل الثاني

نحو تحرير الأرض

كانت هذه أول مرة أدخل فيها سجن الأجانب .. وكان ذلك في ٢٦ رمضان سنة ١٩٤٢ ميلادية وهي (ليلة القدر) .. موسم من المواسم الدينية التي تحتفل بها في مصر عامة وفي الريف على وجه الخصوص .. فتذبح بطة أو أوزة أو دجاجتين .. كل حسب مقدرته المالية .

كان سجن الأجانب مخصصاً للعمليات المتعلقة بمعركة الإنجليز ولذلك كان مأموره مسر هيكلان الملطي الأصل البريطاني الجنسية .

دخلت الزنزانة الخاصة بي وكانت في الدور الأول وبعد قليل جاء المغرب وأحضرت المراسلة الطعام فصليت وتناولت طعام الإفطار .

إلى هنا كانت حالتي عادية .. لم أكن بعد قد أحسست بالصدمة .. ولكن بعد أن أكلت ودخنت سيجارة (وقد كان التدخين مسموحاً به في سجن الأجانب دون بقية السجون) بدأت حيرتي ورحت أتساءل .. ما هو الحل ؟ سوف أقضى مدة السجن ولكن ماذا سأفعل بنفسى بعد ذلك ؟ وقد جردت من رتبتي ولم يعد لي عمل ؟

واستمرت التساؤلات واستمرت الحيرة ساعة .. ساعتين .. ثلاث ساعات لا أدرى .. وأنا أسير في الحجر من ركن إلى ركن ومن حائط إلى حائط ولكن لا إجابة واحدة عن تساؤلاتي .. وأخيراً جلست على الأرض وأسندت ظهري إلى السرير كما نفعل في القرية .. ربما لأنني عندما أجلس على الأرض أحس أنني قريب من الطبيعة والنظرة وربما لأنني تعودت الجلوس على الأرض في القرية - لا أعرف .. ولكن فجأة خطرت فريقي على بالي ..

كان مجرد خاطر ولكنه وضع كتلا من الصخر والصلب بداخلي .. فقريتي هناك قابضة في خضن الدلتا .. وسوف أعود إليها فقيم القلق وقيم البحث عن مصير ؟

إن القرية هي الاستقرار .. أقل إنسان في القرية وأضعف وأفقر إنسان دائماً مطمئن .. لماذا ؟ لأن عنده داره .. ومهما كانت صغيرة حتى ولو كانت عبارة عن قاعة واحدة ودورة مياه ومصطبة .. فإنه عندما يعلق بابه عليه يصبح أكثر الناس اطمئناناً واستقراراً ..

هذه هي روح الفلاح في كل مكان .. الأمن والاستقرار .. لأنه مرتبط بالأرض يعطيها فتعطيه .. يكفيها فتكفيه دون الحاجة إلى أي إنسان ..

لم أكن قد عرفت نفسي بعد .. ولكن في تلك اللحظة الحاسمة من حياتي وأنا أواجه نفسي في السجن لمحت جانباً من جوانب شخصيتي .. فقد أدركت أنه يكفي أن أكون فلاحاً بسيطاً لكي أكون أسعد الناس ..

هذا الإحساس بالقناعة بالأرض - حتى ولو لم تتعدى رقعتها الفدانين وهي كل ما أملك - أصبح وأنا في سجن الأجانب مصدر قوتي .. وما زال .. ففي أي وقت وتحت أية ظروف أحس أنني غني بكوني فلاحاً عن كل شيء .. فالأرض هناك وفي أي وقت يمكن أن أعود إليها أزرعها وأفلحها بيدي .. وفي هذا الكفاية بل أكثر من الكفاية .. فأمرى دائماً ببسدي .. وإرادتي هي لإرادتي وحدي .. وأنا سيد نفسي ..

وخطرت لي خاطر مر يرأسى كسحابة سوداء تحجب الشمس للحظظة .. إن الغالبية العظمى من الناس تطلب ما لا تملك .. ومن له مطالب .. من يطمع في شيء يظل طول حياته عبداً لهذا الشيء .. رغم أنه يبدو حراً تطبيق الحركة لا يعيش وراء القضبان .. كما أنا في سجن الأجانب ..

٢

كان سجن الأجانب يختلف عن بقية السجون .. ففي كل زنزانة سرير وبطانية وكروسي وطاولة صغيرة .. حتى التدخين - كما سبق أن قلت - كان مسموحاً

به ولكن بشرط أن يشعل السجن السجارة ويقدمها لك . . . فليس من حق
السجين أن يحمل معه كبيراً أو ولاعة . . .

ولما وجدت الأمور بهذا الشكل تشجعت وطلبت الجرائد فحضروها
لي ومعها بعض الكتب (تفرقة حتى في السجن فعندما دخلت سجن مصر
بعد ذلك بفترة مكثت به سنة كاملة معزولاً عن العالم الخارجي . . . فلا جرائد
ولا كتب ولا فراش ولا مقاعد ولا شيء على الإطلاق) . . .

فكرت في أن أقوى نفسي في اللغة الإنجليزية فطلبت بعض الكتب بهذه اللغة
وأرسل لي هيكلان مأمور السجن مجموعات من القصص القصيرة وغيرها . . . ومن
الكتب التي ما زلت أذكرها كتاب عن جمعية في الريف الإنجليزي يجتمع أعضاؤها
كل أسبوع ويتناول كل واحد منهم موضوعاً يتكلم فيه - نظرته للحياة - ما يحدث
في قريتهم أو القرى المجاورة أو أحوال الخصاد والمحصول . . . الخ . . .
ويسجلون ما يدور في الاجتماع ثم في نهاية كل ثلاث شهور يجتمعون
أحاديثهم في كتاب .

راقتني الفكرة كثيراً فعزمت على أنه بمجرد خروجي من السجن وعودتي
إلى قريتي أفعل بالمثل فأجتمع مع الأهل والأصحاب ونقصد ندوات ودية . . .
ألا ما أجمل انطلاقة الريف والراحة التي أحس بها في منسدة دارنا . . .
وأحلى من هذا كله كلام أهل الريف الثلقاني البسيط الصادق والندى في الوقت
نفسه يحمل الكثير من المعاني العميقة المعبرة التي تمتد جذورها إلى حضارة
آلاف السنين . . .

قضيت بسجن الأجانب وقتاً لا بأس به . . . أقرأ وأخرج إلى فناء السجن
مرتين في اليوم كل ربيع ساعة أمارس فيها رياضتي المحببة وهي المشي . . . بين
أضلاع السجن الأربعة .

أشياء كثيرة حدثت في السجن ولكني لا أذكرها كلها . . . أذكر مثلاً أنني
صحوت من النوم على صوت امرأة تغني « لا والنبي يا عبده » وكانت هذه من
الأغنيات الشائعة في ذلك الوقت وفجأة سمعت نفس الصوت يولول ويصرخ . . .
تماماً كما يحدث في أفلام السينما الميلودرامية .

سألت قالوا إنها حكمت فهمي الراقصة وإنما في الزنزانة المجاورة لي . . . وإنما
هي الأخرى متهمه في نفس قضيتنا . . . فهمت . . . فهي التي أجزت الذهبية
للجواسيس الألمان . . .

كل من كان في سجن الأجانب في ذلك الوقت كان مقبوضاً عليهم في قضايا
خاصة بالسلطات البريطانية لاستكمال التحقيق معهم تمهيداً لترحيلهم إلى
المعتقلات . . .

هكذا علمت . . . ولذلك لم أدهش عندما أخرجوني من الزنزانة يوماً
وساروا بي إلى مأمور السجن حيث كان هناك أيضاً الجاسوس الألماني
(أبلر) . . . أعادوا التحقيق ولم أغير كلامي ضعفاً . . . اتصنوا تبنفونياً
بهيكلان مأمور السجن . . . يسألونه عن النتيجة . . .

فسمعتهم يقول : لا أمل لأنه ينكر على طول الخط (وله يكن يعرف أنني أعرف
الإنجليزية) . . .

كان معنا في السجن طبعاً زميلي حسن عزت ولم تكن تنقابل ولكن لما عرف
الحراس أننا من الضباط بدأوا يتقلون الكلام بيننا . . . وبدأوا أيضاً يعاملونني
معاملة بها الكثير من التعاطف والود والاحترام . . . فمن خلاصهم تعرفت على أكثر
المساجين . . . مثلاً كان هناك رجل ألماني اسمه (ماكس) قالوا لي إن له في
السجن سنة ونصف . . . وآخر إيطالي معتقل له ٨ شهور . . . وهكذا وهكذا . . .
أقل فترة لأي سجين كانت لا تقل عن ٦ شهور .

قلت في نفسي هذا يعني أنني سأقضي هنا ٦ شهور على الأقل . . . وكان الشتاء
قد دخل وغيرنا ملايسنا ولكن الملابس الشتوية لم تكن كافية وخاصة أن الواحد
منا كان يقضي معظم الوقت في زنزاناته دون حركة أو عمل . . .

وذات صباح فوجئت بالسجان يفتح الباب يحمل إلى بعض الطعام من
البيت عندنا ومعه روب شتوي ممتاز . . . فردت الروب أمامي على السرير
ووقفت أنظر إليه وأحسسه . . . كان شيئاً جميلاً للغاية كالأشياء التي نراها في
السينما . . . لم أصدق عيني فنادت بالسجان وسألته إذا كان هذا الروب حقيقة
لي . . . قال أنه مرسل للزنزانة رقم ٧ . . . وهذه هي . . . تأكدت قلبته وأنا في

منهى السعادة . . مثل هذا الروب لم يكن في استطاعتي شراؤه وأنا يوزباشي في الجيش فكيف حصل عليه أهلى ؟ لا بد أنهم صرفوا المكافأة المستحقة لى وهى ثمانون جنيها واشتروا بجزء منها هذا الروب الجميل . . كان بالنسبة لى متعة لا تساويها متعة أخرى . . ففمت وتوضأت وصليت حمداً لله . . لم أكن فقط فرحاً بالروب نفسه . . بل أيضاً باللثة التى يحملها . . (إذن هناك من لا يزال يذكرنى وما زالت لى قيمة فى نظر الناس . . أو بعضهم على الأقل) .

٣

كنت قد بدأت أتأقلم على حياة السجن . . وخاصة بعد أن مسحوا لى ولزيمى حسن عزت باللقاء . . وكان هذا معناه أن التحقيقات قد انتهت . . وفى لقاءاتنا كان حسن عزت يحكى لى عن مشروعاته بعد خروجه من السجن . . ومشروعات صيد سمك من وراء خزان أسوان . . ومشروعات زراعة . . إلخ . . أما أنا فكان مشروعى الوحيد أن أعود إلى الأرض ومن هناك أبدأ من جديد . . لم نستمتع طويلاً بحالة الاستقرار والتأقلم التى هى من نعم الله على الإنسان فى يوم من الأيام جاء لى السجن وطلب منى أن أحزم أمتعى . .

قلت : خيراً . .

قال : ستنتقل من هنا . .

— إلى أين ؟ سألت ولكن ما من جواب .

جهزت ملايىسى وتوجهت إلى حجرة المأمور حيث سلمونى رباط حذائى ورباط عنتى وماكينه الخلاقة وثلاثة جنيهاً كان أهلى قد أودعوها السجن أمانة . .

— عهدتك تمام ؟

— نعم تمام .

— انفضل وقع . .

وقعت على أنى تسلمت حاجياتى ثم أمرونى بالسير إلى باب السجن وعسكرى

إلى يمينى وآخسر إلى يسارى . . نظرت فرأيت عربة (بيك آب) تقف ملتصقة بالباب . . أما السلم المودى إلى الباب فقد غطوه من الجانبين بالبطاطين . . فهم لا يريدونى أن أرى شيئاً مما حولى . . وكأنهم مثلاً يقومون بعملية اختطافى . . فى العربة وجدت زميلى حسن عزت ويبدو أنى كنت آخر القادمين فبمجرد دخولى غطوا العربة الـ (بيك آب) ببطانية ثم ساروا بنا . . وما هى إلا دقائق معدودة حتى وجدنا أنفسنا على رصيف الصعيد فى محطة مصر . . كانوا قد أدخلوا الرصيف من المسافرين تماماً ولكن كان البوليس محتشداً فوقه بصورة توحى بأننا قوة خطيرة لا بد من حصارها وإلا أصبح أمن الدولة فى خطر . .

كان فى انتظارنا قطار ديزل صغير أدخلونا فيه فاكشفنا أننا لم نكن وحدنا إذ رأينا بالقطار معتقلين آخرين . . منهم على ما أذكر اثنان من كبار ضباط الجيش من ضحايا الأحزاب . . وإلى جانب كل منا . . هم ونحن يجلس ضابط لخراسنا . . وتحرك القطار بنا فى طريقه إلى معتقل جديد . . كما كان يبدو واضحاً . . ولكنه كان فى هذه المرة فى الصعيد . . على بعد ٢ كيلو من المنيا (وهى تبعد عن القاهرة بـ ١٦٠ ميلاً) .

لم يكن المعتقل الحديد الذى نقلونا إليه بنفس الطريقة (أى أن البطاطين كانت تغطى العربة بحيث لا ترى شيئاً إلى أن وصلنا) معتقلاً بمعنى الكلمة ، بل قصراً شامخاً يقف منعزلاً على ضفاف ترعة الإبراهيمية يحيط به التراب وخلفه قرية صغيرة لا تختلف كثيراً عن ميت أبو الكوم . . ما الذى أتى بهذا القصر إلى هذا القفر ؟

عرفنا بعد ذلك أنه كان ملكاً لأحد أعيان حزب الوفد وسامت حالته المالية فأجره للحكومة التى أحالته إلى معتقل . . أو بدأت تفعل ذلك . . فعندما وصلنا وجدنا المهندسين العسكريين يعملون فى بناء أسوار من الأسلاك الشائكة تحيط بالقصر كله . . ولاحظت أنها كانت عالية جداً بحيث لا يستطيع أحد تسلقها . .

أقمت فى معتقل (ماقوسة) هذا من ديسمبر ٤٢ إلى سبتمبر ٤٣ . . فى هذه الأثناء وحتى قبلها بقليل فى نوفمبر ٤٢ على وجه التحديد ، كان مونتجومرى

قد قام بهجومه على القوات الإيطالية والألمانية في معركة العلمين المشهورة بعد حصار بحري منع الإمدادات عن قوات روميل . . ومع ذلك استطاع روميل أن يتحج بقواته سليمة كاملة برغم التفوق المائل للقوات مونتيجمري وما يزال انسحاب روميل على الصورة التي تمت يعتبر في التاريخ العسكري موازياً لنصر المدي أحرزه مونتيجمري ولعل انتصار الحلفاء في تلك المرحلة هو الذي جعل أعصاب الإنجليز تهبط قليلاً . . فاكشفوا بفصلنا من الجيش واعتقالنا . .

كانت إقامتي بمعتقل ماقوسة صعبة في الأيام الأولى رغم أنه كان قصراً منيعاً به مرايا فرنسية وأخشاب فاخرة وشبابيك من الزجاج الملون وحمامات رائعة . . أشياء لم أر مثلها من قبل في حياتي بهرتني في أول الأمر وكانت مصدر دهشة لي . . ولكن مع الوقت تعودت عليها وأصبح السجن سجيناً كبقية السجون . . وخاصة عندما بدأوا يفتقون الشبابيك بقضبان من الحديد . .

ما معنى هذا والمبنى تحيط به الأسلاك الشائكة من كل جانب ؟ كان لا بد من التمرد . . وفعلنا كانوا كلما ركبوا القضبان الحديدية أزلناها . . وهكذا يوماً بعد يوم إلى أن اضطروا إلى الاكتفاء بالأسلاك الشائكة . .

في معتقل ماقوسة كان معنا حسن جعفر الأخ الغير شقيق لحسين جعفر أو (آبلر) الجاسوس الألماني . . ولم يكن لحسن أي دور فيما حدث ولكن رغم ذلك اعتقله الإنجليز من باب الإحتياط . .

وجدت في حسن شاباً دمتم الخلق لطيفاً للغاية وكان يعرف الألمانية والإنجليزية فطرات لي فكرة طرحها عليه للظور وهي أن يعلمني اللغة الألمانية وكنت قد قرأت أن الشيخ محمد عبده (وهو أحد أقطاب نهضة مصر الحديثة) لما بدأ تعلم الفرنسية وجد أن أحسن طريقة أن يقرأ رواية بالفرنسية على أن يعاونه في قراءتها شخص يعرف الفرنسية والعربية معاً . . فالرواية هي شريحة من الحياة بكل ما فيها من أوصاف وحوار ونقاش . . إلخ . .

وكان مع حسن جعفر رواية لإدجار والاس مترجمة إلى الألمانية فاتفقنا على قراءتها معاً . . وفعلنا كنا نجلس كل يوم على سلم القصر الداخلي نقرأ

الرواية . . في أول الأمر كنت أقرأ في اليوم ٤ سطور ثم وصلنا إلى نصف صفحة . . فصفحة وبالتدريج بعد سبعة شهور استطعت أن أقرأ فصلاً كاملاً إلى أن جاء الشهر التاسع فأنتهيت من الرواية كلها وأصبحت أقرأ الألمانية كما يقرأها حسن جعفر تماماً حتى أتت عندما زرت النمسا في الفترة الأخيرة وألقيت خطاباً بالألمانية سمعت أن كينسجر قال لسورد إنني أنطق الألمانية أحسن منه لأن كينسجر من جنوب ألمانيا أصلاً وأنا أتكلم لغة الشمال التي هي أقرب إلى الألمانية السليمة . .

وفي نفس الزيارة كان مستشار النمسا حريصاً على أن أتعرف على كاردينال النمسا وهو من الشخصيات الهامة في الفاتيكان . . وفعلنا تم التعارف ووجدته يتقن عدة لغات منها الإنجليزية والفرنسية والعربية . . وفي أثناء حديثي معه سألتني أين تعلمت الألمانية بهذا الإتقان . . ودهش طبعاً عندما عرف . . وما زلت إلى اليوم أتذكر معالم الدهشة التي بدت على وجهه . .

كان أهلي يأتون لزيارتي بالمعتقل كل شهر . . فأجيرة السفر غالية وأهلي فقراء . . وحدث مراراً أنني وزملائي تمارضنا فكانوا يرسلوننا إلى المستشفى في النمسا . . وفي إحدى هذه المرات ذهبت إلى المكتبة وهناك التقيت بوجيه خليل أحد زملائي في الكفاح الذي رتب اللقاء عندما عرف بوجودي ليخبرني أن إخوانه الضباط قد قرروا دفع عشر جنجيات شهرياً لأسرتي بالقاهرة . . لا يمكن أن تتصور مدى تأثير لمسة الوفاء هذه على وأنا في المعتقل بعيداً عن إخواني الضباط بل ولم أعد حتى واحداً منهم . .

في معتقل (ماقوسة) حضرت رمضان مرة أخرى كما حدث في سجن الأجانب من قبل . . وكعادتي قرأت القرآن ثلاث مرات مرة كل عشرة أيام . . كان ذلك خلال عام ١٩٤٣ . . وقد بدأت هزائم المحور وبدأ مسار الحرب يتغير لصالح الحلفاء . . وخاصة بعد أن حارب الروس معركة رائعة في ستالينجراد . . وساعدهم في حريمهم الجنرال «ونتر» (أي الشتاء القارس) الذي سبق أن هزم نابليون كما كان السبب الرئيسي في هزيمة الألمان . . وقبل أن تنتهي سنة ١٩٤٣ صدرت لإبنا الأوامر بالانتقال إلى معتقل آخر - قرب القاهرة - هو معتقل الزيتون .

في معتقل الزيتون كان هناك أيضاً نوعان من المعتقلين - النوع الأول مثل من المصريين المكافحين ضد الإنجليز أو من أهل سوريا ولبنان المتمصرين ممن كانت تستخدمهم حكومة فيشي أو الألمان بحكم الاستعمار والوجود الفرنسي التقليدي في الشام الذي كان يشبه الوجود الإنجليزي عندنا . أما النوع الثاني فكان من أعضاء أحزاب مناهضة لحزب الوفد الحاكم مثل حزب مصر الفتاة وحزب الكتلة الذي كونه مكرم عبيد عندما انشق على النحاس باشا زعيم الوفد وأصدر (الكتاب الأسود) وهو كتاب صغير الحجم ولكنه يكشف عن أسرار تسيء إلى حكم الوفد . ورغم أن النحاس كان رئيس الحكومة إلا أن الكتاب صدر ووزع وتداوله الناس .

في معتقل الزيتون تعرفت على (كونت) من بلاد البلطيق معتقل مثلنا . . كان رجلاً لطيفاً للغاية ولكن - رغم أنه كان يعيش في غرفة صغيرة في البدروم مغلوباً على أمره كأى معتقل إلا أنه لم ينس لحظة أنه كونت أوروبي . . فكان يأمر وينهى كأنه في قصره ويمشى ويتكلم بأرستقراطية لم يستطع أبداً أن يتنازل عنها مما جعله طول الوقت موضع ضحكنا بل وتسليتنا الوحيدة .

كانت الحياة مملة في معتقل الزيتون فالوقت يمضي في بقاء شديد ولا شيء نفعله . . ففكرنا في تربية الأرناب - اشترينا زوجين أو ثلاثة في بادئ الأمر - وبعد ثلاثة شهور فقط تكاثرت أرنابنا حتى امتلأت بها القاعة الوحيدة الفسيحة في المعتقل مما جعلنا ندور حولها لكي نذهب إلى حجرتنا فقد أصبح من المستحيل أن نخطو فيها خطوة واحدة . . ماذا نفعل بكل هذا الجيش من الأرناب ؟ وهنا اكتشفنا موهبة فذة في صديقنا الكونت الأرستقراطي . . وهي أنه يجيد الطهي وخاصة طهي الأرناب بالذات . . وهكذا عشنا فترة على تربية الأرناب وأكلها إلى أن جاء وقت أصاب أحدها المرض وانتشرت العدوى بينها فما هي إلا أيام قلائل حتى أخذ عددها يتناقص بنفس السرعة التي تكاثرت بها . . وخلت القاعة منها وعادت إلينا فسيحة خاوية كما كانت في البداية .

وهكذا توقفنا عن تربية الأرناب وعن أكلها طبعاً وتوقف صاحبنا الكونت

عن طهيها وحفظ (الحلة) أو الوعاء الذي كان يملؤه كل صباح بها ويحفظه بين المرتبتين على سريره حتى تظل محتفظة بحرارتها كما كان يفعل كل مرة تتأخر فيها بعض الوقت عن ميعاد الأكل .

ومن الشخصيات التي أذكرها في معتقل الزيتون وكيل وزارة الداخلية في ذلك الوقت . . غضب عليه النحاس باشا فاعتقله رغم أنه كان محايداً لا ينتمي إلى أى حزب . . كان اسمه أبو شادي وقد رأيت مرة أخرى بعد الثورة - عندما فرضت عليه الحراسة لا أعرف تحت أية ظروف ولا لأية أسباب . . كان هذا في سنة ١٩٦١ أى بعد حركة الانفصال عن سوريا . . وكانت كل الحراسات التي فرضت أساسها حزبي فقد نشأ عند عبد الناصر خوف من الانفصال أعقبه شعور مضاد عند الشعب المصري نحو الحكومة فزين له بعض أعيانه أن هذا الشعور إنما هو ثورة مضادة . . وبناءً عليه لجأوا إلى فرض الحراسات على جميع الحزبيين وجاء ضمنهم أبو شادي مع أنه كما قلت لم يكن ينتمي إلى أى حزب . . بل كان مثلاً أعلى للموظف المسئول في اتخاذ الإجراءات العادلة السليمة .

ولكن كان من الطبيعي بعد فشل الوحدة مع سوريا أن يتكلم الناس وأن يتناول بعضهم نظام الحكم بالنقد وهذا ما ذهب ضحيته أبو شادي . . تماماً كما حدث بعد سنة ١٩٦٥ بالنسبة للإخوان المسلمين الذين هيئوا للسلطة الحاكمة في ذلك الوقت بأنهم يتآمرون ليقوموا بالثورة المضادة وقد ذهب ضحية هذا التصور الكثيرون ممن يحصون بالألوف . . وصلدت ضد الكثيرين منهم أحكام وظل الجميع في المعتقلات أو السجون إلى أن صفت أنا العملية كلها فأغلقت المعتقلات كلها مباشرة بعد أن صفت مراكز القوى في سنة ١٩٧١ أما المحكوم عليهم سواء من الإخوان أو في أية قضية سياسية أخرى فقد أطلقت سراحهم مباشرة بعد معركة أكتوبر ١٩٧٣ .

٥

أعود إلى حديثي عن معتقل الزيتون .

في الحقيقة كانت له عدة مزايا عن معتقل ماقوسه . . فنحن هنا في القاهرة وأهلنا يترددون علينا لزيارتنا دون تكاليف السفر إلى المنيا . . ثم إن معتقل الزيتون

كان قبلاً بها حديقة كبيرة تتيح لنا فرصة الحركة أكثر من حديقة المعتقل ما فوسه الصغيرة الضيقة . . ولكن قطع الوقت فكرت وزميلي حسن عزت في زراعة الحديقة بالبرسيم ليكون غذاء للأرانب التي ربيناها . . ثم بعد فناء الأرانب لجأنا إلى زراعة البطاطا وكانت هذه أول مرة أمارس فيها هذه الزراعة .

وهكذا عشنا في هدوء لا يعكره سوى مطبعمي من سيدنا الحسين كان كما أفرجت عنه السلطات بطبع منشوراً ضد الحكم فيعود إلينا في اليوم الثاني . . فهو يفضل عيشة المعتقل على عيشة الحرية . . والسبب أنهم رتبوا رواتب شهرية قدرها سبعة جنيهات ونصف لكل منا . . تقبلها الجميع ما عداي وحسن عزت الذي أقنعته بعدم قبول منحة من سلطات الاعتقال لأن هذه مسألة مهينة للكرامة . . وكان المطبعمي ضمن من يتقاضون هذا الراتب الشهري . . وكانت الإقامة بالمعتقل بما فيها الأكل والمبيت بالخبان طبعاً ولذلك كان حربصاً على أن يبقى بالمعتقل أطول مدة ممكنة على أمل أن يخرج منه في النهاية برأس ما لم يحترمه . . في نظره على الأقل .

في يوم من الأيام عكر صفونا تعيين قومندان جديد للمعتقل - كان عنيف السلوك ولذلك فضل أكثر من مرة من منصبه وعاد إليه أيضاً أكثر من مرة إذ كان عمه عضو مجلس شيوخ وفدى عن مديرية البحيرة . . وكانت لم عصيبة كبيرة تمتد إلى ليبيا موطنهم الأصلي .

المهم أنه حدثت بيني وبين القومندان الجديد مشادة لا أذكر سببها الآن ولكني أذكر نتائجها جيداً . . فقد جمعت المعتقلين جميعاً وأقمنا متاريس من فراش وأمتعة حجراننا ووضعناها كلها على السلم بحيث تمنع أى إنسان من الوصول إلينا في الدور الثاني . . بعد ذلك بفترة قصيرة جاء القومندان إلى حجرتي وأخذ يهددني وهو يحمل طبنجة في يده .

قلت له : أنت جبان . . وإلا فكيف تهددني بالسلاح وأنا أعزل ؟

خرج غاضباً وتوجه إلى حجرته وأحاطها بالعساكر وظن أنه في أمان . . قلت في نفسي لا بد أن أؤدب هذا الإنسان الشاذ . . فقفزت من حجرة إلى حجرة إلى أن دخلت حجرته من الشباك . . نظر فرآني أمامه . . اندعر . . قلت : أنت مغلق

الحجرة على نفسك والحراس يحرسون الباب . . وهكذا تعتقد أنك في أمان . . ولكن في مقدورى الآن أن أخنتك . . أو أن أفعل بك أى شئ . . هل تدرك هذا ؟ . . ودار بيننا حوار ساخن تركته على أثره وتوجهت إلى حجرتي . . وأغلقتنا السلام بالمطاريس إغلاقاً تاماً .

كان الموقف السياسى في العالم قد انكشف تماماً في عام ٤٣ . . ٤٤ أصبح من الواضح أن ألمانيا في طريقها إلى الهزيمة وكانت هذه فرصة مواتية لاستعمال الإفراج عنا . . فاستقر رأى وزميلي حسن عزت على إثارة الرأى العام في المعتقل . عملنا حركة عصيان وأشركنا معنا جميع المعتقلين . . ضربوا فينا بالرصاص من حديقة المعتقل . . وكان هذا التصعيد للموقف من جانب الحكومة ما توقعناه . . بل وأكد أقول ما طلبناه فقررنا أن نعطيهم درساً لا ينسونه مدى الحياة . ولكن كيف ؟

٦

قررنا أن يهرب ستة منا . . واتفقنا على خطة ونفذناها بكل دقة . . كان أحسن وقت للهروب هو وقت تغيير الحراس في أول المساء . . نسبة إلى ما يسود المكان من هرج ومرج . . أما طريقة الهروب فكانت أن نفتح فتحة في سقف حجرة الأرانب ولم يكن هذا بالأمر الصعب فالسقف من الخشب البغدادي . . وفي اليوم الذي حددناه نصبت السلم وتسلفته وحفرنا فجوه في السقف خرجت منها إلى السطح واستلقيت على وجهي حتى لا يراني أحد . . ومددت يدي أتسلم بقية الماربين من بين يدي حسن عزت الذي كان يقف على أرض الحجرة بناولهم لي الواحد بعد الآخر فأدلم على الطريق . . إلى أن انضم إلى حسن عزت فنزلنا إلى الشارع وكان الظلام حالكاً . . ولكن كانت هناك عربة (أولد زموبل) في انتظارنا كما رتبنا . . فركبنا نحن الستة ومضينا .

كان حسن فخوراً بالعربة - فالكاوتش جديد كما قالوا له . . وهو أمر كان نادراً في ذلك الوقت خلال الحرب فلا يمكن شراء كاوتش جديد إلا بإذن من السلطات

البريطانية . . بعد كيلو أو اثنين ضرب الكاوتش فاقترح حسن أن نذهب إلى أية ورشة لإصلاحه - ولكنني رفضت وقلت : اعملوا أنتم ما يترأى لكم فأنتم الذين ستظلون هارين كما قررنا أما أنا ومحسن فلنا خطة أخرى .

كان محسن فاضل شاباً دمث الخلق قضى شطراً كبيراً من حياته في فرنسا . . أين نخني إلى أن يطلع الصباح وننفذ خطتنا ؟ اقترح محسن أن نذهب إلى شقة سيدة فرنسية عاشت في مصر بعض الوقت مع صديق مصري لها ثم هجرها وبقيت هي بشقتها الصغيرة في ميدان الإسماعيلية - في وسط البلد - تنتظر انتهاء الحرب حتى تعود إلى وطنها ؟ . ضربنا الجرس ففتحت الباب ورحبت بمحسن وبني أحسن ترحيب . حكى لها محسن القصة بالتفصيل فتعاطفت معنا بكل كيانها .

كانت سيدة عظيمة في الواقع - تمثل روح الشعب الفرنسي أحسن تمثيل - ذلك الشعب الأصيل العاشق للحرية تماماً كشعب مصر . . استنكرت عودتنا إلى المعتقل كما كانت تقضى به خطتنا في الصباح . . ومازالت كلماتها ترن في أذني : - كيف تعودان إلى السجن بعد الحرية . . وبمحض إرادتكما ؟ لقد اقتصدت ٢٠٠٠ جنيتها هي كل ما أملك . . خذوا المبلغ بأكله واهربا إلى أي بلد . . هيا اذهبا . .

رفضنا شاكرين . . فعاتت تقترح أن نخنيء عندها وهي تتكفل بمصاريفنا مهما طال الوقت . .

كم كانت رائحة هذه السيدة الفرنسية في إلحاحها على أن نعطينا كل ما تملك وتبدأ هي حياتها من جديد رغم تقدم السن بها . . وكل هذا من أجل الحرية !

في الصباح وجدنا مائدة الإفطار في انتظارنا وفوقها الجرائد العربية وكل شيء معد على أحسن صورة . . تناولنا الإفطار ثم شكرناها ونزلنا إلى الشارع . . أخذنا تاكسي وتوجهنا إلى قصر عابدين . .

دخلنا القصر فوجدنا أحد الأمناء في حجرة الاستقبال ودققر التشريفات مفضوح - إلى هنا كل شيء عادي فالدققر مفتوح لأي مواطن يريد أن يشكر أو يستأذن في السفر أو أي شيء من هذا القبيل . .

توجهنا مباشرة إلى الدققر وقيد كل منا اسمه وقلنا إننا معتقلون في الزيتون وقد حضرنا خصيصاً لكي نقول للملك إن الحكومة يجب ألا تخضع للسلطة البريطانية كما لا يجوز إطلاقاً أن تاملنا هذه المعاملة البالغة السوء . . وإننا على الفور سنعود إلى المعتقل بمحض إرادتنا . . وقد هربنا لكي نبلغ هذه الرسالة للملك ولكي نقول له إن أربعة من زملائنا قد هربوا معنا ولكنهم لن يعودوا مثلنا إلى المعتقل . . بل سيظلون أحراراً يفعلون ما يريدون . . رهائن خارج السجن مقابل حريتنا جميعاً وتحديداً للسلطة . .

عندما قرأ التشريفاتي المسئول عن الدققر هذا الكلام فرغ وهرع إلى الأمين الأول يبلغه بما حدث ، جاء الأمين الأول وكان اسمه بندر وكان يعرفني من معتقل ماقوسة عندما كان في ذلك الوقت مدير النيابة . . قال لي إن هذا عمل جنوني وإنه سوف يثير أزمات وأزمات . . قلت له إننا سنعود فوراً إلى المعتقل وله أن يفعل ما يشاء . . وعلى مشهد منه ومن جميع مرؤوسيه الذين تجمعوا حولنا خرجت ومعى محسن وأخذنا تاكسي وتوجهنا إلى المعتقل . . فتحوا الباب ، دخلنا بالتاكسي ثم نزلنا وسلمنا أنفسنا . .

لم يكونوا قد اكتشفوا هربنا إلا صباح اليوم التالي حيث جاء وكيل النيابة ليحقق معنا - قلنا إننا فعلنا ما فعلناه لكي يحسنوا معاملتهم لنا . . وإن المقصود بالعملية إعطاء درس لوزارة الداخلية ولإدارة المعتقل وكان وكيل النيابة الذي أجرى التحقيق هو الأستاذ أنور أحمد الذي أصبح وكيلاً لوزارة الشؤون الاجتماعية بعد ذلك . .

طبعاً نقلوا قومندان المعتقل وتحسنت معاملتهم لنا بشكل ملموس ثم جاء أكتوبر سنة ١٩٤٤ .

في ذلك الوقت كان النحاس مازال في الحكم منذ أن فرضه الإنجليز على الملك في فبراير سنة ١٩٤٢ . . ومنذ ذلك الوقت والملك يتحين الفرص سنخلص من النحاس . . وأخيراً جاء الوقت المناسب في أكتوبر سنة ١٩٤٤ وضع انتصار الحلفاء وبدأت أعصاب الإنجليز تهبطاً ومخاوفهم تزول فأقال الملك النحاس وعين بدلاً منه أحمد ماهر . . وكان من أقطاب الوفد المنشقين على النحاس وزعيماً لحزب جديد شكله هو الحزب السعدي . .

بمجرد تولي أحمد ماهر الحكم أفرج عن زملائنا في المعتقل الذين ينتمون
إلى حزب كتبة فقد كان هناك شبه ائتلاف بين الكتلة والسعديين والأحرار
الدستوريين أما نوقد فقد كان وحده . . أفرجوا أيضاً عن أعضاء حزب مصر
الثقة ممن كانوا معنا بالمعتقل وكل الحزبيين المعتقلين . . الكل أفرج عنهم إلا
نحن المعتقلين بناء على أوامر السلطات البريطانية . .

إلى متى ستظل في المعتقل ونحن في نهاية سنة ٤٤ والحرب قد اتضحت نتائجها ؟
لا بد من عمل شيء . . حررت زملائي فأضربنا عن الطعام . . ولكن بعد
فترة لم ينحمسوا بالخروج فعادوا إلى تناول الطعام أما أنا فلم أتنازل مطلقاً
فأضربوا حسب القانون إلى نقلي إلى مستشفى القصر العيني الجديدي لكي أكون
تحت رعاية أطبية حسبما تقتضى القوانين .

هناك أوقفت إضرابي عن الطعام . . وبعد فترة قصيرة زارني في المستشفى
زميلي حسن عزت الذي كان قد حارب من معتقل المنيا وقال : ماذا تفعل هنا ؟ . .
لا بد من تدبير خطة خروبيك . . وفعلاً دبنا الخطة . .

في ساعة الظهيرة عندما يزدحم المستشفى بالداخلين والخارجين من آلاف
الناس جاء حسن عزت بعربة (أوسن) صغيرة ووضعها تحت مظلة الأطباء . .
ولم يوقف الموتور . . خرجت أنا إلى فناء المستشفى وخلقى حارسى . . وفي زحمة
الناس استطعت بسهولة أن أتوارى عنه وبسرعة بلغت العربة التي اختفت في
وحسن عزت في لمح البصر . . وبعد دقيقتين وصلنا منطقة فم الخليج حيث
الشقة التي كان قد جهزها حسن كخبأ لي على بعد دقائق قليلة .

كان هذا في أكتوبر سنة ٤٤ كما قلت . . وبقيت مخبئاً هارباً من وجه
العدالة إلى سبتمبر سنة ٤٥ عندما سقطت الأحكام العرفية فبسقوط الأحكام
العرفية انتهى اعتقالى حسب القانون - هذه ميزة سيادة القانون التي أحترمها
وأدين بها وأطبقها الآن وأنا رئيس لجمهورية مصر . .

ماذا حدث لي طوال سنة كاملة منذ أكتوبر سنة ٤٤ إلى سبتمبر سنة ٤٥ وأنا
هارب من وجه العدالة . . ويمكن في أية لحظة أن يقبض على وأعود إلى المعتقل
أو ربما إلى السجن ؟
هذه قصة أخرى . .

V

كانت فترة الهروب مليئة بالأحداث . . فقد كان لا بد أن أعمل لكي أجد
لقمة العيش لي ولأولادى فم يكن والدى في وضع يسمح له بمساعدتي
بأى شيء على الإطلاق . . ولذلك كان على أن أخرج للحياة فأطلقت ذقني
لأخفى ملاحى وسميت نسي الحاج محمد .

أول ما قامت به هو أتى عملت حمالاً على عربة لورى كان يملكها
زميلي حسن عزت . . بدأنا أنا وسائق اللورى بالعمل لحساب تاجر
اسمه غويبة كان متعهداً للجيش البريطانى في الإسماعيلية . . وأذكر أنه
في مرة من المرات وصلنا الإسماعيلية في المساء فتكرم علينا غويبة وسمح
لنا أن نبيت ليلتنا في مكتبه على الأرض . .

كان غويبة هذا مليونيراً من أغنياء الحرب فلما أصدر عبد الناصر قوانين
الإشراكية في سنة ٦١ وضع غويبة أمواله تحت البلاطة كما نقول وارتنى
ملايس رثة للغاية فصدق عبد الناصر ورجاله أنه معدم فعلاً . . ولم يكن
غويبة فريداً في هذا فقد فعل مثله الكثيرون من الأثرياء في عهد عبد الناصر
وقبله . فالشعب المصرى على مدى تاريخه الطويل قد تعلم كيف يخدع
حكامه إذا تعارضت أوامر الحكام مع رغبات الشعب ومصالحه . .

نعود إلى قصتى مع غويبة . . في المرحلة الثانية من عملي معه عهد إلى
بنقل الخضرو الفاكهة إلى معسكر الإنجليز في التل الكبير . . وأذكر أنني
عندما سلمت أول شحنة لاحظت أنها محملة بأسوأ أنواع البرتقال . .
فاندهشت ولكنى اكتشفت أن هناك اتفاقاً بين المتعهد ومسئول التموين
بالجيش الإنجليزى Quarter - Master على الغش طبعاً . .

وبعد فترة طلبوا منا عدم إمدادهم بأى تموين . . فقد لجأوا إلى
استيراد جميع متطلباتهم من اليهود في فلسطين . . ربما لأنهم كانوا أكثر
قدرة على الغش والرشوة من المصريين . . وربما لسبب آخر لا أعرفه ولكن
بهذا توقف عملي مع غويبة . .

عملت بعد ذلك في بلدة اسمها مزغونة (بالقرب من القاهرة) وكان عملي بها أن أنقل الحجر (الدبش) من المراكب الآتية بالنيل إلى أن أصل بها إلى الطريق الذي كان في ذلك الوقت يرصف بين القاهرة وأسوان . كنا نعمل من مطلع الفجر إلى غروب الشمس دون توقف وفي نهاية اليوم كنت أهرع إلى مطعم صغير حيث أتناول شوربة العدس الساخنة في برد الشتاء القارس بعد جهد وجوع يوم بأكله . . فكانت أشهى طعام أكلته في حياتي بمجرد أن ألتهمه وأحس بالشبع والدفع آوى مباشرة إلى جراح مسقف بالصفوح لأنام . .

كان ذلك في ديسمبر سنة ٤٤ ومع مجيء سنة ٤٥ انتقلت إلى بلدة أبو كبير بالشرقية وعملت في مشروع شق ترعة رى تسمى ترعة الصادي بالمنطقة وكان من عادة مصلحة الري في ذلك الوقت أن تشق ترعة جديدة كل سنة . .

سكنت في منزل صغير في مكان اسمه عزبة طلعت أجرتة منه . . وكان السقف من حطب القطن . . وفي ليلة من ليالي الشتاء أمطرت السماء مطراً شديداً فاخترق الماء سقف الحجرة وبدأ يتساقط فوقى . . ماذا أفعل ؟

غطيت رأسي وجسمي بقماش خيمة صغيرة كنت أحملها معي دائماً . . وتحمل قماش الخيمة المطر الذي لم ينقطع طول الليل وظل ينهمر بغزارة فوق الخيمة وأنا تحمها أسمع بضرب القماش بعنف مما أطار النوم من عيني . . ولكن لعله التعب والإجهاد . . أو لعله صوت المطر وهو يسقط فوقى في رتابة . . لا أعرف ولكني نمت تلك الليلة نوماً عميقاً إلى أن طلع الصباح . . وكان الحفير يجامني فيقدم لي كل صباح اللبن الربادى أو اللبن « المترد » فأتناوله . . ولم أكن أعلم أن معدنى ليست سليمة وأن اللبن بالذات من أكثر الأشياء التي تضر بها . .

ثم مشروع شق الترعة فوجدت نفسي مرة أخرى بدون عمل ولكن لم يطل انتظاري . . ففى بلدة سنور شرق النيل جنوب بنى سويف فى صعيد مصر وسط الصحراء القاحلة وجدت عملاً واشتغلت . . كانت هناك شركة مصر

للمناجم والمهاجر وهى تملك امتياز منجم الرخام الألباستر الوحيد الموجود فى هذه المنطقة . . وكان هذا المنجم يعمل أيام الفراغة ثم أهمل إلى أن أتى محمد على فأعادته إلى العمل وبنى منه مسجد القلعة . . فى هذا المنجم عملت وكان يبعد عن شاطئ النيل ٥١ كيلو متراً ولكن محمد على أقام استراحات كل منها تبعد عن الأخرى ١٧ كيلو . . وبقيت هذه الاستراحات قائمة وموجودة إلى اليوم . .

كنت أعمل كمقاول لنقل الرخام . . وسوف تدهش إذا علمت أن الاستراحة التى بناها الملك فاروق فى الهرم لنفسه من هذا الرخام (وهى اليوم كازينو) وأن جميع رخام هذه الإستراحة قد قطعه أنا من الحجر ونقلته بنفسى إلى منطقة الأهرامات لكى يبنى فاروق استراحته ثم لكى يستمتع بها الشعب اليوم بعد أن أصبحت كازينو مفتوحاً للشعب .



بانتهاى الحرب سقطت الأحكام العرفية وكان ذلك فى سبتمبر سنة ٤٥ فخرجت إلى الحياة إذ يسقط الأحكام العرفية أو ما يسمى قانون الطوارئ . . يسقط حتى الاعتقال . . وهذه ميزة سيادة القانون .

وهكذا عدت إلى بيتى بعد ثلاث سنوات من التشرذم والحرمان . . وارتديت ملابسى وبدأت أظهر بالصورة التى يعرفنى بها أهلى وأصحابى . . صورتي التى تعودتها . .

فى تلك الفترة لم يكن عندى أى عمل . . وكانت الحمة مليمت بالنسبة لى عملة صعبة بكل معنى الكلمة . . فكنت أسير على الأقدام يوماً من منزلى بكوبرى القبة إلى العتبة . . أى أكثر من ٢٠ كيلو . . لأنى لا أملك ٦ مليمت أجره الترام . . ولقد نشأت على حبي للجسمال فى كل شىء . . وكانت ملابسى ضمن الأشياء التى أنطلب فيها الجمال . . وكانت عندى جاكطة أعز بها كثيراً ارتديتها قبل اغتقالى مرات معدودة فقررت أن

أبيعها في محل من محلات وسط البلد التي تشتري الأشياء المستعملة . .
وفعلاً أخذتها وتوجهت إلى إحدى هذه المحلات ولكنني عندما أصبحت على مسيرة
قدمين من المحل توقفت . . لا بد أن صاحب المحل سيتصور أنني سرقها فليس من
المعقول أن شاباً رث المظهر بهذا الشكل يمكن أن يمتلك هذه الجاكته الوجيهة . .
خطر لي هذا الحاضر وأنا أقف أمام التاجر فترجعت وعدت إلى البيت سيراً
على الأقدام ومعى الجاكته . . كنت أعرف أن التاجر لن يسألني من أين أتيت
بالجاكته . . وكنت واثقاً من أنه سيشتريها مني بأى ثمن . وأن المبلغ الذي
سيدفعه مهما كان ضئيلاً سوف يفك ضائقتي . . ولكنني قضيت أن لا أشوه
صورتى في نظر إنسان لا أعرفه ولا يعرفني مهما كلفني هذا . .

ولكن ماذا عن صورتى لنفسى كما أراها بعيني ؟ هل هي حقاً ما أردت لها
أن تكون ؟

لقد عادت حزيني . . هذا ما كان بعينه انتهاء الأحكام العرفية . . ولكن هل
أحسست أنا بالحرية كما يشعر بها سجين أطلق سراحه ؟ إن مصر ما زالت
حبيسة والشعب ما زال لا يملك من أمر نفسه شيئاً . .

ولذلك بمجرد أن عاد إلى كيانى كموطن حر طليق كان أول عمل
قمت به هو تكوين الجمعية السرية . . فكيف تتحرر الذات بدون أن يتحرر
الوطن ! ؟

كان ذلك في سبتمبر سنة ٤٥ ولم يمض على خروجى إلى الحياة سوى أيام قليلة . .
اتصلت بعمر أبو على شقيق زميلى سعودى حسين الطيار الذى سبق أن
أرسلناه لروميل وضربت طائرته - وعرفنى عمر بشاب اسمه حسين
توفيق اتضح أنه كان يمارس قتل الجنود الإنجليز في المعادى قبل أن ينضم
إلينا . . ولكن هل قتل حفنة من الجنود الإنجليز هو الطريق إلى تحرير
مصر ؟ طبعاً لا . . ربما كان هذا العمل مجرد تدريب ولكن المهم أن نتخلص
من كانوا يساندون الإنجليز في ذلك الوقت . .

وكان على رأس هؤلاء في نظرنا مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد
الذى سقط في نظرنا منذ أن فرضه الإنجليز بقسوة السلاح في ٤ فبراير ٤٢ . .

فلا شيء يعادل خيبة الأمل التي يصاب بها الشباب في زعيم كان يوماً مثمنهم
الأعلى . .

وما زلت أذكر كيف كنا ونحن طلبة نخرج إلى الشارع مرتين كل يوم
نتنظر ذهاب النحاس إلى بيت الأمة وعودته منه لتراه ونهتف ونصفق له . .
كان يطلا أسطورياً ورمزاً فريداً للوطنية والقداء والعطاء . . أما بعد
٤ فبراير فقد فقد كل شيء وأصبح في نظرنا خائناً لمصر ولشعبها بجم عينا واحداً
الوطنى أن تزيله من طريقنا . . ولذلك قررنا التخلص منه . .

كانت عادة النحاس أن يذهب في يوم مولد النبي إلى النادي السعدى وهو
مقر حزب الوفد ليلقى خطاباً بهذه المناسبة . . وصادف ذلك يوم ٦ سبتمبر
سنة ٤٥ فخرجت أنا وبعض أفراد الجمعية السرية لتنظر خروج النحاس من
جاردن سبتي إلى شارع القصر العيني حيث يوجد النادي . . كان أبوليس
يحرس الطريق منعاً للشغب . . فلا أحد يملك أن يمنع النحاس من إلقاء خطابه . .
رغم أن أحمد ماهر كان في الحكم والنحاس ضِعماً خارج الحكم . . ولكن
كانت هناك قيم وأصول يحترمها الجميع في ذلك الوقت . .

كنت قد دربت أعضاء الجمعية على استعمال القبائل اليدوية . . وكان لدى
سيقوم بالعملية هو حسين توفيق . . وفعلنا ألقى القبلة في الوقت المناسب
ولكن سائق النحاس فوجيء وهو ينطلق من جاردن سبتي بعربة تراه في شارع
القصر العيني تكاد تصطدم به . . فأسرع لكى بتحاشاها . . كان فرق السرعة
ست ثوان لا أكثر . . ولكنها كانت كافية . . فعندما انفجرت القبلة كان
النحاس وعربته خارج منطقة الانفجار . . فأصاب الشظايا عربة أتوبيس
بها فتيات A. T. S. التابعات للقوات المسلحة البريطانية . .

طبعاً كنت أنا وبعض أفراد الجمعية السرية في مواقعنا نراقب العملية
فانسحبنا في هدوء وركبنا الترام إلى ميدان الإسماعيلية (التحرير الآن)
وهو على بعد دقائق قليلة من مكان الحادث . . حيث توجهنا إلى مقهى (أسترا)
مكائنا المفضل الذى كنا نعقد فيه أغلب اجتماعاتنا . .

في نفس المقهى قررنا التخلص من أمين عثمان الذى تولى وزارة المالية طوال
حكم النحاس بعد أن فرضه الإنجليز في ٤ فبراير . .

ولكن لم يكن هذا هو السبب في إدانتنا لأمين عثمان . . فلم يكن له أثر يذكر في سياسة الوفد أو على النحاس نفسه . . ولكنه كان أكثر من صديق للإنجليز . . ومسانداً لبقائهم في مصر بشكل لم يسبق له مثيل . .

كان قد كون في تلك الأيام نوعاً من الحزب السياسي أطلق عليه اسم (رابطة النهضة) وهنا أحب أن أسجل للتاريخ أنه لم يكن في مصر حزب سياسي واحد لم أدخله من باب المعرفة ربما أو من باب البحث عن منفذ نخلص به مما كنا فيه . كان مقر (رابطة النهضة) هذه في شارع عدلى وسط القاهرة . . وكانت لها ستة مبادئ أساسية ينص المبدأ الثاني منها على أننا مرتبطون بإنجلترا ارتباطاً حتمياً . . فقد أعلن أن مصر وإنجلترا قد تزوجا زواجاً كاثوليكيّاً . . فحسب لو تركنا هي يتحم علينا أن لا نتركها .

هذا التصريح كان بمثابة حكم الإعدام عليه . . كان ذلك في يوم السبت ٦ يناير سنة ١٩٠٦ وأمين عثمان قد عاد من إنجلترا قبل ذلك بيومين وزار المندوب السامي البريطاني لورد كيلرن في ظهر نفس اليوم وفي المساء ذهب إلى مقر الرابطة . . وكان حسين توفيق في انتظاره عند باب العمارة حسب الخطة . . قبل أن يصل إلى المصعد ناداه حسين : « يا أمين باشا . . يا أمين باشا » التفت إليه أمين عثمان فأطلق عليه حسين رصاص سلسه . .

كان الظلام مازال يسود القاهرة طبقاً لما كان يطبق أثناء الحرب العالمية الثانية وكان في الإمكان أن يهرب حسين توفيق دون أن يلتفت إليه أحد ، ولكن تصادف مرور ضابط طيران اسمه مرسى رأى حسين توفيق وشاهد العملية كلها ونبه الناس إليه . . فجروا وراءه . . وظل يجري وهم وراءه حتى ازداد عددهم واشتد حصارهم ففجر قبلة من قبيلتين يدويتين كنت أعطينهما له وأوصيته ألا يستعملهما إلا في حالة الضرورة . . وبعيداً عن الناس . . وفعلاً عمل بالوصية فرمى القبلة داخل سور (صندوق الدين) . . وأدى الانفجار الغرض المطلوب فانصرف عنه الناس . . وعاد هو في هدوء إلى بيته بمصر الجديدة . .

كنت في هذه الأثناء أجلس في مقهى قريب فسمعت على أثر سماعي الانفجار

لأننا أكد من عدم وجود ضحايا بين الأهالي . . فلما اطمأن بالي أخذت الترام وذهبت إلى بيتنا في كوبرى القبة .

في الصباح قرأت خبر اغتيال أمين عثمان في الجرائد وكيف أن المندوب السامي البريطاني استدعى له كبير أطباء الجيش الإنجليزي في محاولة يائسة لإنقاذه . . وذكرت الصحف أيضاً ضمن تفاصيل الحادث كيف أن أمين عثمان يوم اغتياله كان ضيف المندوب السامي البريطاني الذي استقبله في الظهر وتناول طعام الغداء على مائدته .

في تلك الأيام كانت مقابلة المندوب السامي تعتبر تشريفاً كبيراً لأى سياسي . . إذ كانت تعني في أغلب الأحيان ترشيحاً لرئاسة الوزارة . . ثم إن أمين عثمان كان قد عاد قبل يومين من إنجلترا . . فهو إذن موضع حماية ورعاية من الحكومة البريطانية ومن يمثلها في مصر . . ولكن رغم هذا تم اغتياله . . وقد ترك كل هذا أثره في نفوس الجماهير فقد أوضح بما لا يقبل الشك أن الإنجليز قد فقدوا القدرة على حماية أنصارهم . . بل على العكس أصبح من هو قريب منهم في موضع ضعف لا موضع قوة كما كان الحال من قبل . .

وهكذا تحقق لنا ما نريد باغتيالنا لأمين عثمان . . فإلى جانب أننا نخلصنا من أحد أنصار الاستعمار قضينا إلى حد كبير على الهالة التي كانت تحيط بالسلطات البريطانية وجعلنا صورة الاستعمار تهتز في نظر الناس بشكل لم يحدث من قبل . .

طبعاً لم يمر مقتل أمين عثمان بدون تدخل البوليس الذي ذهب يتحرى في مكان الحادث فإذا بالطيار مرسى يتطوع لمعاونتهم وبعطيهم أوصاف القاتل التي انطبقت على حسين توفيق وقد كان عندهم محل شبهة منذ أن كان يمارس قتل الإنجليز في المعادى فذهبوا إلى منزل والده حيث كان يقيم فوجدوه على مائدة العشاء . . سألوه أين كان وقت حدوث الجريمة ولما لم يستطع الإجابة قبضوا عليه على ذمة التحقيق . .

صمت حسين توفيق في أول يوم . . وفي ثاني يوم لازم الصمت أيضاً . . وأغاظ هذا وكيل النيابة وكان رجلاً ماكرراً فأوعز إلى الصحف بالإشارة إلى أن

وقال وكيل النيابة كامل قاويش : نعم أنا هنا بنفسى . . وأنا بنفسى الذى أحقق قضية اغتيال أمين عثمان . .

فهمت . . فقد كان هو الذى نصب الكمين لحسين توفيق واضطره إلى الاعتراف .

فتشوا البيت حجرة حجرة . وبعد التفتيش أخذوني معهم إلى سجن الأجانب . . تماماً كما حدث فى سنة ١٩٤٢ .

٩

فى سجن الأجانب وضعوني فى زنزانه بمفردى . . سألت على حسين توفيق فعرفت أنهم وضعوه فى الزنزانه رقم ١ فى الدور الأول - وهى حجرة كبيرة جداً . . أما بقية أعضاء الجمعية فوزعواهم على حجرات أخرى كل على أفراد . . طبعاً أنا فى سابق معرفة بسجن الأجانب وحراسه وكل من يعمل به . . عرفت مهم أن وكيل النيابة يلتقى بالأولاد كل ليلة حيث يجرى معهم التحقيق وأنه يسهر معهم إلى مطلع الفجر . . يتناولون العشاء معاً على حساب وكيل النيابة . . المسألة أصبحت مسألة صداقة . . وخاصة . . كما علمت . . بين وكيل النيابة وحسين توفيق . .

ماذا أفعل ؟ اتصلت بالأولاد عن طريق السجناء وأوصيتهم بأن ينكروا إنكاراً تاماً اعترافهم السابقة . . فهذه هى الطريقة الوحيدة لعدم إدانتهم . . بدأ بعضهم فعلاً ينكر ما سبق أن اعترفوا به - أحس وكيل النيابة بأن شيئاً ما يحدث ضد مصلحته ومصلحة التحقيق . . وأنى أنا السبب فأمر بنقلى إلى الدور الأعلى حيث أكون بمعزل عن بقية المتهمين . . وفعلاً تم نقلى ولم يعد فى إمكانى الاتصال . .

بقيت فى حجرتى الحديدية حوالى أسبوع . . لا تحقيق ولا اتصال من أى نوع . . وفجأة فتحوا باب حجرتى فى الساعة الثانية صباحاً وطلبوني للتحقيق . . نوع من الإرهاب . . وإلا فلم الساعة الثانية بعد منتصف الليل بالذات لبدء التحقيق ونحن فى يناير والشتاء قارس البرودة ؟

الجريمة كانت أسبابها نسائية . . وهنا انفجر حسين توفيق واعترف . . وكان وكيل النيابة يعرف فيه طبيعته فى حب البطولة ولذلك أفلح فى الكمين الذى نصبه له . اعترف حينه بالكامل وبشكل لا يختلف عن الطريقة التى سبق أن اعترف بها (أبلر) الجاسوس الألمانى إن لم يكن أكثر اندفاعاً وعنفاً .

فى يوم ١٠ يناير سنة ٤٦ اعترف حسين توفيق ودل البوليس هو وبعض أفراد الجمعية السرية على مخزن السلاح الذى كان فى جبل المقطم . . قلت فى نفسى لقد انتهى الأمر تماماً ولكن كان ما زال عندى بصيص أمل فى أن يكون حسين توفيق قد أخفى أمرى عن البوليس . .

فى ١١ يناير ١٩٤٦ وصل الملك عبد العزيز آل سعود إلى القاهرة فى زيارة رسمية للملك فاروق وكانت المدينة والدولة كلها تستعد لاستقباله منذ فترة . . فقد كان عبد العزيز رحمه الله بطلاً شهماً كريماً وقد أكرم فاروق عند زيارته للسعودية فأراد فاروق أن يزيد فى إكرامه له . . هذا إلى جانب أن الملك عبد العزيز كان يحب مصر . . وهذا تقليد عند الأسرة السعودية فهم دائماً حريصون على تنسيق وتوثيق علاقاتهم بمصر . . فخرجت مع غيرى من الناس لاستقبال الملك عبد العزيز . . ووقفت فى انتظار الموكب إلى أن مر أمامى فى ميدان الأوبرا تحت حراسة مشددة جعلتني أضحك منهم . . فنحن لا نفكر فى أن نصيب الملك عبد العزيز بأى أذى . . إن هددنا أعداء مصر لا أصدقاؤها . .

كانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما مر الموكب فعدت إلى بيتنا فى كوبرى القبة . . فلم يكن فى مقدورى أن أفعل شيئاً سوى أن أبكى فى البيت ، أعيش على أعصابى وأنتظر . .

ولم يطل انتظارى فى الساعة الثانية صباحاً من ليلة ١١ - ١٢ يناير ٤٦ قرعوا الباب ودخلوا كما فعلوا فى سنة ١٩٤٢ . . ولكن هذه المرة لم يكن هناك الإنجليز . . بارحت فراشى وذهبت إليهم . . وكان الجو قارس البرودة . . سألت :

- هل معكم أمر من النيابة بالفتيش ؟
وأجابوا : إن معنا وكيل النيابة نفسه .

فتحوا المحضر وسألوا :

— أقرالك ؟

— بالنسبة لماذا ؟

— حسين توفيق اعترف عليك بكذا وكذا وكذا ..

عرفت أن حسين اعترف بكل شيء .. أدق التفاصيل ذكرها .. لم ينس شيئاً على الإطلاق .. وكان عقله آلة تسجيل ..

كنت أعرف أن بعض الأولاد قد أنكروا ما اعترفوا به من قبل وأن هذا الإنكار فيه تميع للقضية .. ولكن بقي ركن هام لإفساد القضية إفساداً تاماً .. وهو التعذيب .. فكرت بسرعة وقلت لو كيل النيابة : —

— كل ما اعترف به حسين توفيق غير صحيح على الإطلاق أما بالنسبة لغيره من الأولاد فأنا مستعد لمواجهةهم واحداً بعد الآخر .. وسترى بنفسك كيف أن اعترافاتهم السابقة كانت كلها كاذبة ولذلك أنكروا بعضهم .. ثم إن هناك شيئاً هاماً يجب أن يثبت في التحقيق ..

— ماذا ؟

— أنكم استدعيتوني للتحقيق في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ..

— هذا مثبت بالمحضر ..

— أعرف ولكن أطلب إثبات أن هذه عملية تعذيب — فقد أبقتهم في النوم في حين كان النهار كله أمامكم وهذا الذي فعلتموه قد أصابني بهزة عصبية شديدة ..

أثبتوا ما قلته .. ثم أقفلوا المحضر وهم في غاية الاطمئنان فقد كانت القضية في نظرهم منتهية وخاصة بعد اعترافات حسين توفيق وغيره .. بعد ذلك كانوا يرسلون في طلبي أثناء النهار .. ومرة سألوني :

— أليس لديك أقوال جديدة ؟

— لا .. أبداً .. على العكس أنا ما زلت أصر على مواجهة جميع المتهمين .. وكيل النيابة وجد أني ثابت .. بدأ يهتز .. فأخذ خطأً جديداً في التحقيق ..

— تعرف عمر أبو علي ؟ تعرف فلان ؟ أجبني أني طبعاً أعرفهم جميعاً ..

فهذا شقيق صديق قديم لي .. وذاك عرفته بمناسبة كذا .. وكذا .. وجدت مبرراً لمعرفتي بهم .. ولكنني أنكرت .. بل استنكرت أن تكون لمعرفتي بهم أية صلة بما يدعونه في اعترافاتهم والدليل على صدق كلامي أني مستعد لمواجهةهم واحداً واحداً ..

بدأ الخوف يدب إلى قلب وكيل النيابة فأنا بإصراري هذا أفدت ما قالوه فأمر بإعادتي إلى زنزاني وتركني أسبوعاً بأكله دون تحقيق .. في خلال هذا الأسبوع كان وكيل النيابة يكدح ذهنه .. كيف يدبني وكنت أنا أيضاً أفكر كيف أفسد القضية .. وأهتديت في تفكيري إلى أن الشخص الوحيد بين المتهمين الذي صمد ولم يعترف بأي شيء هو ابن خالة حسين توفيق وكان شاباً صغيراً اسمه محمد كامل .. اتصلت به عن طريق السجن فوجدت منه استجابة أسعدتني كثيراً .. فهو شاب يمكن الاعتماد عليه وأنا وهو معاً يمكننا إفساد القضية تماماً .. (هذا الشاب محمد كامل هو وزير الخارجية الحالي) ..

في هذه الأثناء عرفت أن وكيل النيابة كان على اتصال دائم بحسين توفيق وبقيه المتهمين .. يسهر معهم كل ليلة ويرسل في طلب العشاء لهم من خارج السجن .. هو إذن يواصل جهوده لاستمالتهم إليه .. قررت أن أسيقه ..

في ليلة فجأة طلبت استدعاء مأمور السجن وقيل أن يسأل عن سبب استدعائي له فاجأته بقولي : —

— أريد ورقة وقلماً لأكتب برقية إلى النائب العام ..

أحضروا ما طلبت فكتبت برقية أطلب فيها إرسال وكيل نيابة للتحقيق لأنني أعيش تحت ضغط شديد .. وكيل النيابة المحقق يريدني أن أعترف بأمر لم أرتكبها إطلاقاً .. ومأمور السجن وضباط البوليس السياسي يمارسون معي أقصى أنواع التعذيب ..

قرأ مأمور السجن هذا الكلام فاندحش : —

— ما هذا الذي كتبه ؟ من هم ضباط البوليس الذين عذبوك ؟

— توفيق السعيد والحزارة ..

- ولكن منى وكيف ؟

- هذا شأني . . .

كان سبب هذه الحكاية التي ألفتها أنه في يوم من الأيام قبل تقبي من الدور الأرضي إلى الدور الأعلى فتح باب زنزاني الضابط توفيق السعيد لكي أخرج وأتمشى في فناء السجن مدة الربع ساعة المخصصة لكل منا قبل دخول المساء . . . كنت أعرفه ويعرفني منذ إقامتي بسجن الأجانب في سنة ١٩٤٢ فتبادلنا التحية وإذا به يقول لي :-

- مفيش داعي يا أنور للإنكار . . . كلهم اعترفوا . . . وليس هذا فقط . . . بل أخذونا معهم إلى مخزن الأسلحة في جبل المقطم وأتينا بالأسلحة من هناك ، يعني كل شيء ثابت والقضية اكتملت فقيم إصرارك على الإنكار ؟

قلت : هل تريدني أن أعترف ؟

قال : نعم .

قلت : وهل عندك أدنى شك في أننا قتلنا أمين عثمان ؟ نعم قتلناه - لأنه خائن ويستحق الذبح !

قال مستكراً : أمرك غريب والله . . . هل نسيت أن في البلد قانوناً ؟

قلت : أعرف أن هناك قانوناً ولكنه لا يسرى على الخونة ولذلك يتحتم علينا أن نتولى نحن أمرهم . . .

قال : على أي حال أنا سعيد لأنك اعترفت . . . فالإعتراف سيخفف الحكم عليك . . .

وفجأة التفت إليه وقلت : اسمع يا توفيق . . .

قال : نعم

قلت : هل صدقت أننا قتلنا أمين عثمان حقاً ؟ أنا قلت لك هذا لأخذك وجهها لوجه ولو كان معنا اثنان من الشهود لما قلت لك شيئاً لأن العبرة في الاعتراف أن يكون أمام اثنين من الشهود . . . هل نسيت ؟

قال : لا تتعب نفسك على أي حال . . . فالكل اعترفوا . . . وإنكارك لن يفيدك في شيء . . .

قلت : سنرى . . .

اخترت هذه الواقعة مع توفيق السعيد لاستعمالها في الوقت المناسب . . . وبناءً عليه أرسلت البرقية إلى النائب العام استغيث به . . . وأعطيها مأمور السجن . . . الذي نزل بها إلى وكيل النيابة القاويش ففتح المحضر وأثبت البرقية فيه . . . لم يكن يملك أن يفعل غير هذا فرغم أن التحقيق كان مازال سريعاً إلا أنه عندما تزول السرية وأبلغ المحامين أتى أرسلت برقية للنائب العام ولم تثبت في المحضر ستعتبر القضية لاغية من أولها إلى آخرها . . .

استدعاني القاويش بعد ذلك فنزلت حيث رأته جالساً وإلى جانبه مأمور السجن وتوفيق السعيد والجزار وابتدأ التحقيق . . .

س : هل كتبت البرقية ؟

ج : نعم .

س : لماذا ؟

ج : لأن هناك تعذيباً وقع على .

س : من الذي عذبك ؟

ج : مأمور السجن وتوفيق السعيد والجزار .

س : تركوا علامات على جسمك ؟

ج : لا وليس بالضرورة أن يترك التعذيب علامات . . . يكفي أنهم شتموني

وصفغوني على وجهي وضربوني « بالشلايت » فهل تترك هذه أي آثار ؟

ثم لأنهم يريدون إجباري على الاعتراف . . . توفيق السعيد حاول هذا

أكثر من مرة . . . وقال لي لكي يغربني على الاعتراف بأنهم ذهبوا

إلى جبل المقطم وأتوا بالأسلحة التي يقول لي أخفيها هناك .

بدت الدهشة على وجه القاويش لأن هذه الواقعة من أسرار التحقيق

والمفروض أن يواجهني هو بها . . .

أخذ أقوال مأمور السجن والجزار وتوفيق السعيد والكل أنكروا . . التفت
إلى توفيق السعيد وقلت : -

- في اليوم التالي ألم تفتح باب حجرتي على في الساعة الثانية صباحاً ؟ ألم توقظني
من النوم في البرد القارس وتتهجم عليّ ؟

- توفيق السعيد أجاب : أبدأ . . لم يحدث هذا .
قلت : حاول أن تتذكر جيداً . .

وراح توفيق السعيد يضرب كفاً بكف وينظر إلى باستغراب .
قلت : هذا حصل .

قال : أبدأ كل ما حدث أتى قابلته في فسحة العصر ودار بيننا حديث .

قلت : أبدأ . . الساعة كانت الثانية بعد منتصف الليل « وانت أنهجت عليّ
وشتمتني وضربتني » وقلت لي إذا لم تعترف فسوف تلقى أسوأ مصير . . لأن
القضية جاهزة . . وإدانتك واضحة وخاصة بعد أن اعترف الجميع .

كنت أعرف أن مثل هذه الأقوال كفضيلة يهدم القضية وخاصة عندما تخرج
إلى حيز العلانية ويناولها المحامون ويستغلونها أحسن استغلال . .

أدرك وكيل النيابة القاويش ذلك . . فواجهني بالتهمين ما عدا حسين توفيق . .
بعضهم قد اعترف وتمسك باعترافه . . أما عمر أبو علي فكانت واثقاً منه . .
نظرت إليه ففهمني مباشرة . . أنكركل ما سبق أن قاله . . جن جنون القاويش
إذ أدرك أن القضية بدأت تنهار فأمر بعودتي إلى الزنزانة . . راجعت مع نفسي
كل ما حدث . . كنت مرتاحاً إلى أن عمر أبو علي أيدني ثم أتى أثبت التعذيب . .
ولكن ما زال هناك شوط على أن أقطعه . .

طلبت مأمور السجن . . حضر إلى زنزانتي . .

- ورقة وقلم . .

- مرة أخرى ؟ ما الذي جد ؟

- هذا شأني . .

أحضروا الورقة والقلم . . وكتبت إلى النائب العام : « أرجو إنفاذي من

وكيل النيابة المحقق . . لقد سبق أن استغثت بك من التعذيب الذي حدث لي
وقد أخذ وكيل النيابة أقوالى وأقوال من عذبوني ولكن التعذيب مازال مستمراً . .
ولذلك فأنا أطالب بوكيل نيابة آخر يحقق معي . . علماً بأنني مضرب عن الطعام
منذ هذه اللحظة احتجاجاً على ما يحدث لي . . وقد طلبت من مأمور السجن
أن يفتش حجرتي ليتأكد من أنه لا طعام بها . .

أرسل القاويش وكيل النيابة في طلبي وفتح المحضر . .

- أنت مضرب عن الطعام ؟

- نعم .

- السبب ؟

- التعذيب .

- من الذي يقوم بتعذيبك ؟

- أنت أولاً ثم الجزار وتوفيق السعيد . . ومأمور السجن الذي يأمر
رحاله باقتحام حجرتي في الليل والتهجم على بالسب والضرب ثم ينسحبون
ليعاودوا التهجم مرة أخرى وهكذا طول الليل . .

أخذ القاويش أقوال كل من اتهمهم . . طبعاً أنكروا . . وخصوصاً
مأمور السجن الذي أكد أن شيئاً مما قلته لم يحدث على الإطلاق . . تمسكت
بأقوالى .

أدرك القاويش أن هدفي من كل هذا تفويض أركان القضية . . وخاصة أن
محمد كامل كما سبق أن رويت رفض الاعتراف وأن عمر أبو علي غير
أقواله . . لم يكن أمام القاويش إلا أن يواجهني بأكثر المتهمين صلابة وأكثرهم
انحيازاً إليه وهو حسين توفيق . .

وفعلاً تمت المواجهة في الحال . . حسين توفيق أصر على موقفه . .

الفصل الثالث

نحو تحرير الذات الزنزانية ٥٤

كانت الساعة الخامسة والنصف مساءً عندما وجدت نفسي داخل الزنزانة ٥٤ في سجن قره ميدان . . . وتلفت حولي . . . كل شيء يختلف اختلافاً تاماً عن سجن الأجانب . . . فلا سرير ولا مائدة صغيرة ولا كرسي ولا نور . . . ولا أي شيء على الإطلاق . . . فقط أرضية الحجر المصنوعة من الأسفلت وفوق جزء منها « برش » من الليف الحشن بالكاد يكفي لكي يتمدد عليه الإنسان لينام ملتحفاً ببطانية قليرة إلى أبعد حدود القذارة التي لا يمكن أن تتصورها مهما حاولت . . .

أما حيطان الزنزانة ففي الشتاء ينشع منها الماء ليل نهار وفي الصيف تعطيها مع الماء جيوش من البق لا حصر لها . . . كيف يستطيع البق أن يعيش مع هذه المياه التي لا تجف لحظة ؟ . . . لم أعرف . . . ولا أعرف إلى الآن . . .

هكذا عشت سنة ونصف كاملة . . . لا قراءة ولا كتابة ولا راديو ولا نور ولا أي شيء مطلقاً . . . ففي هذه الأثناء كانوا قد نقلوا بالترتيب جميع المتهمين في القضية إلى سجن قره ميدان . . . كل في زنزانية منفردة بطبيعة الحال . . . فقد كان هذا من حقنا لأننا مازلنا رهن التحقيق . . . بالإضافة إلى أنه كان من المستحيل بالنسبة لنا أن نسجن في الزنزانات الكبيرة التي خصصت للمحكوم عليهم ما بين لص وقاتل وتاجر مخدرات وحرامي الخزن . . . ! وكان هذا الأخير - كما علمت - أكثر الناس احتراماً في نظر المجرمين . . .

في أول الأمر كان يسمح لكل منا بفسحة لمدة ربع ساعة منفردة يومياً ثم بعد أن قدمونا لقاضي الإحالة جعلوا الفسحة ثلاثة أرباع الساعة صباحاً ومثلها بعد الظهر . . . وفي أثناء الفسحة سمحوا لنا باللقاء والكلام . . . وتكلمنا . . . كل كلامنا تقريباً كان يدور حول ما نعانيه في هذا السجن اللعين . . . وخاصة دورات المياه

واخترت أنا قصة أفسر بها معرفتي بحسين توفيق ومقابلاتي معه . . . وطبعاً كانت بعيدة كل البعد عما حدث . . . حاول حسين توفيق تكذيب ما قلت . . . ولكنني أصبرت على أن هذه هي الحقيقة وأبدت دهشتي لقدرته على تشويه الواقع وحاولت أن أوحى إلى حسين توفيق أن الإصرار على هذا الكلام معناه الإعدام . . . بدأ حسين توفيق هو الآخر يهتز وأدرك وكيل النيابة خطورة ما يحدث فأبى التحقيق على الفور . . . ولكني يتخلص مني . . . لكي يعيدني عن بقية المتهمين حتى لا أؤثر عليهم وبذلك يتغير مسار القضية . . . أمر بنقلي فوراً إلى سجن قره ميدان أو سجن مصر العمومي حيث أودعت الزنزانة ٥٤ .

التي كان يستجيب على أي آدمي أن يقضى بها حاجته فإلى جانب قذارتها بصورة لا يمكن أن ترى العين مثيلاً لها . . . كان علينا عندما نضطر إلى اللجوء إليها أن نقضي حاجتنا جمعياً . . . هكذا كما يفعلون في الأدغال أو ربما في الريف . . . ولكن في الحقيقة أسوأ بكثير . . . فالأرض هناك واسعة . . . ولكن هنا في السجن كانت طاقة دورة المياه ألف شخص في حين كانت حمولتها دائماً ثلاثة آلاف في أي وقت . . . وقد أثر هذا تأثيراً سيئاً للغاية على معنوياتنا بل لقد كان السبب في تخصيص غير للجرب في كل سجن من سجون مصر . . . فكثير من المساجين كانوا يمرضون بهذا المرض . . . لأنهم ينتقلون أصلاً من بيئة قادرة إلى بيئة أكثر قدرة وهي السجن . . . فينتشر هذا المرض بينهم بسرعة . . . كما سبق أن انشر عندنا في معتقل الزيتون في الأراب . . . وهكذا «بقدره قادر» أصبح لا فرق بين الأراب والادمي في السجن . . . (وقد عاجلت كل هذا بعد أن توليت) .

عشنة كاملة في هذه المعاناة التي لم يستطع أن يتحملها الكثيرون كما تحملها أنا بفضل نشأتي بالقرية وللخشونة التي اكتسبتها من خدمتي بالقوات المسلحة فمثل هذه المسائل لها أثرها دون شك . . .

من خلال وساطات بعض أهالي المهيم معنا من الأكابر سمحوا لنا في مرحلة متأخرة - بعد سنة تقريباً - بالأكل بالملقعة . كما ركبوا شبابيك زجاج فوق شباك الزنزانة الذي لم يكن سوى كوة في أعلى الحائط مفتوحة على الدوام لبرد الشتاء وقيظ الصيف . . .

في هذه المرحلة كان المفروض فيمن هو تحت التحقيق أن يأخذ أكل السجن أو يطلب طعامه من متعهد خارج السجن وكان هناك متعهد يملك ذكناً في مواجهة السجن . . . في الإفطار كان يرسل لنا بعض العسل والخبز والخبز أيضاً . . . ربما . . . لا أذكر . . . ولكني أذكر أنني لم أكن آخذ وجبة الظهر من المتعهد فقد كان الإفطار وحده يتكلف سبعة جنيهات ونصف في الشهر . . . وكان أهلي في كثير من الأحيان لا يستطيعون دفع ثمنه لأنهم لا يملكونه . . .

في يوم ما اتصل الشيخ حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين بشقيقي طلعت وأخبره أن الجمعية قد خصصت عشرة جنيهات شهرياً لأمرتي . . . تماماً كما سبق

أن فعل إخواني انضباط وأنا في معتقل ماقوسة بالمنا . . . ولكن توقفت المعونة المالية بعدما انتهى الاعتقال وظلت متوقفة طوال فترة هربي ولما عدت إلى السجن كان مازال لا أثر لها على الإطلاق . . . ربما نسوا ساعهم الله . . .

وأخيراً أتى الشيخ حسن البنا يعطي لعائلتي عشرة جنيهات شهرياً في وقت كان شقيقي طلعت لا يجد ثمن إقطاري ولا حتى ثمن زجاجة ملح الفواكه التي كان ثمنها في ذلك الوقت ١٢ قرشاً . . . وملح الفواكه بدأت أتناوله أول شيء في الصباح وأنا في السجن وما زلت إلى الآن استخدمه . . . فترة طويلة تقرب من ثلاثين عاماً لم يمكنني فيها الاستغناء عنه إطلاقاً . . . أضف إلى هذا ثمن إيجار السرير والمنضدة والكرسي بعد أن سمحوا لنا في السجن باستعمالها ما دما تحت التحقيق ولكن بشرط أن ندفع عنها إيجاراً يومياً قدره عشرة قروش .

ورغم أن سجن الأجنب لم يكن نزلاؤه إلا من أسافل القوم ورغم أن السجون العمومية هي لأبناء مصر . . . لكن التفرقة كانت واضحة . . . فهنا ندفع . . . وندفع مقابل ماذا؟ مرتبة من قش الأرز صلبة خشنة والأرجح أنها مصنوعة من ألياف جامدة كالحجر . . . أما هناك فالفرش وثيرة والنور الكهربائي متوفر وكذلك الطعام . . . وكل هذا بدون مقابل . . . تمييز عنصري حتى في السجون بيننا نحن أبناء الوطن وبين الأجنب . . .

ولكن للأسف كانت سجوننا من أسوان إلى الإسكندرية هكذا على نفس الطراز . حتى أنني لما ذهبت في ٦ أكتوبر ١٩٧٥ لأهدم سجن طره كرمز لإنهاء أمهات كرامة الإنسان وأمست المعول بيدي أضرب به أحست أن جدران السجن هي نفس جدران سجن قره ميدان ، فالطوب تحت المعول مبلل هش من المياه التي تتخلله وحتى قبل أن أصل للطوب ، وأنا أزيل الطلاء أحست بالرطوبة ورأيت الصراصير تخرج من بين الطوب والطلاء . . . جيوش من الصراصير لاحصر لها . . . كان منظرها قبيحاً ولكني لم أترك المعول لحظة . . . ظلت أضرب في الحائط وأعصابي مشدودة فلا بد أن أزيله . . . حاولوا أن يوقفوني . . . ولكني رفضت وقلت لهم أنا بحير . . . المهم أن تزول هذه السجون وتحل محلها سجون يمكن أن يعيش فيها الإنسان . . . ولذلك أمرت ببناء سجون جديدة تتوفر فيها جميع الشروط الصحية . . . وفي الوقت نفسه تصلح للانتاج بحيث لا يقضى

السجين طول مدة سجنه بين أربع جدران عاطلا عالة على المجتمع . . بل يجب أن يفيد ويستفيد فيخرج من السجن بحرفة جديدة تعلمها وبعض المال الذي يستطيع ادخاره في السجن مقابل عمله وفعلا بدأنا التجربة في السجن الذي أقمناه بدلا من سجن قره ميدان ، وهو الآن موجود على طريق مصر اسكندرية الصحراوى وإلى جانبه قطعة أرض تم استصلاحها ويقضى بها المساجين نهارهم يزرعونها خضراً وفاكهة بعد أن هدم سجن قره ميدان وأصبحت في مكانه حديقة عامة يستمتع بها الشعب . .

نعود إلى قره ميدان . . في أثناء إقامتنا به كان وكيل النيابة القاويش دائم السعى بطبيعة الحال إلى إداثتنا . .

قبل أن أنقل من سجن الأجانب حدث أن جاء أخى طلعت ليأخذ ملابسى للنيل كالعادة وكنت قد وضعت في جيب البيجامة ورقة بها رسالة باللغة الإنجليزية تقول :

FORMATION A OUT OF ACTION ALL

FORMATION B GOT IN TOUCH WITH ME

شك القاويش في الملابس ففتشها وأخرج الورقة وصورها ثم أعادها إلى مكانها بالبيجاما . . أحس أخى طلعت وهو في طريقه إلى البيت أن هناك من يتبعه . . أدرك أن هناك شيئاً ما . . في البيت وجد الورقة نقل الرسالة التي تحملها وترك الرسالة الأصلية في جيب البيجاما حيث تم غسلها مع بقية الملابس . . وفي عودته إلى السجن كان مازال تحت المراقبة وكان القاويش ينتظر النتيجة - فتح جيب البيجاما فوجد الورقة - الرسالة الأصلية - في مكانها ولكنها قد أصبحت عجينة . . ذهب المستند الذى كان يتطلع إليه ! خاب أمله وازداد حيبة عندما علم من رجاله أن الرسالة لم تبلغ إلى أية جهة . . فقد بلغها أخى طلعت في الساعات الأولى للفجر في يوم كان وانقأ فيه من أن أحداً لن يفكر في أن يتبعه . .

كان التنظيم « أ » كله من المدنيين وأما التنظيم « ب » فقد كان خليطاً من العسكريين والمدنيين . . ولكن لا أحد يعرف أن الآخر في التنظيم . .

أراك يا عمريزي القاويش تسأل إلى من بلغت الرسالة فأجيبك على الفور . .

إلى من عهدت إليهم الأقدار بالقيام بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . (وكان تصرف وكيل النيابة في هذا الموضوع من الأركان الرئيسية لبرامى) .

بعد عودة الملابس مباشرة أتى إلى السجن القاويش وطلب التحقيق معى . . أعطانى ورقة وقلماً وقال . . اكتب وأملانى .

Formation A out of action all

Formation B got in touch with me

فهمت أن الرسالة التي بعثت بها قد وقعت في أيديهم . . كنت قد كتبت الرسالة بحروف مفردة . . ولكننى كتبها الآن بالخط المشبك . . فعاد وطلب أن أكتبها بالحروف المقردة . . أنا عادتى أميل الكتابة لليمين أو أقت في الوسط . فتعمدت أن أميلها للشمال . . كتبت ثلاثة صفحات كاملة بالحروف المفردة والمشبك فقد كان هدفه أن يقارن ما كتبت بخط صورة الرسالة التي عنده . ويصح لديه بهذا مستند يحقق الأمل الذى كان يراوده وهو أن يقع في يده تنظيم الجيش . ولكن خاب ظنه .

لم يأتى القاويش إلى بعد ذلك الإمتحان الذى فشل فيه .

كان بقية المهتمين في القضية - « الأولاد » كما كنت أسميهم - قد بدأوا يفقدون إلى سجن قره ميدان كما سبق أن رويت . . وكان معنى هذا أننا ما زلنا تحت التحقيق إلى أن نذهب لقاضى الإحالة الذى له أن يحكم بتحويلها إلى محكمة الجنابات أو باعتبارها جناحة لا ترقى إلى جنابة . . أو أنها لاشئ على الإطلاق فيفصرج عن المهتمين . .

بمجرد أن عرضت القضية على قاضى الإحالة رفعت عنها السرية وتداولها المحامون فوجدوا أننى قد قوضت أركان القضية بانكارى وتكذيبى للآخرين واتهامى مأمور السجن ووكيل النيابة وغيرهم بتكذيبى . . ووجد المحامون في القضية لقمة سائغة فأخذ كل محامى يوصى موكله بالإنتكار قالوا لهم « لو أنكم استمعتم في بداية الأمر إلى نصائح أنور السادات ؟ . إنه رجل . . أما أنتم فما زلتم صبية صغاراً » . . كان عمرى ٢٧ عاماً في ذلك الوقت أى سنة ١٩٤٦ أما أعمارهم فكانت تتفاوت بين ١٤، ١٧، ٢٠، ٢٢ سنة . . كنا سبعة وعشرين منهم

في القضية وكان رقمي السابع أي كان أمامي ٦ وخلق عشرون . . . وبالطبع
تختلف تهمة كل منا عن تهم الآخرين ولكنها تدور جميعاً حول مقتل أمين
عثمان . . . أفرج قاضي الإحالة عن اثنين منا فقط بكفالة . . . بينما ظل الباقيون
وكنتم منهم طبعاً في السجن تنتظر المحاكمة .
ولكى نشغل الوقت راح المحامون عنا يقدمون المعارضة بعد الأخرى . .
ولكن بدون فائدة . .

هكذا مرت سنة ٤٦ ثم أتت سنة ٤٧ ولم يكن فيها من جديد سوى أنهم
حددوا لنا دائرة جنابات . وكان موقف المحامين في هذه المرحلة ضلّب التأجيل
مرة بعد أخرى ودعواهم أن القضية كبيرة وملفاتها كثيرة - مجرد كسب
وقت - ونجحوا طبعاً . . فمع مرور الزمن تغيرت دائرة الجنابات إلى
دائرة جديدة . .

فقد كان الذين يترافعون عنا من أكبر محامي مصر . . وكان الواحد
يتقاضى عن القضية الواحدة آلاف الجنيهات ولكن للأسف لم يكن هذا حالهم
في العشرين سنة الأولى للثورة بعد أن عطلت سيادة القانون . فلم يصح هناك
أى مجال للمحاماة أو القضاء . . وأفلس الكثيرون من المحامين أو كادوا .

ولكن الأمور قد عادت إلى مجراها الطبيعي اليوم بعد أن أعدت سيادة القانون . .
أصبحت الحاجة ملحة إلى المحامين للعمل على رفع الظلم عن الناس . .
وبعد الانفتاح زاد الطلب على المحامين إذ لابد لكل رجل أعمال أجنبي
يفسد إلى مصر من أحد المحامين لكي يرعى شؤنه . . وبذلك عاد الكيان لا إلى
القضاء وحده بل إلى المحاماة أيضاً .

٢

مكانان في هذا العالم لا يمكن للإنسان فيهما أن يهرب من ذاته . . هما الحرب
والسجن . . وفي الزنزانة ٥٤ عشت مع نفسي . . تلازمني وألازمها ليل نهار . .
لم تكن هذه الفرصة قد أتت لي من قبل . . فقد كنت مشغولاً بأشياء كثيرة
أعمل بالخيث وأشتغل بالسياسة بينما كان تيار الحياة اليومية يجرفني معه أينما

ذهب أو ذهبت . أما الآن فأنا أعيش في الزنزانة ٥٤ دون أن تكون لي صلة
بالعالم الخارجي . . فلا راديو ولا صحف ولا أى شيء على الاطلاق .
وحدة رهيبية لم يكن هناك من سبيل إلى الخلاص منها سوى أن أعيش مع
نفسى . . وفعلت عشت معها ولكن رغم هذه المعاشية لم أستطع أن أفقد
إليها كأن شيئاً ما يقف بيني وبينها . .

ظلمات كنت أعاني منها من زمن ولكنى لم أدركها تمام الإدراك لأنى لم أستطع
أن أنقلها إلى منطقتة الضوء .

وعندما سمحوا لنا في السجن بالكتب والمجلات والصحف انكببت عليها أقرأ
في نهم وأجد في كل سطر شيئاً جديداً يفتح أمامي آفاقاً لم أعرفها من قبل .

كان أكثر من نصف قراءتى باللغة الإنجليزية والباقي باللغة العربية وعندما
كانت تستهوينى فكرة أو قصيدة شعر أو أى شيء فيما أقرأ كنت على نحو أقل
ما يروقنى في كراسة ما زلت أحتفظ وأعزبها كل الإعتزاز إلى الآن وهي كراسة
السجن . . وقد أودعتها أغلب ما كان له أثر على حياتى من آراء أو مشاعر لكتاب
ومفكرين من الشرق والغرب .

ولم يقتصر أثر قراءتى المتعددة على توسيع آفاقى الفكرية وإنماضيقية بل
لقد ساعدتني هذه القراءات على المزيد من التعرف على الذات . . فاستطعت أن
أتخلص من أزمة عصبية كنت أعاني منها منذ زمن وكانت بسبب القبض على
في الساعة الثانية صباحاً في برد الشتاء القارص في كل من عامى سنة ٤٢ ، ٤٦ .
لم أكن أدرك طبيعة هذه الأزمة ولكنى كنت أشعر أنها تعكر صفو سلامى
الروحي . . إلى أن دخلت السجن وعشت مع نفسى فظفت هذه المعاناة على السطح
تلقائياً . . أسبوع واحد في السجن يكفى لهذا . . أما كيف تحلصت من هذه الأزمة
فالفضل يرجع إلى مقال قرأته في « ريدرز دايجست » لأحد علماء النفس
الأمريكان . . كانت خلاصة المقال أو النتيجة التى وصل إليها الطبيب النفساني
بعد مجارب ٢٤ سنة هي أن الإنسان في أية مرحلة من مراحل حياته معرض
لأن يصاب بصدمة تكون نتيجتها أن يحس أن كل شيء حوله مغلق . . وكأنه
في سجن لا باب له . .

أول باب لهذا السجن أن يعرف الإنسان ماذا يضايقه . . . وثاني باب . . . الإيمان . . . ما معنى الإيمان ؟ أن تنظر إلى أي شيء كرهه يحدث على أنه قدر لابد من مواجهته وتحمله . . . وبعد ذلك تغلب على الآثار الناجمة عن هذا . . . فيجب ألا تفكر أنه ليس هناك حل لأية مشكلة . . . لأن الحل دائماً هناك . . . ما الذي يجعلك تفكر هكذا ؟ إيمانك بأن الله قد خلقك لأن عليك دوراً يجب أن تؤديه في هذه الحياة . . . والإله الذي خلقك ليس شريراً على الإطلاق . . . بالعكس إنه خير جداً . . . لا كما يصوره لنا الشيخ في كتاب القرية - جبار . . . تخيف . . . وذلك فالعلاقة المثلثية بين الإنسان والله لا تنبني على الخوف أو على الثواب والعقاب . . . بل على قيمة أسمى من كل قيمة . . . وهي الصداقة . . . فمن صفات الخالق . . . الرحمة والعدل والحب ثم هو قادر على كل شيء لأنه مصدر الأشياء جميعاً فإذا اتخذت منه صديقاً منحك الاطمئنان . . . فتحت أية ظروف وفي جميع الأحوال تحبه وتعجبك .

إن تحليل العالم النفسي لم يجعل لي عقدة المرة العصبية فقط بل فتح أمامي آفاقاً من الحب لا حدود لها في علاقتي بالكون . . . كانت كامنة في خضم الحياة العادية فكشفت عنها تجربة السجن ومعاناتها بحيث أصبح الحب المنطلق الرئيسي لكل أفعال ومشاعري .

من أجل هذا . . . ولأنني أصبحت مليئاً باليقين والاطمئنان لم أهرز لحظة واحدة وسط الأحداث المتقلبة التي واكبت حياتي في جميع مراحل العمر . . . ولم يخلدني الحب مرة واحدة . . . بل كان دائماً ينتصر في النهاية . . .

وهذه حكايتي أو طرف منها مع جمال عبد الناصر . . . ففي الثماني عشرة سنة التي لازمتها فيها . . . كانت هناك أوقات لا أستطيع فيها أن أفهمه أو أن أقر بعض تصرفاته ومع ذلك كانت مشاعري نحوه هي نفس المشاعر . . . الحب والحب وحده . . .

وقد تساءل البعض في حيرة كيف قضيت هذه الفترة الطويلة مع عبد الناصر من غير أن يقع بيننا ما وقع بينه وبين بقية زملائه مثلما تساءل صحفي أجنبي في لندن قائلاً إما إنني كنت لا أساوي شيئاً على الإطلاق وإما أنني كنت خبيثاً

غاية الحب بحيث نحاشيت الصراع معه . . . وبقيت أنا الرجل الوحيد من رجال الثورة الذي لم يمسه سوء بل على العكس عندما فارق عبد الناصر الحياة كنت أنا نائب رئيس الجمهورية الوحيد . . .

وإن دل هذا التساؤل الساذج على شيء فإتعا يدل على جهل أصحابه بطبيعتي فلا أنا كنت عديم الصفة أثناء حياة عبد الناصر ولا كنت خبيثاً أو لثيماً في حياتي قط . . . كل ما في الأمر أنني وعبد الناصر تصادقنا ونحن في سن التاسعة عشرة ثم جاءت الثورة وأصبح هو رئيساً لجمهورية مصر . . . فقلت في نفسي أهلاً وسهلاً . . . صديقي الذي أثق فيه قد صار رئيس جمهورية ، وهذا شيء يستعنى ونفس الإحساس شعرت به عند ما أصبح عبد الناصر زعيماً للأمة العربية وبني حوله هالة كبيرة . . .

أحياناً كنا نختلف ونحدث بيننا جفوة قد تستمر شهرين أو أكثر يرجع السبب فيها ربما إلى اختلافنا في الرأي أو إلى دس بعض من لهم تأثير عليه من حوله . . . فقد كان عبد الناصر يؤمن بالتقارير ويميل بطبعه إلى الإصغاء للقبل والقال . . . ولكن أبياً كان الأمر فلم يحدث مرة واحدة أن وضعت نفسي موضع الدفاع فليس من طبعي أن أفعل هذا بالنسبة لعبد الناصر أو لغيره من الناس . . . طبعاً كانت تنهى الجفوة مهما طاللت عندما يتصل بي تليفونياً ويسأل أين كنت طوال هذه الأيام ولماذا لم أتصل به ؟ وكنت أجيب بأنه كان لابد مشغولاً ولذلك فضلت أن أتركه لمشغوليته . . . ثم تلتق وكان شيئاً لم يكن . . .

حدث هذا مراراً عديدة ولكني كنت أقابل كل ما يفعله عبد الناصر بالحب الخالص من جانبي . . . لقد تسلم تنظيم الضباط الأحرار في نهاية سنة ١٩٤٢ وقطع به شوطاً طويلاً استغرق ٦ سنوات كاملة كنت أنا أثناءها في السجن والمعتقلات ثم بعد خروجي من السجن كان لابد لي من العودة إلى الجيش لكي أشاركه وزملاءه في الجهود التي بدأتها ثم استأنفوها هم من بعدى . . . وفعلاً تحقق هذا عندما عدت إلى الجيش عام ١٩٥٠ .

ثم قامت الثورة في ١٩٥٢ وساهمت فيها ولكن لم تكن مساهمتي بالأمر الذي يهمني في حد ذاته . . . الأهم من كل شيء أن الثورة قد قامت وتحقق بها الحلم الذي استولى على حياتي منذ أن كنت صبياً لم أبلغ الثانية عشرة بعد . . .

هذا ما جعلني أعيش مع عبد الناصر ١٨ سنة دون صراع . لأنني لم أكن أريد شيئاً . لم تكن لي مطالب من أي نوع وفي أي وضع كنت . عضواً في مجلس قيادة الثورة أو سكرتيراً للمؤتمر الإسلامي أو رئيس تحرير جريدة الجمهورية أو وكيلًا لمجلس الأمة . . أو رئيس مجلس الأمة . . لم يتغير حبي لعبد الناصر أو تختلف مشاعري نحوه . . فأنا إلى جانبه منتصراً كان أو مهزوماً . . ولعل هذا ما جعل عبد الناصر يلتفت حوله بعد ١٧ سنة وينتبه إلى أن هناك إنساناً لم تقم بينه وبينه معركة في يوم ما . .

وهذا ما جعلني أقول إن الحب ينتصر في النهاية . . فلم يكن من السهل أن تزول الغشاوة من عيني عبد الناصر . . ودخله مليء بتناقضات لا يعلمها إلا الله . . يحتم على واجبي كصديق أن لا أكشفها أو أفصح عنها . . ولكنها كانت موجودة . . عبد الناصر مات دون أن يستمتع بحياته كما يستمتع الآخرون . . فقد قضاها كلها بين انفعال وانفعال . . القلق يأكله أكلاً فقد كان يفترض الشك في كل إنسان مسبقاً . . وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا أن خلف عبد الناصر وراءه تركة رهيبة من الحقد سواء بين زملائه أقرب الناس إليه أو داخل البلد نفسها بجميع طبقاتها . .

ولكني كما قلت وكما زلت أكرر . . انتصر الحب في النهاية . . هذا الحب الذي كان وليد المرارة والألم في الزنزانة ٥٤ . . فلا شيء مثل المعاناة يصقل النفس ويزيل عنها الصدأ ويكشف عن معدنها الأصيل . . فقد تكشف لي أنني بطبعي وتكويني أحب الخير . . وأن الحب هو الدافع الحقيقي لكل ما أفعل . . وبدون الحب لا أستطيع فعلاً أن أعمل . .

لقد منحني الحب اليقين والثقة الكاملة في نفسي وفي كل شيء حولي . . فحبي للكون مستمد من حبي لله عز وجل . . ومادام الخالق صديقي فقيم الخوف من البشر ؟ . . إنه هو الذي يملك أمرهم وأمر الوجود كله . .

بهذا الإحساس الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ مني . . والذي كان كذلك طوال حياتي ولكن دون أن أعيه وعياً كاملاً . ارتفعت فوق المكان والزمان في الزنزانة ٥٤ فلم يعد المكان الزنزانة ذات الأربعة جدران . . بل اتسع بحيث شمل

الكون كله . . أما الزمان فلم يعد له وجود بعد أن دخل قلبي حب سيد الكون فاستولى على وأصحت أشعر أنني أينما كنت فأنا منه قريب . . يقول تعالى :

« وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان »
صدق الله العظيم

أصبح صديقي الذي نملاً صداقته كل كياني ونملاً فراغ الزنزانة هو الله منبع الحب والخير والوفاء وكل ما يجعل قوته شريفة . . فقد كنت معه أحبه وأعبده في كل ما خلق . . كم أصبح كل شيء مصدرراً للبهجة والسعادة فالكلمة أصدقائي لأن الكل من صنع الله . . الشجرة التي أراد لها أن تكون فكائت والحبة التي نبتت بإرادته التي هي حبه . . والزهرة والجبل والشجرة والجذور والفروع والبشر على مختلف ألوانهم وطباعهم . . كل ما في الوجود أصبح موضع حبي . . لأنه كان مثلي كان ويكون بحب الله له . . وبحبه لله . .

٣

مما تعلمته في الزنزانة ٥٤ أن العاقل هو من يحرص على النجاح الداخلي لأنه سيقظ دائماً متوازناً داخل ذاته صادقاً مع نفسه والصدق مع النفس يعني الصدق مع الناس . . وأنا لا يهمني النجاح الذي يراه الناس في بل النجاح الذي أراه أنا في داخل نفسي وأرتاح إليه . . هذا النجاح يعتمد أساساً على معرفة الذات ولذلك فمن يؤمن . . يحاسب نفسه قبل محاسبته للغير وهو لا يأخذ في الاعتبار ما يناله الإنسان من مكاسب مادية بل على مدى اكتشاف صورة الإنسان لذاته وتحقيق هذه الصورة فيما يصدر عنه من أفعال . . إن النجاح الداخلي قوة دائمة مطلقة لا تخضع لأي مؤثرات خارجية على عكس النجاح الخارجي الذي يهتز ويتغير من وقت إلى آخر حسب الظروف والعوامل الخارجية فقيمه دائماً نسبية .

أغلب الناس يبهتهم النجاح الخارجي - ما يصلون إليه من مراكز اجتماعية أو مال أو سلطان - باختصار صورتهم في نظير الغير ولذلك إذا تغيرت هذه الصورة لسبب أو لآخر اهتزوا وأصابهم الإهيار . . فهم لا يعرفون الصمود لأنهم لا يعرفون الصدق مع النفس أو مع الآخرين فالغاية عندهم دائماً تبر

الوسيلة . . . أما أنا فقد درجت على أن تكون صورة الذات في نظري أهم عندي من صورتي في نظر الناس . . . رئاسة الجمهورية ليست أكبر عندي من أسوار السادات ، فأبواب السادات هو نفس أبواب السادات في أي موقع وتحت أية ظروف . . . إنسان ليست له مطالب خاصة لنفسه ومن ليس بحاجة إلى شيء فهو سيد نفسه .

فلا تعتمد على النجاح الخارجي بعيد الإنسان عن ذاته . . . والجهل بالذات هو أسوأ ما يمكن أن يصيب المرء إذ تنتشر الظلمة داخل النفس . . . وبانتشارها يفقد الإنسان الروية وتضيع عنه معالم الطريق فيصبح سجيناً داخل نفسه . . . سزلاً عن كل ما عده . . . وبهذا يفقد كيانه كإنسان . . .

فهذا الكيان لا يتحقق إلا بالاتصال والاتصال دائماً بين الإنسان والكون . . . إذ بدون الاتصال يعيش الإنسان على ما تلقى به الأقسام من نجاح أو فشل جيداً لزمكان والمكان فهو يكون ولا يكون . . .

لفظ عندما يتصل . . . عندما يتسع وعيه حتى يشمل الكون بأجمعه . . . عندما تلذذ ذاته في ذات الآخرين . . . عن طريق الحب والمعاونة من أجلهم . . . باختصار لفظ عندما لا يكون الإنسان فهو يكون . . . فينهسر الزمن ويعطس حل المكان . . .

هكذا تعلمت من تجاربي في الحياة ، ولكن كم من الناس يذركون هذا ؟ وكيف يذركون وهم لا يملكون إلا روية أنفسهم وقياس الغير بمقاييسهم التي أصمت بصائرهم عن كل شيء فيما عدا ما يبالون من نجاح خارجي يشوه الذات فيعدها بدلا من أن يحفظها فيسعدنها ؟

في أواخر الخمسينات كتبت التي حديثاً أسبوعياً بإذاعة صوت العرب . . . وكتبت أحس أن المجتمع المصري لا بد له من العودة إلى قيمه الأصيلة التي حفظت عليه وحدته وشخصيته عبر آلاف السنين ومواجهة العديد من المغيرين وأن بناء الإنسان يجب أن يكون هو الهدف بعد أن كان واضحاً أن البعض يريد أن يستغل الثورة لمصالحهم القيم والإنسان فأخذت أته إلى ذلك في هذه الأحاديث ولا أعرف من الذي أعير عبد الناصر . . . وأنا لا أريد بهذه القصص الخيالية

عبد الناصر ، فالرفاه له يقتضي ألا أسمح لأحد باختياره بفساد ما لدى من معلومات ويفقد ما أخذت نفسي به من إعطاء الشعب حريته . . .

المهم سألني عبد الناصر عن أحاديثي في صوت العرب . . . وقال إن الإذاعة دفعت لي حوالي ٤٠٠ جنياً مقابل تلك الأحاديث . . . قلت نعم . . . فعلا حدث ولم أفعل له ما لم يكن يعلمه وهو أني كنت قد كوتت جمعية باسم مسجد عبد أبو الكووم ، وأن شيك الإذاعة تسلمه صندوق الجمعية كما هو . . . فكانت سألني قلت . . . أنا لم أسمع نفسي يوماً موضع الدفاع أمام أي إنسان . . .

واستمر عبد الناصر في كلامه بما يشير إلى الناس سوف تتكلم وأن كلام الناس كثير . . . إلخ . . .

بعد هذا سجلت الحديث الأسبوعي وجملته ختام أحاديثي وكان موسم من النجاح الداخلي . . . والنجاح الخارجي . . . وكيف أن الأول أبى وأدوم أما الثاني فأنا لا أأخذ به لأن الصديق مع النفس بنفسه وبالتالي فمن يؤمن به لن يتحول صادقاً مع الناس . . . بل وسبطل عبداً لمطالبه ورغباته وشبهاته . . . وهو ما أرفضه

انتشرت موضوع الحديث هذا صمداً كخطام لهذه الأحاديث . . . فقد كنت أعرف أن أحد مستشاري جمال يبرهم النجاح الخارجي . . . وأنه سوف يعزل الحديث إلى عبد الناصر وخاصة عندما أوضحت أنه لا ينبغي أن يرى الناس النجاح الخارجي في وإنما ينبغي أن أرى أنا النجاح الداخلي في نفسي . . .

وفعلا حدث ما توقعته . . . فكانت جسوة بيني وبين عبد الناصر استمرت شهراً أو أكثر لم يتصل خلالها أحدنا بالآخر . . .

٤

لقد سيطر مفهوم النجاح الخارجي على أذهان ومشاعر القائلين على أمور مصر فترة طويلة ، وكان من نتائج ذلك أن أهمل الناس على المسادة وأخرفوا أنفسهم فيها بشكل لم يسبق له مثيل - فأصبح الإنسان يقاس لا بقدر ما يحفظه من خير أو يجعل قلبه من حب للآخرين بل بقدر ما ينال من مال أو قوة . . . وهكذا في خضم الصراع على المسادة سبنا أو غابت عما الحظيفة الأربعة التي لا يمكن لأي

مجتمع إنساني أن يقسوم بدون أن تكون في بوثة شعوره باستمرار . . . وهي أن
الإنسان قيمته تستمد من ذاته فهي مطلقة على الدوام ولا يمكن أبداً أن
تكون نسبية .

يقول تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال
فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » .

صدق الله العظيم

لقد أفرد الله للإنسان دوراً تميز به عن جميع الكائنات . . . في التوراة
يقول تعالى : « إن الله قد خلق الإنسان على صورته » . وفي القرآن : « نفخ فيه من
روحه » . . . وكل هذا يحتم على الإنسان أن تكون له رسالة وإلا انتفى المعنى لوجوده . .
فالأصل في هذا الوجود هو حمل الأمانة التي كلفه الله بحملها . . .

قد تختلف الرسالة من شخص لآخر . . . ولكنها في جميع الأحوال تهدف
إلى تحقيق ما أراد له الله أن يحققه من حملها الأمانة . . . فإذا خلت حياة الإنسان
من رسالة يؤديها كان هذا معناه أنه قد خان الأمانة .

ولكن لكي يؤدي الإنسان الرسالة التي خلق من أجلها ، يجب عليه أن يستمد
كيانه من ذاته لا من عوامل خارجية . . . بهذا وحده يستطيع الإنسان أن يدين
بالولاء لما هو أكبر وأبقى من هذه الذات فتكون له رسالة يؤديها في هذه الحياة . . .

هذا يقين توصلت إليه في الزرانة ٥٤ وأصبح جزءاً لا يتجزأ من كياني فإذا
انقضى يوم بدون أن أفعل شيئاً نحو هذه الذات التي هي أكبر مني وأشمل
بت غير راضٍ عن نفسي ونساءت ماذا فعلت بالأمانة التي أحملها يوماً بأكملها ؟

إن قيمة الإنسان مطلقة دون شك . . . لأنها لو كانت نسبية فسوف تتغير من
شخص إلى آخر ومن مجتمع إلى مجتمع . . . ومن زمن إلى زمن . . . حسباً يفيد
منه الناس كل من وجهة نظره . . . فيراه البعض عظيم الفائدة ويراه الآخرون
عديم النفع . . . أو ربما كثير الضرر . . . وهكذا إلى أن يفقد الإنسان قيمته كإنسان
وبالتالي يفقد كيانه .

وهذا ما يحدث في المجتمعات الفاشية مثل المجتمع النازي أو الشيوعي حيث

تكون قيمة الإنسان مرهونة دائماً بمتطلبات هذه المجتمعات مما يمسح البشر أو يجعلهم
إلى أنصاف آلهة في الأحزاب الحاكمة أو يجعلهم عبيداً عليهم فقط أن يطيعوا
الأوامر أو آلات تعمل دون أن تعي . . .

وفي كل هذه الحالات يفقد الإنسان كيانه كإنسان له قيمة في ذاته ويسلب
حق حمل الأمانة التي كلفه الله بحملها ويجرد من الرسالة تلك الشعلة
المقدسة التي خلق ليضيء بها الطريق لمن حوله ولمن يأتي بعده من أجيال . . .

فعندما تصبح قيمة الإنسان نسبية تزول القوانين الآلية بل والوضعية أيضاً . . .
إذ يصبح لا مكان لها ما دامت سيادة القانون قد زالت كقيمة مطلقة وحلت محلها
سيادة بعض الأفراد ممن هم أسرى النجاح الخارجي والذي يصبح المقياس
الوحيد الذي يقيسون به الناس مما يؤدي بالضرورة والحتمية إلى ضياع القيم الإنسانية
العليا التي من أجلها وجد الإنسان . . .

وهكذا يضيع مجتمع الخير والجمال ويحل محله مجتمع القوة . . . وأغلب
البشر الآن يعيشون مجتمع الحقد والقوة مما أفقد العالم القيم العليا التي بناها الإنسان
على مر العصور . . . وفي اعتقادي أن المخرج الوحيد للبشرية من الأزمة التي تعانيها
هو العودة إلى هذه القيم والإصرار على وضعها موضع الصدارة في جميع
مجالات الحياة . . . ولذلك تجدني لا أكف عن الدعوة إلى تبني قيم القرية المصرية
ربما بشيء من التطرف أحياناً . . . ولكنني أرى فيها الخلاص الوحيد من آثار مجتمع
القوة الذي جربناه في مصر فأضاع القيم بأكملها . . .

في الثمانية عشر عاماً السابقة على رئاستي للجمهورية حاولوا أن يجعلوا
من مصر مجتمع حقد وقوة فقط ولكن التجربة فشلت ١٠٠٪ لأنها لا تتلائم
مع تكويننا أو طبعنا . . . نادينا بالديكتاتور العادل أو المستبد العادل فلما جاءنا . . .
قام البناء على الرمال . . . وليت الأمر اقتصر على هذا . . . فأقبح ما واجهته لم يكن
الوضع الاقتصادي المنهار ولا الوضع العسكري المهين . . . بل جبل الحقد الذي
نشأ عن محاولة بناء مجتمع القوة . . . ففي هذه المجتمعات كما قلت تنعدم القيم الإنسانية
ومع انعدامها يصبح الشاغل الوحيد لكل فرد في المجتمع أن ينال أكبر قسط من
النجاح الخارجي (الكسب أو الجاه والقوة المادية) بحق أو بدون حق ومهما
كلفه هذا من ثمن ولو كان القضاء على الآخرين .

من نتائج مجتمع الحقد والقوة حالة الضياع والحيرة التي يعيشها الشباب في مصر اليوم فقد وضعوا أمامهم قيماً لمجتمع لا وجود له في ذاتهم ولا في تكوينهم وقالوا لهم هذا هو مجتمعكم الجديد وهو أحسن المجتمعات . . ومن هنا نشأ صراع داخلي مرير عند الشباب . . بين قيم جمالية ترسبت في وعيهم الجماعي على مرور آلاف السنين هي عمرهم الحضاري . . ومجتمع القوة الجديد الخالي من أي قيم والذي فرض عليهم فرضاً . . وازدادت حدة الصراع وأصبح الضياع أمراً محتوماً عندما رأى الشباب مجتمع القوة ينهار أمام أعينهم ومع ذلك فما زالوا يلتقونهم أنه أفضل المجتمعات وأقواها . .

٥

في الزلزلة ٤٤ بدأت الروابط التي تربطني بمطالب الحياة تنقطع الواحدة بعد الأخرى . . ولما تخففت الروح من ألقائها تحررت الذات وانطلقت كما ينطلق الطير من قفصه إلى الفضاء الواسع . . إلى الكون بأجمعه . . إلى اللانهاية . . فما دام الإنسان يريد أن يكون هذا أو ذاك أو أن يمتلك هذا أو ذاك فهو لا يمتلك شيئاً على الإطلاق لأنه سيظل عبداً لما يريد ولما يملك . . وبذلك فهو لا يكون . . فقط عندما يتخلص من كل ما يمت إلى ذاته يصبح سيد نفسه . . فيكون . .

فعندما يخرج الإنسان من الذات الضيقة بمعاناتها وانفعالاتها الدنيوية يجد أمامه عالماً جديداً لم يعرفه من قبل . . هذا العالم الجديد أرحب وأغنى من الحياة التي ألفها وهو أيضاً من نوع مختلف . . ففيه تتحرر الذات بحيث تصبح كل ما في الوجود فلا زمان ولا مكان يمكن أن يحتويها . . وفي هذا التحرر تتحول الإرادة إلى حب . . وكل ما كان يمكن أن يعكس الصفر . . إلى سلام لا حدود له ويجد الإنسان سعادة تفوق كل ما يمكن أن يسعد به على هذه الأرض . .

من أجل هذا كانت الستة شهور الأخيرة لي في الزلزلة ٤٤ وما زالت أسعد أيام حياتي . . ففيها تعرفت لأول مرة على هذا العالم الجديد . . عالم إنكار الذات إنكاراً تاماً بحيث ذابت في غيرها من الكائنات فانسخت واتصلت بسيد الكون . .

طبعاً لم يكن هذا ليحدث قبل أن أدخلوا إلى نفسي وأعيش معها وأعرفها . . ومما لا شك فيه أيضاً أن قراءاتي قد ساعدتني على اكتشاف هذا العالم الجديد . . أنا لم أدرس التصوف ولكن ما وقع في يدي من أقوال وكتابات المتصوفين وجد صدى في نفسي مثل الكثير من قراءاتي في السجن فقد عبرت لي عما كنت أشعر به دون أن تصل درجة إدراكي إلى مرحلة الوعي الكامل والتعبير . ولكن لعل المعاناة من أهم العوامل التي قربت بيني وبين العالم الجديد الذي عرفت فيه السلام الروحي كما لم أعرفه من قبل فالآلام العظيمة هي التي تبني الإنسان وتجعله يرى نفسه على حقيقتها . . وهذه الآلام تندرج تحت الكثير من القيم الإنسانية العليا . . مثلاً غدر الصديق في يفوق كل ألم آخر في الحياة . . لأن الصداقة عندي شيء مقدس ولذلك عندما يغدر في صديق أحس أن الأرض قد اهتزت تحت قدمي . . وعندما أقرر الاستغناء عن الصديق لغدره في أشعر أن جزءاً من كياني قد انسلخ عني . . وأعاني من الآلام ما لا طاقة لبشر بتحملة . . إلى من ألتجأ؟ وما هو السبيل إلى دفن أحزاني؟

لم يعد هذا حالي بعد أن تعرفت على عالمي الجديد وعشت فيه . . لا وجود للذاتي . . فالوجود الوحيد لذات الكون وللذات العليا .

كان هذا العالم الجديد فتحاً حقيقياً بالنسبة لي . ففيه عرفت صداقة الله . . هو وحده عز وجل الصديق الذي لا يمكن أن يخونك أو يتخلى عنك . . فهو الذي خلقك وكونك وحملك الأمانة وأعطاك من روحه وهو لا يعرف إلا الحب الذي لا حدود له والخير الذي ليس بعده خير . .

وهو يريد للحياة التي خلقها أن تسير شريفة . . قوية . . جميلة . .

بعدما عرفت صداقة الله ، تغيرت كثيراً فلم أعد أغضب أبداً إلا في الحق وأصبحت الحياة بالنسبة لي أرحب وأجمل وأوسع وزادت قدرتي على التحمل مهما كانت الأمور والمشاكل التي على أن أحملها . . وصار أهم هدف لي في الحياة إسعاد الآخرين وأصبحت البسمة على أبة شفاه وخفقة الفرح في قلب أي إنسان تسعدني كما لو كان قلبي هو الذي يفتح فرحاً . . ولم يعد للانتقام أو الحقد أي مكان في نفسي . . وأصبح ليثاني بأن الخير دائماً ينتصر جزءاً لا يتجزأ من وجداني . . وزاد إحساسي بجمال الحب وهو الإحساس الذي

صورته لى نشأتى بالقصرية كرباط يجمع بين الناس فى العمل والحياة . .
ثم غدته فى أمى خلال مراحل حياتى . . إذ كانت رحمها الله معيناً لا ينضب
للحب . . كان هذا تكوينها الطبيعى . . مجموعة انفعالات حب لا يعرف
الحدود .

ولذلك ففعل أكثر ما عانيت منه فى الزنزانة ٥٤ هو شعورى بالفراغ العاطفى
فلكى يكون الرجل مكتملاً لا يبد أن تكون له رفيقة . . تحب ويحبها . . هذه فعلا
أعظم نعمة فى الوجود . . فعندما تمتلئ نفس الإنسان بالحب يستطيع أن
يتم رسالته . . وبدون هذه العاطفة يعيش إلى أن يبلغ منتهى العمر وهو يشعر أنه
يفتقد شيئاً هاماً وأنه مهما حقق فهو لم يكتمل بعد .

كان هذا شعورى فى جميع مراحل حياتى . . لم أشعر أبداً أن الحب كقيمة
إنسانية عليا قد تغيرت فى نظرى يوماً ما . . بل على العكس إذ اكتشفت أن
الحب هو المفتاح لكل شئ . .

حدث هذا فى الزنزانة ٥٤ عندما تجردت من ذاتى فتمت بصداقة الله . .
وعمر قلبى بحبه . . وأصبح ظله سبحانه وتعالى يمتوئى . . وعندها أدركت أن
الحب قانون تستقيم به الحياة وترده وتثمر وأن بدون كل شئ عدم .

لقد اكتشفت ذاتى عن طريق الحب . . وعندما أنكرت هذه الذات وأذيتها
فى ذات الكون . . أصبح الحب الشمولى لمصر - للكون - للخالق عز وجل -
هو المنطلق الذى مارست منه وما زلت أمارس واجبى فى الحياة . . فى الشهور
الأخيرة لى فى السجن . . بعد خروجى منه . . عندما كنت عضواً فى مجلس قيادة
الثورة . . والآن وأنا رئيس جمهورية مصر . .

هذا ما يجعلنى أدعو دائماً إلى الحب . . فهو المظلة التى تحمى الإنسان
من كل الأزمات . . كل من عرفه لن يعرف الجذب بل التماء والإزدهار لأن
الحب عطاء والعطاء دائماً يبنى . . على عكس الحقد الذى ساد حياتنا فى الثمانية
عشر عاماً الأولى قبل أن أتولى الرئاسة فهدم كل ما فى طريقه هدماً ما زلنا نعانى
من آثاره إلى اليوم .

« ربى قد طويت من عمري صفحات ونشرت اليوم صفحة فاجعل صفحتى

هذه أدعى للخير وأخلى من الشر . . وزينها بالحق وبرها من الباطل . واجعل
فاتحتها وخاتمتها الإخلاص لك والعمل لوجهك واجعل يقينى أفضل اليقين وصح
بما عندك يقينى . . هكذا كنت أناجى ربى كصديق . . فى الأسبوع الأول بعد
وفاة عبد الناصر قبل ولائى . .

٦

كان من الطبيعى بعدما عشت عالمى الحديد حيث تخلصت الروح من أنفاسها
واقتربت المسافة بينها وبين الكون وخالقه عز وجل أن تتضح فى نظرى
بعض مفاهيمى للحياة وأن يصيب التغيير نظرتى إلى كثير من الأشياء . .

لم يعد الحب بالنسبة لى عملية احتواء للحبيب بل عطاء وفناء فى ذات من
تحب . . وليس هذا الفناء معناه العدم . . فالحب هو الطاقة الوحيدة القادرة على
إزالة الحواجز بين الروح والمادة . . بين ما ترى وما لا ترى . . بين الذات
وخالق الكون . . وبدون الحب يعنى بصرنا عن أن نرى « غيرانية » الغير . .
فيتعذر الاتصال ونفقد أنفسنا فى أنفسنا . . ولا يقتصر الأمر على هذا بل يضيع
السلام الروحى . . وهو دعامة كبرى من دعومات الحياة بدونها يفقد الإنسان
توازنه الداخلى ويدخل فى صراع مع نفسه لا يعلم متى ينتهى . .

عندما أنظر اليوم إلى الثمانية عشر عاماً الأولى من الثورة قبل أن أتولى
الرئاسة أجد أن هذه المرحلة من حياتى كانت فترة معاناة لم أدرك سببها فى ذلك
الوقت . . فقد ظلت كامنة فى العقل الباطن . . ولكنها أحدثت خللاً فى
توازنى . . عبد الناصر كان صديقى دون شك . . وعندما خرجت من السجن كنت
حريصاً على أن أتبنى على السلام الروحى الذى اكتسبته فى الزنزانة ٥٤ . . ولكن
حينما دخلت مجلس قيادة الثورة شعرت أن هناك خللاً فى توازنى الداخلى وأنى
فى طريقى إلى أن أفقد سلامى الروحى . .

كان لا بد من المحافظة عليه . . ولكن كيف ؟

إن الإنسان عقل وجسد وروح . . ولا بد من الغذاء لكل من هذه العناصر
حتى يتحقق السلام الروحى . . بلغأت إلى المعرفة أهل منها ولا أتوقف عن القراءة

يوماً . فهذا غذاء العقل وبالإيمان الذي لا يعرف الحدود روضت روحى
أما الجسد فكانت وما زالت رياضته الوحيدة المشى على الأقدام أربعة كيلو مترات
كل صباح .

بهذا حاولت طوال فترة المعاناة أن أحافظ على السلام الروحى الذى اعتقد
أنه ضرورة لا بد منها لكى يؤدى الإنسان رسالته على هذه الأرض كما يجب
أن يؤديها .

وقد يظن البعض أن التصالح مع النفس الذى هو ثمرة السلام الروحى يعنى
الاستسلام للأمر الواقع أو على الأقل تقبله . . . ولكن هذا غير صحيح فأنا
لا أقبل الأمر الواقع كما هو بل أحاول دائماً تطويبه والسمو به إلى ما هو
أفضل . فى اعتقادى أن الإنسان يجب أن يعمل دائماً ونصب عينيه مثل أعلى
يريد أن يبلغه . . . فبدون المثل الأعلى كيف تكون للإنسان رسالة . . . وإذا
خلت الحياة من الرسالة فلماذا نجحها وأى معنى لها ؟

وفى الزنزارة ٤٤ كانت المعرفة قريبة منى كما لم يحدث من قبل . . . ويبدو
أن هناك علاقات متبادلة بين المعرفة والحياة الروحية . . . فكلما نهلت من الواحدة
ازدادت الأخرى نضجاً - منوال دائم لا نهاية له . . . ولكنه يؤدى إلى المزيد
من معرفة الذات ، وكلما ازدادت رؤية الإنسان لذاته وضوحاً ازدادت قدرته
على قهر ذاته فأصبحت أفعاله وأفكاره ومشاعره أكثر تحملاً وانطلاقاً بحيث
لا تهدف إلى منفعة ذاتية بل إلى طلب الكمال المطلق فى كل شيء .

وهكذا أصبح الجمال يلج على فى كل ما أرى وما أفعل . . . أتطلبه فى
جميع نواحي الحياة وكلما اغترفت منه ازدادت حاجتى إلى المزيد منه .

ومن هنا كانت المثالية التى هى فى الواقع ليست إلا سعياً دائماً نحو الجمال . .
هذه المثالية التى أتمو إليها بكل كيانى جعلت الكثيرين من الناس لا يستطيعون
فهمى . . بل وغمضت بعض تصرفاتى فى عيونهم .

يسألنى البعض ما هى السياسة ؟ والإجابة دائماً تحيرنى . . . فأنا لا أدعى أنى
درست السياسة وتخصصت فيها . . . كل ما أعرفه أنى نشأت بميول وآمال وأحلام
معبئة هى التى كونت شخصيتى منذ الطفولة إلى أن أصبحت رئيساً للجمهورية . .

هذه الآمال والميول كانت وما زالت تهدف إلى هدف واحد هو تخليص مصر
من المعاناة والسير بها دائماً نحو الجمال والكمال . .

يصف البعض السياسة بأنها فن الممكن ولكنى لا آخذ بهذا التعريف فإذا
قسناه على حرب أكتوبر لقلنا إن السياسة هى فن المستحيل . . فأيهما
أصح ؟

أنا لم آخذ دكتوراه فى السياسة ولم أتبحر فى علومها . . أنا مجرد
إنسان اكتشف ذاته ولذلك فأنا صادق مع نفسى فى كل ما أقول وما أعمل
والمعاملة بينى وبين الناس تقوم دائماً على الصدق . .

ولعل هذا ما يدهش البعض إذ يجدوننى رجلاً سياسياً يقول فى حجرة مغلقة
نفس الكلمة التى يقولها أمام الميكروفون . . . ولا يستغل موقفاً معيناً لشعبية
رخيصة . . أو لهتاف الجماهير . .

فإدراك الذات إنما يجعل كل تصرفات الإنسان تصدر عن موضوعية
لا ذاتية مطلقة . .

ولذلك فالسياسة - فى رأيى - هى فن بناء مجتمع يحقق إرادة الله من خلق
هذا الكون وهى العمران . . . فى هذا المجتمع يجب أن تكون حرية الفرد
مطلقة لا يحددها سوى ما تعارف عليه المجتمع من قيم إنسانية أصيلة نبتت
من المجتمع نفسه فهى ثمار حضارته . . . والحرية نفسها أجمل هذه الثمار
وأغلاها وأقدسها فلا يجب أن يشعر الفرد فى هذا المجتمع أنه تحت رحمة
أية قوة من قوى القهر . . . أو أن إرادته مرهونة بما يريده الغير . .

وبالتأكيد فإن الحرية ليست لازمة لبناء مجتمع القوة . . ولكنها الدعامة
الكبرى لبناء مجتمع الحق والخير والجمال حيث تعمر النفوس بالحب والنور
والإيمان وبالتالي تعمر الكون صروح الإيمان والانتصار بالإنسان وما يشيد
من صروح الأمان والعزة والرفعة والسلام فتتحقق إرادة الله . .

ولكن لكى يقوم هذا المجتمع لا بد لمن يتصدون لقيادته من أن يحملوا
مسئولية نفع أساساً من وجدانهم الإنسانى وأن لا تكون أفعالهم مجرد
ردود أفعال لانفعالات ذاتية أو لأوهام أمجاد ديكتاتورية تسيطر عليهم وتلعب

برؤوسهم . . . كما كان الحال مع هتلر وغيره . . . ففي مثل هذه الحالات لا مكان لمجتمع الحق والخير والجمال . . . لأن كرامة الإنسان لا تصبح موضع أى اعتبار . . . بل على العكس تهب حين يهدرون قيمته المطلقة كإنسان ويحولونه إلى شيء من الأشياء . . .

أنا أتكلم من واقع التجربة والممارسة . . . فتورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قد أتت بأفكار جديدة وحاولت جامدة إلى أن تنقل المجتمع المصرى إلى المرحلة الحضارية التى يعيشها اليوم . ولكن يجب أن أعترف بأن النجاح لم نحالفنا بالكامل فيما أردنا تحقيقه لأسباب كثيرة منها الصراعات الشخصية . . . ومنها أيضاً عدم وضوح الرؤيا بالقدر الكافى لا فى وقت مجلس قيادة الثورة ولا بعد أن أصبح جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية . . . فقد كان بطبعه كثير الشك . . . ولذلك انشغل بأمنه عن الرؤية البعيدة وعن أهم وأهم ما فى الوجود وهو الإنسان . . . وليت الأمر توقف عند هذا الحد . . . فى غمرة شكوكه وانشغاله بأمنه تحددت آفاق الإنسان المصرى وأبعاده . . . وهكذا حدثت فى مصر للأسف أخطاء جسيمة ضد أخطر وأهم ما كان يجب أن نحرص عليه . . . وهو آدمية الإنسان وإنسانيته . . .

V

فى الزنزانة ٥٤ لازمنى الاحساس بأننى منذ أن تخرجت من الجيش وأنا أواجه الخطر . . . كان إحساساً صادقاً ، فقد حدث أن واجهت المخاطر فى جميع مراحل حياتى منذ أن أصبحت ضابطاً بالجيش إلى آخر لحظة قضيتها بالزنزانة ٥٤ . . . عندما بدأت بالتمهيد لوجود رأى عام بالجيش . . . ثم جهودى لحماية مصر من غزوات هتلر والى أدت إلى فصلى من الجيش واعتقالى . . . وبعد ذلك محاولتى للقضاء على أعوان الاستعمار الإنجليزى وقضية أمين عثمان . . . والزنزانة ٥٤ حيث أصبح الخطر قائماً وخطيراً بل ومحققاً كما كان يندوبى . . .

كيف تنتهى القضية ؟ لم أكن أعلم . . . كل ما كنت أعرفه أن تربيتى فى الاهتمام كان السابع . . . وأن تهمنى يمكن أن تؤدى إلى الإعدام أو الأشغال

الشاقة المؤبدة . . . ولا وسط فى العقوبة . . . فلماذا أن تكون هكذا أو لا تكون على الإطلاق . . . أى البراءة . . . ولكن كيف ؟

أثناء وجودى فى السجن قامت حرب فلسطين . . . كان ذلك فى منتصف عام ٤٨ . ويعلم الله كم عانيت وتألمت من الغارات الإسرائيلية على القاهرة ، وكان مصدر ألمى أنى فى السجن لا أملك أن أفعل شيئاً . . . وأن الإسرائيليين بهذه الغارات ينتهكون حرمة الشهر المقدس . . . شهر رمضان . . .

كنت أعرف أنها مجرد حرب نفسه . . . لا أكثر . . . وزاد فى اطمئنانى أن جيوشنا كانت تشق طريقها إلى نصر أكيد . . . ولكن فجأة عقد الملك عبد الله الهدنة التى أنقذت بها رقبة إسرائيل . . .

تم هذا طبعاً بالاتفاق مع الإنجليز . . . وكم أثار ما فعله الملك عبد الله غضبى ولكن ماذا كان يمكن أن أفعل وأنا بين أربعة جدران سجين فى الزنزانة ٥٤ ؟ لماذا عهدوا إلى الملك عبد الله بقيادة الجيوش العربية ؟ ما الذى دعاهم إلى هذا ؟ ما السبب ؟ ما السر ؟

رحت أتساءل مع نفسى وقلبي ينفطر مرارة . . . من أجل ذلك . . . وحتى لا يتكرر ما حدث . . . لا أكف اليوم عن الدعوة إلى أنه لا مجال للمجاملات . . . وأنا يجب أن نضع النقطة فوق الحروف . . . فلا نسمح للعناصر غير الصالحة أن تشكل مصيرنا وأنه لزام علينا أن نردع كل من تسول له نفسه العبث بمصيرنا .

استغرقت محاكمتنا ثمانية شهور من يناير إلى أغسطس سنة ١٩٤٨ وأذكر أنه عندما أتى البوليس ليأخذنا إلى المحكمة ، حاولوا وضع (الكلبشات) فى أيدينا فرفضت وقلت « إذا حكم على فافعلوا ما تشاؤون . . . ولكن الحكم لم يصدر بعد . . . وهذا الذى تحاولونه لا أقبله إطلاقاً » . . . طبعاً هذا الأولاد حذوبى . . . فاكنتى البوليس بأن يضعنا كلنا فى (لورى) كبير ليأخذنا إلى المحكمة ثم يعود بنا إلى السجن .

فى هذه الأثناء هدأت أعصاب الحكومة - قليلاً - فسمحوا لنا بالخروج بعض الوقت . . . وانتهزت أنا الفرصة وطلبت أن أعالج أسنانى عند طبيب أسنان

أعرفه في الجيش اسمه أحمد علي - فمحوالي . . . كانت الرحلة من القلعة إلى مستشفى الجيش في كوبري القبة طريفة للغاية . . . إذ كنت أقطعها في التاكسي وأملأ عيني بلامح القاهرة وشوارعها وأملأ رئتي بهواء الحرية ساعة كاملة على الأقل في كل مرة . . . نعم كان إلى جوارى دائماً أحد ضباط البوليس ولكن ماذا بهم ؟ أوصيت الطبيب أن لا يعالج الضرس المريض . . . حتى تمتد الرحلة وتكرر . . . وفي كل مرة كان يقف ضابط البوليس يراقب الطبيب . . . ولكنه لم يفتن طبعاً إلى أن الطبيب كان يتناول أسناني كلها بما يشبه العلاج ما عدا الضرس موضع اللدء . . . ما زالت متعنى بهذه الرحلة عالقة بذكرياتي . . . فقد كانت نسمة الحرية لطيفة رغم قصرها . . . وأحياناً كنت أنتهز الفرصة وأزور والدي الذي كان يعمل بمستشفى الجيش . . . ونشرب الشاي معاً .

لم تدم متعنى طويلاً فمحاة هرب حسين توفيق - وهو المتهم الأول - من السجن وكان رد الفعل المباشر أن أوقفوا خروجننا مهما كان السبب .

واستمرت المحاكمة يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر . . . كان الرأي العام كله معاً . . . وكنت قد شككت في سلامة القضية بما يكفي كما سبق أن رويت . . . هذا إلى جانب أن القضية كانت في أيدي كبار رجال الحمامة في مصر . . .

انتهت المحاكمة في أوائل يوليو ١٩٤٨ . . . ثم جاء النطق بالحكم وكان ذلك في أغسطس سنة ١٩٤٨ ، فذهبت إلى المحكمة وأنا لا أرتدي سوى ينظلون رمادي رث وجاكت بيضاء . . . فقد كان هذا كل ما عندي . . . بدأوا طبعاً بالمتهم حسين توفيق . . . وبمجرد أن سمعت الحكم وهو ١٠ سنوات سجن (غيباً طبعاً) جازني إحساس بأنهم سيحكمون علي بالبراءة . . . وفعلاً عندما أتى دوري أعلنت المحكمة المتهم رقم ٧ براءة .

صدر الحكم في الظاهر . . . ولكن كانت التعليمات تقضي بالبقاء في السجن حتى الساعة الخامسة مساءً فعدت إلى السجن وبقيت به إلى الساعة الخامسة مساءً ، حيث سمحوا لي بالخروج . . .

قررت الذهاب إلى حلوان وهناك بحثت عن بنسيون رخيص يتناسب مع ما معي من نقود قليلة . . . وعشت أعالج معدني بمياه حلوان المعدنية وانتظر الأيام . . .

الفصل الرابع

العمل من أجل قيام الثورة

كان من الطبيعي بعد أن قضيت ٣١ شهراً متواصلاً في السجن . . . أن أشعر كأني قد ولدت لتوى في عالم جديد لا أعرفه . . . ولذلك كنت أقضي وقتي متنقلاً بين البنسيون الرخيص الذي سمحت لي نقودي القليلة أن أقيم به ، وبين الحديقة اليابانية حيث كنت أسترخي على أحد مقاعدها الخشبية أقرأ في صحيفة أو كتاب بعيداً عن الناس . . . قانعاً بخلقوني . . . أتأمل ما أنا فيه . . . وما حدث . . . وما قد تأتي به الأيام . . .

كنت أتخاشى الجلوس مع الناس أو الكلام معهم . . . فلو أنني حاولت هذا لنتطلب مني جهداً لم يكن في مقدوري أن أبذله ، فقد أصبح ما كان مألوفاً من أمور الحياة العادية عالماً غريباً بالنسبة إلى لا بد أن أتأقلم معه . . . حتى أشعر أنني واحد من سكانه . . .

أذكر أنني بعد شهر تقريباً من خروجي من السجن ، ركبت سيارة أقودها بنفسي ورغم اتقائي القيادة فقد هالني أن أجد أنني لم أكن أعرف كيف أسير في شوارع القاهرة . . . وانتهى بي الأمر إلى حادثة تحت نفق الجزيرة . . . هكذا قضيت أيامي في حلوان أحاول التخلص من آثار السجن وأحاول شفاء معدني بمياهها المعدنية إلى أن جاء يوم فوجئت فيه بزيارة زميلي وصديقي القديم حسن عزت الذي بحث عني في كل مكان إلى أن أهدتني إلى مقامي . . .

كنت أصلي الفجر عندما هبط علي . . . وكانت نقودي قد نفذت تقريباً ولم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسني .

- ما الذي يقعدك هنا ؟ قم معي - تعال . . .

قالها لى حسن عزت وهو يتأمل أثاث وجدران الحجرة البالية التى كنت أقطن بها . . .

قلت : إلى أين ؟

وأجاب : إلى بيتى فى السويس - هيا بنا . . .

وارتديت ملابسى . . الجاكته البيضاء والبنطلون الرمادى - نفس الملابس التى خرجت بها من السجن وكانت كل ما أملك ولاحظ حسن عزت أن البنطلون قد بلى من الخلف ، فقلت له ليس عندى غيره وحتى لو ذهبنا إلى بيت والدى ما وجدت بديلاً عنه .

قبل أن نتوجه إلى السويس ذهبت مع حسن عزت إلى القاهرة حيث اشترينا قمصان وفصلت بدلتين وكانت هذه أول مرة أرى فيها الجوارب السوكيت التى يبدو أنها ظهرت وانتشرت فى الأسواق وأنا فى السجن - فأعجبني واشترى لى حسن عزت ثلاثة أزواج أو أربعة منها . وبعدها ركبنا معه سيارة وذهبنا إلى السويس . . .

فى بيته هناك التقيت لأول مرة بجيهان - زوجتى - حيث كانت فى زيارة لابنة عمها زوجة حسن عزت - قضيت معهم بعض الأيام ، تبينت خلالها أن حسن عزت لم يبحث عنى ويأتى لى إلى السويس لوجه الله . . فقد كان على خلاف مع شركائه فى عمليات تجارية بين مصر والسعودية عن طريق السويس - فأراد أن يخفيهم يبطل قضية أمين عثمان حديث كل المجالات والصحف . . الذى هو أنا طبعاً . . واشتركت معهم فعلاً فى بعض الصفقات وكان نصيبى منها كما علمت بعد ذلك ١٨٠ جنيهاً من الذهب أعطاني منها حسن عزت ٦٠ جنيهاً وأخذ الباقى لنفسه وكان الخيخيه الذهب فى ذلك الوقت يساوى ستة جنيهات مصرية . . ولذلك عندما عدت إلى حلوان لأستأنف علاج معدنى . . وضعت المبلغ فى خزانة اللوكائنة حتى لا يسرق - وطبعاً لم يحدث هذا . . الذى حدث أن المبلغ صرف عن آخره على إقامتى بحلوان . .

انتقلت بعد ذلك إلى بنسوين فى وسط البلد بالقاهرة عاطلاً بدون عمل بينما تراكم الديون على يوماً بعد يوم . . فذهبت إلى إحسان عبد القدوس وهو

صديق قديم لى . . لبيحث لى عن عمل . . قصدنا جريدة الأهرام ولكن لم تكن بها مجالات للعمل - فاقترحت روز اليوسف ولكن إحسان قال إن روزا لا تتحملنا نحن الاثنين - وكان إحسان وقتها يعمل بروز اليوسف وبتدار الهلال كمعيد للصحافة Rewriter وفى جريدة الزمان . . فى ثلاثة أماكن فى وقت واحد . .

ولكن حدث أن استغنى إحسان عن عمله بتدار الهلال ، فأخذنى وقدمنى لأصحاب الدار . . الذين اشترؤا منى مذكراتى التى كتبها فى السجن وبدأوا نشرها . . ويبدو أنهم أرادوا اختبارى للتأكد من أن المذكرات بقلمى - فأتانى شكرى زيدان أحد أصحاب دار الهلال - وأشار إلى جزء من المذكرات وقال إنه بحاجة إلى تطويل بما يساوى عموداً ونصف ، فقلت بكل سرور . . قال ليلىك المكتب ولكن عليك أن تنهى من الكتابة فى خلال ساعة ونصف وهو الزمن الباقى على إغلاق المطبعة .

فعلت ما طلبه وسلمته إليه قبل الزمن المحدد . . فقرأه وشكرنى وانصرف .

لم يخامرنى أى شك فى أن هذا كان نوعاً من الاختبار . . إلى أن أرسل فى طلبى صباح اليوم التالى ، وطلب منى أن أعمل معهم فى دار الهلال بصفة مستديمة وأن أحدد المرتب الذى أريده . . كان هذا أمراً مذهلاً لى . . فقد كنت أعرف أن كبار المحررين عندهم يعملون جميعاً بالقطعة .

قبلت العمل على القصور وأخذت مكان إحسان كمعيد للصحافة . .

واستمر عملى هذا إلى نهاية ديسمبر ١٩٤٨ . كنت أثناءها - وعلى وجه التحديد

فى ٢٩ سبتمبر ١٩٤٨ - قد تقدمت لخطبة جيهان من أبيها وتمت الخطبة .

كنت راضياً عن عملى بتدار الهلال بل وسعيداً به ولكن حدث أن اختلف حسن عزت مع شركائه فى السويس فانتقل إلى مصر ، وطلب منى أن أشاركه فى الأعمال الحرة . . لم يكن من السهل أن أرفض طلبه فهو زميل كفاح - ثم إنه هو الذى خلصنى من الأزمة المالية التى كنت أعانى منها عندما نفذت نقودى فى حلوان وقبل هذا وذلك كانت عندى نقطة ضعف نحو حسن عزت كصديق يحببى ولا يخفى عنى شيئاً ويعتبرنى ضميره .

طبعاً لم يكن خروجى من دار الهلال أمراً سهلاً فقد تصوروا أنى أريد أجراً

أكبر وعلى هذا الأساس بدأوا يساومونى ولكن فشلت كل محاولاتهم وبدأت العمل مع حسن عزت بعمليات مياه صغرى في ٥٢ قرية من قرى محافظة الشرقية باسم حسن عزت طبعاً وأنا شريكه ولكن بدون تسجيل . .

انتقلت إلى الزقازيق عاصمة الشرقية . . وكنت قد تزوجت جيهان في ٢٩ مايو ١٩٤٩ م . فأخذتها معي حيث قضينا شهر العسل وما بعده في لوكانده متوسطه الحال من لوكاندات الأقاليم هناك . . التزمت بجدول زمني انتهينا بمقتضاه من العمليات في نصف المدة المقررة وفعلاً تم هذا . . فقد كنت أخرج من الصباح الباكر لأعمل ١٥ أو ١٧ ساعة في اليوم . . ثم أعود في المساء إلى زوجتي في اللوكانده .

أتمت العمل في ٦ شهور فخرجنا بريح يساوى ٦ آلاف جنيه وأعطتنا الحكومة شهادة تقدير طبعاً باسم حسن عزت . . فرست علينا ٨ عمليات مياه كبرى في المنيا بمبلغ ٦٠ ألف جنيه وكان هذا يعنى بالمعدل الذى سرنا عليه . . ربما ما لا يقل عن ٣٠ ألف جنيه . .

كان من المقرر أن يبدأ عملنا بالمنيا في نوفمبر ١٩٤٩ . ولكن قبل أن نبدأ العمل قلت لحسن عزت إننى أريد أن أستقر مالياً . . ففي المنيا لا بد أن تكون لي شقة أعيش فيها مع زوجتي . . ثم إن على التزامات مالية أخرى نحو أولادى من زوجتي الأولى التى انفصلت عنها رسمياً في مارس ١٩٤٩ . راوغ . . ثم وافق . ثم قال إننى أنفقت في الزقازيق ٢٠٠٠ جنيه طبعاً لم يكن هذا صحيحاً أو قريباً من الصحة . . ففي الزقازيق لم تكن عندي أى تكاليف إلى جوار اللوكانده المتواضعة سوى ثمن السجائر - ولكن حسن عزت أصر . . عرفته على حقيقته وأشمازت نفسى منه ومن السوق والعمل به فتركته وفي جيبى ١٢٠ قرشاً وكان لي عنده ٣٠٠٠ جنيهاً هي نصيبي من عملية الزقازيق ولكننى لم أطلبها منه .

كان كل همى أن أبتعد . . أن أنجو مما وقعت فيه . . فما قيمة المال إذا أصبح دنساً يهدد كيان الإنسان ويقوضه من داخله ؟ ثم أين أحلام الصبا وآمال الشباب والمعارك التى خضتها من أجل تحرير الأرض ؟ هل فعلت كل ما فعلت لكي

أصبح في النهاية رجل أعمال كل همهم أن يكسب من العمليات التى يقوم بها ٣٠٠٠ جنيه أو أكثر أو أقل ؟

طوال الفترة التى عشتها بعد أن بارحت السجن كنت أحس أنى بعيد عن نفسى . . غريب عن ذلك الإنسان فى داخلى الذى عشت معه - وعرفته - وارنحت إليه وكنت شديد الاعتراف به فى الزنزارة ٥٤ . .

كنت على ثقة من أنه لم يذهب بعيداً . . ربما لعبت الظروف دوراً فى ابتعادى عنه . . ولكننى كنت شديد السعادة عندما وجدتنى أقول لحسن عزت عند فراقنا . . « كم أتمنى أن يكون عندك ١٠٠ ألف جنيه وأنا لا أملك شيئاً . . لسوف أكون دائماً أكبر منك بما لا أملك . . وأنت أقل منى بكل ما تملك »

لقد عادت ذاتى إلى . . وفى نفس اللحظة . . قررت أن أعود إلى الجيش . . الوسيلة الوحيدة لتحقيق الرسالة التى كانت بالنسبة إلى كل شئ . .

٢

هناك على شاطئ البحر الأبيض بلاج في غاية الجمال كانت تشغله في سنة ١٩٤١ وحدات من الجيش المصرى وكنت أنا ضمنها مبعداً بأمر المخابرات وهناك في الجراولة كما كانوا يسمونها . . تعرفت إلى ضابط طيب اسمه يوسف رشاد كانت خيمته إلى جوار خيمتى وتصادقنا . . كان لابد من ذلك فهو دمى الأخلاق مثقف يقرأ كثيراً ولا يكاد غلبونه يفارق شفثيه ولا يكاد الكتاب يفارق يده . . وبلغت بنا الصداقة حد التلازم فكاننا لا نكاد نفرق إلا ساعة النوم - نطهو طعامنا معاً - ونأكل معاً . . ونتحدث ونفكر ونقرأ معاً . . وما زلت أذكر اليوم الذى أعطاني فيه كتاباً ترك في نفسى أثراً عميقاً وهو كتاب من تأليف « جون ستيوارت ميل » عنوانه : النظام الشمولى والحرية والحكم النيابى وكان بالانجليزية .

ومرت الأيام وابتعد كل منا عن الآخر - ولكن صداقتنا ظلت كما هى - لم يحدشها شئ . .

يوسف رشاد هو أسمى الوحيد فقد أصبح طبيباً في الحرس الملكى ولا أعتقد

أنه سيرد لي طلباً . . فانتصت به تليفونياً وطلب مني زيارته في بيته . .
هناك شرحت له حال - وكيف أن النيابة أستأنفت ، وأن الاستئناف
قد نظر في أواخر عام ١٩٤٩ وأيدت المحكمة الحكم بالبراءة فلم يكن هناك إذن
ما يمنع عودتي إلى الجيش .

واستمع إلى يوسف رشاد وهو يدخن غليونه في هدوء وبدمائه المعهودة
وعد بأنه سيتصل بي في أقرب وقت . . وما هي إلا أيام قليلة حتى اتصل بي يوسف
رشاد . . وكان ذلك على وجه التحديد يوم ١٠ يناير ١٩٥٠ وطلب مني أن أقابل
حيدر باشا قائد عام القوات المسلحة .

كان حيدر باشا في انتظارى وما أن رأيت حتى انهال على بالسباب . .

- أنت ولد مجرم . . تاريخك أسود . . و . . و . .

حاولت أن أتكلم . .

- لا داعى للكلام . . لا تفتح فمك على الإطلاق - وفجأة دق الجرس
فدخل كاتم أسراره .

- أفندم يا باشا . .

- الولد ده ترجعه الجيش النهارده . .

وصدرت النشرة العسكرية بعودتي إلى القوات المسلحة اعتباراً من ١٥ يناير
١٩٥٠ برتبة يوزباشى - وهى الرتبة التى خرجت بها - وكان زملائى فى الجيش
قد سبقونى فى ذلك الوقت برتبتين . . رتبة صاغ ورتبة بكباشى .

كان أول من زارنى مهتماً جمال عبد الناصر ومعه عبد الحكيم عامر . . علمت
من عبد الناصر أن تنظيم الضباط الأحرار قد أصبح أوسع انتشاراً وأن قوته
تشهد يوماً بعد يوم . . وكأنما أراد أن يثبت لى مدى قوة التنظيم أو أن يختبر
هذه القوة - طلب منى أن أتقدم لامتحانات الترقية بحيث أستعيد ما فقدت من
رتب وأنا خارج الجيش ، وأن لا أهتم بالصعاب التى سوف تواجهنى . . فهما
كان شأنها سبيلها التنظيم وينخطاها . . وفعلاً تم هذا . . وحصلت على رتبة
بكباشى فى وقت قصير . .

طلب منى عبد الناصر أن لا أقوم بأى نشاط سياسى واضح . . لأنى بسبب
تاريخى النضالى لا بد أن أكون بطبيعة الحال مراقباً ولو أن هذا لم يمنع جمال
من أن يكشف لى عن خريطة الضباط الأحرار فى وحدات الجيش المختلفة ،
فكنت أزورهم وأتبادل الحديث معهم ولكنها كانت جميعاً أحاديث ودية لاعلاقة
لها بالسياسة . . فلم يكن من المفروض فى التنظيم أن أكشف لهم عن نفسى
أو أن أشعرهم أننى أعرف أنهم ينتمون إلى الضباط الأحرار .

كانت هذه قاعدة أساسية أرساها عبد الناصريوم تسلمه التنظيم من بعدى عندما
قبضوا على فى صيف ١٩٤٢ - وهى أن يظل تشكيل كل خلية سرأ لا يعرفه
إلا أعضاؤها .

كان الرجل الثانى بعدى فى ذلك الوقت هو عبد المنعم عبد الرؤوف الذى ظل
على اتصال بالشيخ حسن البنا رائد الإخوان المسلمين - والذى كان على
اتفاق تام معى فى أن تنظيم الضباط الأحرار يجب أن لا يخضع لأية هيئة أو لآى
تنظيم حزبى لأن الهدف منه هو خدمة مصر بأجمعها لا فئة معينة . .

عندما دخلت المعتقل كان عبد الناصر ما زال فى السودان ولكن بمجرد
نزوله بكتيبته ووصوله مصر أواخر ١٩٤٢ ، اتصل به عبد المنعم عبد الرؤوف
لضمه إلى التنظيم - فقد كان عبد الناصر من الضباط الممتازين - وكانت هذه
هى القاعدة التى أرسيتها . . أى أن لا ينضم إلى التنظيم إلا من كان متميزاً فى عمله
بالقوات المسلحة . . فالضابط الممتاز موضع ثقة الجميع . . ومن السهل
أن يتقاد إليه الآخرون . .

استجاب عبد الناصر على الفور . . ولم يكن من الصعب عليه بعد ذلك
أن يزيح عبد المنعم عبد الرؤوف من طريقه وأن يتولى هو قيادة التنظيم بدلا
منه . .

كانت قيادة عبد الناصر لتنظيم الضباط الأحرار تختلف عن قيادتى ، فقد
لجأ إلى تكوين خلايا سرية فى الجيش ، كل خلية منها لا تعرف الأخرى . . وتكاثرت
الخلايا يوماً بعد يوم ، حتى شملت القوات المسلحة بأجمعها وخاصة المناطق
الحساسة فيها مثل إدارة الجيش . .

وما لا شك فيه أن عبد الناصر وهو الحذر دائماً بتكوينه كان واثقاً كل الثقة أنني سأقف إلى جانبه باعتبارى قوة لها تجربتها وتاريخها . . . قوة ستانده في الصراعات التي بدأت داخل الهيئة التأسيسية حتى قبل قيام الثورة . . . ولذلك كان يهرع إلى عندما أعود إلى القاهرة في أجازة ليشرح لي المصاعب التي يلاقيها من بعض الأعضاء . . . وعندما تعود بي الذاكرة إلى تلك الأيام البعيدة لأبأبلغ إذا قلت إن عبد الناصر كان يقضى معى خمسة أيام كاملة في كل إجازة من إجازاتي التي لم تكن تتعدى الأسبوع . . . وكنا كل مرة نتدارس أحوال التنظيم والصعاب والمشاكل التي تواجهنا . . . هذا إلى جانب أن عبد الناصر كان يضع تجربتي محل تقدير . . . أذكر مثلاً أنه في سنة ١٩٥١ طرأت له فكرة أن تبدأ الثورة بحركة اغتيالات واسعة ، وسألني في هذا فقلت له : « غلط يا جمال . . . ما هي النتيجة . . . إلى أين ستصل ؟ إن الجهد الذي يبذل في حركة الإغتيالات يساوى تماماً الجهد الذي يبذل في قيام الثورة ولذلك دعنا نأخذ الطريق المباشر المستقيم . . . وليكن هدفنا المباشر هو الثورة » .

وقد اقتنع بهذا الرأي فوراً وأخذ به . . . ولم يكن هذا حال عبد الناصر بعد أن قامت الثورة وأصبح هو قائدها . . . مثلاً في سنة ١٩٥٣ عندما بدأت الصراعات تشتد وتمتد داخل مجلس قيادة الثورة بحيث أصبحت تشكل خطراً على الثورة وعلى مصر . . . أذكر أنني ذهبت إلى منزله في ذلك الوقت وقلت له : - يا جمال الثورات تأكل نفسها وتأكل أبناءها . . . ونحن لا نريد أن نصل إلى هذا المدى . . . فلماذا لا تضع حداً لكل هذا . . . لماذا لا تواجه الزملاء وتقول لهم . . . فليبق معنا كل من هو من رأى وفكر واحد أما من يريد أن يتفرد برأى فليتركنا . . . لقد أنجزنا المرحلة الأولى وهي قيام الثورة وهذا عمل تاريخي رائع يكفي كل من ينسلخ عنا الآن فخراً أنه ساهم في قيام الثورة .

كان ينصت إلى بكل إمعان وتابعت كلامي :

- بعد ما نصل إلى السلطة تتغير أمور كثيرة - ولكن يجب ألا يكون هذا على حساب مصر - لقد انتخبناك رئيس مجلس قيادة الثورة بالإجماع فلا خلاف عليك إذن . . . ولذلك يجب أن يكون واضحاً لدى الجميع أن من يستطيع أن يسير معك يمكن أن يستمر أما من لا يستطيع فعليه أن يعتزل .

في سنة ١٩٥١ ، شعر عبد الناصر أن التنظيم قد و - ١ . مرحلة النضج وأنه لا بد له من قيادة خاصة وأن الكثيرين من أعضائه قد بدأوا يتساءلوا من قائد التنظيم أو قاده . . . بينما كان بمصر في هذا الوقت خمس أجهزة سرية هي بوليس السياسي . . . والمباحث الجنائية . . . والمخابرات الحربية للجيش . . . والمخابرات الخاصة بالإنجليز وال C.I.A. الأميركية التي دخلت مصر بعد الحرب العالمية الثانية . . . هذا بخلاف جهاز آخر خاص بالملك ويتبع السراى مباشرة .

لذلك كان الحرص مطلوباً في تكوين الهيئة التأسيسية فبدأ عبد الناصر في اختيار أعضائها ممن احتك بهم هو شخصياً في حرب فلسطين مثل كمال الدين حسين وصلاح سالم وممن له صداقة عمر معه - عبد الحكيم عامر - ممن كانوا أصلاً قادة التنظيم قبل أن يتسلمه وهم عبد المنعم عبد الرؤوف وعبد اللطيف بغدادى وحسن إبراهيم وخالد محي الدين وأنا . . .

قد يبدو اختيار عبد الناصر لي دليلاً على الوفاء - صحيح أنني كنت قد بدأت تنظيم الضباط الأحرار - ولكنني بقيت بعيداً عن التنظيم ثماني سنوات وهي الفترة ما بين فصلى من الجيش سنة ٤٢ إلى أن عدت إليه سنة ٥٠ ، ولكن لم يكن عبد الناصر ينتمى إلى ذلك الصنف من الرجال الذين تحركهم مشاعرهم نحو الآخرين إلا إذا كانت هذه المشاعر وليدة صداقة وطيدة الأركان كصداقته مع عبد الحكيم عامر . . . ورغم أننا تعارفنا إلى بعض وعمرنا لم يتجاوز ال ١٩ سنة . . . إلا أنني لا أستطيع أن أقول سوى أن علاقتنا كانت علاقة احترام وثقة من جانب كل منا . . . وليست صداقة على الاطلاق . . .

فلم يكن من السهل على عبد الناصر أن ينشئ علاقة صداقة بمعنى الكلمة مع أى إنسان وهو المتشكك دائماً - الحذر - المليء بالمرارة . . . العصبى المزاج . لا أقصد بهذا تجريد عبد الناصر في اختياره لي من عامل الوفاء ولكنني أضيف إلى هذا عاملاً آخر وهو الذكاء . . . فمن خط سيرى في القوات المسلحة ومن علمه منذ أن تقابلنا في مقتبل العمر أنى رجل ذو مبادئ وقيم . . . لم يكن من الصعب على عبد الناصر أن يدرك أنه يمكنه الاعتماد على وأن إضافته لي إلى الهيئة التأسيسية سوف تجعلى مدى العمر وفياً لهذا الوفاء من جانبه . . .

ولم أستطع أن أكمل حديثي فقد فوجئت بعبد الناصر وهو يقاطعني محتدماً -
محتجاً - غاضباً - ساعراً . . . وكأني أقف ضده لا معه . . . كانت ردوده كلها
تشير إلى ذلك . . . مليئة بالمرارة التي انفجرت فجأة في صدره وكأنها حمم بركان
يقذفها في ثورته . . . طائشة المرمى . . . تلهب وتؤذي بلا سبب ودون أي اعتبار . . .
فالله وحده يعلم أن هدفي من الحديث معه كان تحييب البلاد انعكاسات الصراع
الذي كان يشتد كل يوم بين من ييدهم الأمر مما جعل ثورة ٢٣ يوليو رغم
إنجازاتها الرائعة تصل بمصر إلى مرحلة رهيبة انتهت بهزيمة ٦٧ التي كادت أن
تحو كل ما حققته الثورة .

٣

لم يكن دورى في التمهيد لقيام ثورة يوليو قاصراً على إسداء النصح لعبد الناصر
كلما أمكن ذلك أو على مساندته في مواقفه المختلفة من الصراعات القائمة في الهيئة
التأسيسية أو على توزيع منشورات الضباط الأحرار في المناطق المخصصة لى -
فقد كانت الأحداث تسير بسرعة مذهلة . . . وكان على أن ألحق بركب الأحداث
وأن أكيف نفسي وفقاً لطبيعتها . . .

ففي أكتوبر عام ١٩٥١ ألقى النحاس باشا المعاهدة المبرمة بين مصر وإنجلترا
عام ١٩٣٦ . . . وبدأت حركات القداميين والإخوان المسلمين في القتال واشتركت
فيها بالتدريب وبالإمداد بالسلاح والذخيرة وأصبح الجو العام يبشر بأن
الهدف الذي كنا نعمل من أجله لم يعد بعيداً فاجتمعت الهيئة التأسيسية
للضباط الأحرار في أوائل يناير ١٩٥٢ وقررنا قيام الثورة في نوفمبر عام ١٩٥٥ . . .
ولكن ما هي إلا أيام قليلة حتى فوجئنا بحريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ .
لم يعرف حتى الآن من الذي دبر حريق القاهرة ، ولكن الهدف كان واضحاً لدى
الجميع . فما لاشك فيه أن حريق القاهرة كان موجهاً ضد الملك كما كان تعبيراً
عنيفاً عما يلاقيه أكثر من ٩٥٪ من الشعب - وهي القاعدة العريضة التي حرمت
في ظل نظام طبقى رأسمالي صارخ من كل شيء وأصبحت الأحزاب
السياسية هي الأخرى أداة في يد الملك والإنجليز وأصبح كل همة أن تتحالف
مرة مع الإنجليز ومرة مع الملك لكي تحقق لنفسها المكاسب على حساب
الشعب .

وكان حريق القاهرة هو جرس الإنذار قبل ثورة دموية لو أنها قامت
لهدمت وأحرقت كل شيء ، ورغم أن الفاعل كان مجهولاً إلا أن الهدف قد
أصاب فأضعف من مركز الملك .

في ضوء هذا الحدث الأخير كان علينا أن نراجع حساباتنا وأن نعرف أين
نقف بالضبط - وهنا تذكرت يوسف رشاد الذي أصبح طبيب الملك الخاص ،
وصلة الصداقة التي تربطني به . . . لقد آن الأوان لكي أستخدم هذه الصلة لمصلحة
القضية التي نعمل من أجلها . . . واتصلت بيوسف رشاد وكان في ذلك الوقت
صديقاً شخصياً للملك كما كان على رأس جهاز المعلومات الخاص بالسراري .

وجدت يوسف رشاد يأخذ كل ما أقوله له أمراً مسلماً به . . . فلا جدال
ولا مناقشة ولا شك من أي نوع . . . الطريق مفتوح إذن لتضليل الملك وتخديره
حتى يقوم تنظيمنا بالثورة .

والحقيقة أن هذا هو ما فعلت . . . فكنت أقدم له معلومات خاطئة . . . وعندما
كان يعرض على منشورات الضباط الأحرار ، كنت أوهمه أنها من صنع
خيال ضابط معروف بحب التظاهر والعظمة ولكنه في الحقيقة لا حول
له ولا ملول . . . وعندما كانت تصل إليه بعض الحقائق كنت أعمل جاهداً
على تصويرها في عينيه على أنها أكاذيب ومبالغات لا نصيب لها من الصحة .

ولم يكن هذا كل دأبي . . . فقد كنت دائم السعي للتحايل للتعرف على
أخبار الملك وخططه وتوابعه . . . ونجحت إلى حد كبير في تحقيق هدفي ، فبعد
حريق القاهرة بأيام عرفت من يوسف رشاد أن الملك بات يشعر بأنه لم يعد له مكان
في مصر . . . بل وأعد قائمة بأسماء من سيصاحبونه في المنفى ومن بينهم يوسف
رشاد طبعاً . . . كما أنه بدأ يرسل الذهب في طائرته الخاصة إلى بنوك جنيف
الأمر الذي جعلني أنا وعبد الناصر نقتنع بأن حركة الضباط الأحرار لن تجد
مقاومة تذكر من جانب الملك . . . فقد كان واضحاً أنه قد بدأ ينهار فعلاً وبناء
عليه جمعنا الهيئة التأسيسية في فبراير ١٩٥٢ وقررنا قيام الثورة في نوفمبر ١٩٥٢
بدلاً من نوفمبر ١٩٥٥ . . . لماذا نوفمبر ؟

لأنه في نوفمبر يكون الملك والحكومة قد عادا من الإسكندرية وبذلك نستطيع تركيز ضربتنا في القاهرة . . .

باستثناء عبد الناصر لم يكن أحد يعلم باتصالني بيوسف رشاد الذي ظل سلاحاً من أهم أسلحة معركتنا . . . ولم نتوقف عن استخدامه إلى أن بلغنا هدفنا بالكامل . . . أذكر أنه في أول يوليو ١٩٥٢ ، كنت أقضي إجازتي الشهرية بالقاهرة وفي حديث لي مع عبد الناصر طرأت له فكرة استطلاع أخبار الملك فركبت عربتي الفوكسهول وتوجهت إلى الإسكندرية حيث التقيت بيوسف رشاد في نادي السيارات بسيدي بشر وعلمت منه أن الملك قلق لزيادة منشورات الضباط الأحرار . . . طمأنته بأنه ونسب المنشورات كما اعتدت أن أفضل إلى أحد الضباط الذي كان مولعاً بالتظاهر وإيهام الناس بأنه مهم . . . وكنت قد ابتكرت بعض المعلومات الخاطئة المضللة . . . فحكيتها ليوسف رشاد وبعد أن أطمأن بالي إلى أنه نقلها إلى الملك . . . ركبت عربتي وتوجهت إلى القاهرة حيث أطلعت عبد الناصر على نتائج رحلتي وكانت إجازتي قد انتهت فعدت إلى مقر عملي في رفح .

فوجئنا بعد ذلك في ١٨ يوليو بالملك يصدر أمراً بالغاء انتخابات مجلس إدارة نادي الضباط وهي التي كان التنظيم قد كسبها من الضباط الموالين للسراي . . . الملك قد بدأ يتردد أنقاسه إذن . . . بل ويتحدى . . . وفي نفس الوقت أبلغ أحمد أبو الفتح (الصحفي الوفدي) جمال عبد الناصر - وكان صديقاً شخصياً له - بأن الملك يعزم تغيير الوزارة وأن وزير الحربية في الوزارة الجديدة هو اللواء حسين سرى عامر الذي يعرف الكثير عن الضباط الأحرار والذي سوف يكون أول ما يفعله بالتأكيد هو أن يقضي عليهم ويجهض كل مشروعاتهم بمجرد توليه الوزارة لكي يثبت للملك قوته وولاه .

ويتحليل بسيط وصل عبد الناصر إلى حقيقة تفرض نفسها علينا وعلى مستقبل الثورة والبلاد . . . إما نحن وإما حسين سرى عامر الوزير القادم والذي يعرف الكثير عنا بل ونحن أغلب أعضاء الهيئة التأسيسية الذين تحولوا فيما بعد إلى مجلس قيادة الثورة .

ولم يتردد عبد الناصر .

فقد اتخذ قرار قيام الثورة قبل تولي هذا الوزير لمهام منصبه وقبل أن يفلت زمام المبادرة .

وكان معنى هذا أن تقوم الثورة في يوليو بدلا من نوفمبر ٥٢ .

وفي يوم ٢١ يوليو ١٩٥٢ أرسل عبد الناصر رسالة لي مع حسن إبراهيم تسلمتها في مطار العريش يطلب مني فيها أن أنزل إلى القاهرة يوم ٢٢ يوليو لأن الثورة قد تحدد لقيامها ما بين ٢٢ يوليو و ٥ أغسطس . . . وفعلا وصلت القاهرة يوم ٢٢ يوليو . . . ولكنني لم أجد عبد الناصر في انتظارني على محطة السكة الحديد كعادته ، فقلقت في نفسي لا بد أن الوقت لم يحن بعد . . . ولذلك توجهت إلى بيتي واصطحبت زوجتي إلى السينما ولكنني عندما عدت إلى البيت في منتصف الليل وجدت بطاقة من عبد الناصر يطلب مني فيها أن أقبله في منزل عبد الحكيم عامر الساعة ١١ مساء . . . وعلمت من البواب الذي سلمني هذه البطاقة أن عبد الناصر قبل أن يترك البطاقة أتى إلى بيتي مرتين . . . مرة في الساعة الثالثة مساء ومرة أخرى في العاشرة .

غيرت ملابسي وأخذت مسدسي معي وتوجهت إلى منزل عامر وطبعاً لم أجدته فذهبت إلى ثكنات الجيش في العباسية . . . لم أكن أعرف كلمة السر بطبيعة الحال فنتعوني من الدخول وعندما تبينوا رتبتي طلبوا مني أن ألزم بيتي . . . فهذه هي الأوامر بالنسبة للضباط العظام . . . ناورت وحاولت كثيراً ولكن دون فائدة - كدت أجن فكيف تقوم الثورة أمام عيني وأنا لا أشارك فيها ؟ لقد كرس كل حياتي لهذه اللحظة بالذات . . . من أجلها كافحت وعانيت بل وكنت . . . في كل مرحلة من مراحل العمر . . . فقيم كان كفاحي وقيم كان كياني . . . وأنا أقف موقف المتفرج مما أعطى لهذا الكيان مبرراً لوجوده ؟ ناورت وحاولت مرة أخرى وعدة مرات إلى أن التقيت بعبد الحكيم عامر وهو ينظم مرور القوات . . . ناديت عليه . . . لم يكن في موقف يستطيع فيه أن يراني ولكنه تعرف على صوتي . . . عرفت منه أن القيادة قد سقطت إذ اقتحمتها قواتنا القادمة من معسكر (هاكستب) (ومعسكر هاكستب كان معسكراً أمريكياً أثناء الحرب العالمية الثانية وسمي على اسم أحد

الأمريكيين) وعلى رأسها عامر ويوسف صديق وأن رئيس الأركان حسين فريد قد حددت إقامته أما بقية القادة فكان عامر يقودهم إلى المعتقل في مقر الكلية الحربية حينذاك .

أخذت عربتي وتوجهت إلى رئاسة الجيش حيث كان عبد الناصر الذى طلب منى أن اتصل تليفونياً بجميع وحداتنا لأرى إذا كان كل شيء يسير حسب الخطة الموضوعية . . . نزلت إلى حجرة التليفونات بالطابق الأرضي . . . ولكنى وجدتها خالية . . . ناديت على العساكر عدة مرات ولكن لم يظهر منهم أحد - ألححت في النداء ورحت أطمئنهم فظهروا الواحد بعد الآخر وبعد أن تعرفوا على وهدايت نفوسهم عادوا إلى عملهم تحت إشرافى وبدأنا التتبع على جميع وحدات الجيش في سيناء والصحراء الغربية والإسكندرية والقنطرة شرق والعريش ورفع .

وحدث أن اتصل بنا حيدر باشا وزير الحربية في ذلك الوقت يطلب توصيله بالضابط التوتيجى فأوصلته بعبد الناصر - لم أسمع المكالمة ولكنى عرفت أنه لعب دور الضابط التوتيجى وقال لحيدر باشا رداً على تساؤلاته أنه لا توجد أية تحركات في الجيش وأن كل شيء على ما يرام . . . بعد قليل اتصل حيدر باشا بنا مرة أخرى وطلب توصيله بسلح المدرعات (السوارى) فأصدرت أمرى إلى العساكر بإهماله .

في الساعة الثالثة صباحاً أنت جميع التمامات من جميع الوحدات فأبلغنا عبد الناصر والزملاء أعضاء مجلس قيادة الثورة . . . وفي الحال اتصل عبد الناصر تليفونياً باللواء محمد نجيب في بيته بخلية الزيتون وأرسل عربة مدرعة أتت به إلينا في العجر . . .

في شرقه القيادة ونسيم الصيف الرقيق يلفح وجهى . . . وقفت أتأمل الشارع الفسيح الطويل الممتد بامتداد ثكنات الجيش وقواتنا تتدفق إليه من مصر الجديدة ومنشية البكرى وتتجه إلى قلب القاهرة . . . المدفعية - والمشاة - والدبابات . . .

كل شيء هادئ في ساعات الصباح المبكر ولكن الثورة قد بدأت . . .
أخيراً تحقق الحلم الذى عشت به وله سنوات عمرى . . . تحول إلى حقيقة . . .

يزخر بها صدرى . . . تستولى على كيانى . . . فيتضاءل إلى جانبها هذا الكيان . . .
كل شيء في الواقع يتضاءل . . . يصبح وهما . . . إلهى . . . الحقيقة الوحيدة . . . شائخة مهيبه تحجب الرؤية عن كل ما عداها . . .
هكذا كانت فرحتى بها . . . أكبر وأجمل من أن أتحمّلها وحدى . . .
ولذلك ما أن طلّح صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى هرعت إلى الإذاعة أعلن ميلاد الثورة ليشاركنى الناس ما أنا فيه من سعادة . . .

٥

العجلة تدور . . . لا تتوقف لحظة . . . هذا أمر لا مفر منه ، ولكن المهم أن ندبرها نحن . . . نتحكم فيها . . . نوجهها الوجهة السليمة . . . وهذا ما فعلناه ، أو على الأقل فعلنا كل ما بوسعنا لكي نحققه .

قبل أن أعلن قيام الثورة ، وفي فجر ليلة ٢٣ يوليو ، فكرنا في الاتصال بالأمريكان لنعطيم فكرة عن أهداف الثورة وطبيعتها . . . فقد كانت صورة أمريكا في أذهاننا مقترنة بحماية الحربية ومناصرة حركات التحرر . . . وكنا نهدف من هذا الاتصال أيضاً إلى تحييد الإنجليز . . . ولكن كيف نتصل ونحن لا نعرف أحداً بالسفارة الأمريكية ؟ هذان البحث إلى ضابط مسئول عن مخابرات الطيران اسمه على صبرى ، وكان في ذلك الوقت صديقاً للملحق العسكرى الأمريكى . . . فأرسلنا في طلبه وحملناه رسالة إلى صديقه . . . الذى نقلها بدوره إلى مستر كافرى السفير الأمريكى في ساعة مبكرة من صباح ٢٣ يوليو . . .
اعتبر السفير الأمريكى كافرى هذا لفتة طيبة منا وخاصة أنه كان صديقاً شخصياً لفاروق أو هكذا كان يعتبره الملك ، وبالفعل كان اتصالنا به بداية علاقة طيبة بيننا وبينه . . . حتى أنه في الوقت الذى كان فيه الإنجليز يبذلون كل جهدهم لمعرفة من هم رجال الثورة ، كان السفير الأمريكى قد دعانا إلى العشاء في بيته بالسفارة ، فليينا جميعاً دعوته . . . أعضاء مجلس الثورة جميعاً . . .

كان من الواضح أن البلاد كانت مهيبه للثورة ، فقد فقدت الناس ثقتها في الأحزاب ، أما بالنسبة لشعور الشعب نحو الملك والإنجليز فقد بلغ قمة

الرفض والكرهية . . . ولذلك التفت الجماهير حول دبابتنا في كل مكان ،
ترقص وتغنى وهي في قمة السعادة .
كان علينا أن نواجه مسئولياتنا وأولها تكليف وزارة بإدارة شئون البلاد -
ولكن من يكون رئيسها ؟

بعد مناقشة لم تدم طويلا ، اتفقنا جميعاً على أن أصلح الموجودين هو على
ماهر باشا ، فهو بعيد عن الأحزاب ثم إنه معروف بالحسم .
« يا أنور » خاطبني جمال عبد الناصر قائلاً : « دانت طول عمرك بتشتغل
بالسياسة ، روح شوف لنا على ماهر وكلفه علشان بشكل الوزارة » .

لم أكن أعرف بيت على ماهر ، ولكن حدث أن إحسان عبد القدوس وهو
صحفى مهد بمحلاته الصحفية لقيام الثورة وصديق عملت معه في الصحافة كان
قد أتى لزيارتي في القيادة ، ولما كان يعرف بيت على ماهر توجهنا معاً إليه .

استقبلنا على ماهر بترحاب ، وجلسنا في شرفة الدور الثاني حيث
كانت حرارة الجو محتمة بعض الشيء . . . أبلغته بتكليف مجلس قيادة الثورة له
برئاسة الوزارة . . . اضطرب ولم يقل شيئاً . . . فهمت أنه محرج فالتكليف يأتي
من الملك . . . ثم إنه ليس واثقاً من أن حركتنا سيكتب لها النجاح ، قلت له إننا
قد سيطرنا على الموقف تماماً . . . وأثناء حديثنا مرت في الجو أربع قاذفات قنابل
على ارتفاع منخفض . . . فسألني إذا كانت الطائرات تابعة لنا . . . قلت « نعم ،
ألم أقل لك إننا سيطرنا على كل شيء ؟ منذ الفجر والقوات المسلحة في أيدينا . . .
وكذلك جميع المرافق الحيوية . . . كل شيء أصبح في أيدينا . . . نحن نطلب
منك أن ترأس الوزارة . . . هذا أمر مجلس قيادة الثورة الذي هو صاحب الكلمة
الوجيدة في مصر الآن » .

سألني ماذا سنصنع بالملك . . . قلت له إنه حر يتصرف كما يشاء ، وعلى ضوء
تصرفاته ستعامله . . . في هذه اللحظة دق جرس التليفون في الحجر المجاورة
وتغيب على ماهر بضع دقائق ثم عاد ليقول إن الملك قد اتصل به وأنه موافق
على تعيينه رئيس وزراء وسيقبله مساء نفس اليوم بالإسكندرية . . . « مبروك »
قلت له وعدت إلى إخواني بالقيادة أبلغهم ما تم .

لقد كلفنا هذا السبب بتشكيل الوزارة بدلا من أن تشكل وزارة من
العسكريين لأننا لم نعد أنفسنا لتولى الحكم وكان هدفنا هو تطهير الحياة السياسية
واقضاء الملك والأحزاب والإنجليز .

إلى هنا كنا قد كسبنا الجولة الأولى ، لكن ما زالت هناك جولات أخرى أولا
انتقال قوات عسكرية من القاهرة إلى الإسكندرية فقد كان الملك يقضى الصيف
بها كعادته رسمياً ، ولكن لكي يتم هذا لابد لنا من بعض الوقت ، ولم يكن أمامنا
من سبيل إلى هذا سوى أن نصطنع بعض المطالب من الملك . . . كسباً للوقت أولا
ولكي لا يشك في حقيقة نوايانا نحوه ثانيا . . . فاتصلنا بعلي ماهر نطلب منه
انتظارنا قبل سفره بعد ظهر ٢٣ يوليو لمقابلة الملك حتى يحمل مطالبنا إلى
الملك .

كان مطلبنا الحقيقي الوحيد هو رحيل الملك عن البلاد . ولكن كان علينا
أن نخفي هذا إلى أن يتم انتقال قواتنا إلى الإسكندرية في هدوء . . . وبناء عليه
اصطنعنا بعض المطالب التافهة - ست مطالب على ما أذكر . . . وذهبنا بها
أنا وعبد الناصر ، إلى على ماهر وسلمناها له ، وسافر الرجل إلى الإسكندرية
بعد ظهر ذلك اليوم ليقابل الملك .

وفي الليل اتصل بي على ماهر من الإسكندرية وقال إن الملك قد قبل
طلباتكم كلها ! . . . وأسقط في يدنا فقد كنا نعتقد أن الحوار سيبدأ . . . وبناء عليه
فهو يري - أي على ماهر رئيس الوزارة الذي فرضناه على الملك - أن يحضر
إلى الإسكندرية اثنان من مجلس قيادة الثورة ليسجلا اسميهما في دفتر التشريعات . . .
« شكراً للملك على الاستجابة إلى مطالب الجيش » قلت له : « سأدرس
الموضوع مع زملائي »

جهزنا القوات يوم ٢٤ وفي صباح ٢٥ يوليو بدأت تتحرك . . . علم الملك
قأبلغ على ماهر الذي اتصل بي ليستفسر . . . فقلت له إن هذه القوات قادمة
إلى الإسكندرية لتأمين المرافق كما فعلنا في القاهرة . . . ولا داعي للقلق ثم إنني
شخصياً سأحضر إلى الاسكندرية في المساء لتنفيذ ما اتفقنا عليه .
عبد الناصر قال لي في ردهة القيادة العامة للقوات المسلحة : « اسمع يا أنور

خلصنا بقى من الجدد دا بسرعة . . ادبله إنذار ومشيه . . عاوزين نخلص منه بسرعة علشان تستقر الأوضاع فى البلد . . قلت له « طيب » . . أثناء حديثنا مر بنا محمد نجيب فلما علم بموضوع الحديث طلب منا أن يذهب معى . . ووافقنا . . أخذت مع محمد نجيب طائرة عسكرية من طراز دوف (Dove) صغيرة أوصلتنا إلى مطار الزهة بالإسكندرية ومن هناك توجهنا إلى بولكلى ، وهو مقر رئيس الوزراء الصيبي فى الإسكندرية ، حيث دخلنا على رئيس الوزراء على ماهر . . وجدته مضطرباً بسبب القوات المتجهة إلى الإسكندرية . . طمأنت باله ، كما فعلت من قبل ، وأكدت له أن الغرض من القوات هو تأمين المرافق والأهالى والممتلكات . . خاصة وفى الإسكندرية كثير من الأجانب ، فقد يفتعل بعضهم أشياء تعرض البلاد للخطر وبالذات كنا نحسب حساب أى عمل من جانب المخابرات البريطانية . .

عند خروجى وجدت مقر رئيس الوزراء مليئاً بالصحفيين من جميع الجنسيات ، الكل يهرع إلى متسائلا عن آخر الأخبار . فقلت لهم ، لا جديد ، وسوف ألتقى برئيس الوزراء مرة ثانية فى السادسة مساء . . لا أعلم إذا كان من حسن حظى أو العكس ، أننى كنت الوحيد من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى كتبت عليه مواجهة جميع الأحداث ، منذ إعلان قيام الثورة إلى خروج الملك من مصر . فقد تسبب هذا فى خلق حساسيات كثيرة بينى وبين زملائى فى مجلس قيادة الثورة خاصة وأننى كنت الاسم الوحيد المعروف بينهم لدى الجماهير نتيجة لنضالى السياسى الطويل وبعد أن خلقت منى الصحف والمجلات بطلاً أسطورياً فى قضية مقتل أمين عثمان .

لم أتنبه إلى هذه الحساسيات فى بادئ الأمر ، فقد كنت أقوم بكل ما أفعله فى عسوية وبفرحة من بدأ عملاً كبيراً . . لا يهمنى إلا أن يكتمل ، بصرف النظر عن شخصه أو أى شخص آخر . . هكذا كنت أرى الأمور ، واتصرف وفقاً لما أراه . . ولكنى بعد ذلك عانيت الكثير من هذه الحساسيات التى لم يكن لى يدنى لإيجادها ، بل ولم أكن حتى على وعى بها ولكن هكذا شاءت الظروف . . لا أعرف ما الذى عاد بذاكرتى إلى تلك الحساسيات ، فمن المؤكد أنها لم تتحرك

أى أثر فى نفسى حتى عندما تبينتها وأصبحت واضحة لى كل الوضوح ، ولكن من المؤكد أيضاً أنها أثرت على الآخرين بما كان يمكن أن يجعل الموقف يتفجر أكثر من مرة فيفسد العمل الجميل الذى قمنا به . . ولذلك أعتقد أننا ينبغي أن ننشئ أبناءنا على استبعاد الذاتية فى كل ما يفعلون لتحل محلها الموضوعية الخالصة .

فليس المهم أن أكون أنا أو غيرى الذى بنى البيت ، الأهم من هذا كله . . بل الشئ الوحيد المهم أن يوضع حجر أساس البيت وأن يكتمل بناؤه .

٦

بعد أن تركت على ماهر ، توجهت إلى قشلاق مصطفى باشا مقر قيادة القوات العسكرية بالإسكندرية ، حيث كان زكريا محبى الدين . . كان جزء من قواتنا قد وصل والباقي فى الطريق . . ولكن زكريا أخبرنى أنه لن يكون مستعداً لمحاصرة قصر رأس التين وقصور الملك الأخرى قبل أن توجه له الإنذار إلا فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ٢٦ يوليو ، إذ أن الجنود بعد هذه الرحلة الشاقة من القاهرة إلى الإسكندرية ، لابد لهم من تناول وجبة ساخنة ، ثم إنه لن يكتمل وصولهم قبل الساعة السادسة مساء ٢٥ يوليو ، وهو الميعاد الذى حددته لمقابلة على ماهر ، وإبلاغه بإنذار مجلس القيادة .

لم يكن هناك مقر من التأجيل ، فاتصلت بعلى ماهر ، وطلبت منه تأجيل ميعادنا إلى الساعة التاسعة صباح ٢٦ يوليو . . ولكن قبل أن يتم اللقاء كان زكريا قد حاصر بالجزء الأكبر من قواته مقر الملك حينذاك وهو قصر رأس التين حيث قامت معركة بين القوات وبين الحرس الملكى . . أصيب فيها عدد من الحرس . . انزعج الملك . . فسحب قوات الحرس ، واتصل بعلى ماهر ، كما اتصل بالسفير الأمريكى يستنجد به خوفاً من القبض عليه وقتله ، ولكن كافرى كان حريصاً فأرسل له سكرتيره الخاص خوفاً من خلق حساسية معنا ولمعرفته أن الملك مكروه وأنه قد خسرت المعركة .

فى التاسعة من صباح ٢٦ يوليو ، اتجهت ومعى اللواء محمد نجيب إلى بولكلى ،

كان في البهو المؤدى إلى حجرة رئيس الوزراء عدد ضخم من الصحفيين والكل يتطلع إلى ويسأل ما الأخبار ؟ وفجأة تقدم مني رجل عرفته منه أنه مستشار السفارة الأمريكية . وسألني وهو في حالة انفعال لماذا حاصرت قواتنا الملك في قصر رأس التين وكيف حدث لإطلاق النار . . . إلخ . . . نظرت إليه بلامبالاة ، وقلت له إن هذا ليس من شأنه فانسحب ، وتقدم مني رجل آخر . . . مصرى هذه المرة . . . وهمس في أذني « حاجة مهمة يا فندم . . . الدكتور يوسف رشاد على التليفون وبلغ أنه يكلمك قبل ما تدخل عند علي ماهر » .

كان واضحاً أن الملك يريد أن يطمئن ، وأنه كان ما زال يعتقد أنني كصديق ليوسف رشاد يمكنني مساعدته ، فالتفت إلى الرجل وقلت :

« قل ليوسف رشاد ينتظر . . . العجلة دارت ولن تعود مرة أخرى إلى الورا » .
لقد كان الدكتور يوسف رشاد صديقاً عزيزاً استخدمته في تضليل الملك ولذلك ولأن الأمر أكبر من الصداقة وهو مصلحة الوطن فقد رفضت أن أكلمه إلا بعد أن تنهى معركة التخلص من الملك .

أما بعد خروج الملك وبعد أن أصبح كل شيء في أيدينا فيوسف رشاد بالنسبة إلى هو الصديق الذي أحبه وأحفظ له وقوفه إلى جانبي في ساعة الشدة ، ولذلك فإنه بعد التخلص من الملك وحين طلب مني مجلس قيادة الثورة اعتقال يوسف رشاد ، فوجيء مجلس قيادة الثورة بي وأنا أدخل الاجتماع ، أحمل في يدي حقيبة ملابس . . . وأقول لهم « يوسف رشاد هذا الذي تتكلمون عنه أنا فعلت معه كذا وكذا وكذا . . . عبد الناصر يعلم كل التفاصيل ولذلك إذا اعتقلتم يوسف رشاد فيجب أن تعتقلوني معه . . . وأنا على أتم استعداد لذلك كما ترون . . . فمعي حقيبة ملابس . . . فهذا أمر خلقي ومبدئي بالنسبة لي » . . . ولم يعتقل يوسف رشاد وتركوه وشأنه إلى أن مات .

بعد أن دخلنا حجرة علي ماهر . . . لم أضيع وقتاً ففتحت الحقيبة التي في يدي ، وأخرجت منها الإنذار الموجه من مجلس قيادة الثورة - وهو بخط يدي - إلى الملك وبدأت أقروءه ، طلبنا فيه مغادرة الملك للأراضي المصرية في الساعة السادسة مساء يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، فإن لم يفعل فإن عليه أن يتحمل المسؤولية كاملة .

كانت الصدمة واضحة على وجه رئيس الوزراء ، ولكنه أفاق منها بعد لحظات ، وأخذ الإنذار ليبلغه إلى الملك .

وفي العاشرة والنصف أي بعد ساعة ونصف من تسليم الإنذار اتصل بي علي ماهر رئيس الوزراء من مقره في بولكي بعد عودته من مقابلة الملك ، وأبلغني أن الملك قد قبل الإنذار ورجاني أن ألحق به في مكتبه للاتفاق على صيغة التنازل . فقد كان مطلبنا في الإنذار أن يتنازل الملك عن عرشه لابنه الأمير أحمد فؤاد .

ذهبت إلى مكتب علي ماهر مع أحد الزملاء ، المرحوم جمال سالم ، حيث اطلعنا على صيغة التنازل ، وفيها أن يوضع الأمير أحمد فؤاد تحت الوصاية ، فقد كان في ذلك الوقت طفلاً صغيراً . . . ووافقنا على الصيغة ، ثم أرسلناها إلى الملك . فوقعها وعلى الفور اتصلت بقائد المحرسة تحت الملك الخاص وطلبت إعادته للإبحار بالملك وأسرته في السادسة مساء على أن يعود اليخت إلى مصر بمجرد أن ينتهي من مهمته .

في قشلاق مصطفى باشا جلست مع إخواني في القيادة ممن كانوا معي في الاسكندرية ، نتلقى الأنباء من مواكب رجال الأحزاب وكبار البشوات والباكوات والإقطاعيين فإذا بنا نفاجماً يطلب المقابلة من القائم بالأعمال البريطاني وفي صحبته الملحق العسكري في السفارة البريطانية وطبعاً كان الملحق العسكري يرتدي زياً رسمياً على طريقة مواكب الإمبراطورية القديمة التي كانوا يرهبون بها المستعمرات ، وكان السفير البريطاني في إجازة . . . استقبلناهما . . . قدم القائم بالأعمال لنا مذكرة ، فحواها أنهم باعتبارهم أصدقاء لنا ، فهم يطلبون معرفة موقف الثورة من أسرة محمد علي وحقوقها التاريخية ، ويطلبون كذلك فرض حظر التجول لحماية لأرواح الأجانب .

كان هذا أول اصطدام لنا مع الإنجليز بعد الثورة ، فقلت هذه فرصة لكي نلقنهم درساً كنا نتوق إليه طوال عمرنا . . . التفت إلى الرجلين وقلت :-

« البند الأول ، أسرة محمد علي وحقوقها التاريخية . . . ما دخلكم أتم في هذا ؟ هل هي أسرة إنجليزية ، أمركم غريب والله ! أما عن حماية الأجانب ، فيجب

أن تعلموا أن هذه بلدنا . . وأنه منذ اليوم لا أحد مسئول عنها إلا نحن . .
ونحن فقط . . أفهمم ؟

ثم إننا نريد أن نعرف . . بأيه صفة نقولون هذا الكلام ؟ هل هي صفة رسمية ؟
إذا كان الأمر كذلك فنحن نريد كلامكم مكتوباً وموجهاً من الحكومة
البريطانية حتى نستطيع أن نتخذ موقفاً من حكومتكم . .

تراجع القائم بالأعمال البريطاني على الفور وقال إن الورقة التي قرأ منها
الكلام ، ورقة عادية وإن حكومته لا تعرف شيئاً عنها أو عن زيارته لنا ، وإنه
قد أتى إلينا كصديق فقط ، وليس بأية صفة أخرى ، ورجاني أن أعتبر الزيارة
كان لم تكن . . باختصار انسحب بكل الأساليب الناعمة التي يمكن تصورها .
بمجرد خروجه ، أبلغت إخواني في القيادة بالقاهرة بأن أول احتكاك لنا مع
بريطانيا قد وقع في الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ٢٦ يوليو ، وأنه انتهى بانسحاب
بريطانيا وتراجعها تراجعاً كاملاً .

اتصلت بعد ذلك بالميناء ، فعرفت أن كل شيء على ما يرام بالنسبة لليخت
المحروسة ، واجراءات خروج الملك على ظهرها - أصدرت أوامري لمدفعية
السواحل بعدم التعرض للمحروسة ، كما أعطيت تعليماتي لسلاح الطيران
بتجهيز بعض الطائرات لتحية الملك أثناء مباحته المياه المصرية .

وهكذا في السادسة من مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، غادر الملك فاروق الأراضي
المصرية . . وكان في وداعه من رجال الثورة على اليخت محمد نجيب وجمال
سالم وحسين الشافعي . أما أنا فقد وقفت على ظهر البارجة لإبراهيم في الميناء ،
أكبر قطعة بحرية عندنا في ذلك الوقت . . أراقب الطائرات وهي تحوم فوق
المحروسة تحيي الملك مودعة . . لفتة بسيطة - هكذا قلت لنفسي - ولكنها تحمل
من معاني الثقة بالنفس والكبرياء والسماحة ما يعبر عن روح مصر عبر الزمان .

الفصل الخامس

الشوار يحكمون

في مساء ٢٧ يوليو ١٩٥٢ أي بعد خروج الملك بيوم واحد دعانا عبد الناصر
- مجلس قيادة الثورة - إلى الاجتماع في القيادة . . وافتتح الاجتماع قائلاً إن
المرحلة الأولى من مراحل الثورة قد نجحت بخروج الملك أمس ، واليوم نحن
المسئولون عن البلاد وبناء عليه يجب أن نتخذ قراراً في أمر مهم جداً ، ولكن
قبل أن نتخذ هذا القرار . . يرى من واجبه أن يتنحى عن رئاسة الهيئة التأسيسية ،
فقد انتهت هذه الهيئة بنجاح الثورة ونحن من اليوم اسمنا مجلس قيادة
الثورة .

لم أرى أي معنى في كلام عبد الناصر ، فلماذا يستقيل ؟ وما الفرق بين
رئيس الهيئة التأسيسية ومجلس قيادة الثورة ؟ لقد نجحت الثورة فماذا يهم بعد
ذلك ، وما الداعي إلى تغيير الأوضاع والمسئوليات ؟

كان من الصعب علي في تلك المرحلة البعيدة إدراك ما يهدف إليه عبد الناصر . .
فبالنسبة إلي - بنجاح الثورة ودخولي مجلس قيادة الثورة - انتهى كل ما كنت
أطمح فيه منذ أن كنت أستمع إلى موال زهران فوق سطح القرن في
ميت أبو الكوم وأثناء الاعتقال وبعد الفصل من القوات المسلحة وخلال سنوات
السجن والجوع والتشريد . . عمر جيل بأكمله من الكفاح والحرمات في
سبيل تحقيق رسالة ، لا أعالي إذا قلت إنه بدونها لم يكن في الإمكان أن يكون
للحياة أي معنى . .

والآن وقد تحققت الرسالة وشاركت أنا بالفعل في تحقيقها فأعلنت ميلاد الثورة
وأخرجت الملك من البلاد ، وواجهت بريطانيا التي كانت تمثل عدو الشعب
رقم ١ ، وعلمته درساً كنت أتوق إليه من زمن ، عندما أتى إلينا القائم بالأعمال
البريطاني ومعه الملحق العسكري في قشلاق مصطفى باشا بالاسكندرية فأعلنت

بكل وضوح وعزم وتصميم أن لا إرادة بعد اليوم إلا لمصر ، ومصر وحدها . .
فماذا أريد بعد ذلك اليوم ؟ وأى شيء يهيم ؟ حتى ولو لم أدخل مجلس القيادة
وحتى لو لم يكن لي دور ملمسوس في قيام الثورة . . يكفيني أن الثورة قد قامت
ونجحت فتحقق بذلك حلم حياتي . .

كانت هذه حقيقة مشاعري منذ البداية ، فالثورة قد قامت ولا يمكن أن يكون
قيامها إلا لمصلحة مصر ولتحقيق قيم الخبير والحق التي كنت أتوق إليها منذ
الصبا . . فلتسركما تشاء وليتخذ قادتها من القرارات ما يرون اتخاذه ، فالخليفة
في النهاية هي خير مصر والمصريين .

ولذلك دهشت عندما تقدم عبد الناصر باقتراحه بالنجى واعترضت عليه ،
ولكنه ألح وصمم على أن يوضع اقتراحه موضع التنفيذ . . وفعلاً أعدنا انتخابه
بالاجماع رئيساً لمجلس قيادة الثورة . . لم يكن عهدى بعبد الناصر أن
يقول أو يفعل أى شيء اعتباطاً ، فلماذا فعل ما فعل ؟ لم يكن عبد الناصر
بالرجل الذى يمكن وصفه بالمثالية . . بل كان في الحقيقة عملياً إلى أقصى
حد . . كثير الشك . . به مرارة تجعله يلتزم الحسنى في كل خطواته . .
فلا بد من سبب لاصراره على تنحيه عن الرئاسة ، وإعادة انتخابه رئيساً لمجلس
قيادة الثورة ، وهنا تذكرت بعض الصراعات التي قامت بينه وبين بعض أعضاء
الهيئة التأسيسية . . صراعات على السلطة بطبيعة الحال . . ولكن بعد أن قامت
الثورة لمماذا الصراع ؟ سألت نفسي هذا السؤال أكثر من مرة إلى أن اهتديت
لإلى الحل - بل إلى طريق لإدراك ما يدور حولى . . لقد جاءت الثورة بالنسبة
إلى بصورة تختلف اختلافاً كلياً عما حدث لهم جميعاً . . فالثورة بالنسبة إلى
ومعبرة للتكرار ، كانت نجمة كفاف عمر بأكمله ، ولذلك فيحكم ما أدين به
من قيم ومثل ، ما أن نجحت الثورة حتى أصبحت لا أريد أى شيء ، وأصبح
أى شيء في نظري يساوى أى شيء آخر . . ولذلك كنت دائماً أقف بعيداً عن أية
معركة تدور بينهم ، وكان تفسيرهم لسلوكى هذا أنى عديم الاهتمام والمبالاة بكل
شيء ، غير قادر على البت في الأمور . . ولم يخطر على بالهم أننى أبتعد
تربحاً لا عجزاً . . وامتلاءً بلذاتى لا خراء ولا خوفاً . . بل حرصاً على الثورة . .
وحرصاً على أن نظل المجموعة مترابطة لأن هذا لا بد أن يعكس على البلاد . .

وتعالياً على صغائر الأمور وفي مقدمتها السلطة . . واقتناعاً منى بأننا ما دمنا قد
صنعنا الثورة فلا شيء يهيم بعد ذلك . . أما هم أى زملائى من أعضاء مجلس
قيادة الثورة فمجموعة من الضباط الشباب كانوا منذ ثلاثة أيام فقط يجلسون إلى
مكاتبهم في القاهرة كما يجلس الكثيرون غيرهم من أفراد القوات المسلحة ، لم يعرفوا
الجوع أو التشرد ، لم يتعرضوا للسجن والاعتقال . . لم يعانون مرارة الأمل
واللهفة والإحباط . . ثم بعد ثلاثة أيام من إعلان الثورة وجدوا أنفسهم ينتقلون
فجأة من مكاتبهم ومراكزهم في الجيش إلى مركز القيادة ، فهم وحدهم
يحكمون مصر بلا منازع ولا منافس ، ومن ثم كان الصراع على السلطة ، وهو
الشيء الذى لم يخطر ببالي في أى وقت من الأوقات . . ولذلك تجد كل
أفعالى طوال مدة قيام مجلس قيادة الثورة ، وبعد ذلك ، بمنأى عن هذا النزاع ،
أى الصراع أو الرغبة في السلطة أو المزاومة على المناصب .

لو لم أر هذا بنفسى لما صدقته . . ولكن لم يكن الأمر كذلك مع
عبد الناصر ، فقد كان على وعى كامل بالصراع على السلطة ، وكان يعد
لكل أمر عدته ، فبعد أن اطمأن إلى انتخابنا له رئيساً لمجلس قيادة الثورة ،
طرح علينا أمراً وصفه بأنه في غاية الأهمية ، وهو الاختيار بين حكم البلاد عن
طريق الديمقراطية أو طريق الديكتاتورية .

ما هذا الذى يفعله عبد الناصر ؟ هل فقد عقله أم ماذا ؟ قلت في نفسي . .
فقد كنت على ثقة من أننا جميعاً بل والشعب الذى أيد الثورة بهدير رهيب
وأولنا عبد الناصر قد كفرنا بالديمقراطية نتيجة لما صنعته بنا وبالبلاد ديمقراطية
الأحزاب وصراعاتها من أجل السلطة وخضوعها للملك وللإنجليز . . ثم إننا جميعاً
ضباط ، وقد تعودنا في العسكرية سرعة الإنجاز . . هذا إلى جانب الهدف الرئيسى
الذى قامت الثورة من أجله وهو إصلاح أحوال البلاد في أسرع وقت .

طرح الموضوع للمناقشة ، وللحقيقة والتاريخ أصر جمال عبد الناصر
على رفض طريق الديكتاتورية لأنه كما وصفه هو طريق الدم ، والعمل الذى
يبدأ بدم لا بد أن ينتهى بدم . . وقال إنه يفضل ألف مرة إعادة البرلمان
الحزبى القديم وتسليم مقاليد الأمور للأحزاب برغم الرفض المطلق لها من

جانب الشعب ، على أن نلجأ إلى أسلوب الديكتاتورية .. فكيف نخرج البلاد من ديكتاتورية الأحزاب لندخلها في ديكتاتوريتنا ؟ هذا إلى أن الأحزاب كانت تخاف من الملك ومن الإنجليز .. أما نحن فلنا الآن مطلق السيادة ، ولن نخاف من أحد ..

تكلم الجميع وربما كنت أنا أكثرهم حماساً ، فقد كان دفاعي من منطلق الحرص على مصلحة مصر ، فالشيء الذي نتجزه بالطريق الديمقراطي في سنة يمكن إنجازه عن طريق الديكتاتورية في يوم .. ولم يحظر بيلى مطلقاً في تلك اللحظات أن المسألة كلها ليست إلا اختباراً للقوة من جانب عبد الناصر فهو يهدف في بداية رئاسته للمجلس إلى أن يثبت للجميع أنه يستطيع أن يتخذ القرار ..

احتدم الصراع وشعرت أننا سوف نواجه انقساماً يضرب وحدتنا فتدخلت ، وبدأت ألخص الكلام الذي قيل بهدف تجميع الموقف ، وإذا بعيد الناصر يفاطعني بحدة وعنف قائلاً : -

- أنت قاعد تلخص كلام الأعضاء وتكلم كلاماً لا معنى له .. وتصرف كأنك رئيس مجلس قيادة الثورة .. ما هذا الذي تفعله ؟ قلت له مندهشاً : « يا جمال أنا آسف .. أنا بأحاول أجد حل وسط .. أنا لا رئيس مجلس قيادة ثورة ولا شيء من هذا القبيل .. »

وأخذت الأصوات فكانت النتيجة ٧ ضد واحد هو عبد الناصر .. سبعة أصوات منا مع الديكتاتورية وواحد للديمقراطية هو عبد الناصر . عندها وقف محتجاً وقال في حدة : -

« أنا لا أستطيع أن أقبل هذا القرار الذي هو قرار الديكتاتورية .. هذا طريق خطر على الثورة وعلى البلاد ، وأنا مستقيل من جميع مناصبي .. » وبرغم إعادة فتح باب المناقشة للمرة الثانية وأخذ الأصوات في نهايتها فإن النتيجة لم تتغير سبعة للديكتاتورية وواحد للديمقراطية هو عبد الناصر وجمع جمال أوراقه وأعلن استقالته من جميع مناصبه متمنياً لنا التوفيق ولكنه كما قال

طريق خططر على البلاد سيثبت لنا خطوه وغادر القاعة إلى منزله في الساعة الثانية من صباح ٢٨ يوليو ١٩٥٢ . وأسقط في يدنا جميعاً بعد انصراف جمال ونحن حول منضدة الاجتماع ورائت فترة من الصمت ..

ثم بدأت المناقشة هذه المرة بدون جمال وتغلبت روح الوحدة على روح الصراع والإنقسام خاصة وأن جمال كان الدينامو الذي لم تصور أبداً أن يبدأ العمل في إعادة البناء بدوننا واتخذنا في نهاية المناقشة قراراً بأن يعود جمال ولنا فيه كل الثقة وذهب إليه في منزله اثنان منا ليلغوه .. وفي فجر غد جمال منتصراً .. بتفويض منا .. وكان قراراً تاريخياً مهماً اختلفت الآراء عليه .

٢

كان أول قرار اتخذناه لتطبيق الديمقراطية هو مطالبة الأحزاب بتطهير نفسها ، وأصدر مجلس الثورة قانون تنظيم الأحزاب ثم طلبنا من الأحزاب القديمة أن توافق على قانون الإصلاح الزراعي الذي هو مبدأ أساسى من مبادئ الثورة .. فيه وحده سوف يتغير هيكل المجتمع .. وهذا ما كنا نبغيه ..

وأصدر مجلس الثورة أيضاً في نفس الوقت قراراً بإجراء الانتخابات العامة في فبراير ١٩٥٣ أى بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة وحينما هاجم على ماهر - رئيس وزراء الثورة الذي فرضناه على الملك - عندما هاجم الأحزاب في بيان لم يذكر فيه تاريخ الانتخابات الذي حددناه في مجلس الثورة أى فبراير سنة ١٩٥٣ أوقفنا مطابع الصحف وأصدرنا بياناً من مجلس الثورة يؤكد التزامنا بإجراء الانتخابات الديمقراطية في فبراير سنة ١٩٥٣ .

وكانت صفقة لرئيس الوزراء . بالنسبة لتطهير الأحزاب فقد استغلت الأحزاب الفرصة فقام الأقوياء في كل حزب بطرد الضعفاء ، واعتبروا أن هذا هو التطهير المطلوب .. كانت طبعاً مسألة شكلية بحتة .. أما بالنسبة لقانون الإصلاح الزراعي ..

فقد رفضته الأحزاب جميعاً كما رفضه على ماهر رئيس الوزراء في أول حكومة للثورة .

لم يكن هناك مفر من اتخاذ إجراءات جديدة وخاصة بعد أن صدر قانون تنظيم الأحزاب . . ماذا كانت النتيجة ؟ تقدمت الأحزاب القديمة طبعاً وتقدم معها ٢١ طلب بتكوين أحزاب جديدة . . في نفس الوقت وبعد ثلاثة أسابيع من قيام الثورة كانت الصراعات داخل مجلس القيادة قد بلغت حداً يحتم ضم عناصر جديدة ومحايدة إلى المجلس عسى أن يخفف ذلك من حدة الصراع . . وفعلاً ضمنا إلى المجلس خمسة أعضاء كان على رأسهم محمد نجيب الذي عهدنا إليه برئاسة مجلس قيادة الثورة كطلب جمال نظراً لأنه كان أكبرنا سناً فأصبح أعضاء المجلس ١٤ وهو أكبر رقم وصل إليه .

كان من الواضح أننا لم نعد أنفسنا عند القيام بالثورة لتولى الحكم - كانت أقصى أمانينا أن تنجح ثورتنا وأن تظهر الأحزاب نفسها وأن تقوم في مصر حياة ديمقراطية نظيفة وشريفة وأن يتولى زمام البلد طاقم جديد يختلف عن الطاقم القديم في أسلوب العمل وفي نظرته إلى الأشياء ، أما نحن كجيش فنجلس في الخلفية ، نراقب سير الأمور إلى أن تصل البلاد إلى بر الأمان وتوصل الحرية والاستقلال . . فلا ملك ولا مستعمر بعد الآن . .

لم تكن الوزارات مطمئنة فنجح لم نعد أنفسنا لها بل ولم نعد برنامج حكم معين ، ولكن رغم هذا كله حدث أننا في أحد اجتماعاتنا قلنا لقد آن الأوان لكي نوزع أنفسنا لمتابعة أعمال الوزارات بمعنى أن يصبح كل واحد منا مسئولاً عن وزارة أو مجموعة وزارات لكي نعطي للعمل دفعة جديدة . . كل واحد بدأ يتكلم ويستعرض قدراته بالنسبة لهذه الوزارة أو تلك . . إلى أن أتى دوري قلت : - « لا أعتقد أنني بحاجة إلى وزارة - فأنا لا أفهم إلا في السياسة . . »

وسألني صلاح سالم منكمها : -

وما هي السياسة التي تفهم فيها ؟

قلت : - « أنا أقصد بالسياسة . . كيف نوصل مصر من أقصر وأسرع طريق إلى أمانينا . . وأن نكتب لمصر تاريخاً جديداً . . هذه هي السياسة في عروفي . »

ما أن قلت هذا ، حتى خيل لي أنني ارتكبت جريمة ، فقد هاجمني صلاح سالم على الفور واشترك مع بعض الحاضرين وعلى رأسهم عبد الناصر . . لم يهجم هجوماً صلاح سالم فقد كان معروفاً بحب الظهور والتهميم ، ولكن هالتي أن ينضم إليه عبد الناصر وهو من كان يربطني به رباط من الاحترام المتبادل منذ أن كان عمرنا تسعة عشر عاماً . . لم أجد مبرراً لهذا الهجوم المفاجئ ، فقد فعلت ما في وسعي منذ قيام الثورة وقبل ذلك للحفاظ على عبد الناصر ، مهما كلفني الأمر . . فمِمَّ إذن هذا الهجوم والتهميم والسخرية وكأنني دخيل يريد أن يسلبهم حقوقهم أو غريب يتكلم لغة غير لغتهم . . ؟

حزنت لا لنفسى . . ولكن لعبد الناصر ولهم . . ومنذ تلك اللحظة انسحبت إلى نافذة عالية أطل منها عليهم وأضحك على صراعاتهم . . فقيم يتصارعون ؟ سألت نفسي أكثر من مرة إلى أن تكشف لي أننا لسنا إلا بشر ، وبشر من المرتبة العادية . . ولكن هذا الاكتشاف لم يعنى من أن أفضل أى واحد قبيح على نفسى لالشيء إلا انطلاقاً من مفهوم الصداقة ومفهوم العمل الذي قمنا به مجتمعين من أجل الملايين . . ولكن مهما حاولت أن أذيب ذاتي في ذاتهم مهتدياً بالقيم والمثل العليا التي نشأت عليها . . ظل السؤال حائراً في رأسي . . فمِمَّ الهجوم على ومن عبد الناصر بالذات ؟ وفمِمَّ ارتياح الآخرين لهذا الهجوم ؟ لم أستطع أن أجد الإجابة في ذلك الوقت ولو أنني أدركتها فيما بعد . . فعندما قامت الثورة وفي أيامها الأولى لم يكن الشعب يعرف أحد من رجالها سوى أنور السادات بطل قضية أمين عثمان كما صورته الصحف ووسائل الإعلام وحكت قصة نضاله الوطني الطويل . .

ولكن هل كانت مراحل الكفاح التي مرت بها جريمة استحق عليها أن يعاقبني عبد الناصر وبعض الآخرين عليها ؟
لم أكن قد عرفت بعد كل جوانب شخصية عبد الناصر . . فقد كان حيي

له يحجب الحقيقة عن عيني ، ثم إنه من المعتاد أن نحكم على غيرنا بما جبلنا عليه من طابع وخصال . .

أنا مثلاً أتى في كل إنسان إلى أن يثبت العكس ، أما عبد الناصر فقد اكتشفت فيما بعد أنه يشك في كل إنسان وفي كل شيء إلى أن يثبت العكس وفي ظروف حياتنا المعقدة هذه قليلاً ما يثبت العكس . .

أنا أكتب هذا الكلام الآن بعد تجارب سنوات وسنوات ، أما في تلك المرحلة المبكرة فلم يكن من السهل على أن أتقبل أو أتصور أن يشك جمال في وأنا الوحيد الذي لم يدخل معه معركة . . أو يطلب شيئاً لنفسه . . ولذلك فبعد أن حدث ما حدث وفي الأيام الأولى للثورة دخلت برجاً بعيداً وعشت فيه . . أراقبهم عن بعد فإذا قام خلاف بينهم أحاول الإصلاح ، وإذا لم يكن هناك خلاف فكل شيء يتساوى عندي مع أي شيء - حاولوا مراراً أن يعرفوا سر سلوكي هذا . . قالوا إنه ضعف وعدم معرفة بالأمور أو عدم اهتمام ، ولكنهم لم يتوصلوا أبداً إلى الحقيقة .

لقد اكتشفت ذاتي داخل الزنزانة رقم ٥٤ في سجن مصر العمومي ومن يومها عرفت أن نفسي أكبر من كل المراكز والمناصب والألقاب . . فقيم الدهشة إذن لا يتعدى عن هذه الصراعات البشرية ؟ .

إن ليلة ٢٢ - ٢٣ يوليو قد حققت كل آمالي . . فوجدت فيها نفسي . . وإذا ما وجد الإنسان نفسه فماذا يريد من الحياة بعد ذلك ؟

٣

في ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، كانت الصورة قد انضحت أمامنا . . فقانون الإصلاح الزراعي مرفوض من رئيس وزراء الثورة على ما هسر ومن الأحزاب جميعاً . . وتطهير الأحزاب لم يكن تطهيراً إلا بالاسم فقط . . يجب إذن أن تتولى السلطة . . وهذا فعلاً ما كان . . فذهبت مع عبد الناصر وجمال سالم إلى على ماهر في مكتبه في رئاسة مجلس الوزراء وقلنا له شكراً . . لقد أدبت مهمتك على

أحسن وجه . . فقدم استقالته ، وعينا اللواء محمد نجيب رئيساً للوزارة على أن يكون الوزراء كلهم من المدنيين . . هكذا كان بدء اتجاهنا نحو السلطة . .

كان الأصل في تعيين محمد نجيب رئيساً لمجلس قيادة الثورة أن وجوده سوف يضع حداً للصراعات داخل المجلس نظراً لأننا جميعاً من أعمار متقاربة . . أما هو فيكبرنا بكثير . . ولكن للأسف فإن الذي حدث هو العكس . . فقد بدأت صراعات جديدة دخلها نجيب . . وفوجئت أنا بحملة اشاعات ضد يقرودها محمد نجيب وصلاح سالم كما أخبرني عبد الناصر في ذلك الوقت . .

لم يكن هذا بالأمر الذي يهني أو يشغل بالي ، ولكن المسائل تطورت بعد ستة شهور فقط من قيام الثورة أي ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، فإذا بنا نفاجاً باتصال بعض رجال الأحزاب ببعض ضباط القوات المسلحة وكان تفسير هذا الأمر بسيطاً . . وهو أن الأحزاب التي كانت تتصارع على الحكم بالتقرب إلى الملك تارة وإلى الإنجليز تارة أخرى أو إلى الاثنين تارة ثالثة وجدت فجأة أن الثورة في الأيام الثلاثة الأولى لها قد عزلت الملك وعزلت أيضاً في نفس الوقت نفوذ بريطانيا الإمبراطورية العتيقة وأصبحت سلطة السيادة في مجلس قيادة الثورة الذي يتكون من ضباط مصريين في القوات المسلحة المصرية ، أو بمعنى آخر أصبحت القوات المسلحة هي مصدر السلطات فلماذا لا نحاول الاتصال بها كما كان الحال مع الملك ومع الإنجليز ؟ .

وعندما عرفنا ذلك في مجلس قيادة الثورة كان لا بد من مواجهة الوضع الجديد لكي نفهم السياسيين والأحزاب أن القوات المسلحة ليست لحزب ولا لفئة معينة ولا لطائفة وإنما هي للوطن . . وكان لا بد من اتخاذ إجراء فوري لتأكيد هذا المعنى . .

وضعنا السياسيين في المعتقل ، أما الضباط الذين حاولوا التآمر مع هؤلاء السياسيين من الأحزاب فحوكوا محاكمة عسكرية ، وفي ١٦ يناير ١٩٥٣ ، ألغينا الأحزاب ، وصدر قرار مجلس الثورة بإلغاء الأحزاب ووضع السلطة

التنفيذية والتشريعية في مجلس الثورة لمدة ثلاث سنوات تنتهى في ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ .

هنا بدأ الإخوان المسلمين الصراع المفتوح . . فصدر قرار من مجلس الثورة بجل الجماعة ، ولكنهم ظلوا على نشاطهم إلى مارس ٥٤ ثم إلى أكتوبر ٥٤ عندما حاولوا قتل جمال عبد الناصر في ميدان المنشية بالاسكندرية . . المهم أن الأحزاب كلها أُلغيت وأخذنا سلطة السيادة ولكننا وعدنا بالدستور في نهاية الثلاث سنوات . . وقد كان . . في ١٦ يناير سنة ٥٦ أعلننا الدستور المؤقت . . ولا أعرف لماذا اخترنا أن يكون مؤقتاً .

وعندما تعود بي ذاكرتي إلى تلك الأيام البعيدة ، أرى نفسى وأنا أكتب استقالتي من مجلس قيادة الثورة . . وأطلب جوازات سفر لي ولزوجتي لكي نعيش في لبنان . . لماذا لبنان ؟ لأنى كنت أسمع أنها بلاد جميلة . . غنية بمناظرها الطبيعية ، وأنا أحب الجمال . . ويسعدنى أن أعيش مع الطبيعة . . أما سبب استقالتي فقد كان محمد نجيب . . والحرب المستمرة التي أخذ يشها على سراً وعلناً . . وبدون مبرر من جانبي على الأقل . .

وقد عرفت فيما بعد من ضباط المخبرات الذين اشتركوا في الحملة ضدى أن السبب كان ما سبق أن حكيت عن معرفة الشعب لي بسبب كفاحي القديم وتصوير ذلك لنجيب على أنه محاولة منى للتسلق عليه وقد أذكى ذلك عنده عضو أو أكثر كما اعترف هؤلاء الضباط لي أمام جمال عبد الناصر بعد ذلك . أنا أكره الصراعات ولا أرى في الحياة شيئاً يستحق أن أتصارع عليه مع زملائي . . ولكن أن يجمعنا مجلس الثورة معاً أصبح بالنسبة لي أمراً لا يطاق . . في العمل ؟

لقد عينا محمد نجيب رئيساً لمجلس الوزراء كما سبق أن قلت وتنازل له جمال بعد انتخابه كما أسلفت وقدمناه للناس كرئيس لمجلس قيادة الثورة ، فلا سبيل إلى التراجع وخاصة في تلك المرحلة المتقدمة . . ولذلك فضلت أن انسحب أنا وأعيش في هدوء . . اتصل بي عبد الحكيم عامر ثم عبد الناصر الذي أقتنعني بسحب الاستقالة . ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد .

نفس الشيء للأسف حدث لرشاد مهني الذي كان من ضباط المدفعية وعين أحد الأوصياء على الأمير أحمد فؤاد ، فقد تخيل هو الآخر أنه مادام وصياً على العرش فهو صاحب السيادة . . ولقد انضم هو الآخر إلى عملية الصراع على السلطة وأبلغني جمال أنه عندما قابله للتفاهم معه اشترط خروجه من مجلس الثورة كشرط أساسي قبل أى تفاهم ومرة أخرى تعجبت أنا الذي لم أزاحم أحداً أو أطلب منصباً ولا دخلت صراعاً كيف تغطي بصائر الناس غشاوة إلى الحد الذي يصبح الوهم فيه حقيقة والحقيقة وهماً ؟ ثم ما هو السبيل إلى إعادة الأمور إلى نصابها السليم ؟ كان لا بد من أن نفعل شيئاً وشيئاً حاسماً لا رجعة فيه . . وهذا ما فعله عبد الناصر حين دعا مجلس الثورة للانعتاد ، وفي يوم واحد من شهر مارس سنة ١٩٥٣ رقى عبد الحكيم عامر من رتبة صاغ إلى رتبة لواء وعين قائداً عاماً للقوات المسلحة وفي نفس اليوم أعلننا الجمهورية فتخلصنا من مجلس الوصاية وصاحدنا أملاك العائلة المالكة وقررنا تعيين محمد نجيب رئيساً للجمهورية بعد أن أرغم على ترك القيادة العامة للقوات المسلحة في ذلك اليوم كطلب مجلس قيادة الثورة . .

ودخل عبد الناصر الوزارة كنائب رئيس وزراء ووزير داخلية ، ولإنهاء كل الصراعات وخاصة بعد تعيين عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة دخل بعضنا الوزارات .

هذا كله مجتمعاً كان الحادث الأول المهم في عام ١٩٥٣ وفيه ترى أنه في أقل من سنة من بداية الثورة ، اتضح الصراع بين محمد نجيب وبقية الأعضاء ، كما اتضحت حقيقة لم أكن أنا على الأقل أدركها من قبل . . وهى أن للحكم بريقاً يمكن أن يخلب لب الثوار ويلعب برؤوسهم . . هذا أمر بشري على ما اعتقد ولكن أحمد الله أن هذا لم يكن شأنى فالإنسان عندما يكون في دغيلة نفسه أكبر من أى شيء يصبح في غنى عن كل شيء .

أحداث سنة ١٩٥٣ كثيرة ومتنوعة فهي وليدة الدفعة الثورية التي هي بطبيعتها شابة قتيبة . . أذكر من هذه الأحداث أننا طلبنا السلاح من أمريكا ، وكان السفير الأمريكي مستر كافري صديقاً لنا - فرحب واتصل ببلاده على الفور . . وجاءنا الرد بأن أمريكا ترحب بأن تعقد معنا اتفاقية الأمن المتبادل

Mutual Security Pact

وهي صيغة ابتكرها الأمريكيان بعد الحرب العالمية الثانية ، تمكنهم من ملء الفراغ كما كانوا يسمونه (Vacuum) أى أن يحلوا محل إنجلترا وفرنسا في البلاد التي كانت تحت نفوذ هذين البلدين . .
قرأنا الصيغة فإذا بها تنص على أن أمريكا على استعداد لإمدادنا بالسلاح بدون مقابل ولكن بشرط أن يصاحب السلاح عدد من الخبراء الأمريكيان وألا يستعمل السلاح ضد أى حليف لأمريكا . .

رددنا الورقة للسفير الأمريكي وقلت له : شكراً . . نحن نريد أن نشترى السلاح بخر مالنا ولا نزيد بهجناً ونرفض أيضاً اتفاق الأمن المتبادل لأنه ضد استقلالنا الذى نحرض عليه كالحياة تماماً .

وسايرتنا أمريكا أول الأمر ولكن من غير حماس ووافقت على استقبال بعثة عسكرية في واشنطن للتفاوض على شراء ما نريد من سلاح .

وكان جارحاً لنا جداً أن نرى الأمريكان وقد تجاهلوا البعثة تماماً بعد وصولها إلى واشنطن بما لا يدع مجالاً للشك في أنهم لا يريدون بيع السلاح لنا وأن الأمر لم يكن إلا مناورة فقط .

حاول الأمريكان بعد ذلك أن يقنعونا بالانضمام إلى بعض الأحلاف التي بدأها جون فوستر دالاس فيما كان يسمى بسياسة احتواء الإتحاد السوفيتي بتطويقه بأحلاف وقواعد وهي السياسة التي أطلق عليها Containment والتي بدأت بحلف الأطلسي وامتدت إلى جنوب شرق آسيا ثم ربط حلف بغداد فيما بعد بين الإثنين . ولكننا أفهمناهم بصراحة ووضوح أن إرادتنا قد

تحررت منذ قيام الثورة وأصبحت مصرية وحررة ١٠٠٪ ولذلك فلا مجال للكلام عن قاعدة أو الانضمام إلى أحلاف .

كانت ميزانية مصر في ذلك الوقت ٢٠٠ مليون جنيه وهى اليوم ٥٠٠٠٠ مليون ، ومع ذلك فقد كان وضعنا الإقتصادي لا بأس به . . فبعد رفض الأمريكان لنا ، اتصلنا بالسوفييت في أوائل عام ١٩٥٣ وكان ستالين في مرض الموت وقتذاك ولكنهم رفضوا هم أيضاً بدورهم ، لأن مبادئ ستالين كانت تمنعه من إعطاء السلاح إلا للدول الشيوعية ، ولكن حدث أن التقي شواين لاي بعبد الناصر في مؤتمر بانديونج في ربيع ١٩٥٥ فتوسط لدى السوفييت ، وبناء على توصيته عقدت أول صفقة سلاح بيننا وبين السوفييت ، وتشيكوسلوفاكيا في سبتمبر ١٩٥٥ .

أذكر بهذه المناسبة أنه لما مات عبد الناصر أرسلت أنا مبعوثين إلى جميع الدول . . كان مبعوثنا إلى الصين رئيس مجلس الشعب الذى بادره شواين لاي بالسؤال : -

« تعرف مين اللي قتل عبد الناصر وهو عنده ٥٢ سنة ؟ »

واحتار رئيس مجلس الشعب . . ولكن شواين لاي قال رداً على سؤاله :

- السوفييت .

وهذا صحيح على ما أعتقد . . فعبد الناصر كان يجب رقعة واسعة للمناورة . . وعندما يجدها فهو مناور ممتاز ، ولكن الذى حدث أنه قطع علاقاته بأمريكا والغرب ، والعرب وإيران - ولم يبق له إلا السوفييت . . وهذا لم يعطه حرية المناورة ، خاصة وأن السوفييت عاملوه معاملة أبعد ما تكون عن الكرم أو الكرامة . . وقد كان لهذه المعاملة أثرها على صحته . . فقد كانت دون شك من أهم العوامل التي جعلت حالته النفسية سيئة مما ساعد على إصابته بمرض القلب ومرض السكر وهما اللذان أجهزا عليه . . طبعاً الأعمار بيد الله . . ولكن شواين لاي كان على حق .

ولقد كان تعليق عبد الناصر لى شخصياً يوم أن عاد من رحلة استغرقت ٢١ يوماً في الإتحاد السوفيتي قبل موته بشهرين وكنت أسأله عما تم فقال لى بالحرف

الواحد وبالإنجليزية Hopeless case وأخذ بشرح لى كيف أنه من شدة ضيقه أعلن القادة السوفيت في نهاية مفاوضات فاشلة أنه سيعلم قبوله في الحال لمبادرة روجرز التي كانت قد أعلنت من جانب أمريكا قبل ذلك بشهر ولم يعلن عبد الناصر موقفه منها إلا على مائدة الاجتماع في الكرملين في يوليو سنة ١٩٧٠ وقال لى عبد الناصر أن بريجنيف انفعّل لهذا الإعلان وقال لعبد الناصر بغضب هل معنى هذا أنك تقبل حلاً أمريكياً فرد عليه عبد الناصر « بعدما فعلتموه معي فإني أقبل حلاً حتى من الشيطان » .

٥

منعاً للتعارض والازدواج بين مجلس قيادة الثورة وبين مجلس الوزراء ، شكلنا ما أسميناه بالمؤتمر المشترك من الاثنين للبت في الأمور . . . وقد تبدو هذه صورة مثالية ، ولكنها في الواقع لم تكن كذلك فقد كان العدد كبيراً وأخذت المناقشات تطول وتنشعب . . . كل واحد من المجتمعين كان يستعرض عضلاته وفي أغلب الأحيان كان الخلاف يتسع فلا يصل إلى قرارات . وهكذا كانت تعطل الأمور في وقت كنا فيه بحاجة إلى كل يوم وكل ساعة لإنجاز ما لدينا من مشروعات نهدف إلى اصلاح حال البلاد والانتقال بها إلى مرحلة أكثر تقدماً . وقد دعاني هذا الوضع الغريب أن أطلب الكلمة في إحدى الاجتماعات وأشير صراحة إلى المناورات المستديمة التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من المؤتمر المشترك ، والتي تعطل العمل مما يستلزم سرعة تغيير هذا الاسلوب المعوق والبحث عن أسلوب آخر .

كانت حصيلة أراضي العائلة المالكة المصادرة ٧٠ مليون جنيه . . . أنفناها على بناء الوحدات الخجعة والمستشفيات والمدارس في ريف مصر بحيث كنا نبي ٣ مدارس كل يومين - وأذكر أننا بنينا في سنة واحدة قدر ما بنى في مصر من مدارس خلال ٢٠ سنة .

أنشأنا عند ذلك مجلسين ، أحدهما للإنتاج والآخر للخدمات . . . أما مجلس الإنتاج فقد بدأ عمله بمشروع (كيما) للسماد . . . وعندما تعود في الذاكرة إلى

تلك الأيام . . . أرى أمام عيني المهندس اليوناني الأشعث الشعر ، الراسخ العينين الذي كان يتردد علينا في القيادة بالعباسية في أى وقت وبدون سابق ميعاد . . . كان اسمه على ما أذكر (دانيوس) ، وكان في كل مرة يتحمم مقرنا يتفوه بعبارات محمومة . . . فحواها دائماً فكرة واحدة . . . وهي أن النيل عند منطقة أسوان يجب أن يغلق بسد عال .

كان تمسكه بالفكرة والحاجه عليها - والبريق الذي يشع من عينيه يوحي إلينا بأنه مجنون دون شك ، ولكن التعبير الذي كان يعلو وجهه دائماً لم يدع مجالاً للشك بأنه مؤمن بفكرته لإيمان العابد بالله عز وجل . . . مما دعانا إلى أن نكلف مستشار المجلس المرحوم المهندس محمود بونس بدراستها . . . وقد عاد إلينا بعد فترة ليقول إنه بعد الدراسة والمعاينة يرى ابتداء أنها فكرة رائعة ، إذ أثبتت الأبحاث على قاع النيل في تلك المنطقة صحتها وطلب لذلك الموافقة على بدء الأبحاث مع بيوت الخبرة العالمية .

وهكذا نشأت فكرة السد العالى . . . وليدة للإيمان والحماس والبصيرة . . . كما تنشأ عادة كل الأفكار العظيمة .

في سنة ١٩٥٣ بدأنا أيضاً إنجاز مشروع قديم ظل يتلأأ بين حكومات الأحزاب المختلفة ، وهو مشروع كهربية خزان أسوان ، الذي انتهينا منه في سنة ١٩٦٠ مما أعطانا فرصة بدء السد العالى اعتماداً على الكهربية التي زودنا بها .

ولكن لعل المشروع الذي غير وجه المجتمع المصري ، والذي جعل ثورتنا ثورة حقيقية لا مجرد انقلاب عسكري . . . هو مشروع الإصلاح الزراعى . . . فبعد أن ترك على ماهر الحكم في سبتمبر سنة ١٩٥٢ وتولى رئاسة الوزارة محمد نجيب مباشرة كان أول عمل للوزارة الجديدة تحديد الملكية الزراعية بـ ٢٠٠ فدان . وللتاريخ فإن الذى صنع هذا القانون بجميع تفصيلاته هو المهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب الآن . . . وكان سيد مرعى في ذلك الوقت من نجوم الحزب السعدى اللامعين ، ولكنه على أساس هذا المشروع دخل الوزارة وظل متابعاً له كوزير زراعى وورى ، وكنايب رئيس وزراء ، وهو أيضاً الذى صنع لنا القانونين ، الثانى والثالث للإصلاح الزراعى ، وفي كل

مرة كان القانسون يهدف إلى المزيد من تحديد الملكية الزراعية . وبطبيعة الحال إلى المزيد من المساواة والعدالة الاجتماعية .

من الناحية السياسية ، كان لابد نتيجة حل الأحزاب ما بين ٥٢ ، ١٩٥٣ ، أن ينشأ فراغ ، وكان علينا طبعاً أن نملأ هذا الفراغ ، فانشأنا ما يسمى بهيئة التحرير ، وكان شعارنا الاتحاد والنظام والعمل . . ثم تلاها اتحاد قومي أول وبعد ذلك اتحاد قومي ثان ، ثم اتحاد اشتراكي أول وبعده اتحاد اشتراكي ثان ، ولابد أن أقرر هنا أن هذه الصيغ كلها كانت مستعارة من يوغوسلافيا بعد أن توطلدت علاقة عبد الناصر الشخصية بتيتو ، وكان عبد الناصر يمضي وقتاً طويلاً معه في المناقشة ويعجب بآرائه .

كانت صيغة الاتحاد القومي بمراحلته تشبه تماماً صيغة اتحاد الاشتراكيين الذي أقامه تيتو بعد أن أنتصر في حرب التحرير بحركة البارتيزان Partisan التي جمعت كل يوغوسلافيا وليس الشيوعيين وحدهم أي كل الأحزاب التي كانت قائمة في الصرب ومختلف جمهوريات يوغوسلافيا الخمسة مع بقاء عصبية الشيوعيين كنواة لهذا الاتحاد .

ثم عدل عبد الناصر بواسطة مؤتمر قومي عقد بعد انفصال سوريا والنكسة التي سببها في مصر والتي حفزت الشعب على النقد العنفي إلى صيغة الاتحاد الاشتراكي الذي يقوم على تحالف قوى الشعب العامل وهي خمسة كما أقرها المؤتمر عندما تقدم بها عبد الناصر فيما سمي بالميثاق . وهذه القوى هي الفلاحون والعمال والجنود والمثقفون والرأسمالية الوطنية .

ولم يكتب لهذا الاتحاد الاشتراكي النجاح كما حدث من قبل للاتحاد القومي فهو ببساطة صيغة الحزب الواحد في الحالتين .

وزدادت الحالة سوءاً عندما أصبح الاتحاد الاشتراكي (الحزب الواحد) أداة سيطرة كاملة حتى على أرزاق الناس . . حين استعار المثقفون حول جمال والذين يفسفون له الماركسية كأسلوب فبدأ فرض الحراسات والمصادرة والاعتقال ومنع النشاط الخاص بحجة ضرب الرأسمالية مع أن الميثاق الذي

قامت عليه النظرية يقرر غير ذلك بل ويضع الرأسمالية الوطنية كإحدى قوى التحالف الخمس .

وبدأت مرحلة التخطيط الاقتصادي .

وجاءت هزيمة ٥ يونيو بإبعادها المهينة .

وبعد أن أفاق الشعب من هول الصدمة بدأ النقد العنيف مرة أخرى ، وفي هذه المرة جاء الانفجار في فبراير سنة ١٩٦٨ بعد صدور أحكام مخففة على قادة الطيران الذين يعتبرهم الشعب من أقوى أسباب الهزيمة المهينة . . ثم اكتشف الشعب أيضاً أن ما سمي بالميثاق لم يطبق وأنه لم يكن إلا لامتنصاص نكسة الانفصال بين مصر وسوريا وعندئذ أصدر عبد الناصر ما سمي بعد ذلك ببيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ بواسطة نفس الملتقن حوله والذين لم يكن لهم من هم إلا السلطة الديكتاتورية المطلقة لكي يبقوا في مناصبهم واكتشف الشعب مرة أخرى أن بيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ لم يغير من القبضة الديكتاتورية شيئاً وأنه قد أرجأ الدستور الدائم إلى ما بعد إزالة آثار العدوان وكرس حق الاعتقال وكانوا يظنون أنه سيقودهم إلى الديمقراطية . .

لقد اكتشفوا أن هذا البيان لم يكن إلا لامتنصاص آثار هزيمة يونيو وانفجار الجماهير وكما عانيت أنا من سياسة الامتنصاص هذه بعد ذلك . .

فأنا أحب أن أغير . . لا أمتص . . وأن أعالج . . لا أحذر . . وفي نظري الناس أريد أن يكون كل شيء واضحاً كما هو في نظري تماماً . . وعندما أبلأ إلى حل بعض المشكلات ، أفعل كل ما بوسعي لكي يكون الحل جذرياً . . لا مؤقتاً . . ولكن الناس طبائع وخصال . .

مثلاً كان من الواضح أن هناك صراعاً داخل مجلس قيادة الثورة منذ أوائل ١٩٥٣ . . وبطريقة الحلول المؤقتة لجأ عبد الناصر إلى تعيين أعضاء مجلس قيادة الثورة في الوزارة واحداً بعد الآخر ، حتى أنه قبل أن تنهى سنة ٥٣ كان جميع الثوار يحكمون . . ما عدا واحداً هو أنا .

ولكن هل استطاع عبد الناصر بهذا أن يغلّق دائرة الصراع حقاً ؟

في سنة ١٩٥٤ وصل الصراع إلى مرحلة عنيفة ، خاصة بيني وبين محمد نجيب ، وبيننا وبين الأخوان المسلمين وبعض فلول السياسيين الذين ألتفوا حول نجيب وطلبوا منهم يستطیعون أن يخفوا شيئاً .

في مارس من تلك السنة كان الصراع قد طفا على السطح بحيث أصبح لا يمكن تجاهله فاجتمعنا في مجلس الثورة ، وأعلننا التنحي ، وتوالى الأحداث خلال بضعة أيام عدل بعدها مجلس الثورة عن التنحي . .

ثم تطور الصراع فشمّل إلى جانب محمد نجيب خالد محي الدين - وهو شيوعي ماركسي - حاول أن يستخدم سلاح الفرسان تحت ستار عودة الديمقراطية والأحزاب معتقداً بذلك أنه يستطيع فرض ديكتاتورية اليسار تلك التي تحيل البشر إلى عجالات في آلة ، لا هم لها إلا طحن الإنسان ، والقضاء عليه وسلبه أخص مقوماته التي خلقها له الله سبحانه وتعالى . .

قضيتنا على فئمة الفرسان وتكفل الضباط الأحرار بالكشف عن مزايدات المزايدين من الضباط والسياسيين ، وأقلنا محمد نجيب ثم أعدناه بعد ذلك . وكنا في ذلك الوقت قد بدأنا المفاوضات مع بريطانيا من أجل الجلاء عن القناة . وصاحبت المفاوضات حركة مقاومة ضد الإنجليز في القناة . ورغم هذا كله حاولت كل العناصر المضادة استغلال الانشقاق مع محمد نجيب ليس حياً في نجيب ونأيبدأ له بل في محاولة لإنهاء الثورة وتسلم السلطة . فكانت مظاهرات الأخوان وهي تجوب شوارع القاهرة وتوجه إلى قصر عابدين ، يحمل أفرادها متاديل ملطخة بالدماء وينادون بسقوط الثورة .

لم يكن هناك بد إزاء كل هذا من حسم الوضع مع نجيب فعزلناه نهائياً في أكتوبر ١٩٥٤ بعد توقيع اتفاقية الجلاء مع بريطانيا في نفس الشهر تلك الاتفاقية التي أنهت الاحتلال البريطاني لمصر لأكثر من خمسة وسبعين عاماً .

كان عبد الناصر رئيس وفد المفاوضات ، وكان قد وصل مع الإنجليز إلى أنهم على استعداد للجلاء عن القاعدة خلال ٢٤ شهراً ، على شرط أن يحتفظوا بمخازن و ١٢٠٠ خبير من المدنيين ، يتم انسحابهم بعد ٧ سنوات ، وتصبح المخازن وكل ما بالقاعدة ملكاً لمصر ، وجزء لا يتجزأ منها . .

جمعنا عبد الناصر في استراحة الهرم . وعرض علينا المشروع بأكمله وطلب من كل منا رأيه مسجلاً .

طبعاً كانت هناك معارضة من بعضنا . مجرد مزايدات وصراعات كالعادة ، أما أنا فكنت مذهولاً لما يحدث ولذلك عندما جاء دوري لإبداء الرأي انفجرت قائلاً : -

« أنا موافق على المشروع بدون مناقشة - فما الذي يمكن مناقشته ؟ ١٢٠٠ خبير ليسوا عسكريين وتحت حراستنا نحن المصريين ؟ هل هذا يخيفنا ؟ فليكونوا عشرة آلاف خبير - وليبقوا بدلاً من السبع سنوات عشرأ - ما قيمتهم وقد حصلنا على استقلالنا وأصبحت إرادتنا حرة ؟ أي سياسي أبنيه يرفض هذا الحل لمشكلة عمرها فوق الخمسة وسبعين سنة ؟ » .

وقعنا اتفاقية الجلاء في أكتوبر ٥٤ وهكذا وضعنا أقدامنا على أول طريق الاستقلال . . وكنا قبل ذلك قد وافقنا على حق تقرير المصير للسودان فيما الاستقلال أو الاتحاد مع مصر ، وقبل الموعد المحدد انسحبنا وتركنا السودان يقرر مصيره بنفسه مما اضطر لإنجلترا أن تحذو حذونا فنال السودان استقلاله قبل أن يتم جلاء الإنجليز عن مصر .

٦

كانت فترة الانتقال ما بين ١٩٥٣ و ١٩٥٦ ، فترة مليئة بالأحداث الهامة التي يمكن اعتبار أغلبها بمثابة نقط تحول في تاريخ مصر والثورة . . فكما رأينا وقعنا اتفاقية جلاء الإنجليز عن مصر في أكتوبر ١٩٥٤ وفي ١٨ يونيو ١٩٥٦ تم جلاء آخر جندي بريطاني ورفع علم مصر على القاعدة البريطانية بالقناة بعد كفاح ونضال يزيد على الخمسة وسبعين عاماً .

في هذه الفترة أيضاً عزلنا محمد نجيب ، وبذلك تخلصنا من الصراعات التي حاول السياسيون المحترفون استغلالها لعودتهم ، وجنبتنا البلاد آثارها ، وتولى عبد الناصر رئاسة الوزارة ورئاسة مجلس قيادة الثورة في نفس الوقت ، وبهذا تركزت السلطة كاملة في أيدي من قاموا بالثورة .

ورغم عزوفى فترة طويلة عن أى منصب تنفيذى إلا أننى دخلت الوزارة
التي شكلها جمال في سبتمبر سنة ١٩٥٤ كوزير دولة بعد أن بقيت أكثر من سنة
العضو الوحيد الذي لم يتقلد منصباً وزارياً وكان جمال يصف هذا الموقف
ببني وبينه بأنني رجل الدائرية الذي يبني في الخارج لكي يضمن سلامته وهو
تعبير عسكري عندنا Get Away Man

ومن أهم ملامح تلك الفترة أيضاً ، حلف بغداد الذي نادى به مستر إيدن
بعد وقت قصير من اتفاقية الجلاء بدعوى أن منطقة الشرق الأوسط قد نشأ بها
فراغ لا يبد من أن يملأ . . . وقد انضمت إلى الحلف كل من تركيا والباكستان
والعراق . . . كان موقف الثورة من الحلف معادياً بطبيعة الحال فكيف تقبل
أن ننضم إلى حلف كهذا في حين أن من سبقونا قد رفضوا إقامة اتفاقيات ثنائية ،
ثم نحن قد تخلصنا من الاحتلال البريطاني بمعاهدة الجلاء فكيف نرضى أن
نرتبط مصر بعجلة بريطانيا أو بأية قوة أجنبية مرة أخرى ؟ .

ولم تقتصر مفاومتنا لحلف بغداد على رفض الانضمام إليه بل شملت جهوداً
مكثفة من جانبنا لمنع بعض بلاد المنطقة العربية من دخوله كالأردن ولبنان
وفعلاً نجحنا في ذلك . . . مما أوغر صدر بريطانيا وأمريكا فأوعزتا إلى إسرائيل
بالانتقام منا - وكانت النتيجة غارة مفاجئة على غزة في ٢٨ فبراير ١٩٥٥
وهو تاريخ يمكن اعتباره نقطة تحول في تاريخ مصر والثورة والمنطقة ودول
العالم الثالث لأنه جعلنا نشعر بجائنا الملحة للسلاح - مما أدى في النهاية إلى عقد
أول صفقة أسلحة مع السوفييت بعد تدخل نهر و شواين لاي كما أسلفت
لاقتناع روسيا بذلك . . . وقد كان لهذا أثره في كسر الحاجز وإذابة الثلوج بيننا
وبين السوفييت ، كما كان من العوامل الفعالة في رفع الروح المعنوية
لدول العالم الثالث التي شعرت بأن هناك من يمكن أن تلجأ إليه لاسترداد إرادتها
من قبضة الامتعمار الذي ظل جائماً فوق صدرها قروناً طويلة حتى ولو كان
طريقها إلى ذلك هو طريق البيع والشراء . . .

من أهم إنجازات تلك الفترة على المستوى العالمي والمحلي مؤتمر بانندونج
الذي كان أول مؤتمر دعم دول عدم الإنحياز وجعلها قوة ثالثة يحسب لها

حساب وفي نفس الوقت الملاذ الوحيد الذي تلجأ إليه الدول الصغرى ومثلها
الأعلى الذي تحذو حذوه . . . أما بالنسبة للأثر المحلي لمؤتمر بانندونج فقد أضاف
الكثير إلى شعبية عبد الناصر الذي استطاع أن يقف جنباً إلى جنب مع بعض
الشخصيات العالمية أمثال نهر و شواين لاي وأن يستحوذ على اعجابهما
رغم أنه كان في ذلك الوقت دونهما بكثير سناً وتجربة .

٧

أين كنت أقف من أحداث تلك الفترة ؟ إلى أي مدى شاركت فيها وكيف
كنت أنظر إليها ؟ .

في ديسمبر ١٩٥٣ ، انشأت جريدة الجمهورية وتوليت رئاسة تحريرها
وكانت تعتبر لسان حال الثورة ، وقد قامت بدور ملحوظ في إحباط حلف
بغداد . . . ورغم عزوفى عن السلطة فترة طويلة ، إلا أنني قبلت العمل كوزير
دولة في الوزارة التي شكلها عبد الناصر في سبتمبر ١٩٥٤ تضامناً معه في دفع
عجلة الأمور . . . وفي يناير ١٩٥٥ تم إعلان قيام المؤتمر الإسلامي وتوليت
منصب السكرتير العام له ، وقد أتاح هذا لي زيارة بلاد المنطقة لجمع شمل
الدول العربية والإسلامية ، وكذلك العمل من أجل تحقيق أهداف سياسية
وقومية تخدم قضايانا . . . فلست أبالغ إذا قلت إنني قمت بدور فعال في إحباط
حلف بغداد . . . ففي الأردن مثلاً . . . تسنى لي إقناع الملك بعدم الانضمام
إلى الحلف . . . وكان من الآثار الجانبية لهذا طرد جلوسب باشا قائد عام الجيش
الأردني البريطاني الجنسية . . . بقرار من الملك حسين .

وفي لبنان التقيت بالرئيس شمعون ونجحت في إبعاد لبنان عن الحلف معتمداً
في ذلك على العداء القديم المستحکم فيما بين شمعون وعائلته من ناحية وبين الأتراك
من ناحية أخرى . . . ، وفي بغداد اجتمعت مع نوري السعيد لمحاولة اقناعه
بالعدول عن الإشتراك في الحلف . . . ودام اجتماعنا طويلاً فما كان من
الذاهية إلا أن أبلغ الصحفيين أن أنور السادات مجتمع به للتفاوض بشأن
دخول مصر حلف بغداد . . . فعندما انتهى الاجتماع وخرجت فاجأتني الصحفيون

بهذا الخبر - فقلت إن شيئاً من هذا لم يحدث على الإطلاق وإن هذه حيلة من حيل نوري السعيد المعروفة عنه .

هكذا كان موقفي من أحداث سنوات الانتقال .. ولكن هل تكتمل بهذا صورة تلك الفترة من حياتي ؟ لا أعتقد .. فهناك جانب من الصورة لا تكتمل بدونته رغم أنه قائم اللون . ألا وهو الصراع الداخلي بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذي تكشفت واحتدم بعد عزل محمد نجيب والشعبية التي نالها عبد الناصر في مؤتمر باندونج .

أذكر مثلاً أنه في غياب عبد الناصر أناب عنه جمال سالم وكان رحمه الله حاد المزاج .. عصبياً إلى حد غير طبيعي .. غير متزن في جميع نواحي شخصيته .. فلما وجد الناس منصرفه عنه لسوء معاملته ، بدأ يثير المعارك هنا وهناك .. وفي كل مجال .. إلى أن عاد عبد الناصر فازدادت المعارك حدة خاصة وأن جمال سالم في غياب عبد الناصر كان قد اتخذ لإجراء ما ضد عم عبد الناصر .. وكانت لدى عبد الناصر حساسية شديدة من ناحية أهله .. فكان يكفي أن يبلغه أن أحداً من الناس قال شيئاً ما عن أحد أقاربه حتى يضعه على الفور في المعتقل ويتخذ ضده من الإجراءات ما يحلوه له .. وهذه إحدى نقاط الضعف التي كان يستغلها فيه أصحاب مراكز القوى وأتباعهم لينالوا حظوة عنده ، وفي نفس الوقت ينالون من أعدائهم .. وفي رأبي أن عبد الناصر كحاكم كان يجب أن يدرك أن هذه هي طبيعة الحكم وطبيعة البشر أيضاً .. والحكمة العربية تقول إن نصف الرعية ضد الحاكم - هذا إن عدل ! ، وهذا في رأبي أمر طبيعي .. فالحاكم هو الوحيد الذي على المسرح .. كل الأنظار تتجه إليه ولا ترى سواه ولذلك فكل من لديه مشكلة أو أمر يتغص عليه حياته أو حتى يعكر مزاجه ولو قليلاً لا بد وأن ينسبه إلى الحاكم حتى ولو كان الحاكم أعدل الناس وأبعدهم عن مسئولية ما تشكو منه الرعية فما بالك إذا كان الحاكم كعبد الناصر - قد جمع زمام الأمور كلها بين يديه فأصبح في نظر الناس - ولعلمهم على حق - المسئول الوحيد عن كل ما يصيبهم ؟

أنا شخصياً على نقيض تام من عبد الناصر في هذه الناحية . بل إنني في وقت من الأوقات راودتني رغبة شديدة في أن أقول للناس : بما أنني قد ألغيت بالنسبة

لكم المعتقلات إلى الأبد وأعدت سيادة القانون فأرجو أن تمتحوا رئيس الجمهورية الحق في أن يعقل أهله .. وأهله فقط .. صحيح أن نشوة الحكم والمظهر لا تدبر رأسي إطلاقاً ولكن من ضمن لي أنها لا تدبر رؤوس أهلي وأقاربي فيظلمون الناس من حيث لا أدري ؟ . . ومن هنا كان أمر الاعتقال الوحيد الذي أصدرته طوال مدة ولايتي خاصة باعتقال شقيقي الأكبر وهو من ساعدني ووقف من خلتي في السجن والمعتقل وجميع الأزمات التي مرت بي . .

ليس معنى هذا أنني أتكرر لأهلي أو لا أدين لهم بالوفاء فهذا يتناقى مع قيم الأسرة التي نشأت عليها والتي ما زالت تسرى في عروقي وتشكل وجداني كما لا يشكله أي شيء آخر . . على العكس فإن إيماني بهذه القيم يزداد يوماً بعد يوم .. حتى أصبحت أرى في التمسك بهذه القيم الخلاص الوحيد للمجتمع لا كأسر متفرقة بل كأسرة واحدة كبيرة .

أذكر أنني في إحدى جولاتي في المنطقة كسكرتير عام للمؤتمر الإسلامي زرت الهند وكان ذلك قبل انعقاد مؤتمر باندونج بفترة قصيرة .. واستقبلني نهر و استقبالا ودياً خالصاً وأقام حفل استقبال تكريماً لي .. وقدم لي ضمن من قدم من ضيوفه نائباً في البرلمان الهندي وزوجته وهي أيضاً نائبة مثله وكلاهما شيوعي ومن أشد المعارضين لنهر - هذا ما كنت أعلمه علم اليقين فقد سبق أن تعرفت بهما في القاهرة ونشأت بيننا صداقة ولذلك ذهلت عندما رأيت الرجل يقبل نهر من خديه ونفس الشيء فعله زوجته من بعده . . لم يكن نهر يعلم أنني أعرفهما فقال لي مداعباً وهو يشير إليهما « كُن على حذر يا مستر سادات فهما شيوعيان وأرجو أن لا يتمكننا من بلشفتك »

قالها بروح أبوية خالصة وهو يتسم في سماحة وحب فضحكا وقالوا بنفس روح المحبة واحترام الأبن لأبيه :-

- « لا بأس ولكننا نتردد عليك في البرلمان » .

أخذت بما رأيت وسمعت ، فلا شيء يستطيع أن يستولي على أو يأسرني بالفعل مثل الجمال .. وقد كانت الصورة جميلة بكل ما تحمل من حب ولسات إنسانية وقيم نشأت عليها في قريني الصغيرة . . حيث الكل عائلة واحدة

يحترم فيها الصغير الكبير مهما اختلف معه في الرأي لأنه كبير العائلة . . وبالمثل يفوق الكبير الصغير ولا يغضب منه إذا اختلف معه لأنه أولا وقبل كل شيء أب ولا يمكن للأب أن يتخاصم مع ابنه .

خرجت من الاستقبال ذلك اليوم وأنا في قمة السعادة بالصورة الجميلة التي رأيتها والتي ظلت عالقة بوجداني تسعدني كلما استدعيتها . . إلى أن وصلت مصر . . فإذا بكل شيء على نقيض تام مع صورتي الجميلة . . صراع وتناحر لا على شيء معين بل على كل شيء مهما بلغت نفاهته . .

لم أشارك طبعاً في هذه المشاهدات - فقط كنت أراقبها من برجى العالى وأسخر حيناً وأدهش حيناً آخر ولكنى في جميع الأحيان كنت أتألم لها . .

آه للنفس البشرية ما أضعفها وأتفها عندما تظني المصلحة الشخصية فتحجب عنها رؤية الأشياء على حقيقتها . لهم يحقدون على عبد الناصر لأنه قد حقق نجاحاً كبيراً في باندونج وارتفعت مكانته في عيون العالم . . أليست مكانته هي مكانة مصر ؟ ونجاحه أليس نجاحاً لنا جميعاً ؟ ولكنهم لا يصفرون . . بعنوان « الحبيب العائد » كتبت مقالا صغيراً بجريدة الجمهورية بمناسبة عودة عبد الناصر من باندونج . . ولو أعاد التاريخ نفسه وتكررت نفس الظروف لفعلت ما فعلت مرة ثانية - فتكونى الأساسى قوامه الحب ولذلك عندما أُلجأ إليه أرتاح وأجد الحل لأية مشكلة وعندما يتعد عني يمتثل توازنى ويستولى على إحساس بالعجز مرير . . ومن هنا كانت قوتى لا تتجلى بأكملها إلا من خلال الحب .

هذا التكوين الذى فطرت عليه - وبالصورة الجميلة التى عدت بها من عند نهر من الهند . . وفى جو الحقد والصراع على السلطة الذى سيطر بشكل واضح على مجلس قيادة الثورة فى سنة ١٩٥٥ أصبح من الصعب على أن أحفظ بمركز المنسرج من البرج البعيد كما اعتدت . . فقد ضاقت نفسى بما ترى من صراعات لا تكف لحظة ولا تنهى ، فكنت استقالتى وقدمتها لإخوانى بمجلس القيادة ونقلتها فيها إليهم اللوحة الجميلة التى شاهدتها بالهند عسى أن يتعظوا . .

كانت هذه هى الاستقالة الثانية بعد استقالة سنة ١٩٥٣ .

والآن وأنا أعيش تلك الأيام البعيدة فى ذاكرتى مرة أخرى ، أستطيع أن أرى بكل وضوح أن الاستقالة الثانية كانت مثل الأولى تتبع من نفس المنبع فكلاهما احتجاج صريح على جو الصراعات الذى كان يسود المجلس وهما فى نفس الوقت دعوة لا تقل صراحة إلى تصحيح مسار الثورة بعد أن بدأت الأحقاد تعصف بها وتحرفها عن أهدافها التى قامت من أجل تحقيقها . .

كان التصارع على السلطة قد صرف الاهتمام ولو جزئياً عن مصالح الشعب ، مما أدى إلى إشاعة جو يصعب فيه التمييز بين من يصلح ومن لا يصلح . فأصبح الإنسان يؤخذ بجرم غيره أو بدون جرم على الإطلاق . . وكانت الإشاعات وحدها كافية للقضاء على أى إنسان . . وكان يساند هذا الجو الرهيب اعتقاد القادة بأن لهم الحق فى أن يفرضوا على البلد ما يشاؤون بحجة المستبد العادل . . ولم لا . . أليسو هم الذين صنعوا الثورة ؟

كان من الواضح أن نشوة الحكم قد بدأت تلعب بروتوسهم فقسما البلاد إلى مناطق نفوذ لهم ولمن يلتف حولهم من أقارب وأصدقاء . . ومن الأمثلة الحية على ذلك . . مثال وزارة الخارجية التى جنت الثورة عليها . . فقد اتخذها عبد الحكيم عامر مقراً يرسل إليه الضباط المتقاعدون حتى يتسنى لهم أن يتعموا بها سن المماشى الخاص بالمدينين وهو سن الستين .

على هذا المنوال سارت الأمور فى كل اتجاه ، فليست العبرة بما يفيد البلاد بل العبرة بمن سوف يستفيد من أقارب وأصدقاء وأتباع الحكام . . وهكذا فقدت القيم واستولت الحيرة على الناس فأصبحوا لا يعرفون ماذا سيأتى به الغد أو كيف سينتهى اليوم . .

انتهى مجلس الثورة فى ٢٢ يونيو ١٩٥٦ ، عندما انتخب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية بالاستفتاء . . ولكن قبل أن ينتهى المجلس كان الشعور بالخوف قد عم البلاد . . وهذا فى رأي أبشع ما يمكن أن يصيب الإنسان . . فالخوف يقتل الشخصية ويشل الإرادة ويمسح تصرفات البشر .

هل كان أعضاء مجلس الثورة يدركون ما فعلوا بشعب مصر ؟ لا أعرف . . ولكن الذى أعرفه أن الشعب كان يدرك تمام الإدراك ما يقعله حكامه به

وبأنفسهم . . وليس أدل على ذلك من النكتة التي انتشرت في تلك الأيام عبر البلاد معبرة أحسن تعبير عن رأى الشعب في قاداته . .

« كان فيه مرة تغلب عدى الحدود ودخل ليبيا - مسكوه هناك وقالوا له : أنت جاي هنا ليه : قال لهم : أصلهم في مصر بيمسكوا الجمال . . قالوا له : لكن أنت تغلب . . قال لهم : حلتي على ما يعرّفوا أني تغلب . . »

نقلت إلينا النكتة ونحن في مجلس الثورة فضحكنا طويلاً . . وكان الأجرس أن نعي ما تتضمنه من إذانة الشعب لنا . . فتدبر أمورنا قبل فوات الأوان . . ولكن هل كان هذا في الإمكان بعد أن تغلبت العوامل البشرية على المثالية التي بدأت بها الثورة فحجبت الرؤيا حتى عن ذاتنا ؟ لا أعرف . . ولكن الذي أعرفه جيداً هو أنني كنت سعيداً بانتهاء مجلس قيادة الثورة - ولذلك هرعت إلى عبد الناصر صبيحة اليوم التالي لانتخابه رئيساً لأطلب منه عدم اشتراكى في الحكومة التي كان بصدد تشكيلها . . ومع ذلك فأنا تحت أمره في أية مشورة أو رأى . . فنحن أصدقاء وستظل دائماً كذلك . .

لقد ضقت بما شهدته من صراعات على مدى أربع سنوات كانت حملاً ثقيلاً نامت نغمته نفسى حتى كادت تنحطم . . هكذا اكتشفت فيما بعد . . فحيث لا يوجد الحب لا مكان على الإطلاق لي .

الفصل السادس

عجزة القوة

(مصر في حكم عبد الناصر من يوليو ١٩٥٦ إلى يونيو ١٩٦٧)

بانتخاب عبد الناصر رئيساً للجمهورية في ٢٢ يونيو سنة ٥٦ حل مجلس قيادة الثورة وأصبح عبد الناصر المحول الأول والأخير عن مصر سواء من ناحية السياسة الداخلية أو السياسة الخارجية . .

في ١٩ يوليو من نفس السنة أشهر دالاس وزير خارجية أمريكا إفلاس الاقتصاد المصرى وتراجع أمريكا والبنك الدولى عن تمويل السد العالى ، وفى ٢٣ يوليو شارك في الإحتفالات بذكرى قيام الثورة شيبولوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتى . . وكان وقتها نجماً صاعداً في سماء الإتحاد السوفيتى واتصل بعبد الناصر ليعلن استعداد السوفيت لتنفيذ السد العالى . .

رفع هذا روح عبد الناصر المعنوية بينما كان يستعد للسفر إلى الإسكندرية للإحتفال بذكرى ٢٦ يوليو كعادته فاتصل بي في صبيحة ذلك اليوم يدعوني للسفر معه . . حيث كان ينوى إلقاء خطابه في ميدان المنشية . . كنت مريضاً بنزلة معوية حادة فاعتذرت له . . فقال - « ما دام الأمر كذلك أرجو أن تستمع إلى خطابى في الراديو » .

قلت له طبعاً سأفعل ، واندعشت لطلبه ، فقد كان أمراً طبيعياً أن أستمع إلى خطابه دون أن يطلب منى ذلك . فما الذى جعله يطلب هذا الطلب الغريب ؟ لم أعر الأمر كثيراً من الاهتمام إلى أن جاء وقت الخطاب . . ففتحت الراديو وجلست إلى جواره . . كان خطاباً طويلاً كالعادة ولم يكن به شيء يلفت النظر إلى أن جاء نصف الخطاب تفسيرياً . . فسمعته يتحدث عن (فرديناندى دى ليسبس) . . ساعتها أدركت ماذا ينوى فعله . . ولم تمض دقائق

بعد ذلك حتى تحقق ما أدركت . . فقد سمعت عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس
رداً على جون فوستر دالاس . .

الحقيقة أتي شعرت بالقبح . . فيها هي مصر الدولة الصغيرة ترفع صوتها أخيراً
للتحدى أكبر قوة في العالم . . كانت هذه تقظة تحول في تاريخ
ثورتنا بل وفي تاريخ مصر بأجمعه . . فقد أحدث القرار دويماً هائلاً في
خارج مصر وداخلها وأصبح عبد الناصر منذ تلك اللحظة بطلاً أسطورياً من أبطال
الشعب المصري الذي كان نواظراً إلى أن يرفع رأسه ويشعر بذاته بعد ما ذاقه من
هوان وقهر على أيدي الاستعمار البريطاني طوال قرن تقريباً .

في اليوم التالي استقل عبد الناصر القطار عائداً إلى القاهرة فوجد الشعب
المصري كله في استقباله - ذهب إلى مجلس الوزراء ومن الشرفه هناك
التي خطاباً زاد نار الحماس اشتعالاً . . ودخل بعد الخطاب مكتبه فقلت
له : اسمع يا جمال . .

قال : نعم

قلت : أنت ما قنلتيش على هذا القرار وأنت خلاص أخذته . . لكن
أنا عاوز أقول لك حاجة .
قال : إيه ؟

قلت : لو سألتني كنت حاقول لك حاسب . . لأن هذه الخطوة معناها الحرب
وأحنا مش جاهزين . . دا احنا لسه واخلدين السلاح من روسيا - في سبتمبر
من السنة الماضية (١٩٥٥) انعقدت الصفقة ولم يبدأ التوريد إلا في أكتوبر
ونوفمبر ولسه ما اندريناش عليه بالقدر الكافي ، لأن كل تدريبنا كان إنجليزي
غربي . . فلم يأت الوقت بعد الذي يسمح لنا بتغيير العقيدة العسكرية بناعنا من
غربية إلى شرقية . . لو كنت سألتني عن رأيي كنت حاقول لك حاسب يا جمال . .
ولكن بما أنك أتخذت القرار خلاص فيجب أن نقف جميعاً إلى جانبك وأنا
أولهم . .

وفعلاً من يوم ٢٧ يوليو أخذت أهاجم في مقالاتي بحريدة الجمهورية
دالاس وأمريكا بصراوة وعنق . . الإتحاد السوفيتي سعد بكل هذا أعظم سعادة

لأنه وجد من يحارب له معركته - من يوقظ له دول العالم الثالث والمستعمرات -
بينما لم يدفع السوفيت مقابل هذا كله إلا أسلحة يتقاضون ثمنها بالكامل . . ويبدو أن
الإتحاد السوفيتي استمر هذا فقد دأب على أن يحارب نحن معركته في كل
مكان ، وهو يعطينا السلاح ويأخذ ثمنه - دون أن يخسر شيئاً . . بل كما تبين
فيما بعد كان هو الراجح أولاً وأخيراً . . فالسلاح الروسي أغلى من السلاح الغربي
لأن عمره أقل من عمر السلاح الغربي وإذا أضفنا إلى هذا فائدة $\frac{1}{4}$ ٢ % التي
يتقاضها السوفيت لاتضح لنا أن السلاح الغربي أرخص على المدى الطويل . .
سمع إيدن بخبر تأميم القناة أثناء مأدبة عشاء أقامها الملك فيصل ملك
العراق ونوري السعيد رئيس وزرائها ففض المأدبة وبدأ يتصل بجي موليه
في فرنسا وبين جوربون في إسرائيل - في ذلك الوقت كان الإنجليز قد جلسوا
عن القناة ، ولكن نصف أسهم القناة كانت ملك الإنجليز والنصف الآخر
لفرنسا . .

لم يكن هذا وحده الذي أعاظ إيدن فالموقف الذي اتخذته عبد الناصر بعد
أن أفسد عليهم حلف بغداد ثم قام بتأميم القناة لم يكن من السهل على (إيدن)
بعقلته الاستعمارية التقليدية أن يتقبله . . فاتفق مع جي موليه وبين جوربون
على استخدام القوة ، ولكنهم لم يعلنوا ذلك . . بل قاموا بمحاولات متعددة
مثل المؤتمر الذي عقده إيدن في لندن وجمعية المتفعين وغير ذلك . . إلى أن أحيل
الموضوع في النهاية إلى الأمم المتحدة . . واتفق على أن يجتمع الدكتور محمود
فوزي وكان في ذلك الوقت وزير خارجيتنا مع وزير خارجية إنجلترا سلوين
لويس وبينو وزير خارجية فرنسا يوم ٢٩ أكتوبر ليضعوا سوياً الحل السلمي
والتعويضات المالية . .

لم يحدث طبعاً شيء من هذا ، إذ أن يوم ٢٩ أكتوبر كان هو اليوم الذي
اختاره إيدن وجي موليه وبين جوربون لتنفيذ خطتهم . . وفعلاً هاجمت إسرائيل
سيناء وأطلقت صفارات الإنذار في القاهرة في آخر ضوء يوم ٢٩ أكتوبر (الذي كان
محددًا للتسوية السلمية في الأمم المتحدة ١) وكان عبد الناصر في بيته فظلع
إلى سطح المنزل وشاهد بنفسه الطائرات وهي تقصف مطار المأظة القريب

من منزله وهي تحمل علامات إنجليزية وفرنسية - فأدرك عبد الناصر أن المؤامرة قد تمت . . . وذهب إلى القيادة في مساء نفس اليوم وأصدر أمره بانسحاب قواتنا فوراً من سيناء تفاعلاً للفخ الذي كانت ستقع فيه . . . إسرائيل في المواجهة في سيناء والإنجليز والفرنسيين من الخلف . . . ونفذ الأمر بمنتهى الدقة وعلى مدى ثلاثة أيام . . . بحيث حفظ لنا أكثر من ثلثي قواتنا المسلحة . . . ولذلك يجب أن نذكر هذا القرار لعبد الناصر كقرار عبقرى - صحيح أن جميع طائراتنا قد دمرتها فرنسا وإنجلترا بضربة واحدة وهي ما تزال على الأرض - وكنا قد اشتريتها من الاتحاد السوفيتي منذ أقل من سنة ونعزز بها غابة الاعتراز . . . ولكن لم يكن عبد الناصر أو غيره يستطيع أن يفعل شيئاً وقد باعنا إنجلترا وفرنسا بالعدوان وبالإنذار الذي وصفته بأنه قلدر في مقالتي في جريدة الجمهورية إذ أرسلود إلينا في نفس اليوم الذي اعتدوا فيه على مطاراتنا .

كانت مدة الإنذار ١٢ ساعة وقد أحدثت بلبلة عند بعض السياسيين القدامى في مصر ، فقرروا أن يتجمعوا فيرسوا رسالة إلى عبد الناصر لإقناعه بقبول الإنذار تحت شعار إنقاذ ما يمكن إنقاذه . . . سمع عبد الناصر بهذا فأرسل في طلب كتيبة ضرب تار من الحرس الجمهوري ووقفت في ساحة مجلس الوزراء وأتمم أن بعدم ربما بالرصاص أى إنسان يأتي ليقترح عليه قبول الإنذار . . .

ظعماً كانت الخطوة التالية أن أعلن عبد الناصر على العالم رفض مصر للإنذار البريطاني الفرنسي وتصميمها على القتال وليكن ما يكون . . . وكان ذلك في خطاب ألقاه في الأزهر يوم ٢ نوفمبر . . . والشعب كله ملتف حوله بعد أن خرج إليه في عربة مكشوفة . . . وفي نفس اليوم كان الشعب الإنجليزي يضرب مقر رئيس وزراء بريطانيا (١٠ داوننج ستريت) بالطوب والحجارة احتجاجاً على العمل اللاأخلاقي الذي قام به . . .

بعد رفض الإنذار أرسل عبد الناصر في طلب سفير أمريكا رايموند هير وبعث رسالة لأيزنهاور يقول له فيها . . . « أرجو أن تتكفل أنت بحلفائك بريطانيا وفرنسا وأترك لي أنا إسرائيل أتكفل بها » . . . رد إيزنهاور وقال إنه سيفعل كل ما يمكن فعله . . .

ونحن في أوج المعركة بين يومي ٢٩ أكتوبر و ٢ نوفمبر ١٩٥٦ كان شكري القوتلى رئيس سوريا في ذلك الوقت في زيارة رسمية للإتحاد السوفيتي فتحدث إلى الزعماء السوفيت بشأن معركة القناة وطلب منهم مديد المساعدة لمصر ، ولكن السوفيت تحاذلوا تحاذلاً تاماً . . . فأرسل القوتلى إلينا بذلك ونصحنا بالاعتماد على أنفسنا فلا أمل إطلاقاً في السوفيت - وهذا ما جعلني منذ تلك اللحظة أؤمن بأن من يتغلى بالسوفيت فهو دائماً مكشوف - وفي ٥ نوفمبر تدخل أيزنهاور وطلب من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل الانسحاب فوراً . . .

عندما علم السوفيت باستجابة هذه الدول لطلب الرئيس الأمريكي أرسلوا الإنذار المعروف باسم خروشوف وبولجانين إلى إنجلترا وفرنسا . . . والذي لم يكن في الواقع إلا مجرد استعراض عضلات ومحاولة للظهور بمظهر المتكبر . . . مع أن الذي أنقذ الموقف حقيقة كان أيزنهاور فقد استجابت لأوامره كل من إنجلترا وفرنسا فانسحبتا في ٢٣ ديسمبر سنة ٥٦ وتلتهما إسرائيل في مارس سنة ٥٧ بعد أن كانت جولدا مائير وزيرة خارجية إسرائيل في ذلك الوقت قد أعلنت رسمياً في الكنيست ضم سيناء وإعطاء اسم جديد لشرم الشيخ مما جعل بن جوريون يقول مقولته المشهورة « لا بد من الخوف مما لا بد من الخوف منه » .. يعنى أمريكا بطبيعة الحال . . . فلم يكن في استطاعة إسرائيل أن تفقد تأييد أمريكا وهي القوة العظمى في العالم . . .

وهنا يجب أن نتوقف للعودة إلى الوراء قليلاً حتى نتبين خط إسرائيل منذ أن نشأت. فقد كانت دائماً الاستناد إلى القوة العظمى في العالم في أى وقت من الأوقات . . . كانت بريطانيا ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية هي القوة العظمى في العالم ولذلك استندت إسرائيل إليها ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تفهقرت بريطانيا وفرنسا وتقدمت أمريكا فأصبحت القوة الأولى . . . ولذلك نجد بن جوريون يلجأ إلى نقل نشاط الحركة الصهيونية كاملاً إلى أمريكا - بل ويسعى جاهداً إلى أن يفرد بتأييد أمريكا فلا يسمح للعرب بأن تكون لهم صداقة قوية مع أمريكا . . . كما حاول أن يبني سياسته بعد قيام ثورتنا على ضرورة الإيصال بين مصر وأمريكا . . . ولذلك انزعج بن جوريون عندما وطلدنا علاقتنا بأمريكا

في بداية الثورة كما رويت . . فاتفق مع لافون وزير الدفاع في حكومته على عملية سرية وهي أن يرسلوا إلى مصر بعض العملاء ليضربوا المصالح أو المراكز الأمريكية في مصر . . وفعلاً حدث في سنة ٥٣ اعتداء على سينما مترو الأمريكية بالقاهرة والفنصالية الأمريكية في الاسكندرية . . ولكن البوليس المصرى تمكن من الإمساك بالخبنة وكانا شابين من شباب إسرائيل اعترفا بالمؤامرة فحوكما ولكنهما انتحرا في السجن وهما في انتظار حكم الإعدام . . وكانت فضيحة أبلغنا بها الأمريكان . وقد اختلف لافون مع بن جوريون بعد ذلك واستقال بفضيحة تعرف في التاريخ الإسرائيلي بفضيحة لافون .

كان على عبد الناصر أن يتعلم درساً مما حدث فيدرك أن استراتيجية إسرائيل هي أن تكون على خلاف مع أمريكا . . ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك فعل العكس تماماً فنجده بعد عدوان سنة ٥٦ يشيد بالإنذار الروسى وينسب إلى السوفييت كل شيء ويهمل الإشارة إلى قرار أيزنهاور بالانسحاب رغم ما في هذا من عجافة للحقيقة ، فالذى جعل هزيمتنا تنقلب إلى نصر كان القرار الأمريكى وليس الإنذار الروسى . . هذا إلى جانب أن عبد الناصر وهو الرجل السياسى المحترف ، كان عليه أن ينتهز هذه الفرصة لتوطيد العلاقات بين مصر وأمريكا - ولو من باب ضرب استراتيجية إسرائيل التي كانت تسعى إلى العكس .

ولكن هكذا كان عبد الناصر . . تختلط عليه الأمور ويفقد البصيرة وخاصة لأنه كان يتأثر جداً بتحليلات المحيطين به والذين لم يكونوا شرفاء في تقديم النصح له فقد كان كل همهم أن يضحخوا ذات عبد الناصر حتى تبقى لهم مناصبهم ونفوذهم .

٢

إلى يوم ٣١ ديسمبر سنة ٥٦ كانت المعاهدة المصرية البريطانية ما زالت قائمة . . كنا قد قمنا أثناء المعركة بوضع الخبراء الإنجليز البالغ عددهم ١٢٠٠ تحت الحراسة وأصبحوا معتقلين . . وكانت المعاهدة تنص على بقاء الخبراء بالقناة لمدة سبع سنوات ونصف ابتداء من عام ٥٤ وهو تاريخ عقد المعاهدة .

انسحبت القوات البريطانية المعتدية في ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ بناء على أوامر أيزنهاور وفي أول يناير سنة ٥٧ أعلن عبد الناصر سقوط المعاهدة المصرية البريطانية وانتهى بذلك ما علينا من التزامات وأصبح الخبراء أسرى فيبادلتهم بعد ذلك في عملية تبادل الأسرى بيننا وبين بريطانيا - وفي نفس اليوم أعلن عبد الناصر قراراً آخر أهم من القرار الأول وهو تخصيص الاقتصاد المصرى كرد فعل للتخريب الذى أحدثته الغارات الجوية البريطانية والفرنسية . . كانت هذه ضربة كبرى فإلى ذلك الوقت كانت جميع شركات التأمين والبنوك والبيوت التجارية الكبرى إما فرنسية أو إنجليزية أو بلجيكية أى أوروبية بصورة أو أخرى .

تلت ذلك عملية تصفية ديون القناة لمستحقيها من حملة الأسهم قدفعناها بالتقسيم وكانت في مجموعها لا تزيد على دخل القناة في سنة واحدة . . وفي مقابل هذا أفرجت إنجلترا عن ٤٠٠ مليون جنيه استرليني كانت قد جمعتها نتيجة لتأميم القناة . .

وهكذا بدأنا سنة ٥٧ ونحن نملك اقتصادنا بالكامل . . بالإضافة إلى أرضتنا من الاسترليني أى ال ٤٠٠ مليون جنيه التي أفرجت عنها بنوك إنجلترا . كان يجب أن تكون هذه مرحلة انطلاق فالأرصدة متوفرة . . وكذلك الاحتياطي . . كان كل شيء في الواقع معدا لكي نخطط ونبدأ بناء أنفسنا من الداخل بناء ضخماً يعوض على مصر ما فاتنا في سنوات التخلف والاحتلال . . ولكن للأسف لم يتم شيء من هذا فقد كان عبد الناصر مشغولاً بالخرافة التي أصبح اسمه مقترناً بها . . خرافة كبيرة جداً في مصر والعالم العربى فهو البطل الذى حقق النصر على إمبراطوريتين كبيرتين « بريطانيا وفرنسا » فبعد أن أغفل عبد الناصر الدور الحقيقى الذى لعبه أيزنهاور في هذا المجال مما حول الهزيمة العسكرية إلى نصر سياسى أصبح كما يبدو أول المصدقين لأنه انتصر . . لا للحقيقة وهي الهزيمة العسكرية .

تلت بعد ذلك محاولات من جانب دالاس لإضفاء البطولة على الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية وجعله الرجل الأول في المنطقة

حتى يقضى بذلك على عبد الناصر ويعزل مصر تمهيداً للاجهاز عليها . .
ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل رغم ما بذله دالاس من جهود لتخويف
سعود من عبد الناصر وكل من يلوذ به ، فمثلاً أطلعتني سعود على تقرير
للمخابرات المركزية الأمريكية عنى يقول إننى العميل الأول للسوفيت
في مصر ، لا لشيء سوى أننى كنت أكتب مقالا يوميا بالجمهورية أهاجم
فيه أمريكا لمحاولاتها تعويق سير ثورتنا ، وكان هجومي مركزاً على دالاس وزير
خارجية أمريكا وكان مدير المخابرات هو شقيقه ألان دالاس . . وإن دل
ذلك على شيء فإنما يدل على أن المخابرات المركزية كانت تستقى معلوماتها
من مصادر نافهة تشبه المصادر التي يستقى السوفيت اليوم معلوماتهم منها .

٣

لم يأس دالاس بعد أن فشلت مساعيه في عزل مصر والقضاء على
عبد الناصر . . فأوعز إلى تركيا بحشد جيوشها على حدود سوريا وبدأوا
في تصعيد الوضع هناك تصعيداً سريعاً - في هذا الوقت كانت بيننا وبين
سوريا اتفاقية دفاع مشترك ، وهكذا صبحا العالم ذات صباح على خير وصول
سفن حربية مصرية إلى ميناء اللاذقية وإنزال حوالى خمسة آلاف جندي بعنادهم
وعدتهم مما فاجأ الأمريكان والأتراك معاً إذ أن القسوة قامت من الاسكندرية
بحراً إلى اللاذقية دون أن يشعر بها أحد مع وجود الأسطول السادس والقوات
الإسرائيلية في شرق البحر الأبيض .

طبعاً كان لهذه الحركة أثرها في إشعال العالم العربي ، فقد أصبح
عبد الناصر بطلا قومياً لا يمكن لأحد أن يقف في طريقه ومن هنا نشأت
فكرة الوحدة بين مصر وسوريا . .

بعد ذلك أخذنا في الاستعداد لانتخابات مجلس الأمة - وراعينا
في هذا شيئين . . أولهما حق الاعتراض لمجلس قيادة الثورة . . وفعلنا بعد
أن تمت الترشيحات اعترضنا على أعداد كبيرة ، وكان المقياس في الاعتراض
الانتماء إلى الأحزاب القديمة أو عداء المرشحين للثورة - أما الإجراء

الثاني فقد كان إغلاق بعض الدوائر على الضباط الأحرار الذين تركوا
الجيش وخرجوا إلى الحياة السياسية والمدنية . . وفعلنا أغلقنا ٦٠ دائرة
من ال ٣٥٠ . ثم أجريت الانتخابات . . واجتمع فعلاً أول برلمان في ظل
الثورة في سنة ٥٧ . . أى بعد خمس سنوات من قيامها .

قبل الاجتماع بثلاثة أيام كنت مع عبد الناصر في استراحة برج العرب . .
فإذا بي أفاجأ بطلب منه بأن أستعد لرئاسة المجلس وقيلت . . ولكن قبل افتتاح
المجلس بليلة واحدة دعانا عبد الناصر للاجتماع به في القاهرة . . وقال إنه يفكر
في إسناد رئاسة المجلس إلى عبد اللطيف بغدادى بصفته أقدمنا . . كيف
غير عبد الناصر رأيه في خلال يومين فقط . . وما الذى دعاه إلى ذلك ؟ . . لا أعرف
إلى الآن . . ولكن الذى يعرف جمال عبد الناصر يعرف أنه كان يمكن أن يغير
رأيه في آخر لحظة ، ولذلك كان بعضنا يحرص على ألا يذيع رأياً أو
قراراً لعبد الناصر إلا بعد أن يعلنه عبد الناصر بنفسه على الناس أجمعين .

طبعاً لم أهتم أنا برجوع عبد الناصر عن قراره في مسألة تعيينى رئيساً لمجلس
الأمة ، فأنا عضو به على أى حال - ولم أكن في حياتى أسمى إلى منصب
أو مركز ما . . ويكنى أننى عندما انتخب عبد الناصر رئيساً للجمهورية كنت
أول من اعتذر له عن الاشتراك معه في الوزارة . . بل وطلبت منه صادقاً
أن لا يعهد إلى بمنصب من مناصب الدولة . .

كان لا بد على أى حال أن يتولى منصب وكيل المجلس أحد الضباط
الأحرار فعرض عبد الناصر هذا على أكثر من واحد ولكن الجميع رفضوا . .
فلم يجد مفسراً من أن يتقدم بهذا الطلب إلى . . وقيلت . . وقد تعجب إخوانى
كيف أقبل العمل تحت رئاسة البغدادي وقد كنا - على الأقل - زملاء في مجلس
الثورة لا يتميز أحدنا عن الآخر في شيء . . طبعاً لم يكن هذا تفكيرى . .
فلم يحدث في حياتى أن ميزت عملاً عن آخر - مادام العمل من أجل مصلحة
مصر - وسواء كنت عضواً بالمجلس أو رئيساً أو وكيلاً له . . فالعمل عندى
يتساوى والعبارة بالعمل لا بالمنصب . .

في أواخر سنة ٥٧ جاءتنا دعوة من البرلمان السوري الذي كان يرأسه
أكرم حوراني لزيارة دمشق . . قبلنا الدعوة واتفق جمال مع البغدادي
على أن أراس الوفد المسافر إلى سوريا - وفعلاً سافرنا في نوفمبر سنة ٥٧
ووجدنا المسائل تتصاعد بسرعة مذهلة - كان شكركى القوتلى في ذلك
الوقت رئيساً للجمهورية ولكن كان الجيش مختلفاً عليه - والجيش ممزق إلى
فروق وكل فريق عليه أن يتام في المعسكر الخاص به خشية حدوث أى انقلاب فالجميع
يتربصون بعضهم البعض . . المهم . . فوجئنا في أوائل فبراير سنة ١٩٥٨ بخمسة من
قادة القوات السورية يصلون إلى القاهرة ويلتقون بعبد الناصر في نفس الليلة التي
وصلوا فيها ويطلبون الوحدة مع مصر . . حاول عبد الناصر جاهداً أن يثنىهم عن
عزمهم إذ لا يمكن أن تتم الوحدة هكذا فجأة وبدون تمهيد . . خاصة وأن البلدين
مختلفين في أوجه كثيرة . . ولكن عبثاً حاول ليلة بعد أخرى إلى أن كانت
الليلة الثالثة فلم يجد أمام اصرارهم مناصاً من الموافقة على الوحدة -
فعمدت في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ .

معظم البلاد العربية لم تستقبل الوحدة بارتياح . . فالسعودية على وجه
الخصوص كان يهمها أن تظل سوريا محايدة لا تنضم إلى أحد ، فبين البلدين
حدود مشتركة . . ولذلك كانت السعودية تصرف دواتب منتظمة لبعض رؤساء
الأحزاب والحكومات والوزراء في سوريا حتى يظل الوضع القائم كما هو . .
ويانضم سوريا إلى مصر بدأ الخوف يتزايد في البلاد العربية الأخرى
خشية أن يفعل بها عبد الناصر ما فعل بسوريا . . وهكذا كان أيضاً وضع الملك
حين في الأردن والملك فيصل في العراق وشمعون في بيروت . . الكل
يخشى القوة الجديدة التي ظهرت بالوحدة بين مصر وسوريا فقلبت الموازين
في المنطقة - ليس فقط بالنسبة للبلاد العربية بل بالنسبة لإسرائيل أيضاً
والإمبريالية الغربية . .

بالصدفة ، وقبل أن تتم الوحدة بأيام ، كان الملك فيصل رحمه الله (وكان
ولياً للعهد) في زيارة مصر . . كان في ذلك الوقت ما زال أميراً وكنا أصدقاء
اعتدنا في زيارته المتكررة لمصر أن نتناول طعام عشاءنا البسيط في بيتي بالهرم . .
وفي هذه المرة قال لي فيصل على مائدة العشاء :

« أنتم رايمين فين ؟ » . . مشيراً بذلك إلى الوحدة مع سوريا . . فقلت له :
« العملية انتهت خلاص » . . قال : - « أنا في عرضك قل للأخ جمال ان
البلاد دي عشائر واحنا أدري بيها منكم . . هذه الوحدة لن تستمر ولن
تتمشى مع التيارات السياسية هنا وستضركم . . أنا واثق من هذا وأنا بالكلمة
كصديق وأخ . . الوحدة دي حتاخذوا فيها ضربة » . .

أنصت طبعاً إلى كلام فيصل فقد كان مخلصاً في نصيحته . . وكان دائماً
شخصية متزنة عاقلة . . ثم هو قبل هذا وذاك صديق حقيقي فعلاً . . ولكن ماذا
كنت أستطيع أن أفعل ؟

قلت له : يا فيصل دي انتهت خلاص . . بعد غد سيأتي القوتلى وستعلن
الوحدة ولا رجوع فيها الآن . .

قال : أنا بالكلمة علشان أريح ضميري . . ولكن ثق - وسوف أذكرك -
هذه الوحدة سننتهي بكارثة . .
وقد حدث فعلاً . .

المهم . . جاء يوم ٢٢ فبراير ووقف جمال والقوتلى في شرفة مجلس الوزراء
حيث ألقى كل منهما خطاباً يعلن فيه قيام الوحدة . . وقبل ذلك بدقائق
كان جمال والقوتلى قد وقعا على وثيقة الوحدة وكنت أنا ضمن الموقعين أيضاً
نزولاً على رغبة عبد الناصر برغم أنني لم أكن في ذلك الوقت أشغل أى منصب
رسمى في الحكومة . .

بعد ذلك حل مجلس الأمة في مصر ونظيره في سوريا . . تمهيداً لتشكيل
مجلس موحد بين البلدين . . ثم أعدنا طائرة كوميت عادية من طائراتنا
استقلها عبد الناصر وأنا بصحبته وسافرنا بها في منتهى السرية إلى دمشق خشية
أن يتسرب خبر السفر إلى إسرائيل ، فقد كان وقع الوحدة عليها كالكارثة
تماماً . . حتى أن بن جوريون لم يستطع أن يخفي هذا فكان من تصريحاته المشهورة
أن مصر وسوريا قد وضعتا إسرائيل في كساراة البندق . .

وصلنا دمشق وقضينا أسبوعاً بقصر الضيافة هناك : من الصعب على أن أصفه -
فقد كان عبارة عن هذيان لا ينقطع ليل نهار ولا يتوقف لحظة واحدة -

كان عبد الناصر يخطب إلى أن يصيبه التعب . . ثم يخطب القسوتلى - ثم أخطب أنا . . وهكذا واحداً بعد الآخر نواصل الخطابة ومعنا بعض الزملاء من قادة الشعب السورى لا نتوقف . . والشعب السورى ينصت إلينا ويطلب المزيد . . لا يمل ولا يشبع وكل ما كان يقال مقبول وعظيم يلهب الحماس وترتفع له الحناجر بالهتافات ولا تكل الأيدي عن التصفيق إعجاباً واستحساناً تطلب المزيد . . أسبوعاً بأكمله لم تنزح في جماهير الشعب المختلفة حول قصر الضيافة شيراً واحداً . . فكانوا يأكلون ويشربون وينامون وهم وقوف أو جلوس في أماكنهم بالميدان الذى يطل عليه القصر . . ومن نفس هذا الميدان في نهاية الأسبوع أعلننا الدستور المؤقت . . أعلنته أنا بصوتى فقترت مواد الدستور مادة مادة . . والناس تحت شرفة القصر سكارى بالحماس يهللون ويكبرون لكل فقرة وكلمة ومقطع من كلمة .

ع

في يوم ١٤ يوليو سنة ٥٨ كان عبد الناصر في طريق عودته من جزيرة بربونى حيث كان في زيارة للمارشال تيتو ، عندما تلقى رسالة من عبد الحكيم عامر نائبه في مصر يخبره فيها أن الثورة قد قامت في العراق ، وفى نفس الوقت تلقى رسالة أخرى من تيتو ينصحه فيها بأن يقطع رحلته ويعود إلى بربونى ، فالأسطول السادس في البحر الأبيض وقد يعتدى عليه الأمريكان نتيجة لثورة العراق . . اتصل عبد الناصر بتيتو فوراً ليجهز له طائرة في مطار (بولا) ثم استقل الطراد الذى كان يحرس بجنه وانطلق عائداً إلى بربونى في حين واصل البحث وعليه عائلة عبد الناصر رحلته إلى الإسكندرية .

من مطار (بولا) في يوغوسلافيا أخذ عبد الناصر الطائرة واتجه إلى موسكو حيث التقى بخروشوف وطلب منه مساعدة ثورة العراق ضد ضغوط الغرب وتأمره وشراسته التى بدأها بعدوان سنة ٥٦ .

وكما قال لى عبد الناصر شخصياً - استمر الحديث بينه وبين خروشوف ١٦ ساعة كاملة حاول فيها عبد الناصر إقناع خروشوف بنجدة الثورة العراقية

ولكن عبثاً ذهبت كل محاولاته . . فقد رفض خروشوف تقديم أى نوع من المساعدة . . نفس ما حدث في سنة ٥٦ عندما حاول شكبرى القسوتلى حث السوفيت على مساعدتنا ضد العدوان الثلاثى . .

خرج عبد الناصر من هذا اللقاء وهو حزين حزناً عميقاً لم يطلع عليه أحدنا إلا أنا وعامر ثم توجه إلى دمشق حيث أعلن على الشعب المورى والعربى في كل مكان أن الاتحاد السوفيتى يقف إلى جانب ثورة العراق وذلك تغطية لموقف السوفيت ومحاوله منه لإيهام الغرب بأن ثورة العراق لها من يساندها . .

بقى عبد الناصر في دمشق فترة إلى أن استتبت ثورة العراق ثم عاد إلى القاهرة ولكنه أثناء زيارة أخرى لدمشق عام ٥٩ فوجيء بهجوم عنيف من جانب خروشوف على الوحدة بين مصر وسوريا . . فكلنا نعرف أن النظرية الشيوعية لا تعترف بالوطنية ولا بالقومية . . تصدى جمال لهجوم خروشوف وهو في دمشق واتصل بى من هناك لشن حملة مماثلة وكنت وقتها سكرتير الاتحاد القومى (التنظيم السياسى الوحيد) فألقيت خطاباً في ميدان عابدين - ثم ذهبت إلى الإسكندرية حيث ألقىت خطاباً كان مشهوراً في ذلك الوقت بعنفه عبات فيه الشعور ضد السوفيت كما لم يعبأ من قبل - وقد روى ل جمال بعد عودته من دمشق أنه لما بدأ المعركة ضد السوفيت ، اتصلت به وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وقالت إن الأمريكان يضعون كل إمكانياتهم تحت أمره ولأنهم على استعداد لتقديم أية معونة يطلبها فقال لهم إنه سيحارب معركته وحده وإن كل ما يطلبه من أمريكا هو أن تعينه بالنسبة للتمح والريوت وما شابه ذلك . . وفعلاً كانت المعونة الأمريكية تقوم بدور هام فقد كانت توفر لنا الكثير من الميزانية بحيث أنها لما توقفت في سنة ٦٥ كان لذلك أثر على الاقتصاد المصرى . .

بعد قيام ثورة العراق بفترة استولى على الثورة عبد الكريم قاسم . . وهو عميل شيوعى مسجل بالحزب الشيوعى فألقى السوفيت بكل ثقلهم وراءه . . وكان هذا أحد العوامل التى دعتهم إلى تضعيد حملتهم ضدنا وضد الوحدة

مع سوريا . . . وهي الحملة التي قابلناها بالمثل - فكلما صعدوا صعدنا ،
نما جعل خروشوف يقول مقولته المشهورة وهي مثل روسي شعبي قديم
موثداً « لا تبصق في بئرك لأن مصيرك أن تشرب منه مرة ثانية » . يقصد بهذا
نصح عبد الناصر بأن لا يعكس علاقته مع السوفييت لأنه سيضطر إن عاجلاً
أو آجلاً إلى أن يعود إليهم .

٥

بأنهاء الخمسينات ودخول الستينات بدأت الثورة فترة المعاناة والآلام
والهزائم والنكسات والأخطاء البشعة من جانبنا . . . وكما أقول دائماً - كما كانت
ثورة ٢٣ يوليو عملاقة في إنجازاتها في الخمسينات فإنها كانت عملاقة في أخطائها
في الستينات . . .

الشيء المضيء الوحيد في سنة ٦٠ كان إتمام كهربية خزان أسوان القديم
ثم التفجير الأول لبدء السد العالي بحضور الملك محمد الخامس ملك المغرب
الله يرحمه . . . فيما عدا ذلك بدأت الصراعات تطفو على السطح فيما بين
أعضاء ما كان يسمى بمجلس الثورة ويجب أن أقدر هنا أنني إلى هذه اللحظة
لا أستطيع أن أدرك لماذا كان عبد الناصر يترك خلفه كربة رهبة من الأحقاد . .
أما بالنسبة لي فلم يكن هذا حالي في يوم ما فلا أذكر أنني حضدت يوماً على
عبد الناصر رغم أن بعض تصرفاته معي كان يمكن لغيري أن يفسرها تفسيراً
سيئاً . . . ولكني لم أكن أريد شيئاً لنفسى ولذلك لم أعرف الحق . . . أما
بالنسبة للآخرين فأنا أعرف أن كلامهم كان بل وما يزال يحمل في نفسه كمية
هائلة من الحقد على عبد الناصر . . . حتى عبد الحكيم عامر صديق العمر
الوحيد لعبد الناصر انتهت علاقته بعد الناصر في أواخر أيام حياته إلى عملية
حقد رهبة .

المهم . . . بدأنا الستينات بأحقاد تطفو على السطح وفي نفس الوقت فوجئنا
بالوحدة مع سوريا وقد بدأت تتفكك . . . كان قد انقضى على قيام الوحدة عامان
وضيح بعدهما أن الأمور غير مستقيمة . . . كنا قد ألغينا الأحزاب في سوريا

وكان من ضمنها حزب البعث الذي قبل مع الأحزاب الأخرى عملية
الإلغاء آملاً أنه (أو أي حزب سوري آخر) سوف يستطيع أن يحقق ما يريد
من خلال الوحدة . . . فلما اتضح أن هذا غير ممكن بدأوا يتهدرون بالاتحاد القومي
ويتآمرون على الوحدة . . . أحس عبد الناصر بهذا في سنة ٦٠ ولكنه لم يكن
يستطيع أن يمنع . . . كان يشعر أنه أمام طريق مسدود وأن أمراً ما سوف يحدث
ليدمر هذه الوحدة بل ربما دمر الأوضاع في مصر نفسها . . .

في نفس هذه السنة أصيب عبد الناصر بمرض السكر نتيجة لحالة اليأس
والعجز التي وجد نفسه يواجهها وبشاء الله أن أصاب أنا أيضاً بنوبة قلبية في
١٥ مايو من نفس السنة . . . نتيجة الإرهاق سنوات عديدة متتالية
وللإرهاق الذي أصابني في تلك السنة بالذات عندما ذهبت إلى كوناكري
كرئيس لمؤتمر التضامن الآسيوي الإفريقي حيث طفا على السطح لأول مرة
الخلاف بين الاتحاد السوفيتي والصين الشيوعية .

قبل أن أذهب إلى كوناكري كنت قد تركت الاتحاد القومي لأنني شعرت
أن عبد الناصر قد بدأ يأخذ موقفاً مني ربما نتيجة لوشايات مغرضة وصلته - فقد
كانت لديه عادة الاستماع إلى الوشايات وعندما تمس شخصه أو بيته أو أمنه
يصبح من السهل التأثير عليه . . . المهم أنني كالعادة في مثل هذه الأحوال كنت
أنا أيضاً آخذ موقفاً منه فأعتكف أو أبتعد عنه إلى أن يعود الصفاء إلى نفسه
فيتصل بي . . . وتزول الجفوة . . .

وكان هذا ما حدث هذه المرة فبعد عودتي من كوناكري ومرضى جاء
لزيارتي . . . وكان صلاح سالم قد أشاع في تلك الأيام أن سبب إصابتي بالقلب
كان عبد الناصر فسألني إذا كان ما يشيعه صلاح سالم صحيحاً . . . فقلت له :
لا . . . غير صحيح فالسبب على ما أرجح هو تراكم سنوات عديدة بأكلها من
الإرهاق والتعب الشديد قبل الثورة وبعدها ثم مناخ كوناكري الحار الشديد
الرطوبة الذي عانيت منه كما لم أعاني من شيء في حياتي . . .

في صيف سنة ٦٠ طلب مني عبد الناصر أن أشرح نفسي لرئاسة مجلس الأمة الإتحادي الذي كان أعضاؤه مصريين وسوريين أي كان بمثابة برلمان للوحدة ففعلت وانتخبت رئيساً للمجلس وكان هذا أول عمل أباشره بعد فترة نقاهتي من التوبة القلبية التي أصابني . . وفي نفس الوقت تقريباً عين عبد الحكيم عامر قائداً عاماً للجيشين الأول والثاني - أي الجيش السوري والجيش المصري - برتبة مشير وخلص عليه عبد الناصر لقب نائب رئيس جمهورية . . .

دخلنا سنة ٦١ والطريق المسدود الذي سلكته الوحدة يزداد انسداداً ، فالأحزاب كلها قد بدأت تنشط والتدمر السياسي أخذت رقعته تتسع . . فقد كان عبد الناصر يعتمد في سوريا على شخص واحد هو عبد الحميد السراج - وكان الشعب السوري قبل الوحدة يعاني مما كنا نعاني منه في مصر إلى وقت غير بعيد من كبت للحريات وسجن وتعذيب وإهانات وتصفيه جسدية تبلغ حد القتل - فبعد أن تمت الوحدة كان أملهم كبيراً في أن تتغير الأحوال ولكن هذا لم يحدث للأسف ، فلما استمر الحال على هذا المنوال بدأت الناس في سوريا تضح وتضيق وتزداد شقاء وسخطاً ، وفكر عبد الناصر وتشاور معنا في أن يرسل إلى سوريا عبد الحكيم عامر بصفته الرجل الثاني في الدولة الجديدة وقائد عام قواتها المسلحة عسى أن تستقيم الأمور هناك وتجتاز الوحدة الطريق المسدود الذي وصلت إليه . . ووافقناه على رأيه . . وفعلاً سافر عامر إلى سوريا رغم أن عبد الناصر كان قد ترك بها عبد الحميد السراج كما هو . . وكان هذا خطأ فاحشاً لأن السراج كان يعتبر نفسه أحق من عامر بحكم سوريا . .

كانت لعبد الحكيم عامر أخطاؤه بطبيعة الحال ولكن الأهم من ذلك أنه كان يسيء اختيار معاونيه بشكل فاضح . . وكان من أبرز ملامح شخصيته روح التبعية فهو يساند من يعاونه على حق كان أم باطل .

ونتيجة لكل هذا نشب صراع حثي بين عامر والسراج . . ثم أخذ يتصاعد إلى أن نزل إلى رجل الشارع في دمشق . . بينما كان عبد الناصر كعادته

يناصر عامر ظالماً أو مظلوماً . . فإذا أضفنا إلى هذا أن الملك سعود دفع سبعة ملايين جنيهه أوصلها الملك حسين ملك الأردن للمتمردين والمتآمرين في سوريا ثم القوانين الاشتراكية التي أصدرها عبد الناصر في ٢٣ يوليو سنة ٦١ وأثرها على المجتمع السوري الذي هو بطبيعته تجار لأدركنا مدى سخط الشعب السوري على عبد الناصر والوحدة وهو السخط الذي بلغ أقصاه عندما صحا الناس في دمشق في يوم ٢٦ سبتمبر سنة ٦١ على وحدات من الجيش السوري وهي تحاصر القيادة العسكرية هناك . . كان عبد الحكيم يعيش في فيلا ملاصقة فهرع إلى القيادة . . ولكن الجيش السوري ضيق الحصار عليه وبدأوا يكلمونه عن طريق الميكروفون مهتدين متوعدين ثم بدأوا في إصدار بلاغات حربية - بلاغ رقم ١ ، بلاغ رقم ٢ . . الخ . . وكان البلاد في حالة حرب - علم عبد الناصر بهذا فحاول إنقاذ الموقف . . ولكن عبثاً ذهبت كل محاولاته بعد أن ألغوا القبض على عامر وشحنوه في طائرة إلى مصر . . وبهذا تم الانفصال وذهبت الوحدة بين مصر وسوريا كأنها لم تكن . . وتحققت نبوءة فيصل في .

٧

على مستوى رجال الثورة كان الانفصال شماتة كبيرة في جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر - أما على المستوى الشعبي فقد بدأت الناس تتعلم وتسال : لماذا حدث هذا ؟ ومن المسئول ؟ صحيح أن الانفصال قد سبقته بفترة وجيزة القوانين الاشتراكية (صدرت في ٢٣ يوليو ١٩٦١) ووقع الانفصال في ٢٦ سبتمبر ١٩٦١) تلك التي صدرت من أجل مصلحة الجماهير . . ولكن مجموع الشعب كان ما زال يفتقد شيئاً هاماً في حياته . . وهو الحرية . . فعندما لا يكون الإنسان آمناً على نفسه لا يمكن أن يعرضه شيء عن هذا . .

هذه حقيقة لم يدركها عبد الناصر إلى يوم أن مات . . كان يتصور أن الشعب مرتاح وسعيد وراض عن أسلوب الحكم لأن الناس عندما تراه كانت تهتف له وتهلل وتصفق . . ولكنه نسي أن في ضمير كل مواطن - حتى في الطبقات

التي كان يعتقد أنه يخدمها - حقيقة أساسية تطفئ على كل حقيقة أخرى . .
وهي الإحساس بالحاجة إلى الحرية والأمن .

بعد عودة عامر من سوريا بعد أن عومل معاملة مهينة التي بعهد الناصر
وقال إنه لا يستطيع أن يستمر كقائد عام للقوات المسلحة بعد الإهانات التي
وجهت إليه من جيش سوريا فكرامته كقائد عام لا تسمح له بالاستمرار في
عمله . . رجب عبد الناصر بهذا أشد الترحيب فقد كان ينتظره أو يتمناه منذ
معركة سنة ٥٦ وبعد الموقف المتخاذل الذي وقفه عامر آنذاك والحالة التي كانت
فيها القوات المسلحة في ذلك الوقت وعند الانفصال ، ولكنه لم يشأ أن يظهر لعامر
ترجييه باستقالته حتى لا يراجع فيها فقد كان كل منهما يعرف الآخر حق المعرفة
ويربص بالآخر في غيابه وحضوره . .

انقضى أسبوع بعد ذلك وعامر لا يذهب إلى القيادة وعبد الناصر يجهز
الخطاب الذي سيلقيه ليعلم أن هذا هو الطريق الذي اختارته سوريا فليحفظها
الله ويسارك خطواتها وعلى الجميع أن يحترموا إرادتها وما اختارته . . وفعلا
أتى عبد الناصر خطابه وكان له صدى طيب في البلاد العربية ، ولكنه لم يمض
يوم أو يومان بعد ذلك إلا وبفاجأ بعهد الحكيم عامر يطلب منه سد حاجات
النفس في القوات المسلحة وغير ذلك مما يشير إلى أنه مستمر في عمله كقائد
عام . . حينئذ أسقط في يد عبد الناصر ولم يدر ماذا يفعل . . طبعاً كان وراء
تراجع عبد الحكيم مستشاروه من أمثال شمس بدران وبعض خاصته وأهله
وكان لهم تأثير سيء عليه . . وإحساسه بأنه شريك عبد الناصر فما دام عبد الناصر
يحكم ، يجب أن يظل عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة . .

حينما سمع عبد الناصر هذا من عامر جن جنونه ، ولكنه أحنى شعوره ودعانا
جميعاً للاجتماع به وطرح الأمر علينا . . قلنا له ببساطة إن هذا الأمر لا يحتاج
إلى مناقشة فرأينا يا جمال أن عبد الحكيم كان يجب أن يترك القيادة منذ ٥٦
لا في ٦١ . . صحيح أنه شهم ولطيف إلى آخره . . لكنه لا يصلح من ناحية
العمل العسكري . . باختصار قلنا جميعاً وفي نفس واحد لجمال إن استبعاد
عامر من الجيش مسألة مفروغ منها ولا تقبل الجدل .

لم يمنعنا هذا بطبيعة الحال من أن نتساءل فيما بيننا بعد خروجنا من الاجتماع
لماذا استدعانا جمال عبد الناصر ؟ فقد كان من الطبيعي وهو رئيس للجمهورية
أن يصدر بعد الانفصال مباشرة قراراً بتعيين قائد عام جديد للقوات المسلحة
والاكتفاء بأن يكون عامر نائباً لرئيس الجمهورية كما كان . . اتضح لنا
فيما بعد أن عبد الناصر كان يريد أن يأخذنا كراي عام ضد عامر . . بينما لم تكن
المسألة في نظرنا تحتاج إلى هذا . . فنحن لسنا الشعب . . أما الشعب فقد كان يطالب
برأس المسئول عن السبب في كل هذا . .

بعد خروجنا قام عبد الناصر باستدعاء عامر وجعلنا يناقشان الأمور فيما
بينهما . . وبعد عدة اجتماعات بينهما اختفى عامر فاستدعانا عبد الناصر مرة
أخرى وقال لنا إنه أبلغ عبد الحكيم بالقرار الذي اتخذناه ولكنه رفض
الاستجابة له . . ثم اختفى حيث لا يعلم أحد ولو أنه عرف بعد ذلك أنه كان في
مرسى مطروح . . كان ردنا على عبد الناصر أنه لو تراجع في القرار
الذي اتخذناه بالإجماع فهو بصراحة يتنكر للمصلحة مصر . . ثم لماذا بسألنا
الرأي . . إنها مسئوليته وحده كرئيس للجمهورية .

في هذه الأثناء - وإغاظه في عبد الناصر - قدم عامر له الاستقالة المشهورة التي
طبعها بعد ذلك في سنة ٦٧ وقال فيها إنه استقال من أجل الديمقراطية في سنة
٦٢ وغير ذلك من أمور كان يعلم جيداً أنها تثير حنق عبد الناصر . فمثلاً قال
إنه لا يقبل أن تحكم البلد هكذا بدون أحزاب وبدكتاتورية مطلقة . .

كان عامر يعرف جيداً أن عبد الناصر لن يقبل أن تخرج هذه المسائل إلى البلد
لأن الشعب كله كان يريد الديمقراطية . . فإذا قبلت هذه الاستقالة . . ستجعل
من عامر بطلاً قومياً . . فاستدعانا عبد الناصر مرة أخرى وعرض علينا
الاستقالة - وكان ردنا عليه أنه هو الرئيس المسئول وما كان بحاجة إلى أن يستدعينا
قبل ذلك أو في هذه المرة . .

أرسل عبد الناصر في طلب عامر والتقى . . وهنا تظهر علامة استفهام
كبيرة في علاقات عبد الناصر وعامر . . فقد حدث عكس ما كنا نتوقعه
تماماً . . إذ اتفقا على أن يترك عامر منصب قائد عام القوات المسلحة ويتسلم

منصباً آخر اسمه نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة . فالقائد الأعلى هو دائماً رئيس الجمهورية - وهذه وظيفة شرفية حسب الدستور ولكنها ليست كذلك في وقت الحرب . فالقائد الأعلى عليه أن يوقع أمر القتال كما عليه أن يوقع الأمر الاستراتيجي لقائد القوات المسلحة الذي يحدد فيه استراتيجيته للمعركة ، ومع ذلك أصدر عامر على أن يتولى القيادة الفعلية - فلا يعين قائد عام بدلاً منه . . وقد سلم له جمال بذلك بينما كان يتولى أن يعين محمد فوزى قائداً عاماً في ٢٣ يوليو سنة ٦٢ (وكنا في ذلك الوقت في ديسمبر سنة ٦١) فلما أتى ٢٣ يوليو ، وجدنا أن الوضع ما زال كما كان . . فمما زال فوزى رئيس أركان حرب وجميع الضباط الكبار الذين كانوا مع المشير عامر كما هم لم يتغيروا - فبدأنا نتساءل فيما بيننا . . فيم كان إذن استدعاء عبد الناصر لنا وأخذ مشورتنا المرة بعد الأخرى ؟ لقد عادت المياه إلى مجاريها بين عبد الناصر وعامر وكان شيئاً لم يكن . . كل ما حدث هو أن رقى عامر من منصب قائد عام القوات المسلحة إلى نائب القائد الأعلى بسلطات القائد العام . . واستمر الحال على ما هو عليه حتى وقعت كارثة ٦٧ . .

ولما كان عبد الناصر قد أبلغ عبد الحكيم بأن الذي اتخذ قرار تنحيته عن القوات المسلحة هم إخوانه أعضاء مجلس الثورة - بدأت المياه بيننا وبينه تتعكر . ولكنه بعد أن فكر في الأمر ملياً انتهى إلى أننا لم نتخذ هذا القرار وحدنا فلا بد أن عبد الناصر هو الذي دعانا إلى اتخاذه - أضف إلى هذا أنه عرف بالاجتماع الذي تم بيننا وبين عبد الناصر في بيته ، ولذلك نجد أن عبد الحكيم عامر بدأ منذ ذلك الوقت - أي أول سنة ٦٢ - بأخذ احتياظه من عبد الناصر كما بدأ عبد الناصر يأخذ احتياظه من عبد الحكيم بدلاً من أن يحسم الأمور كرئيس للجمهورية وهكذا نشأ أول مركز قوة في مصر يباشر عمله بصراحة . . فقد أصبح هم عامر الأول أن يؤمن نفسه ضد عبد الناصر بعد ما تأكد لديه المعنى الذي كان دائم الاحساس به وهو أن هناك صراعاً وعدم ثقة وفجوة بينه وبين عبد الناصر وبينه وبين الباقيين من مجلس قيادة الثورة . .

وهكذا نجد أن الصراع الذي بدأ في أول الستينات قد ازداد اتساعاً وازداد معه التمزق لأن الحقد أصبح دفيناً بين عبد الناصر وعامر ، وعامر

وحده والباقيين ، وعبد الناصر وحده والباقيين وأنا واقف أتأمل موكب الصراع هذا وقلبي يتمزق المأ . .

كان هذا الموقف هو المقدمة الأولى لهزيمة ٦٧ . . فقد انصرف عبد الحكيم عامر إلى تثبيت مركزه ليس فقط داخل القوات المسلحة بل في البلد كلها . . وهكذا دخلت مصر أسوأ دوامة يمكن أن تدخلها . .

فالقوات المسلحة التي فاجأها الانفصال وهي في حالة عدم استعداد زاد فيها الإهمال ثم جاءت حرب اليمن فبدلاً من أن تكون مجال تدريب وتجهيز لقواتنا المسلحة أصبحت عملية انتفاع واستغلال . . ولم يكتفى عامر بهذا فلكي يثبت أقدامه في جميع المجالات سعى إلى أن يعهد بالمؤسسات المدنية إلى الضباط وكذلك كان لا بد أن يكون رؤساء المؤسسات من الضباط السابقين - ونفس الشيء بالنسبة لرؤساء المدن وجميع المراكز الحساسة في البلد حتى الشقق عندما تكون خالية يتدخل الجيش في توزيعها . .

كان عبد الحكيم عامر يتصور أنه بهذه الإجراءات يثبت نفسه عند الشعب ولكنه لم يكن يعلم أن العكس هو الذي حدث . . فقد زادت هذه التصرفات من سخط الناس عليه وتبرمهم بالنظام بأجمعه . . وفي أعقاب الانفصال كانت البلد ممزقة نتيجة لكبت الحريات وعدم وجود الديمقراطية بأي شكل من الأشكال . . مما شجع العناصر الغير راضية على أن تتحرك وهكذا ازداد تملل الشعب وقلقه . . وقد صور كل هذا إلى عبد الناصر على أنه ثورة مضادة وبناء عليه فرضت الحراسات على السياسيين القدامى . . ولكن لم يكن هذا الإجراء كافياً لامتصاص غضب الناس وتدميرهم بل على العكس ربما زاده وعمقه . . ولذلك لجأ عبد الناصر إلى إجراء آخر وهو إنشاء لجنة تأسيسية أو كما أسموها لجنة حوار مكونة من أكثر من مائتي شخص أغلبهم من المثقفين . . عهد بأمانتها إلى وكنا نجتمع في قاعة مجلس الأمة وكان عبد الناصر يحضر أغلب جلسات هذه اللجنة ويشارك في مناقشاتها التي نشرت على الناس في الصحف فقد كان الهدف من العملية كلها أن يظهر عبد الناصر بمظهر من يشارك الناس همومهم ويسعى إلى حل مشاكلهم ولذلك نجده يرحب بما استقر عليه رأى

اللجنة في النهاية وهو إصدار ما يسمى بالميثاق يحدد فيه خط الثورة وأهدافها وسياستها فقد كان هجوم أعضاء اللجنة من المثقفين منصباً على عدم وجود أي منجز وفعلاً وضع الميثاق وتقدم به عبد الناصر إلى المؤتمر القومي الكبير الذي عقده . . . وقرأه مادة مادة وصدق عليه الحاضرون وحقق بعض الغرض من صدوره فقد شغل الناس بمحاولة استيعابه وتفهم التواحي الأيديولوجية التي كان يحتويها .

في هذه الأثناء كان التنظيم السياسي موجوداً ولكنه كان بالتعيين لا بالانتخاب فهو أخرج لا يملك من أمر نفسه الكثير . . . لذلك نجده لا يقوى على أن يضع الميثاق موضع التنفيذ . . . لقد صدر الميثاق فعلاً وأصبح يدرس في منظمات الشباب والجامعات ولكن شيئاً مما نص عليه لم ينفذ . . .

٨

في صيف سنة ٦٢ عقد في لبنان مؤتمر شتورة الذي ضم السعودية وسوريا والأردن والعراق ولبنان بقصد مهاجمة مصر وعزلها ثم ضرب النظام . موقف مؤسف للغاية - ولكن يشاء الله أن تقوم ثورة اليمن بعد ذلك بفترة وجيزة في ٢٦ سبتمبر سنة ٦٢ (وهو تاريخ الانفصال قبل ذلك بسنة) فكانت هذه فرصة مناسبة لردع الملك سعود الذي مول الانفصال والذي كان في ذلك الوقت يترجم الحملة ضدنا ، فاليمن على حدوده مباشرة . . . ولذلك عندما اجتمع مجلس الرئاسة هنا للنظر في طلب ثوار اليمن للنجدة كنت أول المتحمسين وأقنعت المجلس بضرورة مساندة الثورة - وفعلاً تم هذا .

كنت أنا المسئول عن الجانب السياسي في الثورة اليمنية وكان عامر هو طبعاً المسئول عن الناحية العسكرية - ولكنه كعادته أساء التصرف فبدلاً من أن يجعل من حرب اليمن ميداناً لتدريب قواتنا على حرب العصابات وعلى تكتيكات جديدة ، انقلبت الحرب إلى تجارة ومنفعة وأصبحت مسرحاً جديداً يثبت عليه عامر أقدامه وينشر نفوذه بحيث لا يستطيع أحد أن يزعزعه عن مكانه كركز القوة الأول في مصر . . . هذا إلى جانب أنه تورط في المعونة العسكرية

من لواء إلى لوائين إلى أن أصبح لنا في يوم من الأيام ٧٠ ألف جندي هناك لم يتم سحبه إلا بعد هزيمة ٦٧ عندما اتفق الملك فيصل مع عبد الناصر في مؤتمر الخرطوم على ذلك . . .

فشلت حرب اليمن عسكرياً فقد كنا نحارب بجيش نظامي عدواً متصراً في حرب العصابات ، ولكن رغم كل شيء لا أستطيع القول بأن تضحياتنا ذهبت هباء ، فاليمن قد تخلصت من حكم الإمام الذي كان أسوأ من أي حكم في العصور الوسطى . . . ثم إن عدن نالت استقلالها كنتيجة طبيعية لمعركتنا في اليمن . . . صحيح أن الحرب قد استنفدت جزءاً كبيراً من رصيدنا من العملات الصعبة ، وأنها عاقت فرقتين من أكفأ الفرق العسكرية عندنا عن الاشتراك في حرب ٦٧ . . . ولكن هذا كله لا ينبغي أن التدخل في ثورة اليمن كان ضربة سياسية لا بد منها . . . فقد كانت من العوامل الهامة التي كسحت جماح سعود وهزت مكانته بين أهله وعائلته مما أدى في النهاية إلى أن يحل الملك فيصل مكانه . . . وكان هذا مكسباً رائعاً لا للسعودية فحسب بل للقومية العربية كلها .

٩

في سنة ١٩٦٥ كانت حالة البلاد الداخلية قد وصلت إلى مرحلة يرثى لها فعلى صبرى كرئيس للوزراء لا يتخذ قراراً في أي شيء . . . لأنه بطبعه يخشى المسئولية وربما لهذا السبب وقع اختيار عبد الناصر عليه . . . فعبد الناصر بطبيعته الديكتاتورية كان يتطلب من رئيس وزرائه أن يكون مجرد مدير مكتب ينفذ أوامره وحسب . . . وهكذا كان على صبرى . . . فإذا أضفنا إلى هذا ميله الطبيعي إلى التجسس على الناس وتدبير المؤامرات والعمل في الخفاء لأدركنا سر تبرم الناس به . . . فعاذاً يمكن للبلاد أن تستفيد من حكومة هذا شأن رئيسها . . . وما جعل الحالة تزداد سوءاً أن مشاكل الخدمات عندنا من تليفونات ومواصلات وإسكان وخلافه أخذت تؤجل ابتداءً من سنة ٦٢ على أساس حلها بخطط طموحه لم تكن قابلة للتنفيذ . . . مما جعل هذه المشاكل تزداد

وتراكم سنة بعد أخرى . . بحيث أصبح من العسير حلها . . وكان العذر الذي يتنوع به المسئولون في هذا أن الخدمات والمراقب يمكن التضحية بها في سبيل إقامة مصانع للإنتاج بالاشتراك مع السوفييت .

في نفس السنة قطع جونسون المعونة الأمريكية عن مصر . . فوضعنا في موقف حرج . إذ كشف بهذا خططنا فقد كنا معتمدين على أمريكا في الفحم الذي كنا نستورده منها بالخياره المصري فيوفر لنا حوالي ٨٠ مليون استرليني نستفيد منها في مشاريعنا .

لم نجد إزاء قطع المعونة الأمريكية سوى أن نلجأ إلى الاتحاد السوفييتي فذهبنا إلى موسكو في سبتمبر ١٩٦٥ . . عبد الناصر وأنا وزكريا محيي الدين . .

كان قد حدث تغيير في القيادة السياسية للاتحاد السوفييتي سنة ٦٤ عندما عزل خروشوف . . الرجل الذي كان يدرك قوة مصر بعد معركةين لنا معه في سنة ٥٩ ثم سنة ٦١ وبدأ يستجيب لمطالبنا واتخذنا منه صديقاً - إن لم يكن لأي سبب - فأنه كان حاسماً صادقاً معنا لا يراوغ مثل من سبقوه . .

لذلك حملنا حملة شديدة على السوفييت فأرسلوا لنا شيليبين الذي قام بالإنقلاب ضد خروشوف . . ليمهد الجو للمصالحة بيننا وبين السوفييت فلما ذهبنا إلى

موسكو في سبتمبر ١٩٦٥ وجدناهم - أي القيادة الجديدة - حريصين كل الحرص على إرضائنا لكي يصلحوا ما تركته عملية عزل خروشوف في نفوسنا

من ناحية ومن ناحية أخرى لكي يعادلوها أو يمحووا أثر زيارة (شواين لاي) لمصر التي استغرقت أسبوعين كان ينتظر فيها ما سوف يحدث بالنسبة للمؤتمر التضامن

الآسيوي الأفريقي الذي كان من المفروض أن يعقد بالجزائر ثم قام بومدين بالانقلاب على بن بيللا فقبل انعقاد المؤتمر مباشرة .

كان هدفنا من زيارة موسكو أن نقتع السوفييت بتأجيل الأقساط التي علينا حتى يمكننا بما عندنا من مال تعويض قطع المعونة الأمريكية عنا وكذلك

امتثال خططنا الطموحة . وقد استجاب السوفييت لمطالبنا بصورة لم نكن نتوقعها . . وكانت الديون التي علينا تعادل ٤٠٠ مليون جنيه استرليني -

فقرروا حلف نصفها بحيث يكون ما يتبقى لهم من ديون ٢٠٠ مليون جنيه فقط . . ونتيجة لهذا تخفص الأقساط بطبيعة الحال . .

استجاب عبد الناصر لمشاعر الجماهير في نهاية سنة ١٩٦٥ فعزل على صبري من رئاسة الوزارة وعين بدلا منه زكريا محيي الدين . . ولكن زكريا لم يمتكث في منصبه إلا شهوراً قليلة ، إذ سرعان ما اختلف مع عبد الناصر . . ولو أن وراء هذا الخلاف كان عبد الحكيم عامر الذي كان يكره زكريا ويفضل أن يرأس الوزارة رجل من أتباعه . . وقد تحقق له ما أراد فعين صدقي سليمان رئيساً للوزارة بدلا من زكريا . . ولكن هذا لم يمنع عامراً من استمرار زحفه على السلطة حتى أصبح كل شيء في البلد يعهد به إلى القوات المسلحة أو البوليس الحربي . . النقل العام مثلاً في حالة سيئة فيتبع للقوات المسلحة لاصلاحه - التروية السمكية تشرف عليها القوات المسلحة وفي سنة ٦٥ عندما قيل إن هناك مؤامرة يديرها الإخوان المسلمون تولى أمرهم البوليس الحربي وشمس بدران أهم معاوني عامر . . وكما انضح بعد ذلك كان هناك تعذيب وإهانة وامتهان لكرامة الإنسان .

لا أستطيع أن أجزم بأن عبد الناصر كان على علم بما حدث . . ولكني في الوقت نفسه لا أستطيع تبرئته من المسئولية فالرئيس دائماً هو المسئول مهما كانت أخطاء معاونيه ومساعديه ومهما كانت نواياه هو .

وكالعادة فقد كان عبد الناصر يعتبر أن أي احتجاج أو اعتراض أو نقد أو حتى محاولة لتقصي الحقائق ومناقشتها أو مجرد التنفيس عما بالصدر ثورة مضادة . .

ولابد من إجراءات لمواجهةها . . ولذلك فإنه بعد عملية الإخوان كان لابد في نظره من إجراء مضاد ، وكان الإجراء هذه المرة أقسى وأعنف ما شهدته

مصر في تاريخها ، فقد شكلوا لجنة أطلقوا عليها اسم لجنة تصفية الإقطاع وطبعاً تولى رئاستها عبد الحكيم عامر .

كانت لجنة تصفية الإقطاع تمثل قمة الإرهاب والكيث والإذلال . . فقد اعتدوا على كرامة الإنسان وهو ما لا يقبله شعبنا تحت أية ظروف ولأى سبب . .

فالشعب المصري يقبل الجوع والفقر والحرمان . . ولكنه لا يقبل امتهان

الكرامة . . . ولقد وضعوا تحت نظري في ذلك الوقت عدة حالات تدل على ما كانوا يفعلون ولكنني لم أصدق إلى أن مارست التجربة بنفسى . . . في يوم وأنا في زيارة لقرينى ميت أبو الكوم وكان ذلك في سنة ٦٦ التقيت بأحد أبناء القرية وهو مهتمس زراعى فسألنى إذا كنت قد اطلعت على قرار لجنة الإقطاع بالنسبة لمركز تلا وهي بلدة قريبة من قرينى . . . فقلت لالم أقر شيئاً بهذا الصدد فأطلعنى على إحدى الصحف اليومية فإذا بي أفاجأ بأن عددا من العمدة وأهل المنطقة قد وضعوا جميعاً تحت الحراسة وعزلوا من مراكزهم . . . كنت أعرفهم واحداً واحداً . . . وكنت أعلم علم اليقين أنهم من خيرة الناس وأنهم جميعاً يؤيدون الثورة بما لا يقبل الشك . . .

لم أكن أنصوّر أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد . . . فأخذت سيارتى وعدت في الحال إلى القاهرة وأنا غاضب كل الغضب . . . وبخعت عن عبد الحكيم عامر إلى أن وجدته ، فانصلت به تليفونياً وقلت له كيف يحدث هذا ؟ إنه عبث بتقدير الناس . . . فرد على يهدوء : وفي الغضب ؟ نلغى القرار . . . وفعلاً ألغى القرار في نفس اليوم الذى صدر فيه . . . وكان هذا هو القرار الوحيد الذى تراجعت عنه لجنة تصفية الإقطاع في نفس يوم صدوره . . .

كانت هذه تجربتى مع لجنة تصفية الإقطاع - ولكننى سمعت بعد ذلك قصصاً رهيبه تدل كلها على مدى امتنان السلطة للإنسان المصرى والقيم التى نشأ عليها . . . فمثلاً كانوا يقتحمون البيوت بالليل ويطردون النساء فيخرجن مع أطفالهن في الطرقات والأزقة يبحثن عن مأوى يستترهن .

11

هكذا كان حال مصر داخلياً في سنة ٦٦ . . . أما من الناحية الخارجية فقد كنا في حالة مواجهة كاملة مع أمريكا وكان عبد الناصر عتياً في خصوماته لا يعرف لها حداً فاندفع في هذه الخصومة إلى نقطة اللاعودة معتدداً على مساندة السوفييت له - ولكن حدث في هذه الأثناء أن وجهت

الحكومة الأمريكية الدعوة إلى زيارة أمريكا بصفتى رئيساً لمجلس الأمة - رغبة منهم في أن يحققوا شيئاً من الهدنة أو التقارب . . .

رحب عبد الناصر بالفكرة فقد بدأ يشعر أنه أخطأ في حق الأمريكان أكثر من اللازم عندما وجه الكلام إلى أمريكا في إحدى خطبه قائلاً : « فلنشرب من البحر الأبيض وإذا كان هذا لا يكفينا فهناك البحر الأحمر . . . » فقبلت الدعوة وسافرت مع زوجتى إلى أمريكا حيث استقبلونا أحسن استقبال . . . وعندما زرت الكونجرس أجلسونى على مقعد الرئيس وهو نفس الكرسي الذى جلست عليه عند زيارتى لأمريكا عام ١٩٧٥ . . .

ولكن في عشاء رسمى أقامه هاريمان أكبر مستشارى الرئيس الأمريكى فاجأتنى صحفية أمريكية بسؤال لم يكن يحظر على بالى . . . قالت وفى يدها إحدى الصحف : ما رأيك في هذا التصريح ؟ قلت : أى تصريح ؟ فقرأت من الصحيفة التى معها تصريحاً لعبد الناصر يهاجم فيه أمريكا بأعنف الألفاظ . . . قلت لها وقد وجدت :

« ليس عندى أى تعليق . . . » وتساءلت في نفسى لماذا يفعل عبد الناصر ما فعله ؟ بعد أن اتفقنا على أن نبدل جهوداً لتحسين العلاقات وبعد تشجيعه لى على الزيارة ؟

وإذا كان هذا قصده فلماذا وافق على الزيارة أصلاً . . . ؟

أمور غريبة لا يمكن فهمها أو تبريرها . . . ولكنها لم تؤثر على زيارتى لأمريكا . . . فقد بذل الأمريكان أقصى جهدهم لاجتاج الرحلة . . . وأذكر أننا في زيارتنا لسان فرانسيسكو كانت مديرة المراسم يهودية فحاولت أن تعتذر لمرضاها عن استقبال ومصاحبة زوجتى . . . ولكن وزارة الخارجية الأمريكية لم تمكنها من ذلك . . . فقد أمروها بأن تؤدى واجبها أولاً ثم تدخل المستشفى بعد ذلك . . .

انتهت سنة ٦٦ والصراع بين عبد الناصر وعامر على أشده فكل منهما متربص بالآخر وخاصة أن عامر كان كل يوم يوسع رقعة سلطانه . فعن طريق لجنة الإقطاع والتعلل بالثورة المضادة استطاع أن يضرب من يشاء وأن يعزل أو يبنى من يشاء في مؤسسات الدولة وجميع مناصبها بما في ذلك النوادي الرياضية بل إن شكاوى الهيئات العامة أو الأفراد كانت تحال إلى القوات المسلحة للنظر فيها وحلها حسب ما يترأى لها . وهكذا تراكت السلطات في يد عامر حتى أصبح الأمر الناهي والمتحكم في مصير الناس وفي كل ما يتعلق بالبلد من أحداث .

هذه هي الصورة التي كانت عليها مصر في مسهل سنة ١٩٦٧ فكيف كانت في عيون من تبني من رجال الثورة في الحكم ؟

خرج زكريا محيي الدين من رئاسة الوزارة وفي حلقه غصة . . ولكنه من النوع الكتوم لا يتكلم كثيراً . . أما عبد الناصر فكان يراقب ما يفعله عامر وهو أيضاً مليء بالمرارة ، عاجز لا يستطيع أن يفعل شيئاً - بينما كان عامر يزيد كل يوم من رقعة سلطته بل كان يسعى إلى رئاسة الوزارة ليضع السلطة في يده كاملة . .

هكذا دخلنا سنة ٦٧ والكآبة تخيم على مصر فالبلاد مفلسة لأن الخطة طموحة ولا يوجد المال الكافي لتمويلها ومشاكل الخدمات التي أجل على صبرى حلها منذ سنة ٦٢ تراكم يوماً بعد يوم وذلك حتى يتظاهر أمام عبد الناصر بأنه يبنى صناعات لم تكن تقوم في الحقيقة على أي أساس وأخطر من هذا كله الصراعات التي بلغت أشدها بين من يحكمون من رجال الثورة وأذنانهم .

في يوم جمعة في فبراير سنة ٦٧ ذهبت لزيارة عبد الناصر على غير موعد كعادته معي . . فسألت الضابط المختص إذا كان عبد الناصر قد استيقظ من النوم فأجابني بأنه استيقظ منذ مدة وهو الآن في حجرة مكتبه فدخلت الحجرة ورأيت عبد الناصر يجلس وقد وضع رأسه بين يديه حزناً مهموماً . . وقفت أراقبه حوالي دقيقتين ثم فاجأته بسؤال : « جرى إليه يا جمال ؟ مالك ؟ »

التفت إلى في دهشة فقد كان واضحاً أنه لم يحس بدخول الحجرة وقال :

- إنه اللي جابك النهارده يا أنور ؟

قلت : النهارده الجمعة - وأنا لي مدة لم أرك - قلت أفوت عليك أدر دشر معاك شوية وأنا عارف إنك يوم الجمعة بتبقى لوحدهك . .

قال لي : والله عملت طيب . . أقعد .

جلست وسألته مرة أخرى : مالك شايل الدنيا على دماغك ليه يا جمال ؟ ووضح أنك شايل الدنيا على دماغك . .

قال : أبوه . . فعلاً أنا شايل الدنيا على دماغى . . يا أنور البلد بتحككها عصابة وأنا مستحيل أكمل بهذا الشكل . . أتى أباي الرئيس المسئول واللى بيحكم هو عبد الحكيم وينفذ اللي عاوزه . . طيب أخرج أنا أحسن وأروح أقعد في الاتحاد الاشتراكي . . ويتولى هو رئاسة الجمهورية وأنا مستعد لأن أسأل عن الفترة اللي قعدتها لغاية ما أخرج . . أجاب عن أى شيء . .

كان واضحاً أن عبد الناصر كان على معرفة بما يجري في البلد ، المشاكل المترامية منذ سنة ٦٢ وما تفعله لجنة الإقطاع بالناس - وضراوة مراكز القوى سواء من ناحية عامر أو شعراوي جمعة وسامى شرف أو على صبرى أو مستشاره الصحنى . . وحجرهم على الحريات واحتكارهم لجميع الإمتيازات . .

قلت له : مش معقول يا جمال تسبب رئاسة الجمهورية وتفعد في الاتحاد الاشتراكي عشان عبد الحكيم وأعوانه يحكوا مصر . . أنت عارف أن عبد الحكيم أسوأ من مختار معاونيه - هم اللي تسببوا في فشل الوحدة مع سوريا - ومع ذلك فعبد الحكيم متعصب لمعاونيه تعصب قبلى تقول له نشيل صدق قائد الطيران يقول قبل ما تشيلوه شيلونى أنا . . خلقته كده . . ولذلك أعتقد أنه أفضل شيء إنك تحببته وتكلمه بينه وبينك وبالشكل ده ممكن توصلوا لحل مع بعض .

قال جمال : والله الصورة سيئة يا أنور وأنا حاسس أن احنا داخلين على كارثة .

بعد ذلك ببضعة أيام ذهبت لزيارة عبد الناصر فقالوا لي إن عنده ضيفا وانتظرت في حجرة مكنته إلى أن يخرج الضيف . . وبعد فترة جاء عبد الناصر وباندرني بالسؤال :

تعرف يا أنور مين اللي كان عندي دلوقتي ؟ قلت : مين ؟ قال : شمس بدران - فاكر حديثنا اللي قلت لك فيه على حكاية العصابة ؟ قلت له : آه .

قال لي : يا سيدي الحكاية كملت . . شمس بدران جاي لي دلوقتي بيبطلب رسمي إن المشير يأخذ رئاسة الوزارة . . وحجته إيه ؟ إن البلد بنتشكي . . مش عارف أن معظم الحاجات اللي بنتشكي منها الناس هي من تصرفاته وتصرفات أتباعه ؟

قلت له : طيب أنت قلت إيه ؟

قال : والله أنا حدثت الموضوع ببساطة . . قلت له أنا ما عنديش مانع . . قل له أنا موافق بس يترك القوات المسلحة ويأخذ رئاسة الوزارة - أنا حلاقي مين يمسك الوزارة أحسن من عبد الحكيم ؟

قلت له : أنا ما زلت عند رأي إنك تقابله وتتكلموا مع بعض وأنت عارف أنه يقبل منك ما لا يقبله من أي شخص آخر - بالشكل ده ممكن الموضوع يتلم والمسائل تتحل .

عبد الناصر قال : لا يا أنور . . العملية ماشية في اتجاه غلط . .

طبعاً كان رد عامر على رسالة عبد الناصر بالنسبة لرئاسة الوزارة هو الصمت فهو يعتبر القوات المسلحة مكانه الطبيعي ولا يمكن أن يتخلى عنها لأي سبب من الأسباب فهي مركز القوة الأول . . بعد ذلك تطورت الأمور في لجنة الإقطاع فبلغت أقصى الضراوة في مارس وإبريل ومايو حيث عقدت آخر اجتماعاتها وكانت متجهة في تلك الفترة بالذات إلى تصفيه العائلات . . وهي في رأيي مسألة خطيرة . . في تقديري - والله أعلم - أن مستشارو جمال كانوا يفعلون هذا الاتجاه في نفس عبد الناصر . . وكان أهمهم وهو مستشاره الصحفي فهو يمتد العائلات ويتحين الفرصة للشمانة فيها . . ولذلك كان يطلب له ضرب العائلات كلها وإذلال وامتهان كرامة الإنسان . . حتى أن أهل

الصعيد عندما كانت تفرض عليهم الحراسة كان الرجل يصرخ محتجاً « آخذ نفقه زي الست » ؟

فقد كانوا يطلقون على المبالغ الضئيلة التي يدفعونها لمن تفرض عليه الحراسة مقابل ما أصابهم كلمة (نفقة) وهي نفس الكلمة التي تطلق على المبلغ الذي يدفعه الزوج ليعول مطلقته . .

استمر الحال على هذا النمط إلى منتصف مايو حيث كان من المقرر أن يتم القضاء على العائلات جميعها ابتداء بعائلات محافظة البحيرة . . ولكن دخلت علينا السحابة الرهيبه القائمة في أواخر مايو وأوائل يونيو فأوقفت تلك الإجراءات فكل كارثة لها جانب آخر . . يقول المثل الإنجليزي « كل سحابة داكنة لها شريط فضي يبرق وسط العتمة » . .

سافرت في ذلك الشهر وهو مايو سنة ١٩٦٧ إلى كوريا الشمالية ثم إلى موسكو حيث استمعت هناك إلى عبد الناصر وهو يلقي خطابه في أول مايو . . كان يتكلم عن الثورة المضادة والإقطاع . ويستشهد بحادث وقع في قرية مجاورة لقرينتي وسمعتة يذكر اسمي فكنت أعجب كيف تنقل الحقائق إلى عبد الناصر ثم تصدر الأحكام بدون فحص لهذه الحقائق . .

القرية كانت هي كشيح وقد كانت مسرحاً فعلاً لإقطاع لم تشهد له البلاد مثيلاً ، ولكن أولئك الذين كان يستشهد بهم عبد الناصر كانوا في الواقع أسوأ من الإقطاع الذي نشهد به جميعاً في المنطقة . إذ كانوا شيوعيين ماركسيين يريدون أن يتوصلوا عن طريق مكافحة الإقطاع إلى تطبيق الماركسية وفي هذا السبيل لم يتورعوا عن امتهان كرامة المواطنين بأسوأ مما كانت تفعله لجنة تصفية الإقطاع ولم يكن هناك ما يدعوا لذلك لأننا صفينا الإقطاع في هذه القرية ووزعت الأرض على الفلاحين قبل هذا التاريخ بسنوات طويلة . .

لقد كانت هذه القرية في ذلك الوقت مركزاً من مراكز النشاط الشيوعي في الدلتا حتى أن الشيوعيين أخذوا يجان بول سارتر إلى كشيح متأخراً بما صنعوا منها . .

تضايقت وأنا أستمع للخطاب فبعد الناصر كان معي منذ سنتين ونحن نمر بهذه البلدة ضمن بلاد المنوفية الأخرى وذلك أثناء انتخابات الرئاسة ، وقد أفهمته حينذاك حقيقة الضجة التي أثارها العناصر الشيوعية وعنق مساعديه على ذلك في ذلك الوقت .

على أي الأحوال فإنه بعد ١٥ مايو ٦٧ لم تتعقد لجنة الإقطاع إذ ابتداء من ٢٠ و ٢١ و ٢٢ مايو دخلنا معركة التمهيد لكارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ .

١٣

في عودتي من موسكو كان يرافقتني إلى المطار سيمينوف نائب وزير الخارجية ومعه رئيس البرلمان السوفيتي . . . وتحدثنا طويلاً إذ تأخرت الطائرة ساعة أو أكثر وكان حديثهما معي يدور حول موقف سوريا وكيف حسدت إسرائيل عشر لواءات على حدودها . . . وعندما عدت إلى مصر وجدت أنهم قد أبلغوا عبد الناصر نفس الخبر وبعدها صرح أشكول رئيس وزراء إسرائيل أنه إذا اقتضى الأمر فسوف تحتل القوات الإسرائيلية دمشق .

في ذلك الوقت كانت بيتنا وبين سوريا إنفاقية دفاع مشترك . . . وإلى جانب هذا كان الروس على طريقتهم يمارسون لعبة ضرب الزعماء العرب بعضهم البعض . . . كما حدث أثناء حكم عميلهم قاسم في العراق . . . وفي هذه المرة استثاروا عبد الناصر وضربه بالقيادة السورية على أنها أكثر تقدمية ولذلك أعطى الأوامر لعبد الحكيم عامر يحشد قواتنا في سيناء وكان الهدف الحقيقي من هذا تحوير إسرائيل . . .

ولكن ما لبث زمام الأمور أن أفلت من يديه في ذلك الوقت كان الكثيرون من إخواننا العرب يعايرون مصر بأنها تركت مضايق تيران مفتوحة حتى أن عامر وهو في زيارة لباكستان تضايق من المزايدات العربية بالنسبة لمضايق تيران فأرسل برقية يطلب فيها إغلاق المضايق . . . على أي الأحوال جمعنا عبد الناصر على هيئة لجنة تنفيذية عليا في أواخر مايو سنة ١٩٦٧ كان فيها عامر وزكريا محيي الدين وحسين الشافعي وأنا وعلى صبري وصدقي سليمان رئيس الوزارة في ذلك الوقت . . . وقال لنا: « إن حشودنا في سيناء تجعل الحرب محتملة ٥٠٪ أما

إذا أقفلنا المضايق فالجرب مؤكدة مائة في المائة » . . . ثم التفت إلى عامر وقال له :- « هل القوات المسلحة جاهزة يا عبد الحكيم ؟ فوضع عامر يده على رقبته وقال :- « - برقيبتي يا ريس . . . كل شيء على أتم استعداد » .

كنا نعلم أن تسليحنا كامل دون شك . . . وقد كان سلاحنا بالفعل حينذاك أقوى عشرات المرات من سلاحنا في حرب أكتوبر ٧٣ ولذلك عندما سألنا عبد الناصر عن رأينا وافقنا بالإجماع على إغلاق المضايق ما عدا صدقي سليمان رئيس الوزراء في ذلك الوقت الذي طلب التروى وأن تأخذ في الاعتبار حالتنا الاقتصادية والحطط الطموحة التي لم تستكمل وأكثرها لم ينفذ وخاصة بعد قطع المعونة الأمريكية . لم يعر عبد الناصر اعتراض صدقي سليمان أي اهتمام فقد كان ميالا إلى إغلاق المضايق حتى يوقف مزايدات العرب عليه وحتى يحتفظ بمكانته الكبيرة في الأمة العربية - وبهذا أصدرت الأوامر بإغلاق مضايق تيران وسحب قوات الطوارئ الدولية .

وقد صنع عبد الناصر من كل هذا دراما عنيفة الوقع في حين كان السوفييت لا يكفون عن التنبيه بأن توقيت الأحداث أسرع مما يجب ولكن عبد الناصر كان مصراً على اندفاعه وأنزل الستار على هذه الدراما الصاخبة بالمؤتمر الصحفي الذي عقده على مستوى عالمي وكان قمة في التحدي والعنف . . .

ارتبك الموقف الدولي نتيجة لهذا . . . وساعد السوفييت على بليلة الرأي العالمي كما هي عاداتهم في مثل هذه المواقف خوفاً من أن نورطهم في شيء أو آخسر وبدأت إسرائيل في نفس الوقت تستخدم سياسة الاستكاثرة والصراخ والاستنجاد .

بعد إغلاق مضايق تيران أصبحت الحرب مؤكدة ولذلك كنا نتوجه للاجتماع في القيادة العامة يومياً . . . كانت هذه الاجتماعات تضم جميع قادة القوات المسلحة بينما كانت قواتنا كلها محتشدة في سيناء . . . وأرسل السوفييت في طلب أحدنا فسادف إليهم شمس بدران بصفته وزيراً للحربية . . . وفي الكرملين سألوه كيف سيكون تصرف مصر لو تدخل الاسطول السادس الأمريكي فأجاب بلا تردد : « عندنا ما يلزمه » مشيراً بذلك إلى الطائرة تي يو ١٦ حاملة الصواريخ وسرعته وهي تحمل الصاروخ ٥٠٠ كيلو أي نصف سرعة البوينج التجارية . . .

وكانت نكتة تندرنا بها في الكرملين كما تندرنا بها نحن هنا كثيراً . . المهم عاد وزير الحربية من روسيا بعد أن عقد مع السوفييت صفقة أسلحة غير متيدة بزمن محدد كما هي عادتهم ، فهدف السوفييت دائماً وفي كل الظروف أن يريدوا الموقف ارتباكاً ولكن الأهم من هذا أن يكون التوقيت في أيديهم هم حتى تكون لهم السيطرة وهذا ما جعلني أتخذ ما أخذت من قرارات بالنسبة للخبراء السوفييت أو غير هذا فأنا أدرى بمصلحة بلادي منهم . . ثم إنني أرفض أن يكون لنا ولي أمر يتولى عنا شئوننا .

في يوم الجمعة ٢ يونيو صدق جمال عبد الناصر على الخطة يصفته رئيساً للجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة . . هذا إلى جانب أنه كان عسكرياً ممتازاً وخدم وحارب في سيناء ويعرفها شبراً شبراً . . وأذكر في ذلك اليوم أن عبد الناصر قال لقائد الطيران صدق عمود إن أول ضربة ستقع على الطيران . . فالتفت هذا إليه وقال في عصبية واضحة : يا فندم احنا عاملين حسابنا وإن تريد الخسارة على عشرة في المائة . . »

في نفس اليوم قال عبد الناصر إن الهجوم ستقع يوم السبت أو يوم الأحد أو على أكثر تقدير يوم الإثنين ٥ يونيو فقد تغيرت الحكومة الإسرائيلية وشكلت وزارة ائتلافية دخلها موسى ديان وزيراً للدفاع واشترك مع أشكول وجونسون في عملية تسمية متممة حتى يوهوا العرب أنه ليس في نبيهم دخول الحرب ولكن المسألة كانت أوضح من أية تسمية .

عندما وقعت الكارثة يوم ٥ يونيو علمت أن الخطة التي صدق عليها عبد الناصر غيرها بعد ذلك عبد الحكيم عامر بالكامل . . وكان هذا واضحاً كل الوضوح فقد احتلت إسرائيل العريش مساء ٥ يونيو مع أنها لم تستطع ذلك في سنة ١٩٥٦ بينما كانت قواتنا في ذلك الوقت أضعف عشرات المرات مما كانت عليه في سنة ٦٧ .

وفي يوم الإثنين ٥ يونيو وبناء على تغييره للخطة أخذ عامر جميع القادة معه في طائرة وراح يفشش على سيناء - ومن الطبيعي أنه عندما يكون القائد العام في الجو تصدر الأوامر للصواريخ بالتوقف عن العمل وفي هذه الأثناء ضربت إسرائيل

جميع مطاراتنا وناطراتنا وهي على الأرض . . وهكذا يمكن أن نقول إن الحرب بدأت وانتهت ونامر في الجو .

كيف علمت أنا بالكارثة وكيف استقبلتها ؟ في صباح الإثنين ٥ يونيو عرفت من الراديو أن إسرائيل قد بدأت الهجوم فقلت في نفسي . . حسناً . . سوف يتعلمون درساً لن ينسوه مدى الحياة - كنت مطمئناً كل الاطمئنان . . فحلقت ذقتي وارتديت ملابس على مهل وتوجهت بسيارتي إلى القيادة - كنت قد حضرت لإعداد الخطة بالكامل وكانت ثقتي بالنصر أكيدة . . فعدتنا أكثر من كافية والخطة محكمة للغاية . . وصلت القيادة حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً وشاهدت سيارة السفير الروسي تتقدم سيارتي فقلت لا بد أن السفير قد أتى ليقدّم تهانيه . . سألت ما الأخبار . . فقال بعض الضباط إننا أسقطنا ٤٠ طائرة إلى تلك اللحظة . . قلت : عظيم ! . . دخلت مكتب عبد الحكيم عامر فوجدته واقفاً يتطلع حوالبه بعينين زائغتين . . قلت له : صباح الخير فلم يرد - أعدت التحية فردها بعد دقيقة - على التو أدركت أن في الأمر شيئاً . . سألت بعض الموجودين فقالوا إن سلاح الطيران قد ضرب بأمله وهو على الأرض . . وبعد قليل رأيت جمال عبد الناصر يخرج من الصالون - ثم بدأ عامر يلقي باللوم كله على الأمريكيان قائلاً إن سلاح الطيران الأمريكي هو الذي ضربنا وليس إسرائيل . . ورد عبد الناصر :

« أنا لست مستعداً لتصديق هذا الكلام ولا لإصدار بيان رسمي بأن أمريكا هي التي اعتدت علينا إلا إذا أتيت إلى بجناح طائرة واحدة عليها العلامة الأمريكية » .

كان إصرار عبد الناصر على موقفه هذا قوياً لا يقبل الشك أو التردد - ولكنه بعد ذلك عندما أدرك مدى الكارثة تراجع وأصدر بياناً يتهم فيه أمريكا بالعدوان علينا وكان هدفه من هذا تغطية الموقف سياسياً أمام الشعب . .

من الأمور العجيبة أيضاً التي حدثت يوم ٥ يونيو المشتهور أنه بمجرد هبوط طائرة عامر وإدراكه ما حدث أرسل في طلب السفير السوفيتي لكي يطلب منه وقف إطلاق النار بعد بدء الحرب بساعة واحدة . . وكان هذا سر وجود

السفير السوفيتي في غرفة العمليات صباح ذلك اليوم . . . ماذا كان يبدي أن أفعل ؟ عدت إلى بيتي وبقيت به إلى يوم ٩ يونيو وهو اليوم الذي حدده عبد الناصر لإعلان بيان منه في الراديو والتلفزيون الساعة السابعة مساء - كنت وأنا في البيت دائم الاتصال بعامر وعبد الناصر - فاتصلت بعامر في الساعة الخامسة مساء فقال لي في خشونة وضيق إن إسرائيل قد وصلت إلى العريش واستولت عليها . . . لم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسى . . . كنت معتاداً على أن أخرج للمشى أربعة كيلومترات يومياً . . . ولكن بعد ٥ يونيو كنت أسير وحسب . . . لم أكن أدري كم من الزمن أسير - عشرة كيلو مترات أو أكثر أو أقل لا أعرف . . . فقد استولى على ذهول غرب لم أعد أستطيع معه أن أتبين الزمن أو المسافات أو حتى المكان نفسه في بعض الأحيان .

ومما كان يزيد في ذهولي وتمزق نفسى ما كنت أشاهده يومياً من جماهير الشعب وقد امتلأت بها اللوريات قادمة من مديرية التحرير أو وهي تسد شارع الحرم الواسع العريش . . . كانت تسير متراصة والجميع يهتفون ويهلمسون ويرقصون فرحاً بالنصر المزعوم الذى تديعه عليهم أجهزة الإعلام ساعة بعد ساعة . . .

كانت فرحتهم بالنصر تثير في نفسى إحساساً قوياً بالإشفاق عليهم والأسى لهم والحق على من كانوا السبب في خداعهم وخذيعه مصر بأكملها . . . لقد تمثيت على الله وأنا أراقب مواكب النصر هذه ، الصادقة الزائفة معاً ، أن يصيبني بأزمة قلبية كالتي أصابني سنة ٦٠ حتى لا أعيش لأرى حال هذا الشعب الطيب الكريم عندما يفيق على الحقيقة ويعترف أن هذا النصر الذى زينه لهم ليس إلا كارثة رهية نزلت بهم .

في يوم ٧ يونيو اتصلت ببلغونيا بعبد الناصر فوجدته في بيته يتابع سير المعركة عن طريق القيادة . . . الحقيقة أتى ذلك . . . لماذا لم يتول عبد الناصر القيادة بنفسه يوم ٥ يونيو ؟ صحيح أننا كنا قد فقدنا الطيران ولكن كان في إمكاننا أن نقف في خط المضائق . . . ثم لماذا وقف مكتوف الأيدي أمام القرار الذى الذى أصدره عامر للقوات بالانسحاب غرب القناة ؟ فليس هكذا يكون

الانسحاب - أى عسكري يعرف أن الذى يبلغ بقرار الانسحاب هو مدير العمليات الذى عليه بدوره أن يضع الخطة اللازمة والجدول الزمنى المناسب لتنفيذ الانسحاب ويعطيه للوحدات لتنسق كل وحدة انسحابها حسب الجدول والخطة . . . ولكن هذا لم يحدث ولذلك كان أمر الانسحاب الذى أصدره عامر هو في الحقيقة أمراً بالانسحاب . . .

هذه الصورة كانت واضحة عسكرياً أمام عبد الناصر فلماذا لم يتصرف ولماذا لم يتدخل وأقول مرة أخرى لماذا لم يعزل عامر يوم ٥ يونيو ويتولى هو القيادة أو يعهد بها إلى قائد آخر ؟ لا إجابة . . . فقط علامة الاستفهام التى تظهر في الأفق كبيرة واضحة كلما كان الأمر عند عبد الناصر يختص بعبد الحكيم عامر !

لم أكنم تالواتى هذه عن عبد الناصر فقلت له على التليفون : -

« يا جمال ما تحاول تنفذ ما يمكن انقاذه . . . المسألة في وشك على أى حال فلماذا لا تطلب من عامر أن يبقى في بيته وتتعهد أنت في القيادة وتشتغل ؟ »

قال : « والله يا أنور أنا عرفت أنه أعطى أمر بالانسحاب وقلت له إزاي تعمل كده يا عبد الحكيم - ليه ما تقف في خط المضائق قال لي الخط مش جاهز . . . وكان اليهود قبل هجومهم قد أنشأوا ثلاث خطوط دفاعية للرجوع إليها إذا تطورت المعارك ضدهم وكانت الصور الفوتوغرافية تعرض علينا ونحن نزور القيادة قبل ٥ يونيو . . .

أما نحن فلم يكن حتى خط المضائق - خطوط سيناء - وهو المفروض أن يكون مستعداً في حالة السلم وفي حالة الحرب - لم يكن في الحسبان أن يعمل . . .

عاودت الاتصال بعبد الناصر يوم ٨ يونيو فقال لي : « إن الوضع قد انتهى فقات إسرائيل في طريقها إلى القنطرة شرق بعد أن احتلت العريش والطريق ممهد ولا مقاومة على الإطلاق . . . المسألة كلها مسألة ساعات قليلة وتحتل القنطرة هي الأخرى وقواتنا في شرم الشيخ صدر لها الأمر بالانسحاب حتى لا تدمر - وبذلك بدأت إسرائيل تزحف على سيناء من الجنوب أيضاً . . . »

وفي نفس اليوم علمت من عبد الناصر أيضاً أن الفرقة الرابعة المدرعة وهي أفضل الفرق عدنا قد عبرت من الغرب للشرق حسب أوامر عامر فدمرت . . . وبذلك انتهت قواتنا المسلحة وحلت الفوضى . . . ترك الجنود الدبابات والعربات وفروا إلى غرب القناة بل وصل بعضهم أسوان تطاردهم طائرات العدو فتزيدهم رعباً على رعب . . .

وفي يوم الجمعة ٩ يونيو بينما أنا جالس إلى جانب الراديو في حالة الشرود التي كنت فيها سمعت بياناً من القيادة العامة يقول إن اليهود قد عبروا الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية ويشهد العالم على ذلك - كان بياناً كله استخفاء واستسلام ومهانة مما جعل الدم يغلي في عروقي فمضت للتو وارتديت زي المقاومة الشعبية وأخذت بندقيتي ذات التلسكوب وركبت عربة فيات صغيرة كنت قد استعرتها من الخابرات ومضيت لأحارب معركتي - فقد كان من الأشرف لي أن أموت وأنا أقاتل العدو من أن أقع في داري بلا عمل . . . توجهت إلى مجلس الأمة وكنت في ذلك الوقت رئيس المجلس فأصدرت تعليماتي إلى أمين عام المجلس بأن يخطر جميع النواب وخاصة الذين لهم ثقافة عسكرية بأن يجمع كل واحد منهم من مائة إلى مائتي رجل . . . كل في دائرته وأن يقوم بتجهيزهم لمقاومة الإسرائيليين في المكان الذي أحدهم لهم . . . ذهبت بعد ذلك للقاء عبد الناصر فوجدته جالسا في حجرة مكتبه في بيته بمنشية البكري فقلت له : -

« أنت قاعد هنا منتي إيه ؟ لازم يا جمال تقوم علشان نوديك الصعيد لأن احنا حنكل المقاومة من هناك . . . وحتى لو سقطت القاهرة ضروري نناوم لغاية آخر نفس فينا » .

رويت له ما فعلته في مجلس الأمة وكيف أعددت النواب للمقاومة الشعبية ثم سألته : -

« أنت سمعت البيان الأخير بتاع القيادة ؟ »

« كل ذلك وعبد الناصر ينظر إلى دون أن يرد . . . وأخيراً أشار إلى كرمي بجانبه وقال لي :

« أقعد يا أنور . . . أقعد »

قلت له : - « أقعد إزاي يا جمال ؟ دانت قعادك هنا غلط - أنت ضروري تكون في الصعيد دلوقت علشان أنت حتكون رمز للمقاومة وزى ما قلت لك ضروري نحاربهم لغاية ما نفنى كلنا أو نفنيهم كلهم وما تنساش أن الكثافة السكانية سلاح في أيدينا وسلاح قسوى جداً . . .

قال لي : « والله أنت مسكين يا أنور . . . زيك زى الشعب تمام . . . أنت صدقت البيان ؟ أنا عارف البيانات بتصدر إزاي . . . دى كلها كلام فارغ . . . اليهود ماعدوش إلى غرب القناة ، أنا سمعت البيان زيك وقلت لزكريا يا زكريا روح القيادة وشوف لي إيه الحكاية لأنني أنا عارف القيادة انفلت عيارها وأنهارت وانتهت خلاص - زكريا راح القيادة ورجع قال لي ضباط من ضباطنا هم اللي عبروا القناة من الضفة الشرقية إلى الغربية لما شافوا اليهود قدامهم على الضفة الشرقية . . . ما تمالكوش أعصابهم وراحوا ضارين فيهم بالمورتر فردوا اليهود بغارة جوية على مصنع بويات في الإسماعيلية - أقعد يا أنور أقعد - أنت مش محتاج نحارب - العملية خلصت خلاص - الدور مرسوم بين إسرائيل وأمريكا وأهو اتنفذ تمام . . . يقعدوا على الضفة الشرقية لكن ما يدخلوش الغربية لاعتبارات كثيرة أهمها خطورة الكثافة السكانية - وعلى العموم هم عاوزين إذلال لنا أكثر من كده إيه ؟ أقعد - أقعد معايا لما أخلص البيان اللي هأذيعه الليلة دى .

جلست وقرأت البيان قبل أن يقرأه أي إنسان آخر - وفي هذه الأثناء اتصل عامر بعبد الناصر وقال له على التليفون : -
« حطني في الخطاب معاك .

رد جمال قائلاً : - « سيبني يا عبد الحكيم أعمل آخر عملية لوحدي . . . أنا بأخلص مسئوليتي وبعد ذلك إذا كنت عاوز تقدم استقالتك أبقى قدمها . . . »

لم أفهم الدافع وراء طلب عامر الغريب هذا . . . ولكن بعد فترة أدركت أنه كان يخشى أن يبرئ ناصر نفسه في البيان فيصبح عامر المسئول الوحيد . . . لكن لم يكن ما توقعه عامر صحيحاً فالبيان واضح وفيه يقول عبد الناصر إن هناك قوة واحدة تريد أن تحكم مصر والعالم وهي أمريكا وأنه لا يستطيع

أن يجيها إلى ما تطلب ولذلك فليس أمامه سوى أن يتنحى ويعهد برئاسة الدولة إلى زميله زكريا محيي الدين . .

بمجرد أن انتهى عبد الناصر من إلقاء خطابه القصير كانت شوارع القاهرة قد امتلأت بحماير الشعب بحيث لم يعد هناك موضع لقدم - نساء ورجال وأطفال من جميع الطبقات ومختلف نواحي الحياة . . وحدث بينهم المحنة فأصبحوا كتلة واحدة تتحرك بإيقاع واحد وتتكلم بلسان واحد . . الكل يطالبون ببقاء عبد الناصر - فالكارثة عظيمة . . إذ فجأة عاد الزمن إلى الوراء في غمضة عين . . فبدلاً من الاستعمار الإنجليزي سوف يكون هناك استعمار أمريكي . . هكذا أوحى خطاب عبد الناصر إلى الشعب فحرك لواعجه وأهب شعوره وأعاد إليه إرادة الرفض التي هي من أمضى أسلحته عبر آلاف السنين . . فخرج يتحدى الغزيمة ويعلن رفضه للانصياع لأية إرادة أجنبية مهما بلغت قوتها - لقد ضربت قواته المسلحة ولكن إرادة الشعب لم ولن تضرب . . سبع عشرة ساعة كاملة وجموع الشعب ترفض أن تترك أماكنها في شوارع القاهرة . . وقد نسيت كل شيء . . الطعام والشراب والمبيت والمأوى . . نسيت كل شيء إلا شيئاً واحداً فقط وهو التمسك بوحدتها وتحدي إرادة الدولة العظمى التي تريد أن تتحكم فيها . .

انصلت بعبد الناصر أكثر من مرة وفي كل مرة كنت أجده أسوأ حالاً عن ذي قبل . . كنت أشعر أن صوته صوت رجل يتكلم من غياهب الماضي . .

لا بد أنه في الفراش وأنه يعاني كثيراً ، فأهم ما لدى عبد الناصر هي كبرياؤه ولقد طعن فيها كما لم يحدث له من قبل . . فبعد أن كان العالم يلهث وراءه عندما عقد مؤتمره الصحفي المشهور أصبح الناس الآن في كل مكان في العالم يتكلمون عليه ويسخرون منه ، ولذلك كان ٥ يونيو طعنة أصابته في الصميم فانتفى . . ومن يعرف عبد الناصر لا بد أن يدرك أنه لم يمت يوم ٢٨ سبتمبر سنة ٧٠ بل مات يوم ٥ يونيو سنة ٦٧ ، بعد المعركة بساعة واحدة . .

هكذا كان يبدو بل وظل يبدو لفترة طويلة . . الميت الحي . . صفة الموت تغطي وجهه ويديه رغم أنه كان يسير ويتحرك وينصت ويتكلم . .

الفصل السابع

فترة انتقالية الكفاح من أجل البقاء

لم تكن الفترة ما بين يونيو ٦٧ وسبتمبر ٧٠ غنية بالأحداث ولكنها كانت فترة معاناة رهيبه لا أعتقد أن مصر شهدت مثلها - فقد كانت المعاناة وليدة الإحباط على المستوى القومي والسياسي والعسكري مما جعل الكفاح من أجل البقاء السمة المميزة لهذه الفترة . . فليس مثل الإحساس بالإحباط شيء يحفز الإنسان إلى أن يكافح من أجل البقاء .

صحيح أن هذا الكفاح أخذ أشكالا متعددة ولكنها كانت تهدف جميعاً إلى شيء واحد وهو تخطي العقبات التي تعترضها حتى تسترد كيائها وتستعيد وجودها فتبني . .

وكثيراً ما نجد هذه المحاولات تتشابك وتتصارع بحيث يصعب تمييز خطوطها بعضها عن البعض . . فمثلاً نجد أن كفاح عبد الناصر من أجل البقاء بطلاً عظيماً - كما كان قبل هزيمة يونيو يتصارع مع إصرار عبد الحكيم عامر على البقاء قائداً عاماً للقوات المسلحة - بتشابك مع الرغبة في إعادة بناء القوات المسلحة ويتشابك بشكل أو بآخر مع تعمد السوفييت أن يظلوا هم سادة الموقف يمنحون ويمنعون كما يشاؤون . .

فخروج الشعب في ٩ و ١٠ يونيو وإصراره على عودة عبد الناصر إلى الحكم لم يكن في الواقع إلا صورة من صور الكفاح من أجل البقاء . . بقاء مصر الأرض والشعب والإرادة . . رغم كل شيء . . فإلى أي مدى حققت مصر عزيمتها على البقاء وإلى أي مدى تصارعت هذه العزيمة مع عزائم أخرى كانت هي أيضاً تكافح من أجل البقاء ؟

يوم ١٠ يونيو وأنا بمكثي بمجلس الأمة سمعت صوت قنابل تفجر قريبة منا - كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً ، فلما سألت قالوا لي إن البوليس يفجر قنابل دخان على السفارة الأمريكية ليفرق جموع الشعب التي التفت حولها لتحرقها . . فاتصلت فوراً بعبد الناصر وجعلته يستمع إلى الانفجارات وحكى له القصة . . ثم قلت : -

- الجموع دى بتي لما دلوقتى أكثر من ١٧ ساعة فى الشوارع . . هل تحب يا جمال أن تحترق القاهرة تانى زى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ؟ إحنا على وشك كده دلوقت - لازم ترجع يا جمال لأن إرادة الشعب هى الصمود ومفيش هروب من هذه المسئولية الهائلة . . .

افتتح جمال فرد على بالموافقة . . ولكن صوته كان بعيداً كأنه يأتي من أعماق القبر . . ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى اتصل بي مستشاره الصحفي ليبلغني بيان عبد الناصر الذي يقرر فيه العودة فكتبته وأمرتهم في المجلس بدق الأجراس للإجتماع . .

كنا قبل ذلك قد قررنا عدم قبول استقالة عبد الناصر فلما اكتمل الاجتماع أعلنت للأعضاء أن عبد الناصر قد قرر العودة بناء على رغبة الشعب وأنه كان يوده لو يستطيع أن يقرأ عليهم القرار بنفسه . . وكان لهذا أثر رائع على النواب فملكتهم فرحة مفاجئة صفقوا معها وهللوا وصرخوا وبكوا . .

بعد ذلك بفترة وجيزة اتصلت بزملائي في القيادة جميعاً وطلبت منهم أن يجهزوا استقالتهم ومن ضمنها استقالتي حتى نعطي الفرصة لعبد الناصر لاختيار معاونيه في هذه المرحلة الحرجة وكفانا الصراعات وما أدت إليها من هزيمة وإحباط . . فوافقوا جميعاً . .

اتصلت بعبد الناصر وأخبرته بما حدث وأن الاستقالات كلها جاهزة ما عدا استقالة عامر (التي وعدت بإرسالها إلى عبد الناصر مباشرة) فطلب إلي عبد الناصر تأجيل إعلان الاستقالات لأنها لو أعلنت فسوف يحس هو بأن الدنيا كلها

انهارت وسوف يكون هذا إحساس الشعب نفسه أيضاً . . لم أقتنع بكلامه فناقشته فيه ولكنه عاود الرجاء بتأجيل إعلان الاستقالات حتى يهتدى إلى نقطة البداية . .

فكما قال لي لم يكن يعرف - بعد كل ما حدث - من أين يبدأ . . في يوم ١١ يونيو اتصل بي عبد الناصر وقال إنه قد اهتدى أخيراً إلى نقطة البداية وهي إعادة بناء القوات المسلحة ، ولكنه فوجيء بعدد كبير من الضباط في بيته يطلبون منه عودة المشير عامر .

حاول عبد الناصر الاتصال بعامر ولكنه كان قد اختفى فأمر بصرف الضباط . . جاءت إليه بعد ذلك أخبار بأن البوليس الحربي يتحرك من قشلاق الحلمية في طريقه إلى بيت عبد الناصر ليطالب بعودة عامر - في ذلك الوقت لم يكن لدى عبد الناصر أى حرس ، فالحرص الجمهوري كان قد اشترك في المعركة وعاد إلى الإسماعيلية ولكنه لم يصل إلى القاهرة بعد . .

كان عبد الناصر كما هو معروف كثير الشك بطبعه وخاصة إذا كان الموضوع يتصل بأمنه الشخصي . . وربما كانت هذه النظرة إلى الأمن الشخصي وراء كل الإجراءات الاستثنائية التي حدثت وتطورت من مرحلة إلى مرحلة حتى ناء كاهل الناس بتقلها . . فلما سمع بأن البوليس الحربي قادم إلى بيته - وهذه روايته لي - أخذ طبنجة ووضعها جوار فراشه وجلس ينتظر . . وفي هذه الأثناء حاول الاتصال بعامر مرة أخرى ولكن دون جدوى فاتصل بمحمد فوزي رئيس أركان حرب القوات المسلحة في القيادة الذي أخبره بأن هناك ٦٠٠ ضابط وأربعة فرقاء متجمعين في القيادة ويطالبون بعودة عامر - على الفور أصدر عبد الناصر أمره إلى فوزي بأنه قد عينه قائداً عاماً للقوات المسلحة وعليه أن يبلغ الفرقاء الأربعة بأن عبد الناصر قد استغنى عن خدماتهم ثم يتصرف مع الستمائة ضابط فيصرفهم أو يلقي القبض عليهم . . نفذ فوزي الأوامر وأبلغ عبد الناصر بذلك فطلب منه الحضور لمقابته ومعه عبد المنعم رياض مساء نفس اليوم . . حيث وضعوا الجدول الزمني الذي بمقتضاه يعاد بناء القوات المسلحة . . وكان ذلك أول عمل يباشره عبد الناصر بعد عودته . . ويعبر به عن الكفاح من أجل البقاء .

دهم لإحساسى بالهزيمة نفسى ببحث استغرق شعورى فكنت أعيش الهزيمة فى يقظتى ومنامى . . . وكنت فى كل يوم يمر أنكشف أبعادها فيتمزق صدرى ولكنى لا أعرف ماذا أفعل .

حبست نفسى فى بيتى بالهرم ثلاثة أسابيع كاملة عشتها فى عزلة تامة عن الناس أنامل ما حدث وأتحمل على مضض حملة التشكيك فى قواتنا المسلحة وهى الحملة التى كانت تشن علينا بضاووة من العدو والصديق على حد السواء . . .

كانوا يقولون إن الجندى المصرى لا يصلح للقتال وأنه لن تكون هناك معركة أخرى نستردها أرضنا وكرامتنا وهذا معناه الموت والدمار لشعبنا إلى آلاف السنين بحيث ننسى كما انتهى الهنود الحمر فى أمريكا . . . أى هوان هذا ؟ وأية مذلة ؟ لقد نشأت على حب مصر والإيمان المطلق بالإنسان المصرى فهل يذهب كل هذا فى لحظات ؟ وإذا ذهب فسوف أذهب أنا الآخر . . . لن أعرف بعد ذلك من أنا ولن أعرف أبداً على ذاتى بل سأعيش فاقد الكيان أهم على وجهى غربياً بين غرباء . . . فقيم الحياة إذن ؟ !

كان لابد من الخروج من السجن الذى وجدت نفسى فيه فجأة . . . وهنا تغلب حبي لبشاء مصر على كل شيء آخر فقررت أن أرى بنفسى بعض من اشتركوا فى الحرب وأسألهم هل استطعنا أن نحارب أم لم نستطع ؟

اتصلت فوراً بمشفى المعادى العسكرية . . . رد على القائد فسألته إذا كان عنده أحد ممن حاربوا فى سيناء فأجاب إن عنده لواء اسمه كمال حسن على . . . كان قائداً للواء دبابات حارب فى سيناء ومعه بعض ضباطه وهم فى المستشفى على وشك إجراء عمليات جراحية له ولهم . . . قلت للقائد : انتظر سأكون معكم حالا وأخذت سيارتى وتوجهت إلى مستشفى المعادى . . . سألت كمال حسن على . . . قل لى يا كمال بصراحة : أنت حارب فى سيناء ؟ قال لى : أيوه يا أفندم وعملت هجوم مضاد يوم ٧ يونيو قلت له : « طيب طمنى . . . سلاحنا كان ناقص ؟ »

قال لى : « أبدأ ! الطلقة بتاعتنا مش بس كانت بتصيب الدبابة . . . دى كانت من عشها بتقلبها . . . قلت له : « طب احكى لى على الهجوم » فقال - مشيراً إلى ضابطين صغيرين كانا فى انتظارى معه قبل إجراء العملية لهم - : « دعمهم يقصون عليك ما رأوا وما حققوا . . . فهم الذين فعلوا كل شيء أما أنا فكان عملى يقتصر على إصدار الأوامر . . . »

كنت قد سمعت عن الهجوم المضاد الذى قام به لواء مصرى يوم ٧ يونيو . . . صحف العالم كلها أشادت به ، وحتى موسى ديان كتب عنه ولكن الجميع كانوا يعتبرونه مجهوداً فردياً - أمراً شاذاً لا يصح أن يقاس عليه استعداد قواتنا المسلحة أو قدرتها على القتال . . .

ولكنى بعد أن أدريت حواراً طويلاً مع ضباط اللواء وقائدهم أدركت الحقيقة وهى أن كل ما قام به اللواء من بطولات كان يجب أن يكون القاعدة وكل ما عداه الاستثناء لولا تخطيط القيادة وضعفها . . . فقد اتضح أنه بناء على أوامر القيادة المرتبكة قطع اللواء فى الثلاث أيام الأولى ١٠٠٠ كيلو فى عملية ذهاب وإياب فقط من شأنها أن تضعف قدرة الدبابة على السير . ولكن هذا لم يمنعهم من إسقاط ٧ طائرات للعدو . . . ورغم السيادة الجوية المطلقة لإسرائيل لم يفقد هذا اللواء إلا ٢٠ دبابة على مدى ثلاثة أيام - أى خمس قوته فقط . . .

« إذن فى حرب ٦٧ لم يكن ينقصنا التدريب أو التكتيك أو السلاح أو القدرة على القتال . . . الحمد لله . . . فالمسألة كلها كانت مسألة إهمال من القيادة . . . هكذا وجهت كلامى إلى الضباط وقائدهم وتركهم لأطباء المستشفى وانصرفت لأقصى يوماً من أسعد أيام حياتى وهى قليلة جداً بعد حرب ٥ يونيو سنة ٦٧ وقبل ٦ أكتوبر سنة ٧٣ . . . وكان مصدر سعادتى أنى عرفت الحقيقة . . .

بعد ذلك وفى يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٦٧ على وجه التحديد عرفت أن جنودنا قد استوعبوا الأسلحة التى أرسلها لنا السوفييت بعد الهزيمة فى ٥ شهور وكان مقدرها لها أن تستوعب فى ثلاث سنوات تكون فيها الأحوال قد هدأت ، فلم يكن فى نية السوفييت أن تكون هناك معركة ثانية وإتما كانوا يجاملون عيد الناصر

من صور الكفاح من أجل البقاء في تلك الفترة صورتان كل منهما تختلف عن الأخرى ولكنها تحمل طابعاً مميزاً له مغزاه . .

الصورة الأولى وهي خاصة بالسوفييت تروى قصة مساعداتهم الحربية لنا بعد الهزيمة فقد أرسلوا لنا من الأسلحة ما استوعبه الجندي المصري في خمسة شهور كما سبق أن رويت . . ولكن لم يكن في هذا الكفاية فقد كنا مقلدين ثلاث سنوات على الأقل لكي نوّمن بلدنا ونرد العدوان . . فأرسل عبد الناصر إلى السوفييت يطلب المزيد من العون . . أرسل مرة ومرات ولكن لا استجابة بأى شكل من الأشكال . . فقد كانت خطتهم أن يسدوا رمقنا بالقدر الذي يكفل لهم الوصاية علينا ويحقق لهم البقاء في المنطقة وهذا هو الأهم .

كنا في أغسطس وكان يتبو قد أتى لزيارتنا زيارة ودية ليواسنا ويشد أزرنا وقد كان صديقاً شخصياً لعبد الناصر ولذلك ذهلت عندما رأيت عبد الناصر يفقد أعصابه مع تنسو ويقول له بعد أن كفر بالسوفييت : روح للسوفييت أرجوك وقل لهم أنا مستعد أقبل الهزيمة وأقبل أى شيء ولكنى لا أقبل هذه المعاملة منهم أبداً . .

لا أعرف ماذا فعل يتبو بعد ذلك ولكن الذي أعرفه أن القادة السوفييت لم يغيروا موقفهم فكل ما كان يهمهم هو الحفاظ على البقاء في المنطقة وقد تحقق لهم ما أرادوا . .

الصورة الأخرى وهي أكثر إشراقاً هي صورة مؤتمر القمة العربي الذي عقد بالخرطوم في نفس السنة . . لم يكن عندي أمل كبير في المؤتمر ولكنى فوجئت كما فوجيء العالم بنتائجه . . فقد خرج الشعب السوداني لتحية عبد الناصر بصورة لا تقل عما حدث في مصر يومي ٩ و ١٠ يونيو . .

طبعاً خرج الشعب لتحية باقى الملوك والرؤساء العرب ولكن استقبال الشعب لعبد الناصر كان يفوق كل وصف حتى أن مجلة التايم أو النيوزويك لا أذكر وضعت صورة عبد الناصر على الغلاف وكتبت تحت الصورة (تحية

لوقفته ضد أمريكا والإمبريالية ويحرصون على بقاء الوجود السوفييتي في المنطقة - هذا كل ما في الأمر . . ولكن خاب ظنهم كما خاب ظن الكثيرين غيرهم فبعد أن عين عبد الناصر محمد فوزى قائداً عاماً للقوات المسلحة وعبد المنعم رياض رئيس أركان حرب وأحمد إسماعيل قائداً للجبهة فتحت مراكز التدريب على القور وعملت على أحسن صورة - وهذا مجد يكتب لأولادنا في التاريخ فليس من السهل أن نجد جيشاً يهزم هذه الهزيمة ثم ينهض ليستوعب كمية ضخمة من الأسلحة فيما لايزيد عن خمسة شهور ويقف بها على خط دفاعى كامل طوله ١٨٠ كيلو متر من بورسعيد شمالاً إلى السويس جنوباً على استعداد لرد أى عدوان .

كم فرحت بما رأيت فقد أكد إيماني بأن قواتنا المسلحة ذهبت ضحية لهزيمة يونيو سنة ٦٧ ولم تكن أبداً أحد أسبابها . . ومما يدل على ذلك عملياً أن قواتنا العسكرية لم يستمر أكثر من شهر وبضعة أيام . . فى أغسطس سنة ٦٧ وقعت معركة رأس العش التي تصدت فيها قوات الكوماندوز المصرية لقوات إسرائيلية من القوات الخاصة وأبادتها ومنعتها من التقدم نحو بور فؤاد وهي شاطئ بور سعيد الشرق ، وشهد هذه المعركة جمع من محطات تلفزيون أمريكية استقدمهم اليهود معهم لتصوير دخولهم بورفؤاد ثم لم يلبثوا بعد الضرب العنيف من قواتنا والحسائر الشديدة التي لحقت بهم أن احتسوا برجال التلفزيون الأمريكى لوقف الضرب .

طبعاً لم تكن بعد قد استعدنا قواتنا بالكامل ولكن كانت الجذوة ما زالت متقدة . . فى ٢١ أكتوبر من نفس السنة (١٩٦٧) قامت زوارقنا الخفيفة بضرب المدمرة الإسرائيلية إيلات فشطرتها نصفين وأغرقتها فى مياه بورسعيد حيث ما زالت ترقد فى الأعماق . .

ولكن حتى قبل معركة رأس العش وقبل إغراق إيلات كنت قد تيقنت أننى ما زلت بين أهل فى مصر الأرض الطيبة التى لا وجود لى بدونها . . وأن واجبى فى الحياة هو الكفاح من أجل بقائها . . ليس فقط لأنها بلدنى . . بل لأنها فعلاً تستحق البقاء . .

المهزوم) غير مدركين سر ارتباط الشعوب العربية بعبد الناصر فقد كان في نظرهم رمزاً للحفاظ على الأمة العربية ضد أي تدخل أو عدوان خارجي . . . كانت علاقتنا مع أكثر الدول العربية حينذاك علاقة خصومة وخاصة مع الملك فيصل عاهل السعودية الذي هاجمه عبد الناصر وندد به في أكثر من خطاب له ولذلك كان الموقف حرجاً بالنسبة لعبد الناصر . . . فيها هو في النهاية يلجأ إلى إخوانه العرب وهو في حالة هزيمة وانكسار . . .

لم تفت فيصل هذه الحقيقة فعندما بدأوا الحديث عن الدعم المالي لمصر مقابل إغلاق قناة السويس . . . أخذ فيصل المبادرة فقرر أن تدفع السعودية ٥٠ مليون جنيها سنويا كما تقرر أن تدفع الكويت ٥٥ مليون سنويا وليبيا ٣٠ مليون سنويا . . .

أما قرارات المؤتمر فيما عدا ذلك فكانت لا صلح ولا اعتراف بإسرائيل ولا مفاوضات معها فإرادة الأمة العربية كلها هي الصمود . . .

وكانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ الحديث التي تجتمع فيه الأمة العربية على الكفاح من أجل البقاء . . .



كان تعيين محمد فوزي قائداً عاماً للقوات المسلحة القرار الوحيد الذي استطاع عبد الناصر أن يتخذه بعد سنوات عديدة من الصراع مع عامر . . . طبعاً لم يستقبل عامر هذا القرار بأى ترحيب ، ففي أول لقاء له مع عبد الناصر بعد ذلك رفض منصب نائب رئيس الجمهورية الذي عرضه عليه عبد الناصر وتمسك بأن يشغل منصب القائد العام للقوات المسلحة الأمر الذي لم يقبله عبد الناصر على الإطلاق . . .

تدخل بعض وسطاء الخير في الموضوع وأقنعوا عامر بأن يذهب إلى (أسطال) بلديته في الصعيد ويقم بها إلى أن تستريح أعصابه وفعلاً أخذ عامر بالوصية وذهب إلى بلديته ولكنه عاد بعد أسبوع إلى منزله بالجيزة وبدأ الاتصال بالضباط وتكوين ما يمكن أن نسميه جبهة معارضة لعبد الناصر ، ولبته اكتفى

بهذا ولكنه جمع الكثير من الأسلحة في بيته وراح يعقد الندوات مع الضباط يحدث فيها عن الهزيمة وكيف أنه ليس مسئولاً عنها كما أنه ليس مسئولاً عن الأوضاع الداخلية والإجراءات الاستثنائية التي أدت إلى إذلال الناس وضيقتهم بالنظام كله . . .

لم يكن من السهل تصديق ذلك فالجميع يعرفون أنه كان وراء لجنة تصفية الإقطاع والبوليس الحربي وهي أجهزة أهدرت كرامة الإنسان واستفحل شرها إلى أن جاءت الهزيمة فخلصت الناس منها ولو إلى حين ، ولكن هذا لم يمنع الناس من الاستماع إليه أو إلى مجاملته فازداد إمعاناً في الاتصالات بالضباط وبأعضاء مجلس الأمة الذين كانوا ينقلون ما يدور بينه وبينهم إلى شاكين متبرمين فلم أجد بدأ من الاتصال به ونصحته بأن يكف عما يفعل حفاظاً على مصر ووحدة الصف وإشفاقاً بعبد الناصر وما هو فيه من محنة . . . فدعوته إلى العشاء عندي في البيت ورحبت به واستقبلته أسرتي أحسن استقبال كما كنا نستقبله دائماً عندما يأتي لزيارتنا . . . ولكني لاحظت أنه قد تغير تغيراً كاملاً . . . كان قد فقد الثقة في نفسه وفقد معها استقباله للحياة وأصبح شخصية مهزلة تكاد تكون مفقودة الكيان ، وقد ألمني هذا كثيراً وخاصة عندما التفت إلى وأبنائي يداعبونه كعادتهم وقال : « أنتم بتكرموني قوى يا جماعة . . . لسه لغاية دلوقتي بتكرموني ؟ فقلت له : دلوقتي يعني ايه يا عبد الحكيم ؟ عشان أنت ما بقتش قائد عام ؟ هو أنا كنت صاحبك عشان أنت كنت قائد عام ؟ ده برضه كلام حد يقوله . . ؟ »

في نهاية لقائنا رجوته أن يقبل منصب نائب رئيس جمهورية الذي عرضه عليه عبد الناصر ولكنه قال بجفوه : لا . . . طول ما جمال عبد الناصر بيشتغل رئيس جمهورية أنا لازم أشتغل قائد عام القوات المسلحة . . . لا كده لا بلاش . . .

بعد ذلك في أغسطس أثناء زيارة تيتو لنا استدعاني عبد الناصر ونحن في قصر رأس التين بالإسكندرية فذهبت إليه . . . ووجدت علامات الحيرة على وجهه قال : « والله أنا عايز أقول لك على موضوع يا أنور . . . أنا مشغول

قوى بحماية عبد الحكيم وأنا اتكلمت مع تيمو وحكيت له الحكاية كلها . .
تيمو قال لي ضروري تأخذ إجراء في العملية دي وإلا البلد مجروحة وبعدين
أى صراع داخلي وخصوصاً إذا كانت فيه القوات المسلحة . . حيتوسع وينقلب
إلى صراع كبير « قلت له : يا جمال أنت سمعت مننا كلنا رأينا في الموضوع
ده وفعلاً ضروري أنت بالذات تواجه عبد الحكيم باللي بيعمله وتحسم الموضوع
نهائياً » قال : « فعلاً أنا لازم آخذ إجراء . . »

كان ذلك في ١٣ أغسطس ولم يفصح عبد الناصر عن نوع الإجراء
الذي سيقبله - كل ما حدث أن الإجراء تأجل إلى يوم ٢٥ أغسطس . . لماذا
تردد رغم خطورة الموقف ؟ هنا مرة أخرى تظهر علامة الاستفهام
الكبيرة في كل ما يختص بالعلاقة بين عبد الناصر وعامر . .

كان عامر يعرف جيداً أن لا شيء يغيظ عبد الناصر مثل الحديث
عن الديمقراطية وأنه ديكتاتور . . فلجأ إلى طبع الاستقالة التي كان قد قدمها
لعبد الناصر سنة ٦١ في شكل كتيب ووزعها على أوسع نطاق ليعلن فيها أنه
لا يؤمن بحكم الفرد وأن لا بد من إعادة الأحزاب . . كلام لا يؤمن به
عامر بل ولا بطراً على فكره . . ولكن كانت آثاره على الناس غير حميدة
فانتشرت الإشاعات بأن الأحوال الداخلية غير مستقرة وأنه من المتوقع حدوث
انقلاب في أي وقت . . لدرجة أن (جاكوب مالك) مندوب روسيا في مجلس الأمن
كان في زيارة لمصر فطلب مقابلة عبد الناصر ليحذره من أن غداً سيحدث
انقلاب عسكري في مصر . .

في هذه الأثناء كان عامر قد جعل من بيته المطل على النيل في الجزيرة
قلعة بكل معنى الكلمة مما جعل عبد الناصر يقرر أخيراً تحديد إقامة عامر
في بيته بعد أن سحب منه جميع الأسلحة وبناء عليه أرسل إليه يطلب
حضوره للقاء في منزله مساء الجمعة ٢٥ أغسطس . . وقال لنا : « اسمعوا
يا جماعة أنا عاوزها جلسة مواجهة وأنتم تكونوا موجودين » وفعلاً أنا
وزكريا محيي الدين وحسين الشافعي كنا موجودين في هذه الجلسة . .

وكانت ترتيبات عبد الناصر أنه بمجرد وصول سيارة عامر ونزوله منها

ودخوله لي الصالون تنزع منها الأسلحة في هدوء ويلقى القبض على من فيها
من حراس ثم تستبدل بسيارة أخرى تنقله إلى بيته حيث يبقى فيه تحت الحراسة .

وفي نفس الوقت كان عبد الناصر قد كلف محمد فوزي القائد العام
وعبد المنعم رياض رئيس الأركان بإخلاء بيت عامر من الأسلحة والضباط
والجنود المرابطين فيه بحيث يجد البيت عند عودته خالياً إلا من أسرته والضباط
المكلفين بحراسته . . وفعلاً تم ذلك . . أتى عامر في الساعة التاسعة إلا ثلاث
فجوىء بوجودنا . . وبدأ الحوار الذي لم يشترك فيه طول المدة لا زكريا
ولا حسين الشافعي - طبعاً أنكر عامر كل شيء ، ورغم أن عبد الناصر واجهه
بالمشورات التي كان يصدرها وبعده الضباط المقيمين عنده في البيت وأنواع
الأسلحة وغير ذلك من الحقائق التي لا تقبل الجدل إلا أن المناقشة استمرت من
التاسعة تقريباً إلى الثانية صباحاً . .

قبل ذلك بدقائق أحس عامر أن في الأمر شيئاً فقرر العودة إلى منزله
ولكنه فجوىء عند البوابة بالحرس يمنعونه من الخروج ووجد عند باب البيت
سيارة أخرى غير سيارته التي حضر بها . . وبها بعض الحرس . . فأدرك أنه
مقبوض عليه وعاد إلى حيث كنا . .

أحس عبد الناصر بالإعياء أو خشي أن يراجع في قراره فانسحب إلى
حجرة نومه ولحق به زكريا والشافعي على ما اعتقد فوجدت نفسي وحدي وجها
لوجه مع عامر الذي قال لي إنه ذاهب إلى دورة المياه فصاحته ثم عدنا إلى الحجرة
فإذا به يفاجئني بقوله إنه تناول سيانور لينتحرر . . ودهشت فأنا أعرف
من قراءتي أن السيانور إذا لمس الفم يموت من يتناوله في أقل من الثانية . .
ومع ذلك أرسلت في طلب الأطباء لإسعافه وفعلاً حضروا وأسعفوه . .

كان الموقف عصيباً للغاية فقد آلتني أن أرى عامر على هذه الحال وآلتي
أكثر إحساساً بأنه يحاول أن يفلت من المأزق الذي شعر أنه سعى إليه بنفسه
على أمل أن يعود إلى بيته ويتحصن فيه فهو لم يكن على علم بالإجراءات
التي تمت أثناء تغيبه عنه في جلستنا هذه . .

كانت ليلة مؤلمة للشعور تعذبت فيها كما لم أتعذب في حياتي فقد
طلع علينا الصباح وأنا وحدي مع عامر أشاهده يعاني ولا أستطيع أن
أمد إليه يد المساعدة .

في الساعة السادسة والنصف صباحاً نزل زكريا والشافعي من منزل عبد الناصر
وأخذنا عامر إلى بيته حيث تحدثت إقامته .

لماذا استجاب عامر لدعوة عبد الناصر وذهب للقائه في منزله ؟ سؤال
كان ينبغي أن يطرح نفسه على أي إنسان ولكن لم تكن الإجابة عليه
صعبة أو مستحيلة . . على العكس فقد تصور عامر أن عبد الناصر يريد أن يلقاه
ليصالحه كعادتها عقب أي سوء تفاهم يحدث بينهما . . كان عامر واثقاً من
هذا وأن عبد الناصر سوف يستجيب لطلبه ويأخذه معه إلى مؤتمر القمة
في الخرطوم الذي انعقد بعد ذلك اللقاء بيومين . . وكان عبد الناصر يعرف هذا كله
مقديماً من مكالمات تليفونية بين عامر وبعض أصدقائه كان عبد الناصر
قد أمر بتسجيلها . .

في سبتمبر كانت التحقيقات التي أجريت مع أعوان عامر قد بدأت
تأخذ شكل القضية ثم وصلت عبد الناصر بعض التقارير التي تقول إن
عامر كان ما زال يجرى بعض الاتصالات مع أعوانه وأتباعه عن طريق
أبنائه فكلف عبد الناصر محمد فوزي وعبد المنعم رياض بنقل عامر إلى
مكان بعيد عن بيته . . وفعلاً أتى القبض على عامر في منزله ولكنه كان يشكو
بعض الألم فأخذه إلى مستشفى المعادي حيث وجد الأطباء بفسه مجلداً -
كما يقول التقرير الطبي - فأخرجوه وذهبوا به إلى فيلا على ترعة المربوطية
كانت قد جهزت كاعتقل فأحيطت بالأسلاك الشائكة ووسائل الحراسة
المختلفة . .

بعد أن اطمان عبد الناصر إلى أن عامر قد استقر في المعتقل انتقل إلى
الإسكندرية حيث أقام في المسورة وانتقلت أنا كذلك إلى شقتي بشاطيء
ستاني . .

في يوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر اتصل بي عبد الناصر تليفونياً ليخبرني إن

عامر يريد أن يراني اليوم أو في الغد الأربعاء على أكثر تقدير - قلت
له لازم أشوفه . . لازم أروح له قال لي : طيب ما تفكر . . قلت له : لا أنا
في هذا قاطع . . بس أنا رأي ندى أمر للناس اللي بيعملوا التحقيق يبعثوا
لي صورة من التحقيق بكرة الصبح أقرأها وأعرف إيه الأقوال علشان
أواجه عبد الحكيم بيها وبعدين أروح له المعتقل يوم الجمعة .

وافق عبد الناصر وأرسل لي ملفات القضية صباح الأربعاء وكانت في ذلك
الوقت قد وصلت لي آلاف الصفحات فتوفرت على دراستها واستغرقت مني
الأربعاء بأكمله ونهار الخميس أيضاً . .

كل هذا وأنا أعد نفسي للقاء عبد الحكيم عامر في المعتقل يوم الجمعة
حيث كان في نيي أن أنصحه بالتصالح مع عبد الناصر وكفانا تصارعاً فالمصيبة
التي نحن فيها أكبر وأخطر من أي شيء ، كما كنت مصمماً على أن أبقى معه
في المعتقل إلى أن تحل الأمور إما بالصلح أو بالمحاكمة . .

وفي مساء الخميس ١٤ سبتمبر سنة ١٩٦٧ تناولت طعام العشاء ورأسي
ما زال مشغولاً بلقاء يوم الجمعة فإذا يجرس التليفون يدق وعبد الناصر يتكلم . .

قال : أنور -

قلت : أيوه يا ريس خير .

قال : « أنور »

وسكت لمدة دقيقة . . دهشت

فقلت : جمال . . أنت على الخط ؟

قال : آه

قلت : أمال سكت ليه ؟ فيه إيه ؟

قال : عبد الحكيم عامر اتحر ومات الساعة ٧ مساءً وبلغوني دلوقت
من المعتقل . .

قلت : والله إذا كان ده حصل فعلا بيبي ده أحسن قرار أخذه عبد الحكيم
عامر كقاتل خسر معركة . . لأني لو كنت مكانه كنت عملت كده بسوم
٥ يونيو . .

جمال سكت قليلاً ثم قال : إزاي بتأخذ الموضوع بالشكل ده ؟

قلت له : في التقاليد المسكوية أى قائد يينهم بيعمل كده . .

طلب منى عبد الناصر أتى نهاية الحديث أن اتصل بحسين الشافعى وعلى صبرى وأطلب منهما الذهاب إلى المعسورة معى لكى نساغر جميعاً إلى القاهرة وكان زكريا محي الدين في القاهرة . . . ولكن دون أن أذكر لهما الأسباب . .

وصلنا القاهرة بعد منتصف الليل فركت جمال في منشية البكرى وتوجهت إلى معتقل عامر الذى لم يكن يبعد عن بيتى في الهرم بأكثر من خمس دقائق . . هناك وجدت النيابة والطبيب الشرعى وشقيق عبد الحكيم عامر وكان مستشاراً في القضاء - حضرت التحقيق وأثبتوا ذلك في المحضر ثم بدأت أسأل الطبيب الذى كان يصاحبه في المعتقل وهو الدكتور بطاطا الذى ما زال إلى يومنا هذا طبيي الخاص . .

كانت إجابة الطبيب أن عامر وهو في الجسم أصيب بما يشبه أزمة قوع على الأرض - حملوه إلى فراشه حيث كان يرقد أمامى . . وحاولوا إسعافه ولكن عبثاً فقد مات بمجرد أن وقع على الأرض . . لم يكن هناك أى شيء غير عادى في جسمه سوى ما لاحظته الطبيب الشرعى عندما كشف عليه فوجد عند مفصل فخذه الشمال مع جسمه بلاستر وتحت جثمان . . ماذا كانا ؟ أعتقد أن هذا جاء في تقرير الطبيب الشرعى . .

تأملت وجه عامر قبل أن أغادر المكان . . فلم أشاهد عليه صفرة الموت - بالعكس كان وجهه يبدو طبيعياً وكأنه مستغرق في نوم عميق فلا انفعال ولا تقلصات ولا أى شيء من هذا القبيل - بالعكس عادت السماحة إلى وجهه فرأيت أمامى عبد الحكيم الأسمر اللون العادى الهادئ اللطيف الذى رأيت أول ما رأيت في رفح . . وهو في مستقبل عمره مند سنوات وسنوات . .

عندما دخلت بيتى في الصباح المبكر سمعت جرس التليفون يدق كان عبد الناصر على الطرف الآخر للخط يحاول أن يطمئن على ما حدث وريت له ما رأيت وقلت لى سأغير ملايسى لكى ألتحق بالجنازة في بلدة عامر (اسطال) فتشبع الجنة هناك بعد خروجها من المشرفة .

ولكن عبد الناصر لم يوافق . . فقد كان يخشى أن يخرج أولاد عامر عن حدودهم عندما يعلمون بالخبر - وليس هذا من المصلحة في شيء فالوقت الذى نمر به يتحتم علينا الحفاظ على هيئة الحاكم . .

تحتم عبد الناصر حديثه معى بقوله ورنه الأسى في صوته : -

« تصور يا أنور عبد الحكيم وأنا وأنت - احنا الثلاثة أصدقاء لكن تصور يا أنور أن عبد الحكيم يموت وأنا واثق أن ما حدث جا يمضى في جنازته هناك واحنا كلنا مش قادرين نمشى في جنازته . . تصور . . »

لم أكن أتصور فعلاً أن شيئاً من هذا يمكن أن يحدث وأن الصراع من أجل البقاء يمكن أن ينهى بين الأصدقاء بمأساة ولكن يبدو أن هذا هو شأن الحياة . .

7

كانت محاكمة أعوان عبد الحكيم عامر أمراً لا مفر منه . . فقد بدأت الناس تفتق بعد ٩ و ١٠ يونيو وتساءل من المسئول عن الهزيمة ؟ ولماذا حدثت ؟ كما بدأوا يدركون أن عملية الصراع بين عامر وناصر لعبت دوراً رئيسياً في الكارثة التى حلت بمصر .

رأس المحكمة حسين الشافعى وقد جعلها علنية كما طلب هو من عبد الناصر وطبعاً حاول المتهمون إنفاذ رقابهم فحاولوا القضية إلى محاكمة لثورة ٢٣ يوليو فكانت النتيجة أن اختفى الوجه الحميل للثورة وهو إنجازاتها ولم يظهر غير وجهها القبيح وهو تضاعف الإجراءات الإستثنائية وكبت الحريات وكل ما جعل الناس تضيق بالثورة .

رأى الناس هذا الوجه للثورة وكأنه وجهها الوحيد فزاد سخطهم وخاصة أن جروح الهزيمة كانت ما زالت تدمى في قلوبهم فكانت النتيجة الحتمية لهذا الانفجار الطلبة في فبراير سنة ٦٨ الذى ما لبث أن عم جميع قتات الشعب .

حاولنا حصار الانفجار وانتهت عملية الحصار عندى في مجلس الشعب عندما أرسلت في طلب الطلاب وكانوا معتصمين في الجامعة وجلست معهم خمس ساعات ذهب بعدها كل منهم إلى منزله . .

لجأ عبد الناصر كمعادته إلى احتواء الانفجار فأصدر بيان ٣٠ مارس الذي حاول فيه أن يمتص غضب الشعب بمحاولة لكل الأمور التي تشكو منها الناس بعد أن كشفت لهم القضية عن الوجه القبيح للثورة - ولم يكف عبد الناصر بإصدار البيان بل طلب من الشعب الاستفتاء عليه فخرجت البلاد بأكلها لتأييده مما أذهل المرسلين الأجانب فقد كانوا مؤمنين بأن أحداً من الناس لن يذهب للاستفتاء وهم ما زالوا جميعاً يعانون من الهزيمة وآثارها .

صورة أخرى من صور فترة الانتقال هذه كانت حرب الاستنزاف التي بدأها في سبتمبر ٦٨ بعد أن كان اللواء أحمد اسماعيل قد انتهى من بناء خط الدفاع المصري وكنا قد سرنا شوطاً لا بأس به في تدعيم قواتنا المسلحة . . . بدأنا الحرب بالمدفعية فردت علينا إسرائيل بضرب محطة المخولات في نجع حمادى وقناطر نجع حمادى وكوبرى قنا في الصعيد . . . فاضطررنا إلى التوقف من سبتمبر ٦٨ إلى مارس ٦٩ حيث استطعنا في تلك الفترة من حماية جميع المنشآت ثم استأنفنا في سنة ٦٩ رغم أن الاتحاد السوفيتى كان ضد هذا ولم يعوضنا عن الذخيرة التي استفدناها حينذاك إلا مع الكوبرى الجوى عند بدء معركة ٦ أكتوبر سنة ٧٣ . وكان هذا عقاباً لعبد الناصر لأنه بدأ حرب الاستنزاف واستمر فيها ضد رغبة السوفيت . . .

من أحداث تلك الفترة التي كانت ذات أثر بعيد فيما بعد - أن عبد الناصر في ساعة صفاء وإلهام قال لى وكان ذلك يوم ١٩ ديسمبر ٦٩ : أنا مسافر يا أنور لحضور مؤتمر القمة العربى في المغرب يوم ٢٠ ديسمبر . . . وزى ما أنت شايغ المؤامرات حولي كثيرة ومتمثل جداً أن أصاب في إحدى هذه المؤامرات وأنا مش عايز البلد تبقى نايبة ومش عايز أسيب البلد في فراغ . . . ولذلك قررت أن أعينك نائب رئيس جمهورية وتحلف اليمين قبل ما أمشي . كنت أعرف أن مؤامرات عملاء الإتحاد السوفيتى قد بدأت بعد أن أتى الطبيب الروسى شازروف إلى مصر ورأى عبد الناصر وأسر إلى وإلبيهم دون شك بأن الأزمة القلبية التي أصابت عبد الناصر من النوع الخبيث وأنه لن يعيش بها طويلاً . . . فتمننت ما قاله لى عبد الناصر وأجته ؟ -

- فكرت يا جمال ورسيت ؟ أنا مش عاوز يا جمال أبى نائب رئيس جمهورية . . . أنا حا كل معاك وأشتغل وإذا كان لا بد من لقب كفاية على مستشار رئيس الجمهورية .

قال : لا . . . بكرة نفوت على عشان تحلف اليمين . . . وفعلاً ذهبت إليه في اليوم التالى ومعى حسين الشافعى كمعادتنا لاصطحابه إلى المطار . . . في المنزل طلب أن أحلف اليمين وكان ذلك في وجود حسين الشافعى ففعلت وحينما ذهبت إلى المطار لتوديعه أعلنها عبد الناصر على الجميع . . .

V

من أوضح مظاهر الصراع من أجل البناء في هذه الفترة صراع عبد الناصر مع السوفييت من أجل بقاء مصر وصراع السوفييت مع عبد الناصر من أجل بقائهم في المنطقه . . .

ففي أول يناير سنة ١٩٧٠ حينما ضربت إسرائيل مصنع أبو زعبل وقتل فيه أكثر من ٧٠ عاملاً بريئاً استدعى عبد الناصر السفير السوفيتى وكبير الخبراء وأخبرهما أنه ليس في إمكانه الانتظار إلى يونيو وهو ميعاد تسليم بطاريات الصواريخ سام ٣ وخاصة بعد أن وصلت إسرائيل إلى العمق وضربت التجمعات العمالية والسكانية ، فحدد له القادة السوفييت ميعاداً في ٢٢ يناير وسافر إلى موسكو في زيارة سرية استغرقت أربعة أيام عاد بعدها وهو في قمة السعادة . . . قلت له : خير يا جمال . . .

قال : الدور ده الظاهر حيصدقوا معانا . . . فأنا لما قلت أن الأمر عاجل وملح وطلبت منهم بيعتوا لنا صواريخ سام ٣ بأطقم سوفيتية إلى أن يتم تدريب أطقمنا في أغسطس جمعوا القيادة السياسية وأخذوا قراراً بإرسال سام ٣ ابتداء من شهر مارس سنة ٧٠ . . .

كنا منذ الهزيمة نلح على السوفييت أن يعاونونا في الدفاع الجوى حتى أن عبد الناصر طلب منهم حينذاك أن يتولى الدفاع الجوى عن مصر قائد سوفييتى . . . فقد كان الدفاع الجوى عندنا نقطة ضعف بارزة كما ثبت في عامى ٦٩ ، ٧٠ عندما ضربت إسرائيل مصنع أبو زعبل ومدرسة بحر

البحر للأطفال . . . ولذلك اعتبرنا دخول سام ٣ مصحوباً بجنود سوفيت نقطة تحول في تعامل السوفييت معنا . . .

ولكن جاء إبريل موعد وصول الطائرات في يو ١٦ التي كانوا قد وعدوا بإرسالها مع الصواريخ ولم يظهر لها أثر وسألنا مرة ومرات أين الطائرات التي وعدتم بها ؟ ولكن لا اجابة . . نفس الأسلوب القديم الذي كنا قد تصورنا أنهم غيروه . . ضاق عبد الناصر بالموقف كله وقال لي :

- اسمع يا أنسور أوراق اللعبة كلها في أيدي أمريكا شئنا أم أيينا ولقد آن الأوان عشان نتكلم وتدخل أمريكا في العملية .

وكنا في ذلك الوقت قد فوضنا الاتحاد السوفيتي بالتحدث مع أمريكا لإزالة شكوكهم الرهينة . .

ولذلك في أول مايو سنة ٧٠ وهو عيد العمال وجه عبد الناصر أغلب كلامه في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة عيد العمال إلى نيكسون وقال له . . هل أنت غير قادر على حل المشكلة أم غير راغب في هذا ؟ . . كانت لهجة الخطاب رفيعة أو على الأقل خالية من العنف كما كان بها قدر كبير من الدبلوماسية التي تفصح عن رغبة عبد الناصر في أن يفتح باب الحوار مع أمريكا . .

وفعلا بدأت أمريكا الحوار في يونيو سنة ٧٠ بمبادرة روجرز التي تنص على نقطتين هما الانسحاب ووقف إطلاق النار لمدة ٩٠ يوماً يجرى فيها وسيط من الأمم المتحدة المفاوضات بين الأطراف المعنية من أجل تسوية مشكلة الشرق الأوسط . . كان الوسيط جونار يارنج منذ أن صدر قرار مجلس الأمن ٢٤٢ في نوفمبر ١٩٦٧ وكنا نعرف أن مهمته محكوم عليها بالفشل بسبب تعنت إسرائيل ، وفعلا لم يستطع أن يحقق شيئاً وانتهت مهمته في سنة ٧١ .

بعد إعلان مبادرة روجرز بقليل قام عبد الناصر بزيارة إلى موسكو أعددت لها أنا مع السفير السوفيتي فينوجرادوف إعداداً كاملاً حتى يقتنع القادة السوفيت بضرورة إرسال سلاح الردع لنا ، ولكن رغم كل الجهود التي بذلت رفض السوفييت الاستجابة لمطالب عبد الناصر . فاضطر إلى أن يعلن قبواله لمبادرة روجرز وهو على نفس المائدة مع القادة السوفيت في الكرماين . .

جن جنون بريجنيف وسأل عبد الناصر كيف تقبل حلاً أمريكياً فأجابه عبد الناصر أنه على استعداد لقبول الحل من أية جهة . .

استغرقت رحلة عبد الناصر هذه ٢٠ يوماً فقد أدخلوه غرفة الأوكسيجين الخاصة برجال الفضاء ليجدد خلايا جسمه كله حتى أنني عندما التقيت به في مطار القاهرة عند عودته من موسكو دهشت . . فقد بدأ أصغر من ستة عشر سنة على الأقل وما زلت أذكر قولي له وأنا أرحب به « ما شاء الله يا ريس . . ايه الشاب ده ! » وما زالت صورته أمام عيني وهو يسير في أرض المطار بخطى واسعة منشرح الوجه وصدرة إلى الأمام كفتى في الثلاثين من عمره . . ولكن ماذا تفيد غرفة الأوكسيجين رجلاً يعلم أنه مكتوف الأيدي نتيجة موقف السوفييت معه ؟

في أثناء غيابه في موسكو جمعت اللجنة السياسية للإتحاد الإشتراكي وأوصينا برفض مبادرة روجرز . . ولكنه عندما عاد وشرح لي ما حدث في الكرملين وأخبرني أنه قبل المبادرة قلت له : « معاك حق لأن السوفيت حيودونا في داهية فنظير لي وقال : « السوفيت يا أنسور حالة ميوس منها تماماً . . »

كانت هذه آخر زيارة قام بها عبد الناصر للقادة السوفيت وقد كان تأثيرها على صحته سيئاً للغاية - فلأول مرة أحس عبد الناصر بأنه ليست هناك أرض للمناورة ، وعبد الناصر مناوئ ممتاز ولذلك فهو بدون أرضية مناورة يساوى صفراً وهو لا يجب أن يكون صفراً . . وكان الوحيد الذي كان يقف إلى جانبه في ذلك الوقت الاتحاد السوفيتي . . فعلاقاته مع أمريكا وغرب أوروبا والبلاد العربية مقطوعة أو ممزقة فلا مجال للمناورة ولا مجال بالتالي للصراع من أجل البقاء . .

منذ هزيمة سنة ٦٧ لم يسلم عبد الناصر من المرض إلى أن مات . . . ففي ٥ يونيو ١٩٦٧ إنفلت السكر ولم يتمكن من السيطرة عليه إلا في نوفمبر سنة ١٩٦٧ . . . خمسة شهور متتالية كانت كفضيلة بأن تدمر الجهاز الداخلي لعبد الناصر على صورة أمراض متوالية أولها أصيب به في ديسمبر سنة ٦٧ على هيئة بثور في بعض أجزاء من جسمه وكان أي احتكاك للملابس بها يسبب له آلاماً رهيبية فأرسلنا في استدعاء الأطباء من مختلف أنحاء العالم إلى أن اكتشف المرض طبيب إنجليزي وأوصى بعلاجه عن طريق الهرمونات المضادة واضطر عبد الناصر إلى أن يخضع لهذا العلاج الذي كان يسبب له أزمت عصبية شديدة مدة شهرين كاملين إلى أن شفى من المرض فتلقفه على الفور مرض آخر . . . إذ بدأ يحس في ساقه بالآلام عنيفة أخذ عنها يزداد يوماً بعد يوم إلى أن وصلت إلى درجة لا يمكن احتمالها أو وصفها ومما زاد الحالة ضراوة أن عبد الناصر كان عليه أن يكتم آلامه ليظهر أمام الناس بكل هيبته وبالهالة الضخمة التي كانت تحيط به حتى إذا ما خلا إلى نفسه أغلق حجيرة النوم عليه وعلى - فقد كنت الأزمه - وراح يصرخ بأعلى صوته كالأسد الجريح الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً . . . ظل على هذه الحال شهوراً متوالية إلى أن سافر للعلاج بالمياه المعدنية في (سخلطوبو) في روسيا .

وفي سبتمبر سنة ٦٩ أصيب بنوبة قلبية أخفيناها وأعلنا أنها أنفلونزا . . . فبعد أن فحصه الأطباء المصريون أسروا إلى بأنها أزمة قلبية . . . وطلبني عبد الناصر وقال لي : « والله يا أنور شوف حتمل ايه وصرف الأمور كما ترى » قلت له : « أنا حابعت أجيب لك الدكتور شازوف » .

كان شازوف طبيب القيادة السوفيتية وقد سبق له أن تولى علاج عبد الناصر في موسكو ، فأني على وجه السرعة وأكد تشخيص الأطباء المصريين وأوصى بأن يلتزم عبد الناصر بالراحة التامة كاملاً لأن هذه النوبة القلبية بالذات كانت من نوع خبيث للغاية فإذا تعرض صاحبها لأي إجهاد بدني أو نفسي فسوف تودي بحياته بدون أن يشعر بأي ألم . . . وهذا ما حدث لعبد الناصر بعد ذلك بسنة بالضبط . . .

ففي خلال تلك السنة حدثت بعض الأمور التي أنهكت عبد الناصر صحياً وكان أولها قبوله لمبادرة روجرز فبمجرد أن سمع الفلسطينيون بهذا شنوا عليه حملة شرسة هوجاء دون أن يترثوا أو يسألوه عن سبب قبوله لمبادرة روجرز وهو الذي وقف إلى جانب القضية الفلسطينية كما لم يقف أي رئيس أو حاكم عربي آخر . . . بل لا أبالغ إذا قلت إن عبد الناصر بنىه لقضية فلسطين قد أضنى على القضية كل أبعادها السياسية التي لولاها لظلت مجرد قضية لاجئين . . . فهو الذي ملأ العالم العربي والعالم كله باسم فلسطين . . . وكان يهاجم بعنف أي حاكم عربي لا يقف إلى جانب القضية الفلسطينية . . . بل وكرس كل جهده واستخدم الثورة نفسها للدفاع عن حق الفلسطينيين في وطنهم . . .

كان من الطبيعي أن يتأثر عبد الناصر بموقف الفلسطينيين منه وأن يكون تأثره شديداً وعميقاً . . . فهامم الدين أفنى صحته في الدفاع عنهم يتكروون له بالمزايدات والشعارات والانفعالات الطائشة الهوجاء والسفاهات الصيانية ! كيف يتحمل رجل مريض بأقصى أنواع المرض أن يطعن كبرياؤه هكذا وليس على أيدي الغرباء كما حدث في آخر زيارته لموسكو بل على أيدي الأقرباء الأصدقاء . . . الإخوة الذين كثيراً ما فضل مصالحهم على مصلحته الشخصية ؟

كان من الطبيعي أن يؤثر كل هذا على صحة عبد الناصر فيعجل بنهايته . . . ولكن ليت الأمور توقفت عند هذا الحد . . . ففي سبتمبر دعا عبد الناصر إلى مؤتمر قمة عربي في القاهرة من أجل مذبحه أيلسول (سبتمبر) سنة ٧٠ بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية . . . وكان السبب في هذه المذبحه أن الملك حسين قرر تصفية المقاومة في الأردن فاشتبك معها في صدام مسلح مما أدى إلى مذبحه بين أفرادها بالمعنى الكامل للكلمة . . .

لم يستطع عبد الناصر السكوت على هذا فدعا إلى المؤتمر في القاهرة ورغم كل ما ناله من أذى وحضر جميع الملوك والرؤساء العرب ما عدا الملك حسين . . . أما أنا فقد كنت قد شفيت لنوى من الأزمة القلبية التي انتابني للمرة الثانية سنة ٧٠ وحضرت إلى القاهرة للإشتراك في المؤتمر . . .

حضر المؤتمر معمر القذافي وكان ظاهرة تلفت النظر بالطبيعة التي لا تفارق حزام سترته كما كان دائم السباب في الملك حسين . . كان يصفه بأنه رجل مجنون ولا يبد له من دخول مستشفى المجاذيب . . وكنت أنا إلى ذلك الوقت أفسر سلوكه على أنه نوع من اندفاع الشباب والخماس الرائد عن اللازم . . المهم انضم الأعضاء إلى مؤيد لحبيء الملك حسين ومؤيد لعدم مجيئه ولكنهم انتهبوا إلى اقتراح عبد الناصر من ضرورة اشتراك الملك حسين في المؤتمر . . وفعلا جاء الملك حسين وسار المؤتمر ، ولكنه أصبح بشكل تقصلا رهيباً على الأعصاب لا من ناحية الملك حسين بل من ناحية معمر القذافي وتصرفاته هو وبأسر عرفات من خلف الكواليس . .

كما يجتمعين ذات صباح في جناح عبد الناصر في فندق هيلتون أثناء انعقاد المؤتمر وكان معنا ياسر عرفات وكان جمال حربعا على أن يعمل إلى صبيحة يخل بها المشكلة وكان من رأيه أن يتنازل كل من الطرفين قليلا فكلاهما مخطيء . . فإذا ياسر عرفات يتفعل ويبدأ سلسلة من الانفجارات لا نهاية لها . . ضاق جمال بالوقف فقال له : « أنا ما أعملش ده كله عشانك وبتحرق دمي بالشكل ده عشانك وانت بيتي موقفك كده . . »

وترك عبد الناصر الجناح عائداً إلى بيته بعد أن أعلن تصميمه على عدم العودة إلى المؤتمر . . لحقنا به وهو بهم بركوب المصعد فأقتنناه بالعودة معنا وبعد محاولات عديدة ابتداء ياسر عرفات يستجيب . .

المهم أن المؤتمر كان حملاً ثقيلاً على أعصاب عبد الناصر ، فقد أجهد فيه أعنف لإجهاد بسبب القذافي وتصرفاته من ناحية ومن ناحية أخرى بسبب ياسر عرفات الذي كان عبد الناصر قد دعا إلى عقد المؤتمر ليحل له مشكلته . . انتهى المؤتمر بالإفراق على ما اتفقوا عليه وعاد الملوك والرؤساء العرب إلى بلادهم وكان عبد الناصر في وداعهم جميعاً . . كان آخر من سافر الملك فيصل وأمير الكويت . . وعند توديع الملك فيصل نبني كبير الباوران إلى أن قدمي الرئيس جمال قد « لفت على بعضها » وهو يسير فطلبت من عبد الناصر أن يذهب إلى بيته ليستريح وأقوم أنا نيابة عنه بتوديع أمير الكويت ولكنه رفض .

كان من الواضح أنه يتحامل على نفسه فعندما ركب أمير الكويت طائرته لم يتحرك عبد الناصر من أمام الطائرة بل وقف مكانه والعرق يتصبب من وجهه وقد امتنع لونه بصفرة رهيبه . . فطلب أن تأتي السيارة إلى حيث كان . . وتركته على اتفاق أن نساfer في الغد إلى الإسكندرية للإستجمام والراحة وذهبت إلى منزلي لأستريح قليلا فأتصل في مكبرتيه الخاص ليقول لي إن عبد الناصر سيحضر عندي لتناول العشاء معي . . وذهبت لأنام قليلا ولكنهم أيقظوني في الساعة مساء وقالوا إن بيت الرئيس جمال اتصلوا وقالوا إنك مطلوب في البيت لأمر هام . .

ارتديت ملابسى بسرعة وذهبت إلى منشية البكري حيث وجهوني إلى حجرة نوم عبد الناصر فوجدته على فراشه والأطباء يحيطون به قالوا لي إنه مات منذ ساعة . . كشفت عن وجه جمال فوجدته طبيعياً جداً وكأنه يستغرق في نوم عميق . . ألصقت خدي بخده فلم أحس بالبرودة التي تصاحب الموت . . التفت إلى الأطباء وقلت : « مش ممكن . . الكلام اللي بتقولوه ده مش ممكن بيتي صحيح . . » قالوا لي إنهم قاموا بجميع الإسعافات اللازمة واستعملوا جهاز القلب الذي يعطى صدمة توقف القلب . . قلت لهم : « حاولوا . . حاولوا مرة أخرى . . » فانفجروا بالبكاء وعلمت منهم أنهم حاولوا كل جهدهم لمدة ساعة كاملة قبل وصولي ولكن قضاء الله وقدره كان قد نفذ . .

أمرت بنقل الجثمان إلى سراى القبة وكنا في يوم الإثنين فجمعت مجلس الوزراء واللجنة العليا للاتحاد الاشتراكي وقررنا أن يكون ميعاد الجنازة يوم الخميس حتى يتمكن المعززون من الملوك والرؤساء من تشييع الجنازة . . وطلبت من الأطباء العمل على حفظ الجثمان بطريقة سليمة إلى يوم الخميس . . ومكثت بقصر القبة حيث جثمان عبد الناصر إلى أن أتى وقت تشييع الجنازة فخرجت لعمل الترتيبات لسير الجنازة التي كانت تبدأ من مجلس قيادة الثورة ولكن بعد أن وصل الجثمان والجنازة على وشك الابتدء أصبت بانهايار مفاجيء . . فحملوني إلى مجلس قيادة الثورة وأعطاني الأطباء خمس حفن لم أفق منها إلا حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر . .

كان أول سؤال سألته : هل دفن عبد الناصر ؟ فقد كنت أخشى أن تحمل جماهير الشعب التي كانت تقدر بالملايين العرش وتسير مندفعة به . . فموت عبد الناصر كان فاجعة مفاجئة للجميع . .

الفصل الثامن

الثورة الثانية

بعد موت عبد الناصر مباشرة لم تكن في رغبة في أن انتخب رئيساً للجمهورية ولما كان عبد الناصر في خطاب العودة يوم ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧ قد أعلن أنه سوف تجرى انتخابات للرئاسة بعد إزالة آثار العدوان فقد قلت إنني سأعمل نائباً لرئيس الجمهورية إلى أن أزيل آثار العدوان وبعد ذلك تجرى الانتخابات . . .

ولكنني بدأت أراجع نفسي لما أحست من تيارات ومناورات من جانب مراكز القوى وأغلبية أعضاء اللجنة التنفيذية العليا التي تركها لي عبد الناصر وهي المكتب السياسي . . . كما أنني لاحظت أن البلد رغم حالة الحزن الشامل الذي كان يخيم عليها كانت في حالة ترقب . . . فالشعب يريد أن يعرف إلى أين سير وهو كله مجمع على شيء واحد وهو ضرورة أن نضمد جراحنا ونلم شملنا بأسرع وقت ممكن لتكامل المسيرة . . . وهذه ميزة الشعب المصري الأصيل الذي يستند إلى حضارة سبعة آلاف سنة . . . إنه لا يفقد إحساسه بكيانه مهما كانت الظروف . . .

وشيء آخر كان له وزنه في مراجعتي لنفسي ، فقد وصل الرئيس بومدين رئيس الجزائر قبل الجنازة واجتمع بي ولما علم أنني سأعمل نائباً لرئيس الجمهورية إلى أن تم إزالة آثار العدوان اعترض بشدة وقال إنه لا يجب أن يكون هناك أي شك أو اهتزاز في صورة مصر في عيون العالم . . . وإنه يجب أن ينتخب الشعب رئيس الجمهورية فوراً حفاظاً على مكانة مصر ومثولياتها التاريخية بالنسبة للمعركة والأمة العربية كلها . . .

ولكن لعل ما جعلني أحسم الأمر ، مذكرة أرسلتها لي القوات المسلحة تقول فيها إن الظروف التي تمر بها مصر صعبة ودقيقة للغاية . . . وإن أمام

القوات المسلحة واجباً لا يبد من إنجازها ولذلك فهم بحاجة إلى وجود قائد أعلى مسؤول يتمكنون تحت رئاسته من تحقيق هدفهم . . .

كانت المناورات قد بدأت بالفعل من جانب بعض مراكز القوى وكان المركز الذي أراد استغلال هذا الموقف أولئك الذين كانوا يستندون إلى الاتحاد السوفيتي ، وكان هناك آخرون . . .

ولكن المركز الأول الذي كان يضم عملاء الاتحاد السوفيتي أخذ يرتب نفسه ، وتمهدوا فيما بينهم على أن يكونوا الورثة الشرعيين لعبد الناصر بدعوى أنهم الأبناء على خطه . . .

في يوم الخميس بعد تشييع الجنازة استدعت المسؤولين وقلت لهم إنني عدلت عن البقاء ككاتب لرئيس الجمهورية وإنه لا بد من الإلتخاب ولذلك طلبت انعقاد اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي (المكتب السياسي) فكل شيء يجب أن يسير وفقاً للدستور .

طبعاً كانت هناك صراعات ومناورات أثناء انعقاد اللجنة - فأحدهم مثلاً وكان العضو الباقى معي من أعضاء مجلس الثورة طلب أن يظل الوضع كما هو وقال لي : « أنا أخشى لو قدمنا اسمك أن تكون محرماً فالبلد ترفضك وإذا حدث هذا فسيكون معناه أن البلد يرفض ثورة ٢٣ يوليو » .

قلت له : أنا عندي من الشجاعة الكافية - إذا عرضتم اسمي ورفضه الشعب - أن أجمعكم مرة أخرى ونختار مرشحاً آخر وإذا رفض الشعب المرشح الآخر فستعاود الكرة ونختار مرشحاً جديداً . . . فلن أسلم البلد إلا لرئيس منتخب من الشعب مهما كلفني هذا من معارك . . .

انتهت المناقشات بالموافقة على تسميني رئيساً للجمهورية وذهبتنا إلى اللجنة المركزية التي وافقت على اختياري كما وافق مجلس الشعب . . . وبعد ذلك أجريت الانتخابات وانتخبني الشعب رئيساً للجمهورية وكان ذلك في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠

بمجرد انتخابي أصدرت قرارى بتعيين الدكتور محمود فوزى رئيساً للوزراء وعبد المحسن أبو النور أميناً عاماً للاتحاد الاشتراكي فأنا أوؤمن أن العمل بفسرد واحد خطير جداً لأنه يؤدي في النهاية إلى أن هذا الفرد لا يستطيع أن يلم بكل شيء فبنتهز بعض معاونه الفرصة ويأخذون الأمور في أيديهم كل يتصرف كما يشاء وبذلك توجد مراكز القوة - تماماً كما حدث بالنسبة لعبد الناصر . . .

أرادت مراكز القوة أن تصعد الصراع ، بحجة أننا لا بد أن نسير على خط عبد الناصر . . فقلت لهم إنني لا أستطيع أن أصرف الأمور كما كان يصرفها عبد الناصر - فكل منا يختلف عن الآخر . . صحيح نحن لا نختلف في المبادئ أما الوسائل فنختلف عليها مائة في المائة . .

وقد كانت لي جلسات مع عبد الناصر في بيته وفي بيتي خلال السنة السابقة لوفاته إذ كنا نتبادل الزيارات فنلتقي يوماً لسيدي ويوماً لذي . . وكنت دائم الحديث معه عن ضرورة تغيير منهج الحكم والأساليب التي كانت الناس تحكم بها إذ كان الشعب بعد الهزيمة وبعد الصمود الذي أبداه في حاجة ملحة إلى التغيير . .

أذكر أنه في أول يوم تسلمت الحكم أي في يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٩٧٠ جاني سامي شرف وكان هو كاتب سر عبد الناصر ووزير شئون رئاسة الجمهورية ومعه أوراق كثيرة لعرضها علي . . سألته : « ايه دي ؟ » قال لي : « دي مكالمات تليفونية لأشخاص موضوعين تحت المراقبة » قلت له : « آسف . . أنا ما أحبش أقرأ الكلام القارغ ده . . إذا كان فيه شيء خاص بأمن الدولة أشوفه وأحكم فيه . . أما ناس بتتكلم مع بعضها - أنا دخلي ايه ؟ وأنتم بأى حق تخطوهم تحت المراقبة ؟ شيل » وأزحت الأوراق من أمامي فجمعها وخرج ولكن قبل خروجه كنت قد أصدرت أمرى إليه بإلغاء جميع المراقبات التليفونية وأن لا تتم أى مراقبات إلا بأمر القضاء وفعلنا تم هذا . .

منذ أول يوم توليت فيه استيقلت في إرادة التحدى . . صحيح أنها لم تتم يوماً طوال السنوات السابقة فهي إحدى مقومات شخصيتي ولكنها لم تكن بهذه اليقظة والحدة الآن . . بعد أن تسلمت الحكم . . فقد صارت مسئوليتي أن أسلم الشعب الأمانة سليمة . . رغم كل الظروف المحيطة به من هزيمة عسكرية كاملة الأبعاد ووضع اقتصادي مهار وعزله سياسية قاتلة ، فعلاقتنا مع الدول العربية وأمريكا وغرب أوروبا ممزقة تماماً . . بل لم تكن لنا علاقة إلا مع الاتحاد السوفيتي الذي لم يفكر حتى في أن يعوضنا عن قطع علاقتنا مع جميع

دول العالم . . فإذا أضفنا إلى كل هذا بعض الحقائق التي لمسها بنفسى والتي تقطع بأن أحداً من المسئولين الذين كانوا يحيطون بعبد الناصر لم يكن يأخذ في حسابه إلا مصلحته الخاصة وبقاءه في منصبه وسلطته المطلقة بغض النظر عن مصلحة مصر (فقد أصبحت الحسابات كلها شخصية كما أصبح الجميع يعيشون بالحقد والبغضاء) . . لأدركنا أن كل هذه الصعاب قد شحنت لإرادة التحدى عندي فدعمتها وأيقظتها بحيث لم تضعف أو تغفل لحظة واحدة منذ أن توليت حتى الآن . .

قلت لجميع أعضاء مجلس الثورة ومراكز القوة في بداية حكمي إنني لن أقبل هذا الكابوس والحمل الرهيب ذا الأبعاد غير الواضحة . . وسأعيد تصحيحه بالحب وبالقوة الداخلية التي أعز بها دون أن أقف على أشلاء أى إنسان أو أبحر أى شخص . .

كنت أعرف أنني بهذا أتحدى الكثير من الأوضاع والأخلاقيات القائمة ولكني كنت أعرف أيضاً أنني قادر على هذا التحدى فأنا في أى وضع ملئ بقوة ذاتية أكبر بكثير من المنصب الذي أشغله - ولكن ها أنا الآن أملك قوة مادية أعطها لي الله وهي منصب رئيس الجمهورية فلا بد أن استخدمها للخير . . كان هذا خطي طول عمرى . . فأى عمل أقوم به يسدر عن مبادئ معينة هي إسعاد وحب مصر ولكن لم تكن الفرصة مواتية لي في أى وقت مضى مثلما أصبحت بعد أن اختارني الشعب رئيساً للجمهورية . .

وعندما أراجع خط سيرى في الحكم في تلك المرحلة المتقدمة أجد أنني في ديسمبر سنة ١٩٧٠ أصدرت قرار تصفية الحراسات . . كانت للشعب آمال تراوده وكان هذا أحدها ولذلك لم أدهش عندما علمت أن القرار قد استقبل بحماس شديد ليس فقط من جانب أولئك الذين كانوا قد وضعوا تحت الحراسة بل أيضاً لدى جماهير الشعب العريضة التي لن يفيدها القرار في شيء مثل سائقي التاكسي وغيرهم . .

بالنسبة للوضع الخارجى فقد تقدمت بعد ٤ شهور من بدء ولايتي بالمبادرة المصرية التي كان لها وقع شديد خارج مصر ودخلها فكنت أرى أنه ما دامت المعركة العسكرية مستحيلة فلا بد أن نحل محلها معركة دبلوماسية لأن القاعدة العريضة من الشعب تتطلب دائماً الحركة المستمرة . .

عندما تسلمت الحكم كانت التركة التي تركها لى عبد الناصر مبهمة بالنسبة لى أول الأمر - ولكن أيا كان الوضع الذى كانت مصر فيه فقد قبلت التحدى لأصححه . . كنت أعرف أن القيم قد ضاعت ولكنى استطيت أن أصحح هذا بقيمى ومبادئى . . وليس بضرب الناس . . كانت مراكز القوة تخكم أمام عيني فقلت لهم : أنا أتسامح ولكنى لا أسمح بالعبث . .

لم يكونوا يعرفون أنى لا أسمح لنفسى بالحكم على مصائر الناس بتقارير تقدمها مراكز القوى كنت أعلم أنها مزورة وليست إلا شهوات انتقام أو تخويف . . وكانوا يجهلون أيضاً أنى لا يهمنى أن أبني نفسى فى الخارج . . فالصورة يجب أن تكون فى مصر أساساً . . ولعلمهم كانوا يجهلون أيضاً أن أشبع ما واجهت هو جبل الحقد الذى بناه عبد الناصر على كل المستويات حتى على مستوى الأسرة الواحدة حيث كان يمكن للإبن أن يتجسس على أبيه أو أخيه كما كان يحدث فى الأنظمة الفاشية . . وهذا فى تقديرى أقبح ما يمكن أن نصل إليه .

ف عندما قامت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار قبل الثورة كانت تركز على أساس خلقى ومثالى . . وعندما أصبحت مجلس قيادة الثورة كان يحكمنا نفس الأساس ولكن بداية حكم الثورة كانت غير موفقة ، فبدلاً من أن تبدأ بالثقة وتعطى الفرصة إلى أن يثبت العكس (كما أو من أنا وكما تعودت أن أمارس فى حياتى) بدأت بالشك فى كل إنسان إلى أن يثبت العكس وهو الثقة وهو نادراً ما يثبت لأسباب كثيرة . . من أجل هذا أوغرت النفوس ضد الثورة . . ولذلك فى الأربع سنوات الأولى وهى حكم مجلس قيادة الثورة كانت هناك أخطاء وانها كانت فى حق الإنسان المصرى ولكنها كانت فى دائرة ضيقة اتسعت فيما بعد . . فى سنة ٥٦ كان يجب على عبد الناصر أن يؤصل الانتصار بعد انتصاره فى معركة القناه بأن يعطى للشعب المصرى بعد معركة ١٩٥٦ حرية كاملة ولكنه لم يفعل فكانت النتيجة أن أصبح الإنسان المصرى سلبياً مما جعل انتصارات عبد الناصر كلها انتصارات على السطح بالنسبة للشعب . . لأنه يعرف فى أعماقه

جيداً أنه لم يشارك بل ولم يؤخذ رأيه فى أمر ما . . وعندما كان الشعب يتحمل من هذا كان تملحه يفسر على أنه ثورة مضادة فتقع الحراسات والاعتقالات وكل هذا هو التطبيق الفعلى لامتياز كرامة الإنسان . .

وقد لاحظت أن أكبر خطأ ارتكب فى حق الإنسان المصرى كان هو زرع الخوف . . فبدلاً من أن نبني الإنسان أصبح كل همتنا أن نخيفه . . والخوف هو أخطر ما يهدم كيان الفرد أو الشعب فلقد كانت أرزاق الناس كلها ملكاً للحاكم إن شاء منح وإن شاء منع وكان المنع مصحوباً فى أغلب الأحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله ثم فصل جميع أهله من وظائفهم مع اتخاذ إجراءات ضدهم . .

وهكذا تحول الناس إلى « مسخيط » أو أصبحوا دمي فى أيدي حكامهم يفعلون بهم ما يشاؤون . . قلم يعد مسموحاً للناس بالسفر أو بأن يقولوا كلمة تختلف عما يقوله الحاكم وإلا اعتقلوا أو صودروا فى أرزاقهم . . ومن هنا ازداد الناس سلبية فقد أصبح الأمان لهم أن يسيروا إلى جانب الحائط لا شأن لهم بأحد ولا بأى شيء مما يدور حولهم وكأنهم أصبحوا لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون . . من أجل ذلك قلت وما زلت أقول إنه بقدر ما كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة فى إنجازاتها فلها كانت أيضاً عملاقة فى أخطائها . . ولكن مع الزمن انتهت الإنجازات أو ذهبت أو أصبحت أمراً واقعاً مجرداً من الحالة ولم يبق من الثورة غير بقعة سوداء رهيبة تشيع الحقد والخوف بين الناس ولكنهم لا يملكون منها فراراً . .

ولكن رغم هذا كله ، بخطيء من يظن أن شعب مصر يمكن أن يموت فهو عملاق دائماً قد يتحمل أشد أنواع الأذى من الداخل والخارج ولكن هذا الأذى لا ينال منه أبداً . . فمجرد أن ينكشف عنه الغبار تجده عملاقاً كما هو . . قد تجده مجروحاً ينزف دماً . . ولكنه يعلم أنه سيأتى الوقت الذى يقف فيه الزيف ويضمند جراحه . . هذا هو الشعب المصرى الذى آمنت وما زلت أو من به وأدعو الله أن يمكننى من أن أزيل من طريقه جميع المعوقات وأن أجعل الكلمة الأولى والأخيرة له فأنا أعرف أنه عند ذلك سوف يحقق المعجزات . .

كانت التركة التي ورثها من عبد الناصر في حالة يرثى لها . . فمن الناحية السياسية وجدت أن علاقتنا مقطوعة مع جميع أنحاء العالم ما عدا الاتحاد السوفيتي . . وفي العالم العربي ساد ما نادى به عبد الناصر وسمى بالتقدمية والرجعية وبناء على هذا التقسيم التعسقي كان يقيم أو لا يقيم علاقاته بدول الأمة العربية . . وقد أخذ درساً حين رأى أن الذي وقف إلى جانبه بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ كانوا من ظل طول حياته يصفهم بالرجعية مثل السعودية والكويت والملك السعودي ملك ليبيا فهم الذين دعموه بالمال بعد الهزيمة .

كانت السياسة عند عبد الناصر تخضع لانفعالاته ، وقد أدرك هذا أولئك الذين يحيطون به ولذلك كانوا يستطيعون تطويعه كما يريدون إذا أحضروا إليه في الوقت المناسب المعلومات المناسبة التي يفجرها فتحدث في العالم دويماً هائلاً .

أذكر أنه في سنة ١٩٦٤ كان عبد الناصر على وشك أن يلقي خطابه بمناسبة عيد النصر في ٢٣ ديسمبر في بورسعيد كما اعتدنا كل سنة بعد عدوان سنة ١٩٥٦ . . وقبل الخطاب بخمس دقائق قال له علي صبري وكان رئيساً للوزراء إن وزير التموين سأل السفير الأمريكي عن موعد وصول معونة القمح فرد السفير بما أهان مصر وقال للوزير إن الكونغرس لم يوافق بعد - وبعد أن سمع عبد الناصر هذا « التقرير » مباشرة أتى خطابه فجاء مليئاً بالسباب والظعن في أمريكا . . وعندما سمع السفير الأمريكي الخطاب ذهب مباشرة إلى المسؤولين وقال إن شيئاً مما نسيه إليه عبد الناصر لم يحدث وأيد السفير وزير التموين المصري نفسه فقد بادر بعد سماعه الخطاب إلى الاتصال بمستشار عبد الناصر الصحفي ونثي هذه المعلومات وطلب إبلاغ ذلك إلى عبد الناصر . وأسقط في يد عبد الناصر فقد أدرك أن أقدار الشعوب لا يمكن أن تكون رهينة الانفعالات وهكذا اضطر إلى أن يطلب مني ومن عبد الحكيم عامر أن نصلح هذا الأمر

فاجتمعنا مع السفير الأمريكي على مائدة عشاء في منزل المستشار الصحفي المذكور وحاولنا بكل المحاولات أن نصلح هذا الخطأ . . ولكن لم يلبث الأمر أن تكرر . . إذ أن ما حدث مع أميركا حدث أيضاً مع إيران فقد أسر أعوان عبد الناصر إليه بكلمات نسبوها إلى شاه إيران خطأ قبل أن يلقي خطاب ٢٦ يوليو في الإسكندرية (وكان هذا تقليداً منذ خروج الملك من الإسكندرية في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢) فما كان من عبد الناصر إلا أن أعلن قطع العلاقات مع إيران في هذا الخطاب ، رغم أنه ثبت فيما بعد أن حديث الشاه كانت قد حرفته وكالات الأنباء . . ومرة أخرى طلب مني عبد الناصر أن أصلح الأمر مع شاه إيران في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في الرباط حيث مثلت عبد الناصر لإصابته في ذلك الوقت بأزمة قلبية وطلب مني أن أوسط الملك حسين في ذلك وقد فعلت ذلك ولكن المصالحة لم تتم . . كانت هذه هي التركة التي ورثها سياسياً . . لا وجود لوزارة الخارجية أو سياسة مدروسة ومخططة . . لم يكن هناك سوى الرئيس نفسه الذي يتفعل فيصدر قراراته بناء على هذا الانفعال وهو راض سعيد ما دام كل ما يقوله يصفق له الشعب . .

أنا اختلف عن عبد الناصر في هذه الناحية اختلافاً تاماً ، فعندما أردت أن ألغى المعاهدة مع السوفييت بعد ما فوتوا على سنة الحسم بعدم الوفاء بالتزاماتهم . . ومناوراتهم التي لم تكن لها نهاية . . اتصلت بطرف ثالث من دول عدم الإنحياز وهي الهند وطلبت منها أن ترسل إلى بعض الأسلحة التي تصنعها بموافقة السوفييت لأنها أسلحة سوفيتية واتصلت الهند بالاتحاد السوفيتي تستأذنه في إرسال الأسلحة ولكن رفض السوفييت لأنهم كانوا يأملون في أن يصبح السلاح الذي عندي خردة يباع لمجموع الحديد والصلب . .

كان هناك طرف ثالث يقوم بدور الشاهد وهي الهند . . ولذلك وجدت الفرصة مناسبة لكي أخلص البلاد من آخر التزام عليها وهو المعاهدة السوفيتية وخاصة بعد مملك الاتحاد السوفيتي وأيضاً كنت لا أريد أن أترك من خلني التزاماً قد يستغل من بعدى وأيضاً لأنني كنت الذي عقدها وقبلها الشعب على مضض لثقتة في . .

وفي رأى أنه ليس من حق أى إنسان أن يحتكم إلى انفعالاته عندما يتعلق الأمر بمصير الوطن . . . بل يقتضى الواجب في نظرى أن أبحث عن كل مصدر لتخير وسعادة الشعب وأن أفتح كل الأبواب التى أغلقت في وجه مصر مهما كلفنى هذا من جهد وعناء . . .

واليوم وبعد أن أصلحت كل هذه الأخطاء فإننى أفخر أن علاقات مصر بإيران وبالعالم كله تقوم على الثقة والاحترام المتبادل ولن أنسى أبداً يوم أن كان احتياطي البترول في مصر قد أصبح في مرحلة الخطر بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ لأن حقول بترولنا كانت مغلقة وأرسلت إلى شاه إيران قيادى في الحال بإرسال أكثر من نصف مليون طن وأمر ناقلات البترول في عرض البحر أن تغير طريقها لكي تتوجه إلى مصر لنجدتها وهو يقول : « السادات أخ لى - والذي يريد سأتجيب له في الحال » .

٥

كانت التركة التى ورثتها اقتصادياً أسوأ بكثير من التركة السياسية فاستقلال أى بلد حر هو في حقيقته الاستقلال الاقتصادى وليس الشعارات السياسية . . . فماذا كان حالنا سنة ١٩٧٠ ؟

كنا قد نقلنا بعباء شديد النمط السوفييتى ونحن نسير على الخط الاشتراكي رغم أننا كنا نفتقر إلى الموارد والإمكانات وتراكم رأس المال . في سنة ١٩٥٢ عندما استلمنا البلد كانت ميزانية مصر ٢٠٠ مليون جنيه تركها لى عبد الناصر ٢٠٠٠ مليون ، ولكن لم تكن هذه الزيادة إلا على السطح فقط أما في الأعماق فالسألة تختلف تماماً . . . فعندما تم تمصير البيوت الأجنبية في مصر بعد معركة العدوان الثلاثى في أواخر سنة ١٩٥٦ انعكس هذا الحال على الرضع الاقتصادى لمصر . . . وكان لنا في هذا الوقت أيضاً أرصدة مقدارها ٤٠٠ مليون جنيه استرلينى ودائع في إنجلترا من متخلفات الحرب العالمية الثانية فأفرج عنها بعد أن كان إيدن قد جمدها بعد تأميم قناة السويس .

وهكذا . . . في أول يناير سنة ٥٧ بعد الإفراج عن ودائعنا في لندن وتأميم جميع البيوت الأجنبية عندنا كنا في أروع أوضاعنا الاقتصادية . . . ومن هنا بدأ القطاع العام بالأموال والمؤسسات التى مصرت ولم تكن تقل في مجموعها عن ألف مليون جنيه . . . ولكن لو كان البدء سليماً لكننا الآن دولة عظمى . . . في سنة ٦١ صدرت قوانين التأميم . . . وكان من الممكن أن ينطلق اقتصادنا بالقطاع العام مع تشجيع القطاع الخاص إلى آفاق هائلة لأن المنافسة بين الإثنين في صالح بناء أكبر واندفاع أعظم ، ولكن الذى حدث هو أن التطبيق الاشتراكي بدأ يتجه إلى الماركسية فأصبح أى عمل حر رأسمالية بغضه وأصبح القطاع الخاص استغلالاً ولصوصية فاخنتى تماماً نشاط الأفراد مما استتبع سلبية رهينة من جانب الشعب أعانى منها إلى اليوم وصلت إلى أن أصبحت الدولة مطالبة - إلى جانب التخطيط وإدارة السياسة الخارجية والداخلية - بتوفير البيض والدجاج ومئات من الحاجات التى كان يمكن أن يوفرها الأفراد بالمبادرة والنشاط الفردى .

ولقد كان من نتيجة هذا أن أصبح الشعب حسب النظرية الجديدة يعتمد على الدولة في كل شيء . . . الأكل والوظيفة والسكن والتعليم ، فما دامت الدولة قد أصبحت اشتراكية فعليها أن توفر للمواطن كل ما يتطلبه دون أى جهد إيجابى من جانبه . . . وهذا الانكماش هو زاوية الهبوط إلى الهاوية . . . في سنة ٧٠ قرأت تقريراً صدر في أمريكا بعد تحليل لواقع مصر الاقتصادى يقولون فيه : « اتركوا عبد الناصر يصرخ فسوف يركع على ركبتيه اقتصادياً في القريب العاجل » .

كنا في ذلك الوقت نتمدد فقط على أنفسنا فلا معونة أمريكية أو سوفييتية أو عربية أو غربية فكل ما كنا نأخذه من الغرب والشرق والعرب كان الشماعة . . . فقد ضاع اقتصادنا في حرب اليمن والانفصال عن سوريا والتطبيق الماركسى للاشتراكية وهزيمة يونيو المتكررة . . .

قرأت التقرير مرة ومرات واستلفت نظرى ما جاء فيه من أن زيادة السكان بمصر وبالتالي زيادة الاستهلاك سوف يجعل الاقتصاد المصرى

يصل إلى مرحلة الصفر في خلال سنتين من سنة ١٩٧٠ على الأكثر ففزعنا
ولكن اعتبرته دعاية من التهرب وأنه ضمن الحملة النفسية التي تشن علينا
لكي نسلم لإسرائيل ولكن بعد أن توليت اكتشفت الحقيقة المرة - فقد
استدعيت وزير المالية والاقتصاد - د. حسن عباس زكي وسألته عن الموقف
الاقتصادي فقال ببساطة: إن الخريبة فاضية . . وإننا نكاد نكون في حالة إفلاس . .
قلت له: « كيف وصل الحال إلى هذا؟ ألم تخبر جمال؟ » قال: « أنا تعدت
ألبس طاقيته ده لده ولكن دلوقتي خلاص » .

أرسلت واقترضت ٢٠ مليون جنيه ولكن حسن عباس زكي قال لي إن
هذا المبلغ لم ينفع كثيراً . . وكنت أذعر فعلاً . . عندما أدركت أننا على وشك
أن يأتي اليوم الذي لا نملك فيه رواتب الجنود المرابطين على الجبهة ومرتبات
الموظفين فإذا جاء يوم ولم يقبضوا رواتبهم وعرفوا أن أهلهم في مصر لا يجدون
ما يأكلونه سوف يتركوا الجبهة وتنهأ مصر . .

طبعاً كافحت واستعنت بكل مدد يمكن الإستعانة به . . ولم أشعر طوال
سنة ٧١ و سنة ٧٢ بحقيقة الكارثة ولكن قبل المعركة بخمسة أيام واجهت مجلس
الأمن القومي بحقيقة اقتصادنا وبأنه تحت الصفر وهذا أمر لوصادف غيري
أو أي إنسان لا بد أن يخيفه ولكني فكرت وقررت . . ولا اعتقد أن أحداً
مكاني كان سيجد الشجاعة لإصدار أي قرار ولكنني كنت على ثقة أن مفتاح
كل شيء سياسياً واقتصادياً وعسكرياً هو أن نصحح هزيمة سنة ١٩٦٧ لكي
نستعيد ثقتنا في أنفسنا وثقة العالم بنا فلم يكن الوضع الاقتصادي سوى بعد
واحد من أبعاد المشكلة .

لقد كان محور عار ومهانة هزيمة سنة ١٩٦٧ هو الأساس ، وكان تقديري
أنني حتى لو دفنت مع أربعين ألف من أبنائي في القوات المسلحة ونحن نعبر القناة
فسيكون ذلك أشرف لنا ألف مرة من أن نقبل هذا الإذلال وتلك المهانة
وستأتي الأجيال القادمة من بعدنا لتقول إنهم ماتوا بشرف في المعركة ولا بد
أن يكلموها بعدنا .

٦

في وفاة عبد الناصر أرسلت أمريكا أحد وزراء نيكسون وهو ريتشاردسون
للتعزية وعندما عاد إلى بلاده كتب تقريراً بأن السادات لن يبقى في الحكم لأكثر
من أربعة أسابيع إلى ستة أسابيع . . وفي الداخل بدأ عملاء الاتحاد السوفيتي
في القيادة السياسية الصراع . . وظهر هذا واضحاً بعد أن أصدرت قرار
إلغاء الحراسات بعد شهرين فقط من ظهور نتيجة الانتخابات . .

في هذه الأثناء كنا قد بدأنا نجتمع - مصر وليبيا والسودان وسوريا - من أجل
تحقيق وحدة بين البلاد العربية . . لم يكن السودان على استعداد للدخول في أي
عمل وحدوي في هذه الفترة حتى يتم إقامة مؤسساته الدستورية وكان القذافي
بظواهر بأنه وحدوي متطرف . . أما حافظ الأسد فقد كان حريصاً على
الوحدة من أول لحظة . . واتفقنا على الصيغة التي نبدأ بها الوحدة وهي صيغة
الجمهورية العربية المتحدة على أن تكون لكل جمهورية شخصيتها
بنظامها ورئيسها حسب أوضاعها وظروفها وبعد ذلك يتكون ما يسمى
مجلس الرئاسة ويجتمع رؤساء جمهوريات الوحدة لكي ينسقوا عملية الوحدة
والخطوات إليها . . وكان هذا الأسلوب هو ما اتفقنا عليه في حياة عبد الناصر
كدراس مستفاد من الانفصال الذي وقع للوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٦١
والتي لم تستمر إلا ثلاث سنوات فقط .

وجد مركز القوة الأول الذي يتكون من علي صبري وشعراوي جمعة وسامي
شرف وجميعهم عملاء للاتحاد السوفيتي - وجد هذه فرصة للتصارع وكان معي
ضمن وفد مصر للوحدة على صبري فصرح بأن ظروف مصر لا تسمح بالدخول
في أي نوع من الوحدة . . وكان هذا أول محك للصراع بيني وبين مراكز
القوة . . في مراحل الوحدة المختلفة كان علي صبري ومعهم بقية وفد
مصر من القيادة السياسية التي تركها لي عبد الناصر يحاولون تلغيم الطريق إلى
الوحدة مع كل من ليبيا وسوريا . . لم يقل لي القذافي أنهم يتصلون به ليضعوا
العقبات في طريق الوحدة أما الأسد فقال لي: « أنت في وضع غريب جداً . .
أنت بتتكلم كلام والوفد اللي معاك بيتكلم كلام مختلف تماماً من وراك » .

وفي اليوم الأخير لاجتماعاتنا قال نمبري : « أنا زى ما قلت لكم مش جاهز للوحدة وكل ما تتخذه من خطوات وحدوية بينك وبين سوريا أنا أوئده ١٠٠٪ لأنه أمر يخص معركتنا القومية » ، وكان في اليوم التالي سيسافر إلى موسكو . . وهكذا انتهت المحادثات بالفشل فذهبت إلى القذافي قبل أن يعود إلى ليبيا في الصباح وقلت له : « يا معمر لعلمك أن حافظ الأسد رئيس سوريا لن يقادر مصر هذه المرة إلا وقد أقيمت أنا وهو الجمهورية العربية المتحدة . . هذا قدرنا فمعركتنا واحدة » .

قال : « أنا مستعد أدخل معاكم . . » . مع أنه في الليلة السابقة كان له رأى مخالف تماماً لما يقول فهو يريد إما أن تقوم الوحدة على ما يراوده من آمال وأحلام وإلا فهو يضع في طريقها العقبات . .

قلت له : « الوضع سيكون شاذ لأن نمبري سافر النهارده على أساس أن الاجتماع الرباعي فاشل . . فإذا كنت عايز نخش معانا نرجع لاجتماعنا الذي كان مقرراً في بنغازي اللي كنا متفقين عليه قبل الاجتماع الرباعي . . أت شبقتنا على بنغازي وأحنا نيجي بعدك بكلذا ساعة » .

وكان هذا الاجتماع الرباعي بين مصر والسودان وليبيا وسوريا قد تم عقب اتفاقنا على اجتماع ثلاثي بين مصر وسوريا وليبيا في بنغازي ولكنه عدل إلى اجتماع رباعي في القاهرة بإضافة السودان كطلب الرئيس السوداني نمبري . .

طلت وفدأاً للذهاب معي إلى ليبيا وكوته من حسين الشافعي وعلى صبري وهما نائبا رئيس الجمهورية في ذلك الوقت . . ذهب على صبري ميكراً إلى المطار ومع شعراوي جمعه بصفته وزيراً للداخلية - وهما اللذان كانا يمثلان القيادة بالنسبة لمركز القوة الأول العميل للاتحاد السوفيتي - فعليه أن يكون في وداع القذافي . . انفرد على صبري وشعراوي جمعة بالقذافي في المطار وبدأوا عملية التخريب فاستجاب لهم وقال لهم : « والله الرئيس السادات هو اللي أخرجني » . . وعندما وصلت المطار قال شعراوي جمعة لي : « القذافي يقبول إن سيادتك ضمنت عليه وهو مش عاوز الوحدة » .

ووجدت على صبري يقول لي نفس الكلام . . فقلت أنا أرفض الاستماع إلى هذا اللغو . .

وفي بنغازي جلسنا حول مائدة الاجتماع وكان هناك مجلس قيادة الثورة الليبي كله والرئيس الأسد والوفد السوري وأنا والوفد المصري . . أخبرت المجلس بما حدث بيني وبين القذافي وأن الوحدة التي تجتمع من أجلها ليست حرجاً لأحد وذكرت قول القذافي أنه أخرج فلم يتكلم القذافي ولم يعلق على صبري فبدأنا المناقشة ولكن بعد يومين فقط كان من الواضح أننا لن نستطيع أن نتفق وقررنا السفر وأرسلنا الحقايب إلى المطار وأعدنا البيان الذي سيعلم عقب الاجتماع وفيه أننا لم نتفق وسبقنا الصحفيون إلى المطار وإذا بسوريا تتصل بالقذافي وتعرض عليه تعديل صيغة معينة كنا متفقين عليها فيوافق ويعرضها على فأوافق فأرسلنا لاستدعاء الصحفيين ووقع اتفاق بنغازي . . فإذا بعلى صبري يأتي إلى ويقول إنه غير موافق . . فقلت له : « أجل معارضتك هذه إلى أن نعود إلى القاهرة » . .

٧

في القاهرة جمعت اللجنة التنفيذية العليا وكانت مكونة من ثمانية أشخاص عرضت عليهم الاتفاق على الوحدة الذي وقعته عن مصر في بنغازي وبعد مناقشات طويلة وضع فيها أن الأغلبية وهم مركز القوة الأول من عملاء روسيا كانوا متكتلين لإسقاط الاتفاق وجاهزين في أول اختبار قوة معي لكي يفرضوا الوصاية على قراراتي ، أخذت الأصوات فكانت النتيجة خمسة من ثمانية هم عملاء الاتحاد السوفيتي في القيادة للرفض ضد ثلاثة هم أنا والدكتور فوزي رئيس الوزراء وحسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية . . فكان واضحاً أن الصراع في أوجه فلما أن يجهزوا على وإما (على الأقل) أن يحدوا من سلطتي نهائياً بحيث لا أستطيع أن أتخذ أي قرار إلا بموافقهم . .

وفوجئوا إذ لم يكونوا جاهزين للمفاجأة من جانبي حين طلبت عرض الموضوع ونتيجة التصويت على اللجنة المركزية ، ولم يكونوا جاهزين لهذه المفاجأة كما قلت

فحاولوا كسب الوقت بإعادة الدراسة ولكنني أصرت على عرض الأمر كله على اللجنة المركزية التي لم يستطيعوا بكل الجهود اليائسة التي بذلوها كسبها إلى جانبهم . . . ووافقت اللجنة المركزية بالإجماع على الاتفاق . . . وهكذا انتهى اختبار القوة معي إلى انتصاري المطلق وتسليمهم . . . ولكن إلى حين .

في يناير سنة ١٩٧١ كان على أن اتخذ قراراً بالنسبة لمبادرة روجرز فدعوت إلى اجتماع اللجنة المركزية العليا ووزير الحربية ووزير الخارجية - وكان واضحاً من المناقشة أن الرأي الغالب وهو رأي مراكز القوة وهم الأغلبية في القيادة السياسية التي تركها لي عبد الناصر بأن نستأنف حرب الاستنزاف مع إسرائيل في الوقت الذي كان فيه نصف الوطن وهو الصعيد معرضاً لإغارات إسرائيل كما حدث خلال عام ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ ورغم أن الاتحاد السوفيتي كان يماطل في إرسال الصواريخ لمواجهة هذه الإغارات وحماية منشآتنا في الصعيد (برغم أننا وقعنا معه اتفاق إرسالها) وكان يسوف في إرسالها بمختلف الحجج . . .

وكان واضحاً أيضاً من مناقشتهم أنها مناوره لإجرائي وإجراج البلد فأنهيت من الاجتماع بأن قلت لهم لأنني لن أدخل حرب استنزاف أخرى حتى تصلني بطائرات الصواريخ وأؤمن المنشآت في الصعيد نصف مصر كما أني سأجدد مبادرة روجرز بشهر واحد فقط ينتهي في ٧ مارس ١٩٧١ حتى أعطي آخر فرصة للعالم ولأمريكا وإسرائيل ليتحملوا مسئولياتهم . . .

وفي ٤ فبراير سنة ١٩٧١ أعلنت أمام البرلمان للعالم كله ولشعبنا وللأمة العربية مبادرة مني أساسها أنه إذا انسحبت إسرائيل من ضفة القناة إلى المضائق فإننا على استعداد لفتح قناة السويس بعد أن تعبر قواتنا إلى شرق القناة وسوف أمد الثلاثة شهور الواردة في مبادرة روجرز إلى ستة شهور بدلاً من ثلاثة وسيكون هناك وقف إطلاق نار رسمي وأيضاً سوف أعيد العلاقات مع أمريكا . . .

لم أحبر أحداً من مراكز القوة بمبادرتي هذه فتعجبوا بها يوم أعلنتها في خطاب ٤ فبراير في مجلس الشعب فأسيبوا بوجوم شديد . . . في حين أن العالم الخارجي استقبلها أحسن استقبال . . . فأول مرة ينتبه العالم لنا لأن كلامنا قبل ذلك لم يكن موضوعياً . . . مجرد حماس وانفعال . . .

أما الشعب المصري فأصالته وحسه المرهف أدرك المبادرة ورحب بها كل الترحيب .

في فبراير سنة ١٩٧١ أيضاً فكرت في السفر إلى الاتحاد السوفيتي لأول مرة بعد انتخابي رئيساً للجمهورية لأطلبهم بتنفيذ الجزء الثاني من الإنشائية التي عقدها مع عبد الناصر وهو إمدادنا بسلاح الردع . . . كذلك استعاض الذخيرة التي استهلكناها في حرب الاستنزاف ولزويدنا ببطاريات الصواريخ من أجل حماية المنشآت في الصعيد . . . فأرسل إلى السوفيت أنهم على استعداد لمقابلتي في ١ ، ٢ مارس وطلبت منهم أن تكون الزيارة سرية ، وسافرت وجلسنا على مائدة المفاوضات في الكرملين وشرحت لهم متاعنا منذ عهد عبد الناصر ومطالبنا الحيوية وبدأت حديثي بتقرير النقطتين الأساسيتين اللتين قررتهما في كل اجتماعاتي التالية مع قادة الكرملين . . . الأولى هي أنه لن يخارب لنا معركتنا جندى سوفيتي والثانية أننا لا نسعى إلى المواجهة بين الاتحاد السوفيتي وأمريكا . . . وكنت في شدة الانفعال والحماس فاشتبك مع كوسيجين رئيس الوزراء السوفيتي كما اشتبك معي المارشال جريتشكو وزير الدفاع السوفيتي ورددت عليهما بعنف مما جعل بريجنيف يتدخل ويعلن لي أن الحكومة السوفيتية قد وافقت على تزويد مصر بعدة أصناف من الأسلحة . . . لم تكن هي المطلوبة فعلاً ولكن قبلناها لحاجتنا الماسة إلى أي سلاح - كان هذا أسلوب السوفيت معنا دائماً ولكني قلت لهم في هذا الاجتماع : -

- نحن نشكركم ولكن لا بد أن أسجل هنا في محضر الاجتماع أننا مختلفون .

أثناء اشتباكي معهم في هذا الاجتماع قالوا إنهم على استعداد لأن يرسلوا لنا طائرات بالصاروخ ويدربوا عليها المصريين على أن لا تستخدم إلا بموافقة الحكومة السوفيتية . . . عندئذ اشتد غضبي وقلت لهم :

« مفئيش قرار في مصر إلا لي كرئيس لمصر وأنا بارفض هذه الطائرات بعد ذلك أخذني بريجنيف وقال لي بيقي وبينه « أنت عارف الطائرة الميج ٢٥ التي عندك منها ٤ ؟ » قلت : « دي طائرة ممتازة » . . . قال لي : - « سأرسل لك منها ثلاثين تستخدمها قاذفات » . . . قلت له : « عندئذ بيقي أنا تنازلت عن كل خلاف على شرط أن الطيارين يأخذوا أوامرهم مني أنا » . . .

طبعاً لم يرسل بريجنيف ما وعد به فأصدرت أمرى بأن الأربيع طائرات
ميج ٢٥ (مثل التي طار بها طيار سوفيتى إلى اليابان) والتي كان يعمل عليها
طيارون سوفيت لا نظير . . . فإما أن يعودوا إلى بلادهم . . . وإما أن أشتري
هذه الطائرات .

كانت لدى هذه الطائرات الأربعة ميج ٢٥ وقد قبلت وجودها على
الأرض المصرية لأداء الخدمات المطلوبة للاستطلاع للقوات المصرية ولكنها
لم تقم سوى مرتين بهذه المهمات ورفض الطيارون أن يتفقدوا ما تأمرهم به .
واتضح أن وجودهم كان للاستطلاع لحساب الاسطول السوفيتى الخامس
في البحر الأبيض ضد الاسطول السادس الأمريكى في هذا البحر . . .
وقد سحب الاتحاد السوفيتى هذه الطائرات ورفض أن يبيعها لى . . .

وفي اجتماع اللجنة التنفيذية العليا رويت لهم ما حدث في موسكو وقلت
« أنا رفضت قبول هذه الطائرات لأن الشرط كان أن آخذ موافقة موسكو عند
استخدامها وليكن واضحاً لكم جميعاً أنه ليس في مصر قرار إلا لى أنا كرئيس
جمهورى وأنا لا أريد سلاح الردع هذا إذا كان بهذه الشروط . . . »

لم يستطع المتآمرون وهم أغلبية القيادة السياسية التي تركها لى عبد الناصر
أن يتفوهوا بكلمة أمامى ولكنهم خرجوا من الاجتماع ساخطين على فكيف
لا أوافق على أخذ الإذن من الاتحاد السوفيتى وهو دولة عظمى . . . ! !

لم يرسل لى السوفيت بطاريات الصواريخ إلا في شهر إبريل سنة ١٩٧١
أما اللخيرة فقد أرسلوا شيئاً منها ولم يرسلوا بقيتها إلا أثناء حرب أكتوبر
سنة ٧٣ . . . أما الطائرات وسلاح الردع الذى وعد به بريجنيف فقد كان مجرد
كلام .

هكذا كان السوفيت معنا دائماً . . . يضعوننا في موقف لا نملك فيه أن نتخذ
قراراً . . . في ٧ مارس أعلنت في خطابى أننا غير ملتزمين بوقف إطلاق النار
كما أعلنت انتهاء مبادرة روجرز وكان المفروض أن أبدأ بعد هذا مباشرة
حرب الاستنزاف ولكن عدم وفاء السوفيت بوعودهم جعلنى غير قادر
على الحركة في ذلك الوقت . . .

٨

كانت مبادرتى التي أعلنتها في ٤ فبراير سنة ١٩٧١ نقطة بدء لمعركة سياسية
لأنه لم يكن في مقدورى في ذلك الوقت أن أفتح معركة عسكرية وكتيجة
لمبادرتى اتصلت بنا أمريكا واقترحت أن يزورنا روجرز فرحبت . . .

وكانت صدمة للاتحاد السوفيتى وعمالته وخاصة من كان منهم في مراكز القوى .
كان قد أصبح واضحاً لمراكز القوة هذه والمتآمريين أنى بدأت أكسب
أرضاً في مصر وخارج مصر ولكن صراعهم كان تحت السطح مما جعلهم
يعجلون بعملية التآمر للخلاص منى . . .

طلبوا منى في أول الأمر أن أعين وزير الداخلية وهو أحد كبار
المتآمريين وعمالء السوفيت رئيساً للوزراء ولكنى رفضت . . . وكنت قبل ذلك
قد قررت تصفية على صبرى عميد العمالء السوفيت في مصر .

وفي لقاء بينى وبين السفير السوفيتى قلت له : « أنا حريص على العلاقات
معكم ولكنى أرجو أن تبلغ القيادة السوفيتية أنى قررت تصفية على صبرى
من القيادة السياسية وقد أخبرتك بهذا الأمر مع أنه من صميم شئوننا الداخلية
التي لا أقبل فيها تدخلا من أحد ولكنى أخشى عندما أصفيه أن تتحدث صحف
الغرب عن تصفيه رجل موسكو الأول في مصر وأن يسبب هذا لكم شيئاً من
الحساسية ، وأرجو أن تعلموا أنه لا يوجد لموسكو رجل في مصر فأنتم تتعاملون
مع الحكومة لا مع أفراد . . . وأنا أصنى على صبرى لأنى أقبل الخلاف في الرأى
ولكن لا أقبل الصراع على الإطلاق . . . »

بدأت مراكز القوى أو على التحديد مركز القوة رقم واحد الاجتماعات
والتحريض وبدأ الناس يرسلون لى شكاوى ضدهم موقعة ويخبروننى
بالتعليقات التي صدرت إليهم من الاتحاد الاشتراكى الذى كان تحت سيطرتهم
فكنت أحيل هذه الخطابات إلى المتآمريين أنفسهم وكنت أرقب حتى إذا اعتدى
أحدهم على واحد من أصحاب الشكاوى طالبته بالمبرر وفتحت المعركة . . .
وفي أواخر إبريل أصابهم الحمى فأكثروا من الاجتماعات والتحريض

وأطلقوا المزيد من الإشاعات وكان عندهم جهاز إشاعات يفخرون بكفاءته
إذ كانوا يقولون إنه باستطاعتهم أن يطلقوا الإشاعة من القاهرة فنشيع
في جميع أنحاء البلاد ثم تعود إليهم في زمن قياسي . . وهو تكتيك معروف
في روسيا بما يسمونه مراكز التبيح . .

كنت قد رقت معركتي معهم على أن تكون في عيد العمال وهو أول مايو
سنة ١٩٧١ . . وقد حاولوا إقشال هذا الاجتماع بكل الوسائل . . ولكنهم
فوجئوا بأن خطابي استولى على اهتمام الناس فكان اجتماعاً من أتيح الاجتماعات .

وفي يوم ٢ مايو سنة ١٩٧١ ، أقلت على صبرى من جميع مناصبه في سطر
واحد صدر في الصحف . . ففرح الشعب بذلك فرحاً عظيماً وفي نفس الوقت
زادت عند المتأمرين حمى التآمر والتحريض والاجتماعات والمناقشات
وهم يظنون أني لا أعرف شيئاً مما يدور . . أردت أن أكمل المعركة التي فتحتها
فعدت عدة اجتماعات في القنات المسلحة وقلت في آخر خطبة لي : « لن
أسمح بمراكز القوة ولا بالصراع وأي واحد جيعمل حاجة ضد مصر
أنا حاقمه . . » وكان يجلس بجانبى محمد فوزى وزير الحرية وقتذاك وهو
واقع تحت تأثيرهم . .

كان المقروض أن أذهب في يوم الخميس ١٣ مايو سنة ١٩٧١ إلى
مديرية التحرير ولكني علمت أنهم قد دبروا كميناً هناك لاغتيالى فأجلت
الرحلة معتزلاً بأني مجهد . . وقررت أن أتخلص منهم ولكن كان لابد من بيئة . .
منذ تاريخ توليتى في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٧٠ إلى ١١ مايو سنة ١٩٧١ ،
كانت هناك أسباب كثيرة للتخلص منهم ولكن كانت تنفضى البيئة . . إلى أن
أتى يوم ١١ مايو سنة ١٩٧١ فجاءنى ضابط بوليس شاب لم تكن لي به سابق
معرفة . . وهو يجمل معه شريط تسجيل عليه مكالمة تليفونية بين اثنين من
مراكز القوة يتضح فيها تأمرهم على وعلى الدولة وكيف كانت الإذاعة محاصرة
يوم جلسة اللجنة المركزية للاستفتاء على مشروع الوحدة . . حتى إذا لجأت
إلى الإذاعة لأخاطب الشعب أحاصر هناك ويغتالونى . .

عندما وصلتني هذا الدليل قلت يجب أن أصفهم على الفور فلم يعد هناك
شك في تأمرهم على مصر - بدأت بإقالة وزير الداخلية زعيم التآمر . .
وفي الساعة الحادية عشرة إلا ثلاث دقائق من مساء نفس اليوم ١٣ مايو سنة ١٩٧١

جامعى أشرف مروان (وهو زوج كريمة عبد الناصر) وكان يعمل مديراً
لمكتب سامى شرف ، وهو يحمل استقالات رئيس مجلس الأمة ووزير الحرية
ووزير الإعلام ووزير شئون رئاسة الجمهورية وأعضاء من اللجنة المركزية
وأعضاء من اللجنة المركزية العليا . . وكان المقصود بهذه الاستقالات أن يحدث
انهيار دستورى في البلد . . قبلها جميعاً وأعلنتها على الشعب في الحال
وحددت إقامتهم في بيوتهم . . وفي نفس الليلة أجريت تعديلاً وزارياً
وأعيد تشكيل الوزارة ولم يحدث أى انهيار دستورى مما كانوا يطمحون به بل
على العكس خرج الناس إلى الشوارع وهم يهللون فرحين بما تم لا يعرفون ماذا
يفعلون فقد كانت الفرحة أكبر من أن تحتويها صدورهم . .

وهكذا تخلصت مصر من كابوس مركز القوة الأساسى الذى شل حركتها
سنوات طويلة . .

ولكن كان من الضرورى أن نتخلص من آثار هذه المراكز التي ظلت جائئة
فوق الصدور سنة بعد سنة تعبت بأقدار الناس تزرع الخوف في الإنسان المصرى
وتعطل العدالة وتشيع الحقد وتذيق الناس من ألوان القهر والتعذيب ما لا طاقة
لهم به وبحرمهم من أهم مقومات الحياة وهي الحرية . . فأمرت بحرق
جميع شرائط التسجيل الموجودة في وزارة الداخلية . . وكان هذا رمزاً لإعادة
الحرية إلى الناس . . فقد أمرت على الفور بإغلاق جميع المعتقلات وتحريم
الإعتقال وأعلنت أن لكل مواطن الحق في أن يفعل أو يقول أى شيء
في ظل سيادة القانون .

كان ما حدث في ١٥ مايو سنة ١٩٧١ والأيام التي تلته تصحيحاً لمسار ثورة
٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ولكنه كان في نفس الوقت بمثابة اللبنة الأولى في بناء
الاجتماع الاشتراكى الذى نعيشه اليوم والذي يتسم بالعدل الاجتماعى
الحقيقى لا بالشعارات ، وبالعامل الإيجابى والأهداف الساطعة في وضوح النهار
لا التفسيرات المتنوية أو الفلسفات الدخيلة علينا البعيدة عن قيمنا العبرية ،
وعن إيمان هذا الشعب بالرسالات السماوية وتمسكه بثرث وتقاليده العائلة
المصرية الأصيلة . .

جاء بودجورنى لزيارتي في أواخر مايو سنة ١٩٧١ ، وكانت صحف الغرب كما تنبأت فيما مضى قد نشرت أن رجل موسكو الأول في مصر بل رجال موسكو كلهم قد وضعوا في السجن . .

وفعلا نشرت بعض صحف الغرب صورة بودجورنى في زيارته لمصر وهو يتعرض عملاء موسكو في ملابس السجن . .

اجتمعت به وطلب منى أن تعقد مصر معاهدة مع الاتحاد السوفيتى . .

لم أعارض ولو أنني قلت إن التوقيت ليس سليماً فمراكز القوة رجالكم في مصر ما زالوا في السجن ولم يحاكموا بعد فأنتم بعقد المعاهدة تسيئون إليهم أمام الشعب لأنكم بهذا تؤكدون للشعب أنهم هم الذين كانوا يمحسون مصالحكم ولكنه كان متلهفاً على عقد المعاهدة وقال إن المكتب السياسى قد اجتمع في موسكو وأصر على المعاهدة . . قلت وكان هدفي أن أطمئنتهم فقد كنت أعرف أن من طبعهم أن يتركوا أنفسهم فريسة للشكوك في كل علاقاتهم مع الغير . والشك في نظرية الروسى طبيعة ثانية معروفة سواء وقت القيصرية أو الشيوعية . .

وفي اليوم التالى عقدنا المعاهدة وذهبت مع بودجورنى لأودعه في المطار وطلبت منه وهو بهم بركوب الطائرة أن ينقل للقادة السوفيت رسالة منى وهى . . الثقة . . الثقة . . فقد شعرت أنهم مهتزون وكنت أخشى من هذا على معركتنا . .

أثناء اجتماعى مع بودجورنى قلت له إننا غير سعداء بهذه المعاملة التى تعاملونا بها ومع ذلك فنحن نعقد معكم هذه المعاهدة لثبت لكم حسن نوايانا فقال لى : « بعد أربعة أيام من وصولى إلى موسكو سنرسل إليك كل ما طلبته من سلاح فوراً بما في ذلك سلاح الردع » . .

كان هذا في أواخر مايو سنة ١٩٧١ ولكن فات يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر وأكتوبر ولم يحدث شيء مما وعد به بودجورنى . . أسوأ ما كان

يضايقتنى من الاتحاد السوفيتى أنهم كانوا في أغلب الأحيان يصمتون كالقبر . . كنت استدعى السفير السوفيتى مرات ومرات وأبعث إلى السوفيت بالرسالة بعد الأخرى . . ولكن لا إجابة وكأنك تتصل بأشخاص لا وجود لهم إلا في خيالك .

في يوليو سنة ١٩٧١ حدثت ثورة السودان الشيوعية فالتحذت موقفاً حاسماً من هذه الثورة وقلت نحن نشجب هذا الذى حدث ولا أقبل أن يقوم حكم شيوعى على حدودى وما هى إلا أيام قليلة فعلا حتى سقطت هذه الثورة وعاد نميرى رئيساً للجمهورية بعد أن تخلص من أعدائه .

اتسعت الفجوة بينى وبين السوفيت بعد موقفى من ثورة السودان فانقضى يوليو وأغسطس وسبتمبر دون أى رد من السوفيت سوى أن القادة السوفيت في مصيقتهم بالقمر . .

وأخيراً في أواخر سبتمبر سنة ١٩٧١ جاءتنى رسالة منهم بأنهم على استعداد لاستقبالى في ١١ أكتوبر سنة ١٩٧١ - وكنت قد وصلت في هذه المرحلة إلى درجة التشبع وكان لا بد لأى إنسان في موضعى أن يفقد أعصابه نتيجة لهذا الإهمال المتعمد من جانب السوفيت سنة كاملة تقريباً - ومع ذلك كظمت غيظى وسافرت إلى موسكو وبدأنا المباحثات . . أعدت نفس الكلام الذى قلته لهم في ١ ، ٢ مارس سنة ١٩٧١ . . « يا جماعة أنا أقبل أن تضعونا خلف إسرائيل بخطوة ولكن أن تكون المسافة بينى وبين إسرائيل عشرين خطوة فهذا أمر لا يحتمل » . كانوا كهادتهم يتركوننى أتكلم كما أشاء وأحياناً يشتبك بعضهم معى فيما عدا بريجنيف الذى يقف دائماً موقف المتفهم ولا يدخل فى أى اشتباك .

وعدونى هذه المرة أن يرسلوا لى الطائرات بالصواريخ ومعها المربون الذين سيدربون طيارينا المصريين عليها . . ولكنهم تنازلوا هذه المرة عن الشرط الذى ينص على أن لا تطير هذه الطائرات بالذات إلا بإذن من موسكو . . وفي نهاية اجتماعنا قلت لهم : « نحن الآن في ١٢ أكتوبر . . كل ما أرجوه أن ترسلوا هذه الأسلحة بأسرع ما يمكن حتى نستطيع قبل نهاية السنة أن نكون في وضع يمكننا من تحريك الموقف » .

وكنت قد أعلنت أن عام ١٩٧١ هو عام الحسم فيما حل سلمى وإما معركة .

وافقوا وعدت إلى مصر وأنا على ثقة أن الأسلحة التي وعدوا بها سوف تكون قريباً في الطريق إلينا . .

انقضى أكتوبر وتوفمبر ولكن كل شيء كما هو . . استدعيت السفير السوفيتي وأرسلت إلى الكرملين عدة رسائل واكن لا إجابة . . وإذا بي أفاجأ في ٨ ديسمبر سنة ١٩٧١ بالمعركة بين الهند وباكستان وبأن الاتحاد السوفيتي طرف فيها . . استدعيت السفير السوفيتي يوم ١٢ ديسمبر وقلت له إنه لم تصلني قطعة سلاح واحدة إلى الآن ولذلك أرجوك أن تبلغ القادة السوفيت أنني أطلب مقابلتهم في موسكو حتى نبحث عن وسيلة نغطي بها الموقف الذي كشفوني فيه عن سنة الحسم . . وقيل أن ينهى ديسمبر بأربعة أو خمسة أيام جاءني السفير ليبلغني أن القادة السوفيت مواعيدهم مشحونة ولكنهم على استعداد لاستقبال في ٢، ١ فبراير سنة ١٩٧٢ . .

كنت أعرف أني سأواجه حملة مسعورة لأنني سبق أن أعلنت أن سنة ١٩٧١ هي سنة الحسم . وفعل حدث هذا .

في أول يناير ١٩٧٢ حاول روجرز وزير خارجية أمريكا أن يكفر أمام الرأي العام اليهودي عن موقفه إلى جانبي ذات يوم بعد أن أنبته جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل علناً أمام الكنيست في خطاب مشهور فأعلن أنه قد انقضت سنة ١٩٧١ ولكن بلا حسم أو خلافه وأن أمريكا ستعطي لإسرائيل المزيد من العتاد والسلاح وكل شيء .

بل وأعلن أيضاً أن الولايات المتحدة قد دخلت منذ نوفمبر ١٩٧١ في تصنيع الأسلحة مع إسرائيل . . وأنا أمريكا ستحتفظ لإسرائيل بالتفوق على العرب مجتمعين وليس على مصر وحدها . .

كانت حرباً نفسية شرسة كما توقعت ، ولكن الشعب المصري بحسه الصادق أدرك أن المشول عن هذا هو الاتحاد السوفيتي . .

في يناير سنة ١٩٧٢ كان الشعب هنا في أوج غضبه على الاتحاد السوفيتي رغم أنني لم أطلع الناس على الحقائق بل على العكس كنت أدافع عن الاتحاد السوفيتي في جميع أحاديثي وخطبي . .

ذهبت إلى موسكو في ١ ، ٢ فبراير سنة ١٩٧٢ وسألهم عن المشول عن تأخير الأسلحة التي وعدوني بها - فرد بريجنيف وقال إنه المشول نظراً للإجراءات المكتبية والروتينية . . إلخ . . فقلت : « أنا لست مقتنعاً بهذا الكلام وإذا تكررت ما حدث مرة أخرى فسوف أخخذ قراراً ما . . » ثم أعدت على مسامعهم وأنا في قمة الغضب نفس الكلام الذي سبق أن قلته في زيارتي السابقة وخاصة النقطتين الأساسيتين وهما أننا لا نريد جندياً سوفيتياً ليحارب معركتنا وأنا لا نسعى إلى مواجهة بينهم وبين أمريكا . . فأنهوا المناقشة بقراءة قائمة بالأسلحة التي وعدوا بإرسالها فوراً . . ولم تكن أيضاً الأسلحة الأساسية . . ولكنها كانت على أي حال أحسن من لا شيء . .

فعدت إلى مصر ولكن صبري كان قد نفذ . .

في ذلك الوقت تحدد أول لقاء قمة بين بريجنيف ونيكسون من أجل الوفاق في ٢٠ مايو سنة ١٩٧٢ . وبدأ السوفيت يرسلون لنا الأسلحة التي يريدونهم لإرسالها ، أما التي نريدها نحن فيحجبونها عنا . . وفي ١٥ مايو سنة ١٩٧١ جاءني المارشال جريتشكو ومعه قائد الطيران السوفيتي وأحضروا معهم طائرة جديدة اسمها سوخوي ١٧ وأقاموا عرضاً للطائرة . .

كان جريتشكو يحمل معه بياناً مكتوباً كالعادة في اللجنة المركزية وطلبوا أن نصدره وفيه أننا قد تسلمنا قاذفات بعيدة المدى (وهو غير صحيح) . . فأصدرناه بل ومنحتهم نياشين وسافروا . .

كنت أعلم أن الهدف من زيارة جريتشكو لنا قبل خمسة أيام فقط من وصول نيكسون إلى موسكو هو أن يقوم السوفيت باستعراض نفوذهم في الشرق الأوسط ومع ذلك لم أمانع بل منحت جريتشكو ومن معه نياشين . .

نسيت أن أقول إن السفير السوفيتي فاجأني برسالة عاجلة من القادة السوفيت في أواخر إبريل سنة ١٩٧٢ وقبل زيارة نيكسون المحدد لها ٢٠ مايو ١٩٧٢ يطلبون فيها أن أزورهم في أواخر إبريل . .

طبعاً كان هدفهم من كل هذا أن يثبتوا للولايات المتحدة أن أقدامهم ثابتة في منطقة الشرق الأوسط ورغم «قرق» سافرت وانفقتنا في هذا اللقاء - القادة السوفييت وأنا - أنه بعد أن انتهى زيارة نيكسون في ٢٠ مايو ، عليهم أن يرسلوا إلى تحليلاً للموقف ثم يبدأوا فوراً في توريد الأسلحة المتأخرة التي تعاقدا عليها . . . وذلك في خلال خمسة شهور أي من يونيو سنة ١٩٧٢ إلى أكتوبر سنة ١٩٧٢ ميعاد الانتخابات في أمريكا . . .

وكانت الفكرة أن نكون مستعدين في نوفمبر سنة ١٩٧٢ بعد انتخاب الرئيس الأمريكي فإذا لم يكن هناك طريق إلى الحل السلمي استطعنا أن نتحرك عسكرياً . . . وافقوا على هذا وعدت إلى مصر .

تمت زيارة نيكسون للاتحاد السوفيتي في مايو سنة ١٩٧٢ ، ثم صدر أول بيان وفاق بين موسكو وواشنطن يقبول بالاسترخاء العسكري في الشرق الأوسط . . .

وكان صدمة عفيفة لنا لأننا كنا كما سبق أن قلت خلف إسرائيل عسكرياً بعشرين خطوة ومعنى الاسترخاء العسكري في هذا الوضع هو التسليم من جانبنا لإسرائيل . . .

ثم جازى التحليل السوفيتي بعد اللقاء مع نيكسون ولكن متأخراً أكثر من شهر . . . في ٦ يوليو سنة ١٩٧٢ . . . وكان التحليل السوفيتي يوضح أنه لم يحدث أي تقدم بالنسبة لقضية الشرق الأوسط مع أمريكا . . . تماماً كما تنبأت لهم في زيارتي لموسكو في أواخر إبريل سنة ١٩٧٢ وخاصة لأنها سنة الانتخابات في أمريكا . . .

والأغرب من هذا أن التحليل السوفيتي الذي حملته لي السفير السوفيتي متأخراً عما اتفقنا عليه في لقاء آخر إبريل سنة ١٩٧٢ لم يذكر شيئاً على الإطلاق عن إرسال الأسلحة المطلوبة كما اتفقنا . . .

بل إن هذا التحليل الذي كان يقع في أكثر من صفحتين ونصف لم يتعرض للمعركة والأسلحة المطلوبة كما اتفقنا في إبريل إلا في خمسة سطور أخيرة تقول ببساطة إننا لا نستطيع أن نبدأ معركة وإن لم خيرة في هذا الموضوع وكيف أنهم بدلوا مجهوداً خارجياً في إقناع نيكسون بتفويض قرار ٢٤٢ لمجلس الأمن .

قلت للسفير السوفيتي : هل هذه هي الرسالة . : قال نعم . . قلت لقد كنت معنا في موسكو في أبريل الماضي وسمعت اتفاقنا بارسال الأسلحة قبل موعد الانتخابات الأمريكية . . قال نعم . . قلت إن هذه الرسالة لم ترد على ذلك . . قال إن هذه هي الرسالة التي تلقيتها . . .

قلت إنني لا أقبلها . . بل وأرفض أسلوب القادة السوفيت في التعامل معنا . . أرجو أن تبلغ القادة السوفيت كل ما سأقوله لك كرسالة رسمية . .

١ - إنني أرفض هذه الرسالة التي أبلغتها لي من القادة السوفيت شكلاً وموضوعاً ولا أقبلها وأرفض هذا الأسلوب في التعامل . . .

٢ - إنني أقرر الاستغناء عن جميع الخبراء العسكريين السوفيت (وهم حوالي ١٥,٠٠٠) وأن يعودوا إلى الاتحاد السوفيتي في فترة أسبوع من اليوم وسأعلن وزير الحربية غداً بهذا الأمر . . .

٣ - هناك معدات سوفيتية وهي أربع طائرات ميج ٢٥ وهناك محطة للحرب الإلكترونية ويعمل عليها طاقم سوفيتي فلما أن تبيعوها لنا أو تسحبوها إلى الاتحاد السوفيتي .

٤ - كل هذا لا بد أن يتم في بحر أسبوع .

ولم يصدق السفير السوفيتي واعتقد أنها عملية ابتزاز BLACKMAIL في اليوم التالي استدعيت وزير الحربية وأبلغته بقراراتي لينفذها ، وفي يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٧٢ كانت جميع قراراتي قد نفذت ورفضوا أن يبيعوا لنا الطائرات وأجهزة التشويش فسحبوها معهم .

من أسباب هذه القرارات موقف الإتحاد السوفيتي منا طبعاً ولكن كان هناك سبب آخر مهم وهو أنني قد بليت استراتيجيتي على أساس أن لا أبدأ المعركة وعلى أرض مصر بخبراء سوفيت .

حلل السوفيت والغرب وإسرائيل طرد الخبراء السوفيت ووصلوا في النهاية إلى قرار خاطيء أفادني كما توقعت في استراتيجيتي . وهو أنني قد استقر رأيي على أن لا أدخل المعركة . . وقد أسعدني هذا التحليل لأن هذا ما كنت أود

أن يتوجهوا . . . ومن الأسباب الأخرى لطرده الخبراء السوفيت ، أن السوفيت كانوا قد بدأوا يشعرون أن لهم وضعاً ممتازاً في مصر لدرجة أن السفير السوفيتي بدأ يأخذ لنفسه وضعاً أشبه ما يكون بوضع المستدوب السابق البريطاني أيام الاحتلال .

وقد جئني مدير العمليات العسكرية وكان الجسمي في ذلك الوقت عن عمليات الشوشن والأربع طائرات والمعدات التي يعمل عليها خبراء سوفيت فقال إنهم كانوا يرفضون تنفيذ أي أمر إلا بعد أن تأذن لهم موسكو .

وكان من أهم الأسباب لفرارني هذه التي أردت أن أصنع السوفيت في حجمهم الطبيعي كدولة صديقة لأنهم ظلوا في مرحلة من المراحل أن مصر أصبحت في جيبهم ، وظن العالم أن الإنقاذ السوفيتي هو ولي أمرنا فسأردت أن أقول للسوفيت إن مصر إرادتها تبيع فقط من ذاتها وأن أهول للعالم إن أمرنا بيدنا وسيدنا في برعب في الكلام عن مصر ، يسألني إنيما ويشكلم معنا لا مع الإنقاذ السوفيتي .

الفصل التاسع

حرب أكتوبر

لم أذهب إلى الإسكندرية كما كانت عادتني في كل صيف منذ هزيمة يونيو ٦٧ إلى سنة ٧٢ ، ولكنني بعد أن اتخذت قرار إخراج الخبراء السوفيت أحست بشيء من الراحة فقلت أذهب إلى الإسكندرية للاستجمام وأصدرت أمراً إلى مكنتي بأنه إذا حاول السوفيت الاتصال بي أن يقولوا لهم إنني في المصيف بالإسكندرية كما اعتاد السوفيت أن يقولوا لنا إن قادتهم في القرم ولذلك فلا وسيلة للاتصال .

وبمجرد وصولي إلى الإسكندرية بدأت الإعداد للمعركة رغم أن العالم كله بما فيه مصر فسروا طردى الخبراء السوفيت بأنه قرار بعدم الحرب فاستدعيت حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي وقلت له إن أمريكا بعد هذه القرارات التي اتخذتها لا بد أن تتصل بنا وعليه أن يعد نفسه للبدائل المختلفة لمناقشتهم ، كما استدعيت وزير الحربية وأبلغته أن يجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة في اليوم التالي ويخطره بأنني قد قررت أن تكون القوات المسلحة جاهزة للقتال ابتداء من يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩٧٢ ، استدعيت بعد ذلك سيد مرعي وكان وقتها أمين الاتحاد الاشتراكي وطلبت منه أن يجتمع بأمناء الاتحاد الاشتراكي ويبلغهم أن معنى هذه القرارات هو أننا سوف ندخل الحرب لا العكس ، وطلبت من ممدوح سالم وكان وقتها نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية ومثولاً عن الدفاع المدني أن يعد الجبهة الداخلية ويسد جميع الثغرات فيها .

قبل أن يتقضى أسبوع على وجودي بالإسكندرية اتصل كسينجر وطلب تدبير لقاء على أي مستوى فاتفقنا على أن يلتقي بحافظ إسماعيل في سبتمبر أو أكتوبر من نفس السنة ولكن اللقاء تأجل عدة مرات فلم يتم إلا في فبراير سنة ١٩٧٣ .

وفي أوائل أغسطس سنة ٧٢ خرج القذافي فجأة على العالم بما يسمى الوحدة الإندماجية وكنت قد وعدته بزيارة ليبيا في ذلك التاريخ فذهبت إلى ليبيا لأرى ماذا يريد ووجدته مصمماً على هذه الوحدة بل وقطع شوطاً كبيراً في تعبئة الجماهير عن طريق الراديو والتليفزيون دون أن يتصل بي على الإطلاق . . . وفوجئت بعد وصولي إلى بنى غازي بأنه قد أعد مشروع الوحدة الإندماجية ولم أكن متحمساً للسرعة التي أراد بها القذافي أن يتم هذا الموضوع ولكنني في النهاية آثرت أن أعطي موقف القذافي كطالب بعض زملائه أعضاء مجلس الثورة الليبي ووافقت على اجتماع وقدين لمناقشة هذا الموضوع . . . كان المشروع قد أعده القذافي وتعجبت عندما وجدت أن هذا المشروع يقضى بأن أتولى رئاسة الدولة الجديدة التي ستكون من مصر وليبيا وأن القذافي سيتولى منصب نائب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة للدولة . . . وقد أوضحت للقذافي وزملائه أنني لا أوافق على هذا المشروع وبالذات على تعيين القذافي لقيادة القوات المسلحة فقد كانت لنا تجربة في هذا انتهت بالفشل عندما يتولى من يعمل بالسياسة القيادة الفعلية للقوات المسلحة في تجارب مريرة لنا في معركة ١٩٥٦ ثم في حرب اليمن وأخيراً في معركة ١٩٦٧ وأن القوات المسلحة يجب أن تكون محترقة وأن لا تتدخل في السياسة . . . ولم يعترض القذافي . . . والسبب الثاني لإعتراضي كان أن إتمام وحدة كاملة في هذا الوقت سوف يسبب متاعب اقتصادية للشعب الليبي لا داعي لأن يتحملها وستكون مسئولين عن هذا وأخذ المجتمعون باقتراحى وهو أن تسير هذه الوحدة بالتدرج . . . وعدت إلى مصر .

وفي يوم ٢٩ أغسطس سنة ١٩٧٢ كتبت رسالة للإتحاد السوفيتى ، وأنا أعتبر أن هذه الرسالة من العلامات الأساسية في تاريخنا فقد كانت تحمل توصيفاً كاملاً لكل ما بيننا وبين الإتحاد السوفيتى . . . في هذه الرسالة أعلنتم أنى أمنهم فرصة إلى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٢ بعد أن شرحت الموقف كاملاً بيننا وبين السوفيت فإذا لم تحدث أية استجابة لمطالبنا سأكون حراً في اتخاذ ما أرى من قرارات ولكنى كنت في واد والسوفيت في واد آخر ، فقد كانوا يعدون لافتتاح الجامعات المصرية في أكتوبر سنة ١٩٧٢ (إذ جاءنى المخطط الصادر من الأحزاب الشيوعية العربية - وهو صادر طبعاً عن موسكو - عن كيفية تحريك العملاء داخل الجامعة .)

كان المفروض أن يقدم لى وزير الحربية تقريراً عن الخطة والهيكل العام لها فقد كلفته كما أسلفت بجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة لهذا الغرض . . . بل إنه عاد لى بعد يومين وقال إنه جمع المجلس الأعلى وأبلغهم رسالتى وإن القوات المسلحة المصرية ستكون جاهزة ليس في ١٥ نوفمبر ١٩٧٢ كما طلبت وإنما ستكون جاهزة في أول نوفمبر ١٩٧٢ . . .

وهنا أريد أن أفسر لماذا اخترت ١٥ نوفمبر ١٩٧٢ لتكون القوات جاهزة فقد كانت الانتخابات لرياسة الجمهورية الأمريكية ستم في الأيام الأولى من نوفمبر سنة ١٩٧٢ وأردت أن أعطي الرئيس المنتخب فرصة لمحاولة حل المشكلة سلمياً فإذا لم يتم ذلك كان لا بد أن تكون جاهزين للتحرك عسكرياً . . . من أجل ذلك فإني دعوت المجلس الأعلى للقوات المسلحة إلى اجتماع في ٢٨ أكتوبر ١٩٧٢ لاستوثق من استعداد القوات المسلحة وطلبت أن يدلى القادة لى بتقاريرهم عن استعداد القوات وخاصة أننا كنا نقرب من نوفمبر ١٩٧٢ الذى حددته مع وزير الحربية . . . وحينما ذكرت القادة برسالتى التى كلفت وزير الحربية بنقلها إليهم في الصيف . . . فوجئت بالجنرال نوال المسئول عن الشؤون الإدارية للقوات المسلحة يرفع يده ويسأل : « أنا لم أسمع أى رسالة من قبل وأريد أن أسأل ما هى هذه الرسالة الى سيادتك بعثتها لنا ؟ أنا ما عندى فكرة عن أى رسالة جت من سيادتكم . . . نظرت إلى وزير الحربية وقلت له أمام المجلس الأعلى للقوات المسلحة « لى ذى ده يحصل ؟ احنا مش اتفقنا في الصيف إنك تجمع المجلس وتبلغهم يكونوا مستعدين للمعركة في ١٥ نوفمبر ؟ ألم تعد لى بعد يومين لتقول إنك جمعت المجلس وإنهم سيكونون مستعدين اعتباراً من أول نوفمبر . . . أى قبل الميعاد الذى حددته ؟ » فهمس في أذنى « أنا ما رضيتشى يا أفندم أقول للكل . . . أنا قلت بس لقادة الجيوش عشان السرية . . .

سرية ؟ سرية على الناس الذين سيحاربون ؟ وضع غريب . . . قلت في نفسى . . . لى يقدروا قادة الجيوش يحاربوا من غير المجلس الأعلى للقوات المسلحة ؟ ثم إن الجنرال الذى سأل هذا السؤال كان هو المسئول عن الشؤون الإدارية التى عليها أن ترعى الجيوش بإمدادها بالطعام والماء والسخيرة والبنزين . . . الخ . . . وبدونها لن تتمكن أى وحدة من القوات المسلحة من تنفيذ مهامها القتالية . . .

عندئذ تأكدت عندي الشكوك التي كنت أحسها لزاماً وزير الحربية فهو لا يريد أن يحارب لأنه يخشى المعركة فبدأت أسأل قادة الجيوش . . سألت قائد الجيش الثالث عبد المنعم واصل : - أنت حالك إيه ؟ قال لي : - « يا أفندم احنا مكشوفين . . وأى حشد حتمله حيكشفوه اليهود ويضربوه قبل ما يعدى . . ليه ؟ لأن اليهود مقيمين ساتر ترابي ارتفاعه ١٧ متر على جانب القناة وإحنا تحت هذا المستوى . . حوالي ٣ أمتار فقط . . وهذا جعل العساكر تنشأ عندهم فكرة أن اليهود عاملين وراء هذا الساتر الكترونات وأشياء لا قبل لهم بها » .

ما معنى هذا الذي أسمع ؟ إن الخطة الدفاعية ٢٠٠ التي استلمتها من عبد الناصر قد أنهارت . . فقبل أن يموت عبد الناصر بشهر واحد دعاني وذهبنا سوياً إلى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة في مدينة نصر وهناك جمع القادة المصريين والخبراء السوفيت ومحمد فوزي وزير الحربية في ذلك الوقت ووقف الخبراء السوفيت والقادة المصريون لمدة ٧ ساعات أمام عبد الناصر وأمامي يشرحون الخطة الدفاعية ٢٠٠ التي أقرها الجميع . كان هذا هو الوضع العسكري الذي تسلمته من عبد الناصر . . خطة دفاعية سليمة ١٠٠٪ ولكن لا وجود لخطة هجومية .

كان محمد فوزي وهو وزير الحربية دائم المحافظة على الخطة الدفاعية ٢٠٠ فإذا ارتفع اليهود مترًا ارتفعنا نحن مترًا ونصّف فلما جاء من بعده وزير الحربية الجديد واسمه صادق ألغى ما كان يفعله سلفه فوزي فلم يرتفع مترًا واحداً . . وهكذا وصل اليهود إلى ١٧ متر وظللنا نحن ٣ أمتار فقط .

سألت الجنرال سعد مأمون قائد الجيش الثاني (وهو الآن محافظ القاهرة) فقال نفس كلام قائد الجيش الثالث قلت لهم : « آسف - أنا جاي النهارده وفاكر أنكم جاهزين لتنفيذ أى خطة نضعها . . أقوم ألقى الخطة الدفاعية منارة ؟ لإزاي نهجم واحنا مش جاهزين حتى دفاعياً . . عاوزينا نكرر هزيمة ١٩٦٧ ؟ »

أهيت الاجتماع وخرجت وقد استقر رأيي على تغيير وزير الحربية المتخاذل الذي كذب على ، واستدعيت الجنرال أحمد إسماعيل الذي كان مديراً للمخابرات في ذلك الوقت وهو الذي أنشأ أول خط دفاعي في سنة ١٩٦٧ من بور سعيد

للسويس ، وطلبت منه أن يعمل قائداً عاماً للقوات المسلحة على أن يأتي في اليوم التالي لحلف اليمين كوزير للحربية ، وفي نفس الوقت أرسلت سكرتيري الخاص إلى وزير الحربية المتخاذل ليلغيه أني قبلت استقالته . . وأعطيت أوامري لرئيس أركان حرب القوات المسلحة بأن يتولى القيادة إلى أن يحلف الجنرال أحمد إسماعيل اليمين فلم يكن في إمكانني أن أترك أي فراغ في القوات المسلحة مهما كان بسيطاً ولو للحظات .

طلبت من الجنرال أحمد إسماعيل بعد أن تسلم عمله تصحيح الخطة الدفاعية ٢٠٠ وإعادةتها إلى ما كانت عليه فإذا كان الساتر الترابي لليهود ١٧ مترًا فلا بد أن نكون نحن ٢٠ مترًا واعتمدنا لهذا ٢٠ مليون جنيه .

ولكن رغم هذا لم أستطع أن أنام ليلة واحدة بعد اجتماعي بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة في أكتوبر سنة ١٩٧٢ . . كيف تتكرر مأساة سنة ١٩٦٧ ؟ ثم إن القوات المسلحة هي أمل البلد فكيف يحدث فيها هذا التقصير ؟ وإذا حدث أي تحرك من جانب إسرائيل فكيف نرد عليه ؟ واستمر حالى هكذا . . هواجس وقلق إلى أن جاءني الجنرال أحمد إسماعيل في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٧٢ وكان قد تم تعيينه في ٣٠ أكتوبر ليلغيني أن الخطة الدفاعية أصبحت كاملة . . وأنه بصدد إعداد تجهيزات الهجوم .

في أوائل يناير سنة ١٩٧٣ كان الجنرال أحمد إسماعيل قد وضع الهيكل الأساسي للخطة وقد قام بشيء لم يحدث في العسكرية من قبل إذ طلب من كل ضابط على امتداد القناة أن يتسلق الساتر الترابي الذي أصبح ٢٠ مترًا - وينظر أمامه على امتداد ١٠ كيلو داخل سيناء وأن يحدد على الأرض خطته التي يستطيع أن ينفذها بعد العبور . . مما أعطى للضباط ثقة في أنفسهم وجعلهم يشاركون مشاركة فعالة ليس فقط في العمل بل وفي التخطيط أيضاً .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن خطة حرب أكتوبر ١٩٧٣ قد وضعها القوات المسلحة بأجمعها على كل المستويات .

نعود للإتحاد السوفيتي مرة أخرى . . . في أكتوبر سنة ١٩٧٢ كان الرئيس حافظ الأسد في موسكو وعاد منها إلى القاهرة ليلفتني أن السوفييت قد حددوا ١٦ أكتوبر ١٩٧٢ للقاء يتم بينهم في موسكو وبين وفد مصري يرأسه رئيس الوزراء وكان هذا طبعاً تنفيذاً لما قلته في خطابي للقادة السوفييت في ٢٩ أغسطس سنة ٧٢ وسافر وفد من عندي برئاسة رئيس الوزراء عزيز صدقي . . . وقد علمت أن الجلسة من جانبهم كانت كلها انفعالات رهيبية إثر القرارات التي أصدرتها وكيف أن هذه القرارات وتنفيذها قد وضعتهم في وضع صعب أمام العالم . . . وعاد عزيز صدقي رئيس الوزراء المصري بلا شيء . . . مجرد وعود ولم تنفذ .

كان بيننا وبين الإتحاد السوفيتي اتفاقية للتسهيلات البحرية في البحر الأبيض كان عبد الناصر قد وافق عليها سنة ١٩٦٨ لمدة خمس سنوات وكان الباقي منها إلى ذلك الوقت ثلاثة شهور فقط فطلبت من الجنرال أحمد إسماعيل في ديسمبر سنة ١٩٧٢ أن يستدعي السفير الروسي في القاهرة ويبلغه أن قرار مصر هو تجديد الاتفاقية لمدة ٥ سنوات أخرى تنتهي في سنة ١٩٧٨ وكان هدفي من هذا أن أثبت لهم أنه برغم قرار خروج الخبراء السوفيت فيائي لا أرغب في مقاطعتهم . . .

أذكر بعد ذلك زيارتين قام بهما حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي والجنرال أحمد إسماعيل وزير الحربية في نفس الوقت ، الأولى هي لقاء مستشار الأمن القومي المصري بكيسنجر في باريس والثانية هي ذهاب الجنرال أحمد إسماعيل في أواخر فبراير إلى موسكو . . . وكان قد مضى أكثر من ثمانية شهور على صدور وتنفيذ قرار إخراج الخبراء السوفييت . . . وكان قد ثبت للسوفييت أنني لم أتصل بأمريكا قبل هذا القرار كما قررت مراراً وثبت أيضاً أنني كما قلت وكررت ألزم بالجانب الخلفي في معاملتي مع الأعداء والأصدقاء . . . ولقد عقد السوفييت مع أحمد إسماعيل أكبر اتفاقية عقدت بينهم وبين عبد الناصر أو بينهم وبينى . . .

والأول مرة في تاريخهم بدأ توريد بعض أجزاء هذه الصفقة في زمن قياسي على غير عادتهم وقد توقف السوفييت بعد ذلك عن إتمام الجزء الباقي منها باستثناء بعض

المواد التي أرسلوها عام ١٩٧٥ وقد أعلننا عن ذلك . . . وأريد أن أقرر هنا أنه حتى بدون هذه الصفقة كنا سندخل المعركة لأننا كنا قد قررنا ذلك وكان تخطيطنا كله مبنياً على ما كان لدينا من أسلحة قبل تلك الصفقة . وبهذه المناسبة عندما زار وزير خارجية مصر الإتحاد السوفيتي في ١٩٧٦ قرر السوفييت إلغاء جميع الصفقات المتفق عليها معنا كما رفضوا إعادة جدولتي الديون المصرية .

أما من ناحية أمريكا فقد التقي حافظ إسماعيل بكيسنجر في باريس في فبراير ٧٣ ولكن لا شيء جديد . . . وكما كنت أقول دائماً لم يكن من الممكن لأمريكا أو لغيرها من القوى أن تتحرك ما لم تتحرك نحن عسكرياً وكان ملخص ما قاله كيسنجر لحافظ إسماعيل أنهم للأسف لا يستطيعون مساعدتنا لأننا مهزومون وإسرائيل متفوقة .

كان لابد أن أعد للمعركة على المستوى العربي وهنا يجب أن أقرر أن هناك قوة خارجية أقوى من البشر تدير أمورهم وتسيرها حسبما ترى وفي ظروف معينة لا سلطان لنا عليها . . . ولذلك فن العيب أن نقول في أحيان كثيرة أننا صنعنا هذا أو ذلك لأننا في الواقع لم نصنع شيئاً . . . وهذا ما ينطبق على إعدادي للمعركة على المستوى العربي . . . فقد كانت الأمور كلها معدة قبل أن أبدأ أنا في الإعداد أو في التفكير فيه .

في الكويت يعتبرني آل الصباح أحد أفراد عائلتهم فقد كانت لي صلة بعبد الله مبارك الصباح يحكمها الوفاء ، وكان هو في ذلك الوقت من عام ١٩٥٥ وزير داخلية ووزير الدفاع وولي عهد الكويت ولظرف تاريخي أراد الله ، عندما مات جمال عبد الناصر كنت أنا وجابر الأحمد ولي عهد الكويت ورئيس وزرائها صديقين حميمين تتبادل الرسائل .

وفي السعودية كان الملك فيصل صديقاً شخصياً لي منذ واحد وعشرين عاماً وبالذات منذ المؤتمر الإسلامي في سنة ١٩٥٥ وكان وقتها ولي العهد وبرغم حرب اليمن ظللنا أصدقاء لأن معنى الصداقة عنده وعندى واحد .

وفي لبنان كان شقيق سليمان فرنجية . . . حميد فرنجية . . . صديقاً شخصياً لي .

وفي المغرب ترجع صلاتي بالملك الحسن الثاني إلى عام ١٩٦٩ حين ذهبت بدلا من عبد الناصر لأحضر أول مؤتمر إسلامي يعقد من أجل حرق المسجد الأقصى

وهناك توطدت علاقات أخوة وصداقة بيني وبين الحسن وبلغني أن الملك فيصل قال للحسن : « إذا أراد الله لمصر خيراً يحكمها أنور السادات » . وقد عرف عني أثناء المؤتمر أنني واضح وصریح ولا انحاز إلا للحق .

بالنسبة للجزائر كان بومدين يحمل في نفسه حساسية من عبد الناصر لأنه صديق بن بيلا .

وفي تونس نفس الشيء فالجيب بورقية طالما اختلف مع عبد الناصر لأنه صور بورقية على أنه خائن يبيع نفسه لمن يدفع .

هكذا أراد الله أن أكون على علاقة شخصية مع زعماء العالم العربي ولذلك عندما توليت رجباً في جيماً وأبدوا استعدادهم لمعاونتي . فأعلنت سياستي الواضحة وهي أنه بالنسبة للعرب فصر لا تفرق بين دولة عربية وأخرى على أساس ما يسونه بالرجعية والتقدمية أو الملكية والجمهورية . الأمر الوحيد الذي يجب أن نلتزم به جميعاً هو أننا عرب فحسب .

كان على بعد ذلك أن أتبه للوضع الإفريقي ، فذهبت في مايو سنة ١٩٧٣ إلى مؤتمر الوحدة الإفريقية الذي يعقد كل سنة في أديس أبابا ولأول مرة اتخذ المؤتمر قراراً واضحاً بإدانة إسرائيل وقطعت ٨٠٪ من الدول الإفريقية علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل قبل أن تقوم الحركة .

حدث في تلك الفترة أن اغتالت إسرائيل ثلاثة من الزعماء الفلسطينيين في قلب بيروت فأرسلت للرئيس فرنجية أقول إن عليه أن يطالب بدعوة مجلس الأمن وإلا غنلت أنا هذا . فدعا فرنجية إلى اجتماع مجلس الأمن وساندت أنا دعونه بدعوة أخرى من عندي . واجتمع مجلس الأمن وبدأ أعماله بقضية اغتيال الزعماء الفلسطينيين وإذا بالعالم ومجلس الأمن نفسه يتفاجأ بمصر تطرح قضية الشرق الأوسط . استمرت المناقشات لمدة شهرين ثم اتخذ أول قرار في صفنا بأغلبية ١٤ صوتاً من ١٥ أي باستثناء صوت واحد هو صوت أمريكا الذي يعنى الفيتو .

لقد كان هذا نفيلاً للاستراتيجية التي رسمتها بتجهيز الموقف عربياً كما شرحت وإفريقياً في مؤتمر الوحدة الإفريقية في أديس أبابا عام ١٩٧٣ ودولياً بقرار مجلس الأمن الذي أشرت إليه سابقاً ثم في عالم عدم الانحياز الذي اجتمع مؤتمره الذي يعقد مرة كل ثلاثة سنوات في سبتمبر ١٩٧٣ في الجزائر . وكانت كل هذه التواريخ في ١٩٧٣ عام المعركة كأنها منحة من السماء .

في سبتمبر سنة ١٩٧٣ حضرت مؤتمر دول عدم الانحياز في الجزائر وقلت في خطابي إنه لا مفر من المعركة لإسرائيل هي التي تريد لنا هذا . وضعت أوراقى على المنضدة وأخبرتهم بالتسليم الذي نطالبنا به إسرائيل ، وبذلك هيات دول عدم الانحياز للمعركة وكانت الأغلبية في صفى .

بهذا الشكل كان معي أكثر من مائة دولة قبل المعركة بثلاثة أسابيع . في خلال الفترة ما بين يناير إلى سبتمبر سنة ٧٣ كنت قد جهزت الساحة العالمية كلها للمعركة .

- دولياً في مجلس الأمن بقرار بأغلبية ١٤ من ١٥ أي باستثناء صوت واحد هو صوت أمريكا .

- عربياً على مستوى كل الدول العربية مهما اختلفت سياساتها .

- إفريقياً في مؤتمر الوحدة الإفريقية في مايو ١٩٧٣ .

- على مستوى العالم الثالث وعدم الانحياز في مؤتمر الجزائر في سبتمبر ١٩٧٣ .

٣

في داخل مصر لم يكن اهتمامنا منصباً على الناحية المعنوية فحسب . فقد أنفقنا أكثر من ١٢٧ مليون جنيه على إعداد الدولة للحرب ، إذ كان تخطيطي يقوم على أن مصر كلها من الإسكندرية إلى أسوان أرض معركة . كل مصنع . كل محطة كهرباء وضعت لها خطة دفاع بحيث إذا ضرب جزء من المرفق يعمل الجزء الباقى .

في إبريل سنة ١٩٧٣ جاء الرئيس حافظ الأسد إلى مصر في زيارة سرية . كان الفريق الجسمي وقتها مدير العمليات بالقوات المسلحة ، فأحضر لنا المذكورة التي دون فيها المواعيد المناسبة للعمليات الحربية على مدار السنة من وجهة نظر العلوم العسكرية وقد كانت مكتوبة بخط يد الجسمي لأنها سرية ، وهي ثلاثة مجموعات من الأيام . المجموعة الأولى في شهر مايو سنة ١٩٧٣ والثانية في أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٧٣ والثالثة في أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

كانت أنسب هذه المجموعات مجموعة أكتوبر وخاصة أن الجبهة السورية إبتداء من نوفمبر وحتى الربيع غير جاهزة للعمليات نظراً للظروف الطبيعية هناك .

في هذا الاجتماع كنت أنا وحافظ الأسد وحدنا في برج العرب وهي عاصمة الصحراء الغربية فقلت له : « لقد قررت أن أدخل المعركة هذا العام وأعطيت تعليماً بذلك للجنرال أحمد اسماعيل فما رأيك ؟ » . . قال لي : « أنا معاك وداخل وبتجهز نفسنا » .

لم أكن أنوي أن أدخل المعركة في مايو سنة ١٩٧٣ ولكن كجزء من الخداع الاستراتيجي قمت بحملة في الصحف عندي وفي الدفاع الشعبي فما كان من الإسرائيليين إلا أن صدقوا وفي الأيام المناسبة للحرب حشدوا جيوشهم بينما كنت أنا في حالة استرخاء تام . . في أغسطس من نفس السنة فعلت نفس الشيء وكان رد الفعل في إسرائيل هو نفس ما صنعوه في مايو فأعلنوا التعبئة العامة . . ولذلك عندما سئل موشى ديان بعد حرب أكتوبر لماذا لم يعلن التعبئة في أكتوبر قال إن السادات قد دفعني إلى هذا مرتين مما كلفني في كل مرة عشرة ملايين دولار دون جدوى فلما جاءت المرة الثالثة ظننت أنه غير جاد مثلما حدث في المرتين السابقتين ولكنه خيب ظني .

اتفقت مع حافظ الأسد ألا نبدأ المعركة إلا بعد تكوين مجلس أعلى مشترك للقوات المسلحة المصرية السورية ، فكونا هذا المجلس المشترك واجتمع فعلاً في أغسطس ١٩٧٣ في الإسكندرية ليضع اللمسات الأخيرة للمعركة .

في أواخر أغسطس ١٩٧٣ خرجت في زيارة للسعودية ثم قطر ثم سوريا حيث اجتمعت مع الرئيس الأسد يوم ٢٨ ، ٢٩ أغسطس واتفقنا على أن يكون يوم ٦ أكتوبر هو بدء المعركة . . أي يوم (ي) في التعبير العسكري .

في تلك الفترة كنت أزور جميع وحدات القوات المسلحة لأشرح لهم الموقف السياسي وأقول لهم إن المعركة أصبحت قريبة وأستطيع أن أقول إنه في يونيو ١٩٧٣ أي قبل المعركة بجوالي ثلاثة شهور كنت قد أعطيت الأوامر النهائية والإحساس النهائي بالمعركة ولكنني طبعاً لم أفصح عن تاريخها وكان جميع من بالقوات المسلحة في قمة الإنفعال . . ففي ٥ يونيو ١٩٧٣ زرت مطار القطامية وهو من مطارات الجبهة واجتمعت بالطيارين وفي أثناء اجتماعي بهم دق جرس التليفون . . فقام الجنرال أحمد اسماعيل يرد على التليفون بينما واصلت أنا حديثي

مع الطيارين إلى أن انتهيت منه فذهبت لآخذ طائرتي وأمر على الجيشين الثاني والثالث فإذا بالجنرال أحمد اسماعيل يسر لي أن السفير السوفيتي يطلب موعداً عاجلاً وأنه طلب منه أن يبلغني برسالة عاجلة وهي أن القيادة السوفيتية رأت بعد فترة الجمود الطويلة هذه أن ترسل بودجورني رئيس هيئة السوفيت الأعلى ليزورني يوم ١١ يونيو ١٩٧٣ . . قلت للجنرال اسماعيل : « آسف : أنا لا أستقبله » ، يعلم السوفيت جيداً أنني لا أحب بودجورني والسبب أنه كان أثناء زيارة له لتركيا قد سب العرب والعسكري العربي وقال إنهم لن يعطوا العرب أبداً أي أسلحة متقدمة لأنهم يسترون الإسرائيليين يستولون عليها . . أرسلت في وقتها أطلب تفسيراً لهذا الحديث من جانب رئيس الدولة السوفيتية ولكن لم يصدر أي تكذيب . . ثم إن بودجورني هذا من أكثر الناس كرهاً لمصر . . حتى في اجتماعاتنا في القيادة السوفيتية على مائدة الكرملمين كانت تعليقاته دائماً تسيء إلى مصر . . فكيف أستقبله على أرض مصر ؟ .

بعد ذلك ذهبت لزيارة الجيش الثاني والثالث ثم توجهت إلى أماكن العبور على خط الدفاع الذي كان يتكون من عدة أهرامات على مسافات متقاربة بين السويس وبورسعيد يرتفع كل منها عشرة أمتار فوق تحصينات إسرائيل . . ولذلك استطعت أن أرى من فوقها سيناء كما أرى كفيدي . . وقفت أمام القنطرة شرق وجاعني القائد المكلف باسترجاع القنطرة وكان فؤاد عزيز وشرح لي العملية . كنت أعتبر أن القنطرة شرق من أهم النقاط التي يجب أن نستولي عليها في الساعات الأولى للحرب لأنها تمثل شيئاً هاماً جداً بالنسبة لإسرائيل فهي ثاني مدن سيناء بعد العريش العاصمة وكان ديان في غمرة نشوته بنصر سنة ١٩٦٧ قد خطب في طلبه الجامعات في إسرائيل وقال : « لقد تسلمنا الأمانة من الجيل السابق لجيلنا فوصلنا حدود إسرائيل من القنطرة في مصر إلى القنيطرة في سوريا وعليكم أنتم الجيل الصاعد أن تحموا هذه الحدود وتوسعوها » .

فكان هذا من الأسباب الأولى التي جعلتني أهتم بالقنطرة . . لأن الأمل كان دائماً يراودني في أن أرد على ديان وأقول له : « انتهى حلمك إلى الأبد » .

وقبل أن يموت عبد الناصر ذهبت إلى الفريق عبد المنعم رياض وكان رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة ١٩٦٧ وقلت له : « لما

توضوا خطة الهجوم اعمل حسابك أنا داخل مع القوات اللي حترج تنسرجع
القتطرة شرق . .

كل هذه الصور مرت بي وأنا أقف على إحدى مواقع الهجوم وأنطلع إلى
القتطرة شرق وهي بين يدي إسرائيل صامتاً لا أتفوه بكلمة . . كنت فقط أتأمل
وأفكر . . لم أكن قد رأيت القتطرة منذ سبع سنوات وكنت قد خدمت بها حيناً
عدت إلى الجيش سنة ١٩٥٠ . . مر بي هذا الخاطر . . فزاد صمتي ولكن
مشاعري كانت تجيش في صدري تدمه وتعذبه وفي نفس الوقت تضيئه بنور
الأمل . . قال لي أحد اسما عيل القائد العام تعليقاً على موقفي أمام القتطرة أثناء عودتنا
إلى القاهرة : « يا أفندم أنا لما شفتك ساكت من الرهبة جالي إحساس أنك
حتديني أمر بيده الهجوم فوراً » .

حيناً بدأت أفكر في وضع التخطيط الإستراتيجي للمركة كان أمامي عدة أشياء
أولها الأساس الإستراتيجي الذي أنبى عليه الخطة . . وفي حياة عبد الناصر كنت
أقول له على سبيل المبالغة إننا لو أخذنا حتى عشرة ستمترات في سيناء ووقفنا
فيها لم نسحب فسوف يتغير الموقف شرقاً وغرباً وكل شيء . . وخاصة المهانة التي
كنا نعيشها نتيجة هزيمة سنة ١٩٦٧ فهذا العبور إلى سيناء والصمود بها سيعيد
إلينا ثقنا بأنفسنا . . هذا إلى جانب أننا سنكون قد انتهينا من أكبر عائق مائي في
تاريخ الحروب لأن شواطئ القناة مصنوعة من الحجر وهناك أيضاً الساتر الترابي
الذي يبلغ ارتفاعه ١٧ متراً .

وبناء على هذا وضعت توجيهي الإستراتيجي فقلت للقوات المسلحة في أواخر
فبراير سنة ١٩٧٣ إن الذي يكسب الأربعة وعشرين ساعة الأولى سوف يكسب
الحرب كلها . . ولذلك فلا بد من أن يعتمد الأداء والخطة على عمل من شأنه أن
نكسب الأربعة وعشرين ساعة الأولى .

من ضمن الخداع الإستراتيجي الذي قمت به أنه كان في زيارتي وزير خارجية
دولة أجنبية فقلت له وكنا في سبتمبر ١٩٧٣ : « بلغ رئيس جمهوريتك بينك وبينه
ما يطلعش السرد به إني ذاهب إلى الأمم المتحدة في أكتوبر القادم . . بس مش
عاوز أعلن هذا » . . كنت أعلم أن هذا الخبر بعد ثوان سوف يصل لإسرائيل . .
وقد حدث وبناء عليه فهمت إسرائيل أني غير مقدم على الحرب .

في يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٣ وهو يوافق ذكرى وفاة عبد الناصر أردت أن
أضع اللمة الأخيرة للشعب . . وكنت قبل ذلك بشهور طويلة قد عزلت عدداً
من الصحفيين أو على الأصح نقلتهم من الصحف إلى مصلحة الاستعلامات لأنهم
كانوا يساعدون على إيجاد حالة تمزق وبلبل في البلد واشترك البعض منهم في أحداث
الطلبة التي وقعت في أواخر ١٩٧٢ وأوائل سنة ١٩٧٣ بإيعاز من الشيوعيين . .
كان هؤلاء الصحفيين مقالات وتصرفات تهدف كلها إلى إشعال النار بين
الطلبة . . ففي خطابي يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٣ أعلنت أني قد عفوت
عفواً تاماً عن الطلبة والصحفيين . . حتى القضايا التي كان الطلبة متهمين فيها -
وكلهم من اليساريين - أسقطتها جميعاً وكأنها لم تكن . . تلقف اليساريون هذا
وفسروه على أنه مصالحة وطنية من أجل تدعيم الجبهة الداخلية ولم يخطر لهم
على بال أن هذا كان جزءاً من تخطيطي للمعركة . .

قبل ذلك كانت قد حدثت فتنة طائفية ولكنني صفيها . .

وفي يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٧٣ جمعت مجلس الأمن القومي وطلبت
من الأعضاء إبداء رأيهم في الوضع الذي كنا فيه وتناقشنا طويلاً . . طالب البعض
بالمعركة وتردد البعض الآخر . . قال وزير التموين إن التموين الموجود
لا يكفي معركة طويلة . . وبعد أن تحدث الجميع عن المعركة وظروف البلد
والتحرك . . قلت لهم : « كل واحد منكم قال كلمته . . طيب أنا عايز أقول
لكم إن اقتصادنا النهارده في مرحلة الصفر وعلينا التزامات إلى آخر السنة
لن نستطيع الوفاء بها للبنوك . . وعندما تأتي سنة ١٩٧٤ بعد شهرين
لن يكون عندنا رغيف الخبز للمواطنين . . ولا أستطيع أن أطلب من أي عربي
دولاراً واحداً لأن العرب يقولوا لنا أحنأ بندق الدعم بتاع قناة السويس وخلص
ولا فيه حرب ولا فيه حاجة » .

هكذا أعلمت المسئولين عندي بالموقف ثم أنهيت الاجتماع . .

وفي اليوم التالي أى أول أكتوبر سنة ١٩٧٣ جمعت المجلس الأعلى للقوات المسلحة ووقف جميع القادة أمام الخريطة وشرح كل واحد خطته بالتفصيل ودوره في هذه الخطة . . . وقبل أن ينتهى الاجتماع قلت لهم : « كل واحد يكون جاهز في أى لحظة لصدور الأمر » . . .

ويوم ٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وقعت للقائد العام الجنرال أحمد اسماعيل أمر القتال وكنت قبل ذلك في سبتمبر سنة ١٩٧٣ قد أصدرت الأمر الاستراتيجى للقائد العام ووضعت فيه تصورى للهدف الاستراتيجى وقد كان هذا الأمر الأول من نوعه في تاريخ مصر الحديث . . .

بدأ العد التنازلى قبل المعركة بعشرة أيام كما خرجت القطع البحرية لتتخذ أماكنها في الحرب قبل ساعة الصفر بعشرة أيام وكانت مع كل قطعة بحرية ظروف مقلنة تحمل تعليمات العمليات ولا تفتحها إلا بعد أن تلتقى كلية شفرة محددة وعندئذ ستجد التعليمات المفصلة لخطة عملها .

كان تدريب القوات يستلزم هذه الأيام العشرة أيضاً فالجرب لم تعد خطة توضع وأوامر تصدر للقوات لتنفيذها فحسب . . . بل يجب التدريب على كل شىء بالتفصيل وكلما كثرت التدريبات وأتقنت زادت فرص النجاح . . . كان العد التنازلى للتدريب قد انتهى في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٧٣ . . . وكان تدريب آخر لواء من اللوحدات المشتركة في العمليات على الواجب الذى سيقوم به قد تم يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٧٣ .

وفي يوم الأربعاء ٧ رمضان الموافق ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ - حسب اتفاقى مع الرئيس حافظ الأسد في أواخر أغسطس سنة ١٩٧٣ - استدعيت السفير الروسى وقلت له : « أريد أن أبلغك رسمياً أنني أنا وسوريا قد قررنا بدء العمليات العسكرية ضد إسرائيل وعندى سؤال أريد الإجابة عليه من القادة السوفيت بصفة عاجلة وهو ما موقف الاتحاد السوفيتى منا ؟ » سألتى عن الموعد فقلت له : « إننا لم نتفق عليه بعد » . . .

كنت قد اتفقت مع الأسد على أن استدعى السفير السوفيتى عنده في اليوم التالي وهو الخميس ٤ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ويعلنه بالموعد لأن علاقائى بالسوفيت كانت سيئة .

في اليوم التالى ٨ رمضان أى الخميس ٤ أكتوبر سنة ١٩٧٣ طلب السفير السوفيتى موعداً عاجلاً معى فتصورت أنه جاءنى بالرد على سؤالى . . . استقبلته فكان أول ما قاله هو : « معى رسالة عاجلة من القيادة السوفيتية - إنهم في موسكو يطلبون موافقتك على وصول أربع طائرات ضخمة لحمل العائلات السوفيتية من مصر . . . »

وهذه العائلات السوفيتية هي عائلات المدنيين السوفيت الذين يعملون في المصانع والقطاع المدنى لأن العسكريين السوفيت وعائلاتهم كانوا قد رحلوا قبل ذلك بعام عند صدور قرارى بترحيل المستشارين العسكريين السوفيت من البلاد . . . ومضى السفير قائلاً إن القادة السوفيت يريدون للعائلات أن ترحل من مطار عسكري حتى لا يراها الناس في المطار الدولى وأن هذه الطائرات ستصل غداً صباحاً أى الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . . .

ما هذا القائل السىء ؟ قلت في نفسى : هذا معناه أنهم يقولون لى مقدماً إن معركتك فاشلة ونحن نخاف على أرواح رعايانا . . . وماذا عن المصريين أهل البلد ؟ ألا يعلمون أنني أخاف عليهم . . . ؟

قلت للسفير السوفيتى وما زالت الدهشة من تصرف السوفيت تعقد لسائى : « أنا ما عنديش مانع وبلغ موسكو بموافقتى . . . ولكن أين الإجابة على سؤالى ؟ » قال لى : « هذه هي الرسالة الوحيدة التى كلفتنى موسكو بإبلاغها لكم » وفعلاً في اليوم التالى وكان يوم الجمعة ٩ رمضان الموافق ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وصلت أربع طائرات نقل ضخمة سوفيتية وحملت الرعايا السوفيت من عائلات الخبراء المدنيين في المصانع من السوفيت عائدة بهم إلى بلادهم . . .

ولقد رصد الإسرائيليون هذه الطائرات الضخمة بواسطة رادارهم واعتقدوا أنها تحمل إمدادات من روسيا إلى مصر وكذلك إلى سوريا لأن نفس الأمر تكرر مع سوريا في نفس التوقيت . . .

لقد كنا نحن وإسرائيل بما لدينا من أساليب الحرب الإلكترونية نرصد ما يحدث عند الآخر . . .

كان تصرف السوفيت يدل على عدم الثقة فينا وفي قدراتنا . . وأسوأ من هذا أن سفينة سوفيتية كانت في طريقها إلينا تحمل بعض الإمدادات - وكان عندنا إخطار من السوفيت بموعد قيامها وأنها ستدخل الاسكندرية يوم ٩ رمضان - ولكن صدرت إليها الأوامر السوفيتية وهي في عرض البحر بأن تتجول في البحر الأبيض وفعلاً تجولت في البحر حوالي ستة أيام إلى أن تأكدوا من انتصارنا فرست في الاسكندرية . . ولما سألناهم عن أسباب التأخير قالوا إن السفينة قد تاهت في البحر . .

انتقلت يوم الخميس ٨ رمضان إلى قصر الظاهرة بعد أن جهز كمرکز قيادة لإدارة الحرب ، وفي يوم الجمعة ذهبت لأصلي في الجامع الذي تعلمت فيه الصلاة منذ خمسين سنة وهو زاوية صغيرة . . وهناك في رحاب الله وهدوء الجامع شرد ذهني في أيام الطفولة والنقاء . .

بعد الظهر جلست في الشرفة وكان القمر ما زال صغيراً وطلعت جميلة وأنا أعشق الطبيعة الهجرية ولا أحب المدينة ولا الزخرف والأضواء . .

كنت في أقصى درجات السلام الروحي فرغم اللحظة التي كنت مقبلاً عليها كنت أرنو إلى الغد موعد المعركة على أنه مجرد يوم قنبر لي الله أن أعيشه ولذلك دخلت المعركة دون أدنى انفعال أو عصبية . .

لم يكن يشغلني سوى بعض التفاصيل التي لم تكن إلا مجرد رتوش حول المعركة . . وقد يعجب الناس إذا عرفوا أن ليلة المعركة كانت من أحسن الليالي التي نمتها في حياتي . . ولذلك عندما استيقظت في الصباح قمت بالتدريبات الرياضية اللازمة وسار برنامجي اليومي كالعادة وكان عقلي في منتهى النشاط والراحة مستعداً لمشويات اليوم الجديد . .

٥

في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر السبت ٦ أكتوبر ، حضر المشير أحمد اسماعيل إلى "حسب ما اتفقنا عليه وركبنا العربة الجيب الخاصة بالجيش وكنت أرتدي الزي العسكري وتوجهنا إلى غرفة العمليات حيث جلست في مكاني والقائد

العام عن يميني وكانت التعليمات أن الجميع يجب أن لا يلتزموا بالصيام . . وقد أصدرنا هذه الأوامر بفتوى من المشايخ وكنت أتصور أن القادة قد نفذوها ولكنني لم أكن واثقاً من أن هذا قد حدث بالفعل فسألتهم : « أنتم ما بتدخنوش ليه ؟ ليه ما بتشريوش سجائر ؟ العملية دي عابزة تركيز وانتباه » لاحظت عليهم حرجاً شديداً فطلبت الشاي لنفسى وأشعلت غليونى ورحت أدخن . . على الفور فعلوا كلهم مثلي . . وفي الساعة الثانية تماماً وهي إشارة عبور الطيران وصل الخبر بأن طائراتنا قد عبرت قناة السويس وكانت ٢٢٢ طائرة نفاثة سرعتها فوق سرعة الصوت انتهت من ضربتها الأولى في ثلث ساعة بالقبض فعدنا فيها خمس طائرات فقط . . كما فقدت في تلك المحطات الأولى من الحرب أخي الطيار الشهيد عاطف الذي هو في منزلة ابني لأنني أنا الذي رببته ولكنهم أخفوا على حينذاك نبأ استشهاد أخي .

ونجحت ضربة الطيران نجاحاً كاملاً ومذهلاً حسب التخطيط الذي وضعناه لها . . مذهلاً لنا في المقام الأول فقد حققت الضربة نتائج فاقت التسعين في المائة بخسائر لم تزد عن إثنين في المائة ومذهلاً لإسرائيل وللعالم كله شرقه وغربه . . فقد كان تقدير الاتحاد السوفيتي الرسمي بواسطة خبراءه قبل أن يخرجوا من مصر أنه في أية حرب مقبلة فإن ضربة الطيران الأولى سوف تكلف سلاح الطيران المصري على أحسن الفروض ٤٠٪ من قوته ولن تحقق نتائج أكثر من ثلاثين في المائة . . وبالقطع كان هذا التقدير من جانب السوفيت يهدف إلى تعجزنا وتخويفنا من المعركة فلم يكن لهم ثقة فينا على الإطلاق تماماً كما فقدنا الثقة فيهم .

في ثلث ساعة فقط أي بعد عشرين دقيقة من ساعة الصفر كانت طائراتنا قد ضربت مراكز القيادة ومراكز إدارة الطيران ومراكز إدارة الدفاع الجوي . . وحين تحققت من هذه النتيجة وأنا في غرفة العمليات هنأت قائد الطيران حسني مبارك الذي خطط ونفذ هذه الضربة وهنأت جميع القادة في غرفة العمليات إذ أن هذه الضربة قد حددت بالفعل مصير المعركة بعد ذلك . . فقد فقدت إسرائيل توازنها بالكامل ليس للأربعة وعشرين ساعة الأولى الحاسمة بل لأكثر من أربعة أيام كاملة فقدت فيها السيطرة على قواتها في سيناء وانقطع الاتصال كاملاً

بهذه القوات . . لقد استعاد سلاح الطيران المصرى بهذه الضربة الأولى كل ما فقدناه فى حرب ١٩٥٦ ، وهزيمة ١٩٦٧ ومهد الطريق أمام قواتنا المسلحة بعد ذلك لتحقيق ذلك النصر الذى أعاد لقواتنا المسلحة ولشعبنا ولأمتنا العربية الثقة الكاملة فى نفسها وثقة العالم بنا . . وأنهى إلى الأبد خرافة إسرائيل التى لا تهزم . . لقد كان قائد سلاح الطيران المصرى فى هذه المعركة الجنرال حسنى مبارك الذى طلبت إليه بعد ذلك أن ينزع ملبسه العسكرية ليرتدى الملابس المدنية لكى يعاونى فى عملي كمناب لرئيس الجمهورية .

عقب ضربة الطيران بدأت المدفعية المصرية ترمج بأكبر تركيز شهده العالم بعد معركة العلمين فى الحرب الثانية إذ انطلقت قذائف أكثر من ألفى مدفع لتتصف بدقة رائعة أهدافها . . وهكذا بدأت ملحمة ٦ أكتوبر والأداء الرائع للجندى المصرى العربى إذ لم ينتظر جنودنا على القناة أمر العبور وإنما كان مرور ٢٢٢ طائرة مصرية على ارتفاع منخفض يكاد يلمس رؤوسهم فى وقت واحد كافياً لإلهاب حماسهم ومشاعرهم المكبوتة منذ وقت طويل فأخذوا يسحبون زوارقهم إلى مياه القناة من خلف الساتر وفى حالة هستيرية اندفعوا يعبرون القناة وهم يصرخون « الله أكبر » .

وهكذا بدأت مراحل الخطة تنفذ ولأول مرة يغير التخطيط العسكري المصرى تلك المفاهيم التى كانت ثابتة إلى معركة أكتوبر ١٩٧٣ . . كانت القاعدة ألا يتصدى للمدركات إلا المدرعات . . وقد تعلمنا كما تعلم العسكريون فى العالم كله أن قوات المشاة مهما كان تدريبها أو نوعيتها فلا يجب أن تدخل فى أية معارك مع المدرعات لأنها كما يقول التعبير العسكري (SOFT) ولكن فى حرب أكتوبر عبرت القوات الخاصة والمشاة المدربة فى الأفواج الأولى وهم يحملون الصواريخ فى أيديهم وواجهوا الدبابات الإسرائيلية فى معركة مريرة وضربوا أعداداً ضخمة منها قبل أن تعبر دباباتنا وتصل إليهم وتدخل معركة الدبابات .

كان فى الخطة أن ضربة الطيران تليها ضربة المدفعية كما ذكرت وتحت ستار ضرب المدفعية يتم العبور ولكن الذى حدث أن العبور تم أثناء عملية الطيران وقبل أن تبدأ المدفعية . . وبعد العبور دخل جنودنا على الحاجز الترابى الذى كان فى

بعض مواقعه يبلغ ارتفاعه ١٧ متراً واستخدموا فى تسلقه عمليات بدائية أذهلت العالم - فهى عبارة عن سلم من الحبال يحمله الجندى ثم يتسلق الحاجز الترابى وعندما يبلغ القمة يطرح السلم لإخوانه فيتسلقونه وهم يحملون الأسلحة المضادة للدبابات من صواريخ ومدفعية ثقيلة وبسرعة يستولون على المواقع التى أعدها الإسرائيليون خلف الساتر الترابى على الضفة الشرقية ليتربصوا فيها بالعدو ويستروا زملاءهم الذين يعبرون .

كان مهرجاناً رائعاً وأنا أرى هذا المشهد من غرفة القيادة هادىء البال حتى تخيل إلى أنه لو دخل أى إنسان نفسى لوجد بها طمأنينة كاملة . . لم يكن فى خاطرى أى هم فكل الهموم قد انقشعت وانتهت تماماً .

أول لواء من لواءاتنا المصرية رفعت العلم المصرى على الضفة الشرقية كان اللواء السابع وتوالت الأنباء بعد ذلك وبدأ سقوط النقاط الحصينة فى خط بارليف الواحدة بعد الأخرى وفى نهاية ست ساعات فقط كان قد اتضح تماماً أن اليهود قد فقدوا توازنهم وفقدوا السيطرة وفقدان السيطرة هذا تعبير عسكرى معناه أن القيادات قد فقدت الاتصال بينها وبين القوات وهذا أهم شىء فى العسكرية من أجل تحقيق المفاجأة .

بعد عبور الموجات الأولى من القوات حاملة الصواريخ والمدفعية المضادة للدبابات واحتلالها للمواقع التى أعدها الإسرائيليون لإعاقة عبورنا بدأ المهندسون فى تطبيق نظرية شق الحاجز الترابى بخراطيم المياه المكثفة وهذه فكرة مصرية ١٠٠٪ فسلح المهندسين هو الذى قام بها وأذكر أننا حين طلبنا من الألمان صنع هذه المضخات ذات الضغط العالى سخروا منا وكانوا يتساءلون : « هل هناك حريق فى العالم كله يحتاج إلى كل هذه القوة ؟ » . . من قوة دفع الماء قطع الساتر الرملى كما لو كان بالسكين وفتحت الثغرات فى هذا الساتر الذى يبلغ ارتفاعه سبعة عشر متراً حيث ركبت فيها الكبارى . وعبرت الدبابات .

فى المساء كان كل شىء قد تم قبل مواعده حسب الخطة . . أما بالنسبة للموقف على الجبهة صباح ٦ أكتوبر فإن القادة المحليين قاموا بخدعة لطيفة وهى أنهم جعلوا الجنود يجلسون على الضفة القناة وهم يمتصون عيدان قصب السكر فى تراخ وكأنهم فى إجازة . . أما الخداع التكتيكي الأساسى الذى أجبر إسرائيل على احترام الجندى المصرى إلى الأبد فهو النزول بخمسة فرق كاملة على خط المواجهة الذى كان طوله ١٨٠ كيلو متراً .

في الساعة الثامنة إلا ثلاث أي بعد ست ساعات إلا ثلاث قضيتها في غرفة القيادة أبلغوني أن السفير السوفيتي يريد مقابلي فقلت للجنرال أحمد اسماعيل إنني ذاهب إلى قصر الظاهرة وهو المكان الذي أعدته بأحدث وسائل التكنولوجيا للإتصال بكل أنحاء مصر حتى لو ضربت المدن والمنشآت وأوصيته بأن يبلغني بتطورات الموقف أولاً بأول بعد أن هنأت الجميع في غرفة العمليات على الأداء الرائع لقواتنا وأرسلت لقواتنا أشكرهم على الجبهة فكما قلت كان مصير المعركة قد تحدد نهائياً .

عندما التقيت بالسفير السوفيتي كنت أظن أنه جاء ليحمل إلى رد القيادة السوفيتية على سؤال الذي سبق أن سألته وهو ما موقف السوفيت منا ؟ ولكن خاب ظني فقد جاء لي يقول لي إن الرئيس حافظ الأسد استدعى السفير السوفيتي يوم ٤ أكتوبر وأبلغه أن الحرب ستبدأ يوم ٦ أكتوبر فقلت له نعم أنا أعرف ذلك وقد كان ذلك باتفاق سابق بيننا ثم استطرده السفير السوفيتي قائلاً إن حافظ الأسد طلب في هذه المقابلة منا أي من الاتحاد السوفيتي العمل على وقف إطلاق النار بعد ٤٨ ساعة على الأكثر من بدء العمليات يوم ٦ أكتوبر . . وبناء على ذلك فقد جاء ليبلغني ذلك رسماً من القادة السوفيت ويطلب مني الموافقة على ذلك . . قلت له : « أنا أشك في أن الرئيس الأسد قد طلب هذا قبل المعركة . . ومع ذلك فهل أنت تبلغني هذه الرسالة كمعلومات أو كرسالة رسمية ؟ » قال لي : « أنا أبلغك هذا كرسالة رسمية من قادة الاتحاد السوفيتي وإذا كان لديك أي شك فيمكنك أن تتصل بالرئيس الأسد للتفاهم معه . . قلت له : « سوف أرسل للرئيس الأسد أسأل في هذا الموضوع ولكن أرجو أن تبلغ القيادة السوفيتية أنه حتى إذا كان هذا طلب سوريا فعلاً فإني لن أوقف إطلاق النار إلا بعد الإنتهاء من الأهداف الأساسية المحددة لمعركتي . . بعد ذلك سألته عن الرد على سؤال الذي أبلغته له يوم ٨ رمضان عن موقف الاتحاد السوفيتي من دخولي المعركة فأجاب بأنه مازال موضع دراسة . . بمجرد مغادرة السفير السوفيتي للمقر كتبت برقية شفرية إلى الرئيس الأسد وأبلغته بنص ما أبلغه السفير السوفيتي وكان ذلك حول الساعة الثامنة والنصف مساء بتوقيت القاهرة أي بعد ست ساعات ونصف فقط من بدء حرب أكتوبر . . وأبلغت الرئيس الأسد أيضاً ردي على السفير السوفيتي وهو أنني لن أقبل وقف إطلاق النار إلا بعد تحقيق أهداف المعركة ورغم خطورة

الموضوع جاءني الرد من الرئيس الأسد عصر يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣ أي بعد أربع وعشرين ساعة . . ! بأن هذا الذي يدعيه الاتحاد السوفيتي لم يحدث . في اليوم التالي لم أذهب إلى القيادة فالعمليات تسير في خطها السليم ثم إن القادة جميعاً محترفون وصنعهم الحرب . . هذا إلى جانب اعتبار آخر وهو أن وجودي بينهم قد يسبب لهم شيئاً من التوتر العصبي . . ولكنني طبعاً طلبت من المشير أحمد اسماعيل أن يطلعني على الموقف أولاً بأول .

فوجئت يوم ٧ أكتوبر بالسفير السوفيتي يطلب مقابلة عاجلة في المساء . . قابلته وقلت له : من نصف ساعة فقط تلقيت الرد من الرئيس الأسد وهو أن ما أبلغته لي رسمياً أمس كرسالة رسمية من القادة السوفيت لم يحدث . . ابيض وجه السفير فأصبح بلون الثلج وقال : « أنا جاي لك برسالة ثانية من الحكومة السوفيتية بناء على طلب سوريا للمرة الثانية بوقف إطلاق النار » قلت له : « اسمع . . أرجو أن تقفل هذا الموضوع وتعتبره انتهى عند هذا الحد فأنتم تعلمون منذ أمس أنني لن أوقف إطلاق النار إلا بعد أن تتحقق أهداف المعركة وأريدك أن ترسل للقيادة في موسكو بأن يرسلوا إلى دبابات فوراً فهذه المعركة سوف تكون أكبر معركة دبابات في التاريخ » (وكان القتال يوم ٦ ، ٧ أكتوبر شرساً كل الشراسة ومعركة الدبابات قد بدأت) . . وهنا أبلغني السفير السوفيتي بالكوبري الجوي الذي قرر الاتحاد السوفيتي إقامته لكي يرسل إلى ذخائر ومعدات متأخرة كان لا بد من تسليمها خلال سنة ١٩٧٣ وفقاً للاتفاقية التي عقدها معهم المشير أحمد اسماعيل في أوائل عام ١٩٧٣ . . رحبت على أي حال بهذا التبا وقلت له : « هكذا يجب أن يكون شكل العلاقة بيننا » .

بعد ذلك كان السفير السوفيتي يزورني يومياً في قصر الظاهرة لتبادل المعلومات ولكنه لم يكف عن الإلحاح على وقف إطلاق النار وأنا أنهيه وأقول له : « ليس قبيل أن أحقق هدفي وهو ضرب نظرية الأمن الإسرائيلي » .

V

ظل الموقف العالمي ميلاً . . يأخذ بوجهة نظر إسرائيل لأنه يستقي معلوماته من البلاغات الإسرائيلية التي كانت تقول إنهم سوف يطحنون عظامنا وقد استخدمت إسرائيل لكي تغطي هزيمتها أفلام حرب ١٩٦٧ في إسرائيل وفي العالم وظنوا أن حرب الدعاية يمكن أن تلغي الحقائق . . ولم يكن العالم في بادئ الأمر

يصدق بلاغتنا رغم أن المشير إسماعيل كان متحفظاً فيها إلى أبعد الحدود . .
لدرجة أن عدد الدبابات التي خسرتها إسرائيل كان في بعض بلاغتنا أقل من
الواقع لأن المشير كان يطلب التأكد من أكثر من جهة فإذا لم يتوفر له هذا كان
يأخذ بالرقم الأقل والحقيقة أنه لو جمعنا عدد الدبابات التي خسرتها إسرائيل وفقاً
لبلاغتنا متجده أقل من الواقع بحوالى ١٥٠ دبابة . . وكنت قد قلت لأحمد إسماعيل
والدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء ووزير الإعلام وقتها : « في هذه
المعركة نريد الحقيقة كما هي للناس بخيرها وشرها . . حتى نعوّد شعبنا على أن يسمع
الحقيقة كاملة مهما كانت » .

في هذه الأثناء اتصل بريجنيف بالرئيس تيتو وطلب منه أن يتوسط عندي
حتى أن أقبل وقف إطلاق النار لأن سوريا كانت قد أرسلت للاتحاد السوفيتي
(كما أبلغ بريجنيف تيتو) ثلاث مرات تطلب وقف إطلاق النار وقال له إن مصر
رفضها وأن الرئيس السادات بإصراره هذا سوف يكون السبب في كارثة تودي
بالعالم العربي والنظم التقدمية والعالم بأجمعه . . كان تيتو حريصاً فرد على بريجنيف
يلغه أنه لا يسمح لنفسه بالتدخل فيما يفعل السادات رغم الصداقة به فالرئيس
السادات أمامه الصورة كاملة للأمر وهو يتصرف على أساسها . . في هذا الوقت
كان تيتو قد أتم تجهيز ١٤٠ دبابة كنت قد طلبتها على وجه السرعة لخبرتي بأسلوب
السوفيت معي أرسلها إلى وهي محملة بالذخيرة والبنزين لكي تدخل إلى ميدان
المعركة مباشرة فتيتو له خبرة من الحرب العالمية الثانية وهو مناضل أصيل . .
موقف لن أنساه أبداً للرئيس تيتو وليوغوسلافيا .

بعد اليوم الثالث تأكد انتصارنا فبدأ العالم يأخذ ببياناتنا ويبدى إعجابه بقدرتنا
القتالية وفرحته لانتصارنا - في هذه الأيام الثلاثة فقدت إسرائيل أكثر من
ثلث سلاح طيرانها على الجبهتين المصرية والسورية وخيرة الطيارين المدربين
ولذلك ففي المعارك التي دارت بعد ذلك كانت طائراتنا الميج ١٧ وسرعتها أقل
من سرعة الصوت تهزم الفانتوم التي كانت أحدث طائرة في ذلك الوقت عند
إسرائيل وهي التي سلمتها لها أمريكا .

وبذلك انتهت خرافة سلاح الطيران الإسرائيلي واليد الطولى وخرافة
المدفعات الإسرائيلية والجندى الإسرائيلي بوجه عام ، وعلى سبيل المثال قتل
على الجبهة المصرية قائد عام مدفعات إسرائيل الجنرال ابراهام مندلر وكانت له

شهرة عالمية . . ولعل البرقيات المتبادلة بينه وبين القيادة الإسرائيلية توضح
حقيقة هزيمة إسرائيل . كل هذا الانهيار الذي تم في الأيام الثلاثة الأولى للحرب
جعل كيسنجر يقول لمسز مائير في اليوم الرابع : « لقد خسرت الحرب ويجب
أن تعدى نفسك لهذا » . . ثم بدأ كيسنجر مساعيه لإيقاف إطلاق النار حتى يلتقط
الإسرائيليون أنفاسهم . . فقد كانت المعارك تسير بالنسبة لنا من نصر إلى نصر . .

فمثلاً اللواء ١٩٠ المدرع الإسرائيلي وكان من أهم لواءاتهم المدرعة إذ
يعتبرونه رأس الحربة كانت خطته أن يخترق ويندفع إلى أن يصل إلى الضفة
القتاة ويفصل قواتنا بعضها عن البعض فإذا بقائده عساف ياجورى يصاب بأسيار
عصبي وهو يسلم نفسه للقوات المصرية لأنه بعد ثلاث ساعة فقط من بدء
المعركة . . تلفت حوله فلم يجد سوى دبابته أما بقية اللواء وقدرها أكثر من
مائة وخمسة عشرة دبابة فكان قد قضى عليها بالكامل . . والذي قام بهذا العمل
الرائع قائد من البراعم المصرية الجديدة اسمه أبو سعدة . .

لقد سجلنا رقماً قياسياً عسكرياً مصرياً بالقضاء على أى لواء مدرع معادى
في عشرين دقيقة .

كما سجلنا من قبل أن أكبر قطعة بحرية إسرائيلية هي إيلات بقوة نيرانها
وصواريخها وطاقمها الذي يبلغ أكثر من ٣٠٠ (ثلاثمائة) بحار يمكن أن يقضى
عليها زورق صواريخ لا يزيد طاقمه عن ١٧ فرداً وكان هذا إيلدانا بتغيير
استراتيجي في حرب البحار أخذت به كل دول العالم بعد حرب أكتوبر
وسجل التاريخ أن أول صاروخ بحرى سطح سطح والذي غير الاستراتيجية
البحرية العالمية . . كان صاروخاً مصرياً أطلق من زورق مصرى وبأيدى
ضباط وجنود مصريين في وقت ظن العالم فيه أن مصر والعرب لا يستطيعون
استيعاب التكنولوجيا الحديثة . .

وقع ذلك في أحلك لحظات الهزيمة عام ١٩٦٧ . .

ثم كان ما سجله المقاتل المصرى من تغيير جذرى في حرب المدرعات والمشاة
في تاريخ العالم العسكرى بعد ست سنوات في أكتوبر سنة ١٩٧٣ والذي ذكرته
سابقاً . .

إن العسكرية المصرية في أكتوبر سنة ١٩٧٣ وبعد هزيمة سنة ١٩٦٧ قد
سجلت في تاريخ العسكرية العالمية علامات محددة هي :

١ - الأسس الجديدة لاستراتيجية حرب البحار التي أخذ بها العالم بعد أن ثبت أن زورقاً صغيراً يمكن أن يصبب أكبر القاطع البحرية وأن قوة النيران لم تعد تتطلب بوارج أو مدمرات ثقيلة فقد كانت قوة نيران زورق صغير أفضل من قوة نيران مدمرة ثقيلة بالمداغ والصواريخ هي إيلات . .

٢ - أن أول حرب الإلكترونيات وصاروخية وقعت في معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ وثبت أن المصريين والعرب يفخرون بأنهم خاضوا هذه الحرب وانتصروا فيها ولولا تدخل الولايات المتحدة بكل ثقلها إلى جانب إسرائيل لتغير الوضع . مع أن ما كان لدى إسرائيل في هذه الحرب من تكنولوجيا حديثة حصلت عليها من الولايات المتحدة الأمريكية كان سابقاً لما لدى العرب من روسيا بأشواط طويلة .

٣ - أن معارك الذبابات أصبحت في عصر الصواريخ والحرب الإلكترونية معارك رهية تعتمد على أعداد رهية من الذبابات لم يشهد لها العالم مثيلاً ففي خلال الحرب الثانية كانت معركة كورسك في روسيا للذبابات هي أكبر معركة شهدها العالم . . وفي معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ التي استمرت ١٧ يوماً فقط فقد الحاربون ثلاثة آلاف دبابة أي أن القوات التي دخلت المعركة في حرب أكتوبر كانت أكثر من خمسة آلاف دبابة في الوقت الذي اعتبرت فيه معركة كورسك الروسية التي أشرك فيها ٥٠٠ دبابة أكبر معركة ذبابات خلال خمس سنوات من الحرب وليس سبعة عشر يوماً كما حدث في حرب أكتوبر . .



في يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أي بعد سبعة أيام من ابتداء الحرب أيقظوني من النوم في فجر وقالوا لي إن السفير البريطاني يطلب مقابلة عاجلة لتسليم رسالة عاجلة من رئيس وزراء بريطانيا « هيث » . . استقبلته في الصالون المجاور لـحجرة نومي فأعطاني رسالة من كيسنجر عن طريق رئيس وزراء بريطانيا فقد كانت علاقائنا لا تزال مقطوعة بأمريكا - وكان كيسنجر في رسالته يطلب من « هيث » أن يتأكد أنني موافق على وقف إطلاق النار فقد أخبره السوفيت بهذا . . وكان كيسنجر قد أفاق منذ اليوم الرابع للحرب ونداء SAVE ISRAEL الذي وصله في اليوم

الرابع بعد أن كانت دعاية إسرائيل تحكى لمدة الثلاثة أيام الأولى أنهم يطحنون عظام المصريين وسائرهم إذاعات العالم - أقول أفاق كيسنجر الذي لم يكن لديه أدنى شك في طحن عظامنا على نداء SAVE ISRAEL وطلب إسرائيل لأربعمائة دبابة بصفة عاجلة وهي مجموع ما خسرت على الجبهة المصرية إلى ذلك التاريخ أي اليوم الرابع وتقرير من البتاجون يقول إن المعركة على الجبهة المصرية تسير في غير صالح إسرائيل ولا بد أنه وصله أيضا بكاء ديان على الجبهة المصرية أمام جميع مراسلي الصحف العالمية وأنهاره وقوله إن الإسرائيليين لن يستطيعوا أن يزحزحوا المصريين بوصة واحدة وأن الطريق مفتوح إلى تل أبيب . . كان كيسنجر منذ اليوم الرابع بعد أن عرف كل هذا يعمل على وقف إطلاق النار مع السوفيت فبدأ أولاً بالنداء لوقف إطلاق النار مع عودة الأطراف المتحاربة إلى الخطوط التي بدأ منها القتال على أساس أن الإسرائيليين كانوا يطحنون عظامنا . . ثم بدأ يعدل موقفه لإنقاذ إسرائيل بعد النداء المشهور وتقرير البتاجون إلى وقف إطلاق النار على الخطوط القائمة بالفعل يوم ١٣ أكتوبر ورفضنا العرضين . . ولكن حينما أخبره السوفيت أن مصر وافقت على وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية للقتال يوم ١٣ أكتوبر سعد جداً واتصل بوفد أمريكا في الأمم المتحدة للإعداد في مجلس الأمن وأراد أن يستوتق مني فأرسل هذه الرسالة عبر هيث رئيس وزراء إنجلترا لأنه كان قد عرف قبل ذلك من مستشار الأمن القومي المصري الذي قابله في باريس أوائل سنة ١٩٧٢ حقيقة أبلغها رسمياً للولايات المتحدة وهي أن الاتحاد السوفيتي لا يملك أن يتحدث باسم مصر . . لذلك صدم كيسنجر حينما أبلغه هيث ردى على الرسالة وكان « بلغ كيسنجر أن هذا لم يحدث فأننا لم نوافق على وقف إطلاق النار لا للسوفيت ولا لغيرهم وقد سبق أن أخبرته بأن يتصل بالقاهرة إذا كان ثمة ما يخص مصر وليس بموسكو . . ثم إنني لن أوافق على وقف إطلاق النار إلا بعد إتمام المهام التي تتضحها الخطة » . . سألتني السفير الإنجليزي : - « هل صحيح أنكم تصرون على قفل البحر الأحمر ؟ »

قلت له : فعلا

قال : طيب . . ما هي الشروط ؟

قلت له : أنا مستعد لوقف إطلاق النار في حالة موافقة إسرائيل على الانسحاب من الأراضي العربية .

وخرج السفير من عندي ليبلغ كيسنجر بالموقف . . بعدها مباشرة وصلني خبر من الاتحاد السوفيتي بأن رئيس الوزراء كوسيجين سيحضر لزيارتي - فقلت أهلاً وسهلاً .

وجاء كوسيجين والتفتنا . . كان مطلبه الأساسي وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية . . قلت له : - « أنا مش مستعد أكرر هدنة سنة ١٩٤٨ التي كانت السبب في خسارتنا للحرب » .

قال لي « إحنا جندخل ضامين » .

قلت : « إسرائيل لا ضمان لها إطلاقاً - ثم أنا طالب دبابات من ثاني يوم للمعركة ولم نصلني للآن والكوبري الذي انتم عاملينه بيجبيل معدات تأخرتم في تسليمها وكان لازم تورد في سنة ١٩٧٣ قبل المعركة » وطبعاً كان من ضمنها الذخيرة التي رفضوا أن يستمروا بها لعبد الناصر في حرب الاستنزاف لأنه رفض أن ينفذ طلباتهم . . ثم بدأ أسلوبه الهجومى ، وكوسيجين هجم وبيروقراطى . . وهم يضربون به المال في الاتحاد السوفيتي بأنه خدم مع ستالين في الحكومة لمدة ثلاثة عشرة عاماً ومع ذلك لم يصني بواسطة بيريا وزير داخلية ستالين أو يرسل إلى سيبيريا بعكس كل ما حدث لمن عمالوا مع ستالين ولم ينج منهم أحد كما حدثنا خروشوف في زيارته لنا عام ١٩٦٤ .

قلت له : « تعال بقى نستعرض الكلام اللي أنت بتقوله - الكباري اللي إنت ورتبتها لي واللى أنا ركبها على قناة السويس . . الكوبري الواحد منها يحتاج الخمس ساعات تركيب وهي كباري الحرب العالمية الثانية في الوقت اللي عندك كوبري B.M.P. يتركب في نصف ساعة . . كل المعدات اللي أعطيتها لي متأخرة . . وحاططني وراء إسرائيل ١٠ خطوات ومع ذلك قبلت وبدأت معركة وأنا منتصر - أدى علاقتكم معنا . . وأظن أن الأوان قد آن لكي ننسى الماضي ونبدأ صفحة جديدة » .

قال لي : - « يا سيادة الرئيس أنا لم أكن أتصور أنك بهذا الانفعال » . وانتهى اللقاء الأول - ولكن في فترة الأربعة أيام التي قضتها بمصر كان يقضي اليوم كله في السفارة السوفيتية ويقابلني في المساء .

وأثناء وجوده في مصر حدثت الثورة فجاءني وعلى وجهه علامات التشوق وقال : « لقد حدثت الثورة وموقفكم خلاص لإحسد . . القاهرة أصبحت مهددة » .

قلت له : - « آسف . . القاهرة لن تهدد أبداً . . ولكن أين الدبابات التي طلبتها منكم . . أين ؟ » .

قال لي : - « إحنا ركزنا على سوريا لأنها إنكسرت وفقدت ١٢٠٠ دبابة في يوم واحد » .

قلت له : - « لا اعتراض لي على هذا ولازم تنجدوا سوريا بكل الطرق . . ولكن هذا لا يمنع من إرسال الدبابات التي طلبتها . . أرسلوا الدبابات وأنا كفيل بالتعامل مع الثورة » . . وسافر بعد ٤ أيام وقلت له وأنا أودعه : - « إن أوقف إطلاق النار إلا بعد إتمام المرحلة النهائية من الخطة . . أرجو أن يكون ذلك واضحاً لكم » .

٩

اتفضح لي بعد ذلك أن القمر الصناعي الأمريكي الذي كان يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة بعد نداء SAVE ISRAEL أخطروهم بنقل الفرقة ٢١ المدرعة المصرية من الضفة الغربية للقناة إلى الضفة الشرقية لمحاولة تخفيف الضغط على سوريا كما طلب وألح الرئيس الأسد وأن البتاجون قد نصح الإسرائيليون بمحاولة عمل الثورة لإنقاذ الموقف الإسرائيلي المنهار على جبهة سيناء . . وقد كتب بعد ذلك رئيس الأركان الإسرائيلي أثناء حرب أكتوبر ليدافع عن نفسه في مذكرات نشرها ليبري . . نفسه بعد أن أذانه تقرير لجنة أبحاث أن جولدا مائير قالت لم بعد وصول معلومات القمر الصناعي الأمريكي افعلوا أي شيء فنحن على الجبهة المصرية قد وصلنا إلى الحضيض BOTTOM بنص الكلمة . . كان القمر الصناعي الأمريكي يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة وأقرر هنا للتاريخ أن روسيا التي تدعى وقوفها مع الحق العربي لم تبلغنا بشيء بواسطة أقمارها الصناعية التي كانت تتابع المعركة منذ لحظة بدئها إلى لحظة وقف إطلاق النار لأننا أخطرناها بواسطة سوريا عن ساعة الصفر كما قلت سابقاً . . وهذا التسجيل للمعركة عرض في اللجنة المركزية للاتحاد السوفيتي وطلبت صورة منه فلم أتلق رداً إلى اليوم ولن أتلقى هذا الرد . . ولكن القمر الصناعي الأمريكي والبتاجون كانوا يوافقون إسرائيل بالموقف ساعة

بعد ساعة دون أن تطلب ذلك . . وخاصة بعد أن سجل القمر الأمريكي كما قلت أن المعركة على الجبهة المصرية تسير لغير صالح إسرائيل وأقر ديان أن الطريق من سيناء مفتوح إلى تل أبيب . . ثم حدث تطور خطير بدأت أشعر به وأنا أتابع الحرب من غرفة العمليات .

لقد استخدم الكوبري الجوي الأمريكي لنجدة إسرائيل مطار العريش لنزول الطائرات الأمريكية الجبارة التي تحمل الدبابات وكل الأسلحة الحديثة SOPHISTICATED والعريش مدينة مصرية وهي عاصمة سيناء . . تقع خلف الجبهة مباشرة . . وبدأت ألاحظ تطوراً خطيراً آخر . . في معارك الدبابات التي اعترف الإسرائيليون أنفسهم بشراستها وكفاءة المصريين في إدارتها (وخاصة بعد أن أفينا الدبابات التي كان يقودها مندلو قائد الدبابات الإسرائيلي الذي كان فخر إسرائيل وبعد إعلان استغاثته وموته) كنت كلما أصبت لإسرائيل عشرة دبابات أرى مزيداً من الدبابات .

أمريكا . . لقد دخلت أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل بعد النداء المشهور في اليوم الرابع . . وهي تستخدم بكل صراحة مطار العريش المصري الذي يقع خلف الجبهة بكل وضوح لكي تحول الهزيمة الإسرائيلية إلى انتصار . . وتذكرت في تلك اللحظات ما فعلته أمريكا على جبهة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية . . ثم على الجبهة اليابانية . . لقد كانت أمريكا تغير على الأهداف الألمانية ومدن ألمانيا بألف طائرة في الغارة الواحدة لكي تلقن الألمان درساً لا يمكن أن ينسوه . . وأغارت على نجازاكي وهيروشيما على الجبهة اليابانية لكي تلقنهم أيضاً درساً لن ينسوه . .

ونظور خطير ثالث . . فقد أطلقت الطائرات الإسرائيلية من طراز فاننوم الأمريكي عشرة صواريخ على بطاريات الصواريخ المصرية فلم يصب إلا هوائي بطارية واحدة أصلح بعد ربع ساعة فقط ولم تعطل بطاريات الصواريخ المصرية التي أسقطت ثلث السلاح الجوي الإسرائيلي في الأيام الأولى للمعركة مما دعا القيادة الإسرائيلية أن تصدر أمراً إلى الطائرات الإسرائيلية في اليوم الثالث لحرب أكتوبر بعدم الإقتراب من جبهة القتال في سيناء . . أما التطور الثالث الخطير فهو أن أطلق صاروخان على بطاريتين مصريتين للصواريخ فعطلا البطاريتين تعطيلاً كاملاً وعرفت بعد ذلك أنه صاروخ أمريكي جديد يسمى القنبلة التليفزيونية تم تطويره في اليابان لحساب أمريكا وأنه كان لا يزال تحت الاختبار في أمريكا فأرسلته أمريكا لنجدة إسرائيل .

لقد دخلت أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل SAVE ISRAEL حتى بالأسلحة التي تحت الاختبار . . وقنبلة المافريك . . وأسلحة أخرى . . وأنا أعرف إمكانية وأعرف حدودي . . لن أحارب أمريكا . .

ولذلك بعد عودتي من غرفة القيادة في الساعة الواحدة والنصف من صباح ١٩ / ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣ كتبت للرئيس الأسد شريكي في القرار برقية أخطره فيها أنني قررت الموافقة على وقف إطلاق النار وسجلت في هذه البرقية موقفي وهو أنني لا أخاف مواجهة إسرائيل ولكنني أرفض مواجهة أمريكا . . وأني لن أسمح أن تدمر القوات المصرية مرة أخرى . . وأني مستعد أن احاسب أمام شعبي في مصر وأمام الأمة العربية عن هذا القرار .

وأعود إلى القصة . . في يوم ١٦ أكتوبر أرسلت رئيس الأركان الجنرال سعد الشاذلي للتعامل مع الثغرة وكان من السهل جداً التعامل معها في ذلك اليوم ، فقد كان السباق فيها للزمن . . ولو أنه نفذ ما طلبته منه أنا والفريق أحمد إسماعيل وفي التوقيت الذي حددته له فأحاط شاطئ البحر المرة بسد يسجنهم داخلها ويوقفهم في مكانهم لأصبح من السهل القضاء عليهم وكان في إمكانه أن ينهي من العملية كلها بعد وصوله بساعات ولكنه أضاع الليلة بأكملها في جمع المعلومات وإنشاء قيادة له ينافس بها قيادة غريمه الجنرال اسماعيل وكانت قوات الصاعقة قد تقدمت إلى الدفرسوار ووصلت فعلاً إلى نقطة النزول واعترف الإسرائيليون بشراسة قتال قوات الصاعقة والقوات الخاصة . . ولكن الشاذلي أعطاهم الأمر بالانسحاب إلى أن يجمع المعلومات وكانت النتيجة أن توسع اليهود في الثغرة .

في يوم ١٩ أكتوبر عاد الشاذلي منهاراً وقال لا بد أن نسحب قواتنا في شرق القناة لأن الغرب مهدد . . وكان هذا - لو تم - هو ما يريد الإسرائيليون . . فطلب مني أحمد اسماعيل في منتصف ليلة ١٩ / ٢٠ أكتوبر أن أذهب إلى القيادة حتى أتخذ قراراً مهما بوصني القائد الأعلى للقوات المسلحة . . ذهبت إلى القيادة . واستعرضت الموقف فوجدت أن لنا خمس فرق كاملة في شرق القناة وعندنا ١٢٠٠ دبابة في الشرق أيضاً أما في الغرب فمئتنا فرقة مدرعة تواجه قوات إسرائيل وفي القاهرة فرقة يمكن سحبها - هذا غير الحرس الجمهوري الخاص بي والذي أدخلته الحرب وقاتل قتالاً مجيداً وعاد كاملاً بكل دباباته .

بعدما اتضح الموقف لي جمعت القادة كلهم وكان معي الفريق أحمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحة والفريق الجسمي مدير العمليات والفريق حسني مبارك والفريق محمد علي فهمي قائد سلاح الصواريخ ، وكانوا جميعاً من رأبي وهو أنه لم يحدث شيء يستدعي القلق . . فأعطيت الأمر الذي اعتبره أهم من قرار ٦ أكتوبر - بأن لا ينسحب جندي واحد ولا بندقية واحدة ولا أي شيء على الإطلاق من شرق القناة وأنه علينا أن نتعامل مع الغرب حسب الأوضاع الموجودة ثم بدأت أتصل بنفسي مع الفرقة المدرعة في الغرب وكان يقودها ضابط اسمه قايل وهو بطل من أبطال أكتوبر وقتل له : - ثبث الإسرائيليين ولا تجعلهم يتمكنوا من التوسع وإياك أن تشتبك معهم إلى أن تصلك الإمدادات .

في هذه الليلة أعطيت تعليماتي لأحمد اسماعيل بعزل الشاذلي من رئاسة الأركان على أن لا يعلن هذا القرار على القوات حتى لا يحدث رد فعل عندنا أو عند الإسرائيليين . . وفي نفس الليلة استدعيت الجسمي وعينته رئيساً للأركان .

١٠

وفي هذه الليلة اتخذت القرار بوقف إطلاق النار فقد كان لي عشر أيام أحارب فيها أمريكا وحدي بأسلحتها الحديثة التي لم يستخدم أغلبها من قبل .

وكان الموقف على غير ما يتصوره العالم كله . . فقد كان اعتقاد الجميع في العالم أن الاتحاد السوفيتي يقف إلى جانبنا وأنه قد أرسل الكوبري الجوي لنجدتنا . . ولكن الموقف كان غير ذلك في الواقع . . فأمريكا وإسرائيل في مواجهة والاتحاد السوفيتي في يده الخنجر ويقبع وراء ظهري ليطنعني في أية لحظة عندما أفقد ٨٥٪ أو ٩٠٪ من سلاحي كما حدث في سنة ١٩٦٧ وقد أصبح من الواضح أن أمريكا تستطيع أن تقضي على دفاعي الجوي بأكمله باستخدام القنابل التليفزيونية الجديدة وبهذا تعود سماء مصر مفتوحة للإسرائيليين كما حدث في عام ١٩٦٧ . .

وقد كان حسني مبارك قائد الطيران يستخدم كل الطائرات الموجودة . . حتى طائرات التدريب التي في مدرسة الطيران ركب بها صواريخ وقنابل . . وطائرات الميج ١٧ ومرعتها أقل من سرعة الصوت استخدمها طيارونا بمهارة شديدة ضد القاتنوم والميراج . .

وكان هذا في مجموعه بشكل ملحمة رائعة لسلاح الطيران المصري على عكس ما كان الاتحاد السوفيتي يتوقع . . إذ كان يريد أن يثبت أنني لست كفتناً للحرب بعد أن طردت الخبراء السوفيت وأن مصر يجب أن تعود مرة أخرى إلى الاتحاد السوفيتي . . وقد صرح بهذا بريجنيف للرئيس بومدين عندما زار الاتحاد السوفيتي زيارة سرية لم يخطر بها أحداً ونحن في أوج انتصارنا ليشترى لنا السلاح . . في أثناء المناقشة احتد بريجنيف وقال له إن أنور السادات ضيع مصر وسوف يضيع العرب والقاهرة ودمشق والنظم التقدمية وإله أحمر . . فرد عليه بومدين وقال : « أنا زبون جاي أشتري منك سلاح . . اتفضل أدى مائة مليون دولار لمصر ومثلها لسوريا . . أرسل لهم الأسلحة التي يطلبونها . . ولما عاد بومدين إلى الجزائر جمع مجلس الثورة وحكى لهم ما حدث وقال : « إذا كان الأمريكان وإسرائيل عايزين يهزموا أنور السادات قيراط فالالاتحاد السوفيتي عايز يهزمه ٢٤ قيراط . . هل يذكر بومدين هذا وقد قاله لي شخصياً أم نساه بعد أن أصبح عضواً في جبهة رفض مبادرتي الأخيرة للسلام ؟ .

في يوم ١٩ أكتوبر بعد اجتماعي بالقواد عدت إلى قصر الطاهرة وبدأت في الحال تنفيذ قرارى - طلبت منهم أن يستدعوا لي السفير السوفيتي وإلى أن حضر كتبت برقية إلى الرئيس الأسد قلت فيها إنني قد قلت وقلبي ينزف دماً وقف إطلاق النار . . لأنني مستعد أن أحارب إسرائيل مهما طال الوقت لكنني غير مستعد على الإطلاق لمحاربة أمريكا - كما أنني لا أسمح بأن تدمر قواتي المسلحة مرة أخرى أو أن يدمر شعبنا ومنشأته وفي آخر البرقية قلت له إنني مسئول عن هذا القرار بحاسبتي عليه الشعب في مصر وبحاسبتي عليه أمنا العربية . .

وجاء السفير السوفيتي فقلت له : « لقد قبلت وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية . . في هذا الوقت كان كيسنجر في طريقه إلى موسكو بشأن عملية وقف إطلاق النار فاستأنفت حديثي مع السفير وقلت له :

« الدولتان العظيمتان يجب أن تضمنا وقف إطلاق النار والتنفيذ الفوري لقرار ٢٤٢ . . »

وفعلا اتفقت الدولتان واجتمع مجلس الأمن وقرر أن يكون وقف إطلاق النار في الساعة السابعة مساء ٢٢ أكتوبر ويجب أن أقرر هنا للحقيقة والتاريخ

أن قواتنا قاتلت من ١٩ إلى ٢٢ أكتوبر قتالا رائعاً جيداً وأنا اتحدى إسرائيل أن تعلن عن خسائرها الحقيقية في الثغرة أو في سيناء لأنهم بالفعل منيرون بخسائر فادحة على أيدي قواتنا الخاصة وقواتنا الجوية . . وخاصة في الثغرة في الضفة الغربية ولم يفصحوا عن ذلك إلا منذ سنة حينما وصفوا الثغرة على الضفة الغربية بأنها كانت « وادي الموت » وهو وصف إسرائيلي . .
وأكرر مرة أخرى إنني اتحدى أن تعلن إسرائيل حقيقة الثغرة ودور شارون . .

يوم ٢٢ أكتوبر قبل وقف إطلاق النار ذهبت إلى غرفة العمليات وأعطيت الأمر بضرب صاروخين أرض أرض . . اثنين فقط . . على الدفرسوار ، فقد أردت أن تفهم إسرائيل أن هذا السلاح موجود عندنا ويمكن أن نستعمله في المرحلة القادمة وكانت إسرائيل قد أدركت منذ بدأنا الحرب أننا نغني ما تقول ونفعله . .
أوقفنا القتال على خط ٢٢ أكتوبر وهذا الخط كما اعترف اليهود بعد ذلك كان مقتلاً لهم لأنه شريط مستطيل بجانب بحيرة الدفرسوار مفتوح من جميع الجهات فانهزوا فرصة وقف إطلاق النار (كعادتهم منذ حرب ١٩٤٨) وبعدها بساعتين وجهوا هجوماً نحو الجنوب تجاه السويس وهجوماً آخر تجاه الإسماعيلية .
في هذه الأثناء قامت قواتنا الخاصة بأعمال عظيمة في الثغرة فبمجرد حلول الليل يحل معه الرعب في قلوب الإسرائيليين ومن أجل هذا تحدث أن يعلنوا عن خسائرتهم الحقيقية في الثغرة ، ففي الثلاثة أيام الأولى من الحرب ضربنا لهم ٤٠٠ دبابة . . تلك التي طلبوها من أمريكا رسمياً تعويضاً لهم ، ولكنني بعد هذا وجدت أمامي مئات الدبابات - كما ذكرت - أمدهم بها أمريكا بسرعة ولذا أوقفنا القتال على خط ٢٢ أكتوبر . .

قامت إسرائيل بالهجوم الذي أشرت إليه بعد وقف إطلاق النار بساعتين وكان الهدف منه أن يوسعوا الثغرة فتمتد قواتهم خلف الجيشين الأول والثاني وبذلك يقطعون خط إمداد الجيشين ويتراجع خط دفاعنا الجوي إلى الخلف فتحرم الجيوش التي في المقدمة من الحماية وبذلك يتمكنون من الاستيلاء على الإسماعيلية والسويس ويتقدمون سمعهم أمام العالم . .

ولكن الذي حدث كان عكس هذا - فقد أمرت قادة الجيشين الثاني والثالث وخاصة الجيش الثالث بأن لا يسمحوا لقوات إسرائيل بتحقيق أي تقدم من ناحية الجنوب ولكن قائد الجيش الثالث أهمل وبذلك تمكنت قوات إسرائيل من أن تقتحم المنطقة فنصل إلى مشارف مدينة السويس ولكنهم لم يتمكنوا من دخول السويس على الإطلاق . . كل الذي استطاعوا تحقيقه هو أنهم فتحوا ثغرة بين الجيشين في الشرق حجمها ٦,٥ كيلو مترات وذلك بين خمس فرق مصرية كاملة بدباباتها وأسلحتها بالكامل فقد أعطيت الأمر بأن لا تنسحب أية بندقية أو فرد من هذه الفرق من الشرق تحت أي ظروف . .
أما في الغرب فعندما حاول الإسرائيليين الاستيلاء على مدينة الإسماعيلية لم يستطيعوا الوصول حتى إلى مشارفها . . وكنت قد كلفت ممدوح سالم وكان في ذلك الوقت مسئولاً عن المجلس الأعلى للدفاع الشعبي . . فأرسل ١٠٠٠ فرد من قوات الأمن المركزي وهم مدربون على مستوى عال . . فأتوا بأسلحتهم وعتادهم وكانوا على أتم استعداد ومعهم الجيش والأهالي لإستقبال الإسرائيليين . .
بعد أن خرقت إسرائيل وقف إطلاق النار بنذالة وقشلت في دخول الإسماعيلية والسويس اتصلت بالقوتين الأعظم روسيا وأمريكا وقلت لهما : « انفضلوا . . أنا مستعد أقبل نزول قواتكم عندي - أي قوات أمريكا وروسيا - عشان ترجعوا لي خط ٢٢ أكتوبر أو تركوني أسترد هذا الخط بشرط أن لا تعتبروا هذا خرقاً لوقف إطلاق النار » . . وكان حرصى في هذا هو أن لا تتدخل أمريكا إلى جانب إسرائيل كما حدث . .

استجاب السوفييت فقاموا بحشد قوات للإنزال في البحر الأبيض . .
أما الأمريكان فأعلنوا حالة التعبئة الذرية وقد سببت لهم هذه متاعب كثيرة لأنهم لم يستشيروا حلفاءهم في حلف الأطنطى . . وقد كان الرأي العام الأوروبي في سنة ١٩٧٣ معنا وضد إسرائيل على عكس ما كان الحال عليه في ١٩٦٧ .
انتهت المسألة بأن الإسرائيليين حينما يشوا من السويس والإسماعيلية اكتفوا بالوقوف في الثغرة . . وبدأت قواتنا في الغرب تضغط عليهم باستمرار . .
ولن أنسى هنا موقف الضابط قابيل لأنه وقف يناور بفرقة مدرعة واحدة في مسافة بين السويس والإسماعيلية تحتاج لثلاث فرق من الشمال إلى الجنوب

حتى يثبت الإسرائيليون في الجيب .. وكان يمكن أن يتغير الموقف لو أننا كنا ننوي حرق اطلاق النار بدلا من الإسرائيليون بحيث ينضم الجيشان اللذان كانا في الشرق ويضغطان على الثغرة التي تسلل منها الإسرائيليون إلى الغرب وهي ٦,٥ كيلومتر فتنسى في الحال .. ولكننا كنا ولا نزال نلتزم بالقواعد الأخلاقية في الحرب والسلام على السواء ..

ولكن إسرائيل منذ سنة ١٩٤٨ أى منذ قيامها لا تلتزم بأى قانون أخلاقي أو دولي وحاولت أن تضغط علينا نفسياً فشجنت قوات كبيرة جداً من أجل تخويفنا وبقصد المساومة .. أرسلوا ٤٠٠ دبابة داخل الثغرة في رقعة أرض لا تتحمل أكثر من ٢٠٠ دبابة - وقواتي تحيط بهم من كل جانب فهناك خمس فرق في الشرق وأربع فرق في الغرب هذا بخلاف حائط صواريخ كاملة ودباباتي التي تحاصرهم حصاراً تاماً - فقد وصلني أول إمداد بالدبابات من بومدين وكان عددها ١٥٠ دبابة ثم وصلني إمداد آخر ١٤٠ دبابة أرسلها الرئيس تيتسو بالذخيرة والبنزين بحيث تنزل من السفينة على أرض المعركة مباشرة .. أما الاتحاد السوفيتي فلم يكن بعد قد أرسل الدبابات التي طلبتها ثاني يوم للمعركة ..

وقد جاءني السفير السوفيتي ذات يوم وقال إن اللجنة المركزية قد قررت إهداء مصر ٢٥٠ دبابة فشكرته وطلبت منه سرعة إرسالها ولكن السوفيت لم يستجيبوا لمطلبي إلى أن تثبت الوضع بالنسبة للثغرة .. مع أن الثغرة لم تكن في الحقيقة إلا مجرد محاولة لإنقاذ سمعة إسرائيل ..

وقد جاء لزيارتي بعد ذلك الجنرال بوفير وهو رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسي وقال لي : إن هذه الثغرة لا قيمة لها لأنها ليست إلا معركة تلفزيونية .

11

طلب كيسنجر أن يزورني وجاء إلى مصر في أول زيارة له في نوفمبر سنة ١٩٧٣ وقال لي : - أنت أزممت الموقف دولياً وأنا جاي لك عشان كده فما هي طلباتك .

قلت له : « أنا عاوز خط ٢٢ أكتوبر .. أنا الآن عندى ٨٠٠ دبابة وإسرائيل لما في الثغرة ٤٠٠ دبابة وأنا عندى صاروخ ونصف لكل دبابة والإسرائيليون محصورون ومدخلهم ٦,٥ كيلو متراً في شرق القناة وإذا أغلقناه .. فهم مقضى عليهم .. مش عاوزه جدال » .

استمرت الجلسة ٣ ساعات اتفقنا فيها على ست نقاط كان من ضمنها أن تبدأ المحادثات على الكيلو ١٠١ على طريق مصر السويس بين المصريين والإسرائيليين من أجل فصل القوات والعودة إلى خط ٢٢ أكتوبر .

قامت المفاوضات على الكيلو ١٠١ بين المصريين والإسرائيليين تحت علم الأمم المتحدة .. وطالت المفاوضات واتعدت خلالها مؤتمر القمة العربي في الجزائر وذهبت إلى هناك وعندما وجدت أن المفاوضات لم تصل إلى أية نتيجة طلبت من الجسمى إيقافها وقلت لهم : « أنا غير مستعد للدخول في مساومات ومهاترات » . في ديسمبر سنة ١٩٧٣ كنت مستعداً لتصفية جيب الثغرة فقد بدأت قواتنا حرب الإستنزاف ولم يتوقف ضغطها على الثغرة لحظة واحدة مما جعلنا نكسب أرضاً جديدة كل يوم، تارة بالأمتار وتارة بالكيلومترات ولكننا كنا نكسب دائماً .. أنا فعلاً كنت على أتم الاستعداد لتصفية الثغرة وخاصة أنه ليست قناة لعبورها .. ولا خط بارليف للقتال معي ولكن الخطر الذي كان أمامي كان تدخل أمريكا .. في ١١ ديسمبر جاء كيسنجر وقلت له « أنا مش مستعد أقبل الأسلوب اللي هم ماشيين به ده وأنا حاصني الثغرة » .

قال لي : « أنا قبل أن أحضر إليك عارف أنك جاهز .. أنا طلبت صورة الموقف من البنتاجون فأعطوني تقريراً كاملاً .. حائط صواريخك يتكون من كذا بطارية دباباتك حول الثغرة ٨٠٠ دبابة .. مدافعك عددها كذا وتستطيع فعلاً أن تصني الثغرة ولكن اعلم أنك إذا فعلت هذا سيفضرك البنتاجون » . قلت له : - « هذا هو السؤال .. ما هو موقف أمريكا ؟ » .

قال لي : - « سيفضرك البنتاجون .. سيفضرك البنتاجون لسبب واحد .. وهو أن السلاح الروسي قد انتصر على السلاح الأمريكي مرة ولن يسمح له في الاستراتيجية العالمية بتاعتنا أن ينتصر للمرة الثانية » .

واستأنف كيسنجر حديثه قائلاً :- « هل تعرف أنه عندما أزمّت أنت الموقف عالمياً وقلت للقوتين تعالوا هاتوا الى حط ٢٢ أكتوبر أو أن تستعيده على شرط ألا يقف البنتاجون ضدك . . تعرف الخطة التي وضعها البنتاجون في ذلك الوقت كان شكلها إيه ؟ كنا حنزل في بلدك سيناء ونخلص عليك إذا الروس نزلوا عندك في الغرب لأننا كنا عاوزين نوريك إن الروس لا يعتمد عليهم فنضربك ضربه نضرب بها الروس . . نفس الوضع دلوقت . . لو أنت حاولت تصني الثغرة سيتدخل البنتاجون ويضربك لأن دي سياسة أمريكا المقررة - ثم إن البنتاجون عاوز ينتقم طزيمة أسلحته اللي حصلت في أكتوبر » .

قلت له : طيب وما العمل ؟

قال لي : « ادبني فرصة لغاية يناير ١٩٧٤ وأنا بأوعدك أنني أعمل لك فض اشتباك » .

في هذا اليوم قال لي كيسنجر : « إن جنيف مفروض أن تجتمع في ديسمبر سنة ١٩٧٣ فهل ستذهب ؟ » .

قلت له : « أنا رايح جنيف » .

غادر كيسنجر مصر يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧٣ وكان الألم قد استولى على وصار يحز في نفسي ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم لا أستطيع منه فكاً كالأوضاع من حولي كلها خاطئة . . وأنا غير قادر على أن أصلحها لأنه ليس بيدي إصلاحها فأصبت بزييف لمدة ٤ أيام واستدعيت الأطباء ليفحصوا البول الذي كان قد صار كتلا من الدم . . قال لي الأطباء إن هذا نزيف بسبب التوتر النفسي ولكن لا خطورة منه وأعطوني بعض الأدوية استمر بعدها يومين ثم انتهى والحمد لله .

في يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٧٣ دعوت قادة الأسلحة وقادة الجيوش وعينت لتصفية الثغرة قائلاً هو الجنرال سعد مأمون وهو محافظ القاهرة الآن ثم ناقشنا الخطة على مدى سبع ساعات وصدقت عليها .

في يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٣ وهو يوم عيد ميلادي ذهبت كعادتي كل عام لأفضيه في قريتي ميت أبو الكوم . . وفي يوم ٢٦ سافرت إلى أسوان ثم جاء

كيسنجر في يناير ١٩٧٤ ووقعنا اتفاق فض الاشتباك الأول - الذي كانت أمريكا تقوم فيه بدور الوسيط بيننا وبين إسرائيل . .

كان همي في اتفاق أسوان شيء واحد أساسي .

لم أكن أريد أكثر من حجم انتصاري على الأرض لأنني أعلم أن الإسرائيليين مسجونين عندي في الثغرة ويقاؤونهم في الغرب مقبرة لهم وعلى هذا الأساس بالفعل وهو تحديد حجم انتصاري على الأرض تم الإتفاق بيننا .

كنت في حالة نفسية مرهقة . . لماذا ؟ لأن جميع القوى تريد أن تجهض انتصاري . . أمريكا تريد أن تجهضه . . والاتحاد السوفيتي يريد أن يجهضه لأن سوريا خرجت مكسورة رغم وجود الخبراء السوفيت ، وأنا خرجت منتصراً مع أنني طردت الخبراء السوفيت . . وطبعاً إسرائيل تريد إجهاض انتصاراتي .

لم تكن محاولات الإجهاض هذه في حد ذاتها بالشيء الذي يقلقني . . فقد كنت أنظر إلى انتصاري على أنه الطريق إلى السلام العادل الذي كنت أسمى إليه دائماً . .

الفصل العاشر

الطريق إلى السلام

من أسعد لحظات حياتي في الفترة الأخيرة تلك الساعات التي أقضيها في كشك صغير عادي على حافة قناة السويس ، أرقب المشروعات والإنشاءات الجديدة . . .

وقد كل مرة أزور فيها مدن القناة يمثل أمام عيني يوم ٥ يونيو ١٩٧٥ ، عندما وصلت إلى بورسعيد ومن مكان الطائرة المليكوبتر أخذت السيارة وتوجهت لكي أفتح قناة السويس بعد أن ظلت مغلقة لثمان سنوات كاملة ، لن أنسى أبداً ذلك اليوم ، كانت الفرحة التي تشع من عيون كل رجل وامرأة وطفل شيئاً جميلاً حقاً . . . لقد عادوا إلى وطنهم أخيراً بعد سنوات يأكلها من التشريد والنقي والضياع . . .

لا يستطيع أحد أن يقلل هذه الفرحة وأثرها على النفس مثل من اقتضت جنوره فعاني من إبعاده بالقهر ورغم إرادته عن وطنه . . . أو عن مدينته أو عن الشارع الذي يقطعه والصحة التي يجالسها كل يوم . . . أو عن أرضه التي يعرفها جيداً ويحبها فهو نبت منها وبدونها لا يكون . . .

ونحن في مصر شعب عمره سبعة آلاف سنة قدم للعالم أول حضارة أهم مقوماتها حب الأرض والإلتصاق بها . . . ولذلك لم تكن الفرحة التي رأيتها على وجوه الناس فرحة الإنسان بخير أو مكسب يناله . . . كانت في الواقع أكثر من هذا بكثير وأبعد أثراً . . . كانت فرحة يأس طويل تحول فجأة إلى أمل . . . نبت ذبل وانهى فإذا بالحياة فجأة تدب في أوصاله . . . فقد هجر هؤلاء الناس لثمان سنوات كاملة ماتت خلالها أجيال وولدت أجيال . . . وتساءلت الناس عبر الزمن متى العودة ؟ !

ولكن السؤال ظل بلا إجابة ولو حتى على الأفق البعيد . . . فإذا أخذنا في الاعتبار أن أهل القناة دون شعب مصر بأجمعه - لهم حياتهم الخاصة التي

تمثل في البحر والقناة ، لأدركنا مدى فرحتهم بالعودة . . . التي لم تكن مجرد عودة إلى الوطن . . . بل إلى الذات نفسها . . . فكما أن الأرض تمثل لنا نحن أهل الوادي قمة القدسية والأصالة ، كذلك القناة والبحر بالنسبة لهم . . . فالقناة هي التي شكلت نمط حياتهم وبالتالي شكلت وجدانهم جيلاً بعد جيل حتى أصبحت هذا الوجدان نفسه . . .

في ذلك اليوم ٥ يونيو ١٩٧٥ الذي ما زال قريباً من قلبي كل القرب لن أنسى أبداً هذا المنظر الذي هر كيانى هزاً . . .

السيارة متجهة إلى مبنى هيئة القناة ، وفجأة يتعرض الطريق أحد الرجال ويشير إليها بالتوقف . . . كان شيخاً طويل القامة شعره الأبيض يتدلى على كتفيه مهيب المنظر حاد النظرات رغم شيخوخته . . . حاول الحراس إبعاده فقلت لهم اتركوه . . . وأمرت السائق بالتوقف . . . نظر إلى الرجل نظرة طويلة ثم ركع على الأرض أمام السيارة ساجداً لله يشكره . . . ثم قام وأشار إلى الموكب باستكمال المسيرة ، وفي ومضة عين اختفى بين الجماهير المختشدة . . .

لم يستغرق كل هذا أكثر من لحظة زمن . . . ولكن وراء هذه اللحظة كانت تكمن أيام وأعوام من اليأس والعذاب . . . ورغم قصر هذه اللحظة نفسها فقد كانت كل شيء بالنسبة لهذا الشيخ . . . فقد امتد به العمر ليرى بينيه وطنه وقد عاد إليه . . . ربما لن يعيش به طويلاً لكنه سيدفن في ترابه . . . من هنا كان الإحساس بالطمأنينة والأمان والسلام . . . مما جعله يسجد لله امتناناً لأنه عز وجل قد بدد الظلمات بنور لم يكن في الحساب . . .

٢

تركت الشيخ المهيب الوقور خلقي وذهبت لحضور مراسم لإفتتاح القناة وصورته ما زالت ماثلة أمام عيني تهر وجداني هزاً . . . وبمجرد وصولي تقدمت إلى القوات المسلحة بوثيقة تسليم القناة من القوات المسلحة إلى الإدارة المدنية لهيئة القناة - وقعتها ثم ركبت المدعرة ٦ أكتوبر وفتحت القنطرة :
كان العالم كله يقف إلى جانبي في ذلك اليوم - نفس العالم الذي كان يردد

قبل ذلك بشهور قليلة أن القناة قد فقدت قيمتها بينما كانت إسرائيل لا تكف عن القول بأن إعادة فتح القناة أمر مرهون بإرادتها وحدها . . .
ولكن لا شيء مثل الواقع فهو الذى يدهض كل افتراء وهو الذى يجعل الناس تتحول من حال إلى حال . . . ففي ٥ يونيو ١٩٧٥ كان العالم مثلاً في الوفود التي تدقت على القناة يحتفل معي وكأنه يعلن أن يوم ٥ يونيو لم يعد يوم أحزان بالنسبة لمصر وللعرب بل يوم أفراح لنا وللعالم بأجمعه - فهو يوم الافتتاح الثاني لقناة السويس بعد أكثر من مائة سنة . . .

قبل الافتتاح بشهرين كانت إسرائيل قد رفضت جهود أمريكا بل وأهانت وزير خارجيتها كيسنجر وهو يتفاوض من أجل فك الاشتباك الثاني . . . ورغم أن أمريكا هي شريان الحياة بالنسبة لإسرائيل فقد كان وضع الرئيس فورد في نظرهم ضعيفاً لأنه لم يكن رئيساً منتخباً ثم إن أمريكا مشغولة بفضيحة ووترجيت . . . فلم لا تستغل إسرائيل الفرص كعادتها ؟

وكان ردى على كل هذا هو الفعل لا رد الفعل ففتحت القناة رغم أنها كانت تقع في مدى المدافع الأمريكية الضخمة التي زودت بها إسرائيل وأعدت المهجرين إلى المدن الثلاثة - بورسعيد والإسماعيلية والسويس - كانوا حوالي ٧٠٠ ألف إنسان كادوا أن يفقدوا أدميتهم أثناء الهجرة ليس فقط للوضع الكئيب الذى كانوا يعيشون فيه بسبب ازدحام الوادى بل لسبب أهم من هذا بكثير فقد كانوا يعيشون بلا أمل . . . والأمل أهم مقومات الحياة وبدونه لا يمكن للإنسان أن يكون . . .

كنت أعرف وأنا أفتح القناة أن مدافع الإسرائيليين تقع في مداها هي والمدن الثلاثة - ولذلك أعلنت للعالم أن المدن الثلاثة والقناة قد أصبحت في عمق الجمهورية وأن العدوان عليها من جانب إسرائيل يعتبر عدواناً على العمق ولا بد لي في تلك الحالة من الرد في عمق إسرائيل . . .

كانت هذه عملية مقامرة مني دون شك . . . فقد كان في الإمكان ألا تنصاع إسرائيل بعد ذلك بشهور وتقبل فض الاشتباك الثاني الذى خرجت به من مدى القناة ومدنها - ولكنى خاطرت من أجل السلام وكل شيء جازي . . . المقامرة والصعاب بل والأخطار التي يمكن أن يتعرض لها الإنسان في سبيل السلام .

بعد سنتين من حرب أكتوبر كان للإسرائيليين ٣٩ جثة من أبنائهم عندي . . . على طريقة اليهود كل شيء له ثمن ، فأخذوا يتفاوضون مع رجالى على الثمن الذى يستردون به موتاهم . . . قلت لهم : « إن هذا عمل إنسانى لا نتقاضى عليه ثمناً تعالوا أخذوا قتلاًكم » . . . وبكل تكريم عسكري سلمتهم الجثث التسعة والثلاثين بلا مقابل . . . وأقيمت لبعضهم جنازات رسمية لأنهم كانوا من كبار الضباط . . .

وفي عام ١٩٧٧ ونحن نعمق مجرى القناة ظهرت ١٩ جثة أخرى للمقاتلين الإسرائيليين سلمتها على الفور لإسرائيل بكل حفاوة وتكريم . . . لماذا فعلت هذا ؟ من أجل السلام . . . فلنى أومن أنه في سبيل السلام يمكن بل يجب أن يفعل الإنسان أى شيء لأنه لا شيء في الدنيا يساوى السلام . . .

٣

كان لأمريكا دور فعال في إعادة فتح القناة - فقد كانت تقف معي بوجهها الصحيح وليس بوجه رجل البوليس الذى يفرض نفسه فرضاً . . . ذلك الوجه الذى شوته حرب فيتنام . . . ففي عام ١٩٧٤ عندما قلت إننى سأفتح القناة وبدأنا العمليات بالفعل كانت المعدات الوحيدة التي تصلح لمثل هذا الأمر لا توجد إلا في البحرية الأمريكية وليس حتى في الشركات الأمريكية ذات الميزات والإمكانات الفنية العملاقة . . . قلت هذا لكيسنجر وكان في زيارة لمصر عقب فض الاشتباك الأول - كان رده بسيطاً . . . قال :

- هل أفهم من هذا أنك تطلب مساعدتنا ؟

قلت : نعم .

قال لي : أعطنى ساعة زمن . . .

في هذه الساعة كما علمت اتصل كيسنجر بالبيت الأبيض والبتاجون ثم عاد وقال :

- هل تقبل أن تدخل بورسعيد حاملة الطائرات الهليكوبتر « أوجيا » - وهي من قطع الأسطول السادس وعليها الهليكوبترات ومعدات التطهير لكي تبدأ في مساعدتك ؟

إلى هذا التاريخ كان المفروض أننا كنا وعلى مدى ثمانية عشر سنة في مواجهة مع أمريكا . . ولكنى قلت له : - نعم .
اتصل كيسنجر مرة أخرى بالبيت الأبيض والبتاجون وعاد ليقول لى : -
« بعد غد ستدخل (أبوجيا) ميناء بورسعيد لتعاون معكم وتطهر القناة تحت قيادة البحرية المصرية » .

بعض ضباط حامله الطائرات وبعض الدبلوماسيين في سفارة أمريكا بالقاهرة أشفقوا من دخول (أبوجيا) فقد خشوا أن تطلق المدفعية المصرية التي تحمي السواحل نيرانها على الحاملة ، ولكنى طمأنتهم وقلت إن شيئاً من هذا لن يحدث فقد أصدرت أوامرى إلى بحرى .
في الميعاد المحدد دخلت (أبوجيا) على استحيا ميناء بورسعيد وهى تتلمس خطاها في كل مرحلة ، ولكن فوجىء رجالها بالمقابلة الدافئة من جانب بحرىتنا وبدأوا العمل في الحال .

قد يذهل الشعب الأمريكى عندما يعلم أنى لم أتبادل مع الحكومة الأمريكية أى مستند بشأن اشتراكها في تطهير القناة - ليس في ذلك الوقت ، بل وإلى اليوم . . ومن هنا أتوجه بالشكر إلى الشعب الأمريكى ، فهذه هى روح الفروسية الأمريكية وهذا هو الوجه الحقيقى لأمريكا . . فالقناة ليست لمصر فقط . . بل من أجل رخاء العالم كله . . وأمريكا بإمكاناتها العملاقة المفروض بل والمتوقع منها أن تقف إلى جانب كل من يحتاج إلى معونة من أجل حياة أفضل له وللعالم كله .
هكذا كانت صورة أمريكا ومازالت عندى وعند شعبنا المصرى العريق . . الذى دأب عبر تاريخ البشرية على احترام القيم الإنسانية والحفاظ عليها .
وقد أثبتت القناة بعد افتتاحها أنها Lucky Strike .

٤

لكناسى من أجل السلام قصة طويلة تعود إلى تاريخ انتخاب رئيساً لجمهورية مصر في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠ ، ويده ولائى الأولى في ١٦ أكتوبر . . فيوم أن توفى عبد الناصر كانت علاقتنا الدبلوماسية مع أمريكا مقطوعة جاء للجزء فيه السفير ريتشاردسون على رأس وفد أمريكى وللأسف التقيت به في ظروف

مؤلمة . . ذلك أنه في يوم الجنازة ونتيجة للإرهاق الشديد وقعت مغشياً على فأخذونى إلى أقرب مكان في مجلس قيادة الثورة حيث أعطانى الأطباء خمس حقن أفقت بعدها بساعات ، وكان أول من وقع عليه نظرى ريتشاردسون الذى قدموه لى على أنه وزير من الحكومة الأمريكية جاء ليقدم الغزاء فشكرته وأنا في الفراش ثم ضربت له موعداً بعد ذلك فجاء ومعه اثنان من خبراء الشرق الأوسط وأجرينا حديثاً طويلاً .

كانت مبادرة روجرز قائمة في تلك الأيام فقلت لهم : - « اعلموا رعاكم الله وانتقلوا ما أقول إلى الرئيس الأمريكى . . لقد كنت ضد مبادرة روجرز وبالفعل رفضتها ولكنى وافقت عليها بعد أن عاد عبد الناصر من الاتحاد السوفيتى وشرح لى الظروف هناك فكل ما أريده هو السلام - دعونا إذن نعمل من أجل السلام معاً . . أنا اليوم ملتزم بمبادرة روجرز ولكنى لا أرضى لأمريكا أن تتقاد لإسرائيل في دعواها أن مصر قد نقضت المبادرة بتحريك الصواريخ في الضفة الغربية للقناة . . ومع ذلك فالضفة الغربية والضفة الشرقية للقناة هى أرضى . . مرة أخرى أدعوكم للعمل من أجل السلام . . وأنا مستعد للذهاب إلى أقصى مدى في سبيل ذلك » .

عاد ريتشاردسون إلى بلاده وقدم تقريراً إلى وزارة الخارجية الأمريكية يقول إن السادات لن يبقى في الحكم أكثر من أربعة أو ستة أسابيع وبعد ذلك لا يعلم مستقبل مصر إلا الله . . وأكدت المخابرات البريطانية نفس الشيء . . وبناء على هذا اتخذوا قراراً فيما بينهم أن ينتظروا حتى يروا مصيرى . . لم أعلم بهذا الموضوع إلا متأخراً وكثيراً ما أتندر به اليوم مع المسئولين في أمريكا .

وفي نوفمبر ١٩٧٠ انتهت التسعون يوماً التى تنص عليها مبادرة روجرز فجمعت مجلس الأمن القومى وقلت لهم إننا بحاجة إلى تسعين يوماً أخرى ولكنها سوف تكون الأخيرة . . فالمبادرة كانت تنص على وقف إطلاق النار لمدة ٩٠ يوماً ، يعمل في خلالها يارنج مبعوث السكرتير العام للأمم المتحدة بيننا وبين إسرائيل لتنفيذ البند الثانى من المبادرة وهو انسحاب إسرائيل . . بحيث يتم في خلال التسعين يوماً الإتفاق على الإنسحاب - وهذا ما لم تكن إسرائيل تريد .

تقدم وزير خارجيتنا إلى مجلس الأمن باقتراحنا وفعلاً تجددت مبادرة روجرز ولكن انقضى نوفمبر وديسمبر وينابر ولم يحدث شيء ، فإسرائيل تدعى أن مصر قد خرقت المبادرة وتسايرها في دعواها أمريكا ، تحركها العناصر الصهيونية القوية فيها . . وكل ذلك بهدف نفس المبادرة من أساسها بل ونسف روجرز نفسه كما حدث بعد ذلك .

وفي ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٧٠ أى بعد انتخابي رئيساً بشهرين فوجئت بالدكتور محمود فوزى وكان في ذلك الوقت رئيساً للوزراء ، يحيل إلى خطاباً من الرئيس نيكسون يشكر مصر لأنها أوفدت الدكتور فوزى يمثلنا في جنازة أيزنهاور . . مباشرة استدعيت القائم على رعاية المصالح الأمريكية عندنا وأطلعتة على خطاب نيكسون وقلت له : - « لقد استدعيتك لأحملك الرد إلى الرئيس الأمريكى وهذا هو نص الرسالة : -

أولاً : لقد أرسلت لكم مع رينشاردسون الذى جاء للغراء في عبد الناصر ولكنكم لم تردوا علينا . . مبادرة روجرز انقسم فيها وراء دعوى إسرائيل أن مصر قد نقضت المبادرة وأنتم تعلمون جيداً أن الأرض شرق القناة وغربها مصرية .

ثانياً : بمجرد أنكم أرسلتم خطاباً لرئيس وزرائنا . . تعبرون فيه عن شكركم وتطلبون فيه إبلاغى بهذا الشكر . . ها أنا أكتب إليكم لأؤكد رسالتى التى بعثت بها مع رينشاردسون ولأقول لكم إذا كنتم تعتقدون أننا في منطقة النفوذ السوفيتى فأنتم مخطئون . . نحن لسنا في منطقة نفوذ سوفيتية ولن نكون في منطقة نفوذ أحد أبداً . . وأرجو أيضاً أن تعلموا أنه ليس لمصر ولى أمر - فإذا شتمت أن تحدثوا عن أى شيء خاص بمصر فالمكان هنا في القاهرة ومعنى . . لا مع أية جهة أخرى (وبهذه الجهة الأخرى كنت أعنى بصراحة كما أفهمت المشرف على رعاية المصالح الأمريكية السوفيت الذين أرادوا أن يتولوا أمرنا وكان عبد الناصر قد أعطاهم هذا الحق في مرحلة من المراحل) وأرجو أيضاً أن تعلموا أن قرارنا بيدنا وحدنا فنحن أحرار ومستقلون فإذا اقربتم منا خطوة سنقرب منكم عشرة خطوات وإذا ابتعدتم خطوة سنبتعد عشرة . . وكما أن في القوانين الطبيعية لكل فعل رد فعل كذلك شأننا معكم فكل فعل طيب من جانبكم سوف تكون له عشرة ردود أفعال طيبة من جانبنا والعكس صحيح .

كان هذا أول اتصال لى بأمرىكا بعد أن توليت وبعد الرسالة التى حملتها لريتشاردسون ولم يكن لها أى صدى عندهم . . وجاء رد نيكسون على الفور وتعجبت للسرعة فقد كنت إذا كتبت للسوفيت عن أى شيء لا يصلنى الرد إلا بعد أربعة شهور على الأقل وبعد أن استدعى السفير السوفيتى عشرات المرات وأطلب منه استعجال الأمور .

في ٤٨ ساعة جاعنى الرد موقعاً عليه من نيكسون وكانت رسالة رقيقة يشكرنى فيها الرئيس الأمريكى ويقول إنه لا يظلم صداقتنا على حساب أحد (وكنت قد حذرت في رسالتى من هذا) فهم يعلمون في أمريكا أنى رجل مستقل الإرادة وأن لمصر وحدها الحق في أن تتكلم عن نفسها .

كان هذا في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٧٠ وانقضى ديسمبر وبعده يناير سنة ١٩٧١ وكانت التسعون يوماً الثانية لمبادرة روجرز تنتهى في ٤ فبراير سنة ١٩٧١ فقررت أن أفعل شيئاً قبل هذا التاريخ . . كان من الواضح أن أمريكا مازالت تسير في خط إسرائيل متفاداً للدعاية الصهيونية وأن أمريكا لظروف خاصة بها كانت تعطى إسرائيل أولوية حتى على مصالحها هى منذ حكومة جونسون . . ورغم رسالة نيكسون لى فقدت كنت أدرك أنه ليس من السهل بعد ١٨ سنة مواجهة مع أمريكا والصورة التى صورها لنا السوفيت في نظر الأمريكان أن تمد أمريكا يدها لنا أو أن تقوم بأى إجراء يعيد السلام إلى المنطقة وخاصة بعد أن استقر في أذهان المسئولين هناك ما جاء في تقرير المخابرات من أننى لن أبقي في رئاسة الجمهورية أكثر من أربعة أو ستة أسابيع . . صحيح أنه كان قد مضى على ولايتى أكثر من أربعة شهور في فبراير سنة ١٩٧١ ولكن الشك كان مازال يخامرهم . . هل أبقي أو لا أبقي ؟ هل أنا قادر على أن أفعل شيئاً أو غير قادر ؟

لإزاء كل هذا كان لا بد من إنهاء مبادرة روجرز ولكن في نفس الوقت كان لا بد لى من أن أفعل شيئاً بناءً يثبت لأمريكا ونيكسون والعالم كله حسن مقاصدى فأنا أريد السلام ومستعد له وفي يدي أن أتخذ قراراً في هذا الشأن . . هكذا فكرت ولم أطلع أحداً على تفكيري إلا الدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء في ذلك الوقت فاستدعيتة وقلت له لقد قررت أن أتقدم بمبادرة سلام كالتالى :-

أمور كثيرة لا يفهمها أغلب من يعملون معي يلتقطها الشعب من الدقيقة الأولى
ويدركها إدراكاً كاملاً .

في خطاب إعلاني لمبادرة السلام يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ أمام البرلمان قلت
إن التسعين يوماً تنتهي اليوم وبهذا تسقط مبادرة روجرز ولكن ها هي مبادرتي
أعلنها وأضعها أمام أنظار العالم كله . . فيا عالم تحمل مسئولياتك وأنت
أيضاً يا مجلس الأمن . . ويا أمريكا ويا سوفيت تحملوا مسئوليتكم جميعاً - إنني
أعطيكم مهلة إلى مارس سنة ١٩٧١ . . ولكن بعد هذا التاريخ لن أكون
مقيداً بمبادرة ولا أي شيء .

رحب روجرز بالمبادرة وذهل العالم كله ووجدت إسرائيل نفسها في مأزق
يصعب الخروج منه فيها هو أول رئيس عربي يعلن أنه على استعداد لإبرام اتفاقية
سلام مع إسرائيل . . شيء لم يكن في الإمكان توقعه أو التنبؤ به أو حتى الحلم به .
وفي مصر لم تقم مظاهرات ولم يرتفع صوت بالإحتجاج أو الرفض أو التبرم -
على العكس سعادة تامة تسود الناس في كل مكان وفهم وإدراك واع وحصيف
من الشعب كله .

لو أن هذه المبادرة وجدت العناية الكافية من أمريكا لما قامت حرب أكتوبر
ولبدأنا السلام في فبراير ومارس ١٩٧١ .

٥

وضيح لأمريكا أنني أتكلم من مركز قوة وأن شعبي كله ورائي وأنا قادر على
ما لم يجزؤ أي زعيم في العالم العربي أن يقوله أو يفعله طوال اثنين وعشرين عاماً . .
ولكن رغم هذا كله لم تفعل أمريكا شيئاً ولم تغير موقفها واستمر الوضع على هذا
الحال إلى أن جاء مايو فاتفقت بي روجرز وجاء لزيارتي في ٤ مايو . . كان سعيداً
جداً بمبادرة السلام التي تفت بها . . قال لي .

- أتعرف أنك أوجدت لنا حلاً للمشكلة ؟

سألته : كيف ؟

أولاً : تنسحب إسرائيل من شاطئ القناة الشرقي إلى المضائق في فترة ستة
شهور يأتي خلالها يارنج لكي يتفق معنا ومع إسرائيل على مراحل الانسحاب . .
وبمجرد انسحاب إسرائيل إلى المضائق تعبر القوات المصرية إلى الضفة الشرقية .
ثانياً : بعد أن يتم الانسحاب إلى المضائق تعيد مصر علاقتها مع أمريكا فوراً
فباعتبارها طرفاً أساسياً في المشكلة لا بد أن تخضع معنا كل مراحل التسوية .

ثالثاً : إن مصر مستعدة لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل تنتهي بموجبه حالة
الحرب القائمة بين العرب وإسرائيل إلى هذا اليوم ومنذ قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨
مع إعطاء إسرائيل كافة الضمانات التي ترغب فيها وتنتهي بذلك أخطر مشكلة
يعيشها العالم لاحتكاك مصالح الدولتين الأعظم بها .

سعد الدكتور فوزي جداً بهذه المبادرة وقال إنها ستحرك الموقف أمام العالم
كله وتثبت أن مصر ترغب فعلاً في السلام .

وفي يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ ذهبت إلى مجلس الشعب وألقيت خطابي وأعلنت
المبادرة وكما توقعت كان استعدادي لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل مفاجأة
مذهلة للعالم كله . . فهذا ما لم يجزؤ قائد أو زعيم عربي أن يقوله منذ أن قامت
إسرائيل عام ١٩٤٨ . . ولكنني كنت أعني ما أقول لأنني فعلاً راغب في السلام . .

دخلت بعد إعلان المبادرة إلى صالون رئيس الجمهورية بمجلس الشعب فوجدت
تجهماً غريباً على وجوه المسؤولين من الوزراء وغيرهم من أصحاب مراكز القوى
في ذلك الوقت وهم الذين كانوا يشكلون القيادة السياسية التي تركها لي عبد الناصر . .
كانت المبادرة تتعارض طبعاً مع أهدافهم التي رسمها لهم السوفيت كما اتضح لي بعد
ذلك . على أي حال لم يرق لي تجهمهم هذا فقلت في نفسي هؤلاء لا فائدة منهم
ولن ألتي بهم في اجتماع آخر .

أما الشعب فقد كان استقباله للمبادرة على طرف نقيض تماماً من استقبال
القيادة السياسية المصرية في ذلك الوقت مضافاً إليهم بعض الوزراء . . ففي أقل من
٢٤ ساعة كان الشعب المصري يهلل لهذه المبادرة من جانبي ويرحب بها كل
الترحيب . . وهنا يجب أن أعجل أن أحس الشعب أوعى بكثير وسابق عن كل
مسئول عمل معي حتى هذه اللحظة وهو ما أعتر به .

فروى لى أن جولدا مائير طلبت السفير الأمريكى فى تل ابيب
وقالت له : « اكتب لروجرز ولنيكسون وقل لهما لاني أنا جولدا مائير رئيسة
وزراء إسرائيل أتحدى أى زعيم عربى أن يقول إنه على استعداد لإبرام اتفاق سلام
مع إسرائيل فإذا حدث هذا - قل لهما - فسوف أكون على استعداد لكى أضع
كل أوراقى على المنضدة » ثم استطرد روجرز يقول لى : لقد وصلتنا هذه الرسالة
منذ فترة طويلة ، فإذا بنا نفاجأ بك فى ٤ فبراير سنة ١٩٧١ - ودون أن تعرف ما
قالت جولدا مائير - تعلن على العالم أنك على استعداد لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل
أعجبنا بذلك كل الإعجاب ولذلك طلبت زيارتك .. والشئ العجيب أيضاً -
استمر روجرز فى حديثه - أنه حسب التقارير التى عندنا كنت أتوقع أنى عندما
أصل إلى مصر سوف يقذفنى الناس بالطوب .. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث على
العكس نزلت الشارع بدون حراسة وعرفنى بعض الناس فحيونى وسلموا على .
قلت له : أنت هنا مع شعب عمره ٧٥٠٠ سنة وقد آن الأوان لكى تعرفوا
الشعب المصرى .. على أى حال ماذا تريد منى أن أفعل ؟

قال : أبداً .. لقد قلت كل شئ فى مبادرتك ونحن معك .. سأتوجه من هنا
إلى إسرائيل وسأقول لجولدا مائير إن السادات قد قبل التحدى .. حتى دون أن
يعلم به .. ولذلك أرجو أن تكونى عند وعذك وتضعى كل أوراقك على
المنضدة حتى يتسنى لأمريكا أن تدخل وتحل المشكلة ..

غادر روجرز مصر إلى إسرائيل .. وبعد ذلك بأيام قليلة تخلصت
من مراكز القوى الذين كانوا أغلبية فى القيادة السياسية المصرية وكانوا يستندون
على الاتحاد السوفيتى وينقلون تعليماته فجاءنى (بودجورنى) يلهث فرحاً
وطلب أن تعقد مصر معاهدة مع السوفيت .. وزاد الطين بلة أن كاريكاتيرات
الصحف الغربية تعليقاً على زيارة بودجورنى وعقد المعاهدة المصرية السوفيتية
أظهرت بودجورنى يستعرض طابوراً بلبس ملابس السجن المخططة وعلقت أن
بودجورنى القائد يستعرض طابور الأصدقاء فى السجن ..

وبرغم كل ذلك وبرغم أن بودجورنى قرر أن رسالتى لهم بشأن تصفية
الصراع قد وصلتهم فإننى وافقت على إبرام المعاهدة المصرية السوفيتية

فى مايو سنة ١٩٧١ وسافر بودجورنى سعيداً . ولم تستمر هذه المعاهدة إلا
خمس سنوات فقط بدلا من خمس عشرة سنة هى مدة المعاهدة وقد أنهاها
البرلمان المصرى .

ولهذه المعاهدة قصة ..

بعد هزيمتنا فى يونيو ١٩٦٧ ووضوح دور جونسون رئيس أميركا
فى ذلك الوقت فى خداعتنا لحساب إسرائيل عندما اتفق مع عبد الناصر بعد إغلاق
خليج العقبة فى مايو ١٩٦٧ فى وجه الملاححة الإسرائيلية على أن يرسل
نائبه همفري إلى القاهرة أو يرسل عبد الناصر أحد نوابه إلى واشنطن فيأدر
عبد الناصر بإخطار جونسون أنه سيرسل له أحد نوابه إلى واشنطن لحل مشكلة
مضائق العقبة وكانت المشكلة قد شددت انتباه العالم كله وكل يوم تتطور إلى
الأسوأ واتفق رسمياً بين عبد الناصر وجونسون أن يتوجه أحد نواب الرئيس
المصريين لمقابلة جونسون يوم الأربعاء ٧ يونيو ١٩٦٧ فى واشنطن وفى
نفس الوقت كان جونسون يستحث الإسرائيليين على المبادرة بالهجوم على
سيناء بعد أن قدم لهم صور القمر الصناعى الأمريكى عن أوضاع القوات
المصرية فى سيناء ساعة بساعة بل وطلب من الإسرائيليين سرعة بدء الهجوم
قبل وصول نائب رئيس الجمهورية المصرى إلى واشنطن فى ٧ يونيو ١٩٦٧
وخاصة عندما عرض الإسرائيليون خطتهم عليه فى مكتبه بالبيت الأبيض
بمضور رئيس الـ C.I.A. وأحد القادة الكبار من البنتاجون ..

وقد نفذت إسرائيل فعلاً كلام جونسون وهجمت يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ أى
قبل وصول نائب الرئيس المصرى بيومين وطبعاً لم تم هذه الزيارة .. لم يكتف
جونسون بهذه الخديعة لحساب إسرائيل بل إنه استخدم أيضاً الخط الساخن مع
القادة السوفيت وأكدهم أن إسرائيل لن تبدأ بالهجوم وأن عليهم أن يخططوا
عبد الناصر بذلك وقد استجاب السوفيت لهذه الخديعة أو اشتركوا فيها
لا استطع أن أجزم ولكن ما حدث هو أن باذر السوفيت عقب اتصال
جونسون بهم إلى الاتصال بعبد الناصر وأيقظوه فى الفجر ليبلغوه على لسان
سفيرهم فى القاهرة رسالة جونسون وتأكيدهم وتأبيدهم لها ..

أعود إلى القصة فإنه بعد وضوح دور جونسون لنا بعد هزيمتنا في ١٩٦٧ لم يكن أمامنا إلا أن نلجأ إلى الاتحاد السوفيتي لبيع أسلحة لنا نستعوض بها ما فقدناه وكان ما فقدناه أكثر من ٨٥٪ من أسلحتنا ..

وكان طبيعياً أيضاً أن نحافظ على صداقتنا مع الاتحاد السوفيتي بأي ثمن . وهناك حقيقة معروفة عن الروسي سواء كان في عهد القيصرية أو بعد ذلك تحت الحكم الماركسي ذلك أن الشك طبيعة ثانية فيه . SECOND NATURE وقد زاد هذا الشك تحت الحكم الماركسي بفعل طبيعة النظام وحصار العالم لروسيا بعد قيام ثورة ١٩١٧ البلشفية ووقوع الحرب الأهلية والإجراءات الصارمة والشك المسبق في كل إنسان إلى أن يثبت العكس .. لذلك حرصنا للبقاء على صداقتنا مع الاتحاد السوفيتي ومحو شكوكه الرهيبة بعدة أمور .. كان أولها أن طلبنا إلى السوفييت أن يتولوا عن مصر مع الولايات المتحدة كل ما يخص قضية الصراع العربي الإسرائيلي بعد أن لمسنا شكوكهم من أي اتصال أمريكي بنا .. بل ووصلت الأمور إلى الحد الذي طلبنا إليهم تعيين قائد سوفييتي للدفاع الجوي المصري وقائد سلاح الطيران المصري أيضاً أمام عربدة إسرائيل الجوية في أجوائنا ولكنهم رفضوا المطالبين لحسن حظنا ..

وكان قمة ما أردنا أن نظمتهم به هو أن نطلب إليهم عقد معاهدة معنا تريحهم وتزيل شكوكهم (التي كنا نعجب لها) وتضمن لنا إمدادات الأسلحة التي نحن في أشد الحاجة إليها برغم أنها كانت باستمرار متخلفة عما تأخذه إسرائيل من أمريكا ..

عرض عبد الناصر عليهم عقد المعاهدة مرتين ، وسافرت أنا بتكليف من عبد الناصر إلى موسكو وطلبت أيضاً مرتين عقد هذه المعاهدة وكان الرد من جانب السوفييت لعبد الناصر ولى هو الرفض .. لعلمهم كانوا ولا يزالون لا يثقون فينا وكانوا يخافون أن نورطهم بمثل هذه المعاهدة إلى ما لا يريدون . وذهب عبد الناصر إلى آخر الشوط قبل أن يموت بشهرين وهو في موسكو حين طلب إليهم أن يعقدوا معنا حلفاً PACT إذا كانوا يشعرون أن في ذلك مدعاة لراحة شكوكهم .. ورفضوا .. فما كان من عبد الناصر إلا أن أعلنهم في هذه الجلسة وعلى مائدة الكرملين بقبوله مبادرة روجرز برغم انفعال

وغضب بريجنيف الذي قال لعبد الناصر في انفعال إنك بهذا تقبل حلاً أمريكياً فرد عليه عبد الناصر إنني أقبل أي شيء مادام هذا هو أسلوبكم معي . لقد كان تعليق عبد الناصر لي يوم وصوله إلى القاهرة من هذه الرحلة الأخيرة في حياته إلى موسكو كلمتين قالمهما لي بالإنجليزية . لقد قال لي وأنا أسأله في طريقنا إلى منزله من المطار عما تم في موسكو فلم يزد عن « السوفييت Hopeless Case أي حالة ميئوس منها .

لذلك استغربت أن يأتيني بودجورني رئيس الاتحاد السوفيتي إلى القاهرة في أواخر مايو ١٩٧١ بعد زيارة روجرز لي في نفس الشهر وبعد أن صفت عملاءهم في القيادة المصرية ، أقول استغربت أن يأتي بودجورني ملهوفاً على عقد معاهدة فوراً معنا .. وقلت له في الحال أنا لا مانع عندي وقد طلبها منكم عبد الناصر مرتين فرفضتم وعرض عليكم أيضاً حلفاً PACT في زيارته الأخيرة لكم فرفضتم وطلبها أنا منكم كطلب عبد الناصر مرتين فرفضتم .. لا مانع لدينا ولكنني كصديق أنصحكم أن التوقيت الذي اخترتموه لعقد المعاهدة خاطيء جداً ذلك أن الكل سيعرف أنكم تطلبون المعاهدة بلهفة بعد أن كنتم ترفضونها لأن بعض أفراد من القيادة المصرية ينتظرون المحاكمة وكانهم كانوا هم الذين تعتمدون عليهم في علاقاتكم مع مصر وهذا خطأ جسيم سبق أن نبهتكم إليه .. ولهذا التنبيه أيضاً قصة ..

فإنني حينما قررت تصفية عملاء الاتحاد السوفيتي في القيادة المصرية وقبل أن تم هذه التصفية بشهر كامل استدعيت السفير السوفيتي في القاهرة وطلبت منه أن يبلغ القادة السوفييت رسالة عاجلة مني ولو أنها أمر من أمور مصر الداخلية إلا أنني حرصاً على صداقتنا مع السوفييت أريدهم أن يكونوا على علم بها .. هذا الأمر هو أنني قررت تصفية على صبري وكان عميد عملهم في القيادة المصرية لأنني أسمح بالاختلاف في وجهات النظر في القيادة السياسية ولكنني أرفض الصراع ولذلك فإنني أريد أن يعرف الأصدقاء السوفييت بذلك قبل أن يقع حتى لا تستيقظ شكوكهم التي أعاني منها وحتى لا تهيج صحف الغرب أعصابهم ..

ولقد حدث هذا فعلاً بعد أن أقلت على صبرى فقد خرجت صحف الغرب
بالمناشيات عن تصفية رجل موسكو . . .

بدأت صورتي في نظر أمريكا حتى بعد عقد المعاهدة مع السوفييت تتخذ
ألواناً وأبعاداً لم تكن مألوفة لديهم من قبل ساعدتهم على المزيد من التعرف
على وفهمي على حقيقتي وهو الأمر الذي لم يحدث بالنسبة لأصدقائنا السوفييت
الذين بيننا وبينهم معاهدة .. فهم منذ بدء علاقتنا معهم ومهما اختلفت الظروف
يتصرفون معنا بنفس الأسلوب الفج والفظ والذي يبعد كل البعد عن إدراك
الحقيقة كما هي .. أو حتى مجرد محاولة الإدراك ..

ولم يمض شهران حتى وقع تطور آخر سبب لي الصداع والصراع مع السوفييت
ففي يوليو ١٩٧١ قامت الثورة الشيوعية في السودان وعندما جاءني السفير السوفيتي
في القاهرة يطلب مني الاعتراف بالحكم الجديد رفضت وقلت له :

- « أنا لا أسمح بقيام حكم شيوعي على حدودي - هذه نقطة
أما النقطة الأخرى التي أرجو أن تنتبهوا لها فهي أنه لن يقوم في هذه المنطقة
حكم شيوعي لأن الدين يجري في دماننا ، فالأفضل لكم أن توقفوا كل نشاط
لكم في هذا المجال حتى تريحوا وتسترجموا » .

انصرف السفير السوفيتي في حالة غضب وأكد موقفى هذا شكوكهم في
طبعاً . . .

تعود إلى موقف أمريكا - غادر روجرز مصر في أوائل مايو ١٩٧١
إلى إسرائيل ليواجه جولدا مائير ثم انقضى يونيو ١٩٧١ وجاء يوليو ١٩٧١ وأنا
خلال تلك الفترة دائم الاستدعاء للقائم على شئون أمريكا أطلب منه أن يكتب
إلى روجرز ليخبرني بما حدث مع إسرائيل . . . ولكن دون جدوى تماماً كما
يفعل السوفييت معي . . . إسرائيل مستمرة في غرورها وأمريكا متحفظة
لا تتكلم ولا تتخذ أى موقف . . . إلى أن جاء ٦ يوليو ١٩٧١ فإذا بأحد رجال
وزارة الخارجية الأمريكية يأتي من واشنطن يطلب موعداً عاجلاً
للأهمية - قابلته في مساء نفس اليوم فقال لي إنه يحمل رسالة من نيكسون
وروجرز ولكن عنده بعض الأسئلة يريد مني الإجابة عليها أولاً . . .

كان السؤال الأول : هل غيرت المعاهدة السوفيتية التي عقدت في أواخر
مايو ١٩٧١ موقفك أو فرضت عليك التزامات تحد من حريتك في التعامل معنا
لإعادة السلام إلى المنطقة ؟

وأجبتني : أبداً . . . لقد أعلنت أن المعاهدة السوفيتية ليست لها بنود أو ملاحق
سرية ولا بد أن تتعودوا أنتم وغيركم على أن ما أقوله في العلن هو نفس ما أقوله
في السر وأن أى التزام التزم به من حق شعبي على أن يعرفه قبل غيره من الناس
لأنى غير مستعد لأن أضحك على شعبي في يوم من الأيام ومهما كانت
الظروف ومع ذلك فإن المعاهدة قد أعلنت بنودها رسمياً في البرلمان عند
إقرارها وليس على مصر أى قيود من أى نوع فنحن مصريون على حريتنا
واستقلالنا . . .

وكان السؤال الثاني : هل ما زلت توافق على مبادرتك التي أعلنتها في
فبراير ١٩٧١ وأخطرت بها روجرز عندما كان في مصر ؟

قلت له : طبعاً . . . ولو حدث أن غيرت أى شيء فلا بد أن أعلنه على الناس
فوراً . . . وأحب أن أنبهكم - وهذه ليست أول مرة - إلى أن كل ما يخص مصر
يجب أن تتكلموا معي أنا في شأنه . . . فإذا تكلمت مع أى شخص آخر ثقوا
أننا لن نستمع إليكم . . .

قال لي : حسناً . . . حسب ما لدى من معلومات أحب أن أقول لك إنه بعدما
تلقيت منك هذه الردود فابتداءً من منتصف الليلة ٦ - ٧ يوليو ١٩٧١ ،
فإن الرئيس الأمريكى سيتدخل بنفسه لبيد الحل السلمى . . .

قلت له : على خيرة الله . . . ما الذى فعله روجرز في إسرائيل ؟
أجاب : تحدث إليهم ولكن عندهم بعض الشكوك . . . على أى حال أنا ليست
عندى تعليمات بأن أقول شيئاً في هذا الشأن .

وانصرف وانتظرت . . . مضى نصف الليلة وأنصاف ليل كثيرة وكثيرة
جداً بعد ذلك ولكن لا حراك . . . العكس حدث . . . فقد وقفت جولدا
مائير في الكنيسة الإسرائيلى تلقن روجرز درساً عتيفاً . . . ومبلغ دراستنا
لشخصية مسز مائير أنها مولعة في حياتها العادية ومع مجلس الوزراء

الإسرائيليين بمعاملة الوزراء كما كانت تعلم الطلبة في فصل المدرسة وهي تدرس للاطفال في ميلووكي . . ويظهر أن كل ذنب روجرز هو أنه طالبها بأن تضع أوراقها على المنضدة كما سبق وأن أخطرتة رسمياً عن استعدادها لذلك إذا أعلن أحد زعماء العرب عن قبوله توقيع اتفاقية سلام بيننا كان يعلم تمام العلم أنها لم تكن مستعدة لذلك .

وكان لزاماً عليه أيضاً أن يدرك أنها عندما أرسلت التحدي عن طريق السفير الأمريكي في تل أبيب كانت على ثقة من أنه لا يوجد زعيم عربي يمكن أن يدعو إلى اتفاقية سلام مع إسرائيل . . فقيم كثرة الكلام إذن ؟ وإلى أين سوف تؤدي سذاجة روجرز وجهله بمخافتة الأمور بأمريكا وإسرائيل على السواء ؟ كان هذا الدرس بمثابة إشارة إلى الدوائر الصهيونية في الولايات المتحدة لكي تقضي على روجرز . .

وبالفعل عندما خرج من منصبه بعد ذلك ظل معزولاً عزلاً تاماً . .

وما هو جدب بالذكر هنا أن الرسالة التي وصلتني يوم ٦ يوليو ١٩٧١ على لسان الرئيس الأمريكي ووزير خارجيته روجرز مع دبلوماسي أمريكي كان هو رئيس قسم مصر في وزارة الخارجية لم يكن لدى الرئيس الأمريكي أي علم بها كما عرفت بعد ذلك . . شيء غريب حقاً . . أليس كذلك ؟ !

المهم أنه بعد خطاب جولدا مائير في الكنيست عادت الأحوال بيني وبين أمريكا إلى أسوأ مما كانت عليه . . فقد كان للخطاب أثره في الرأي العام الأمريكي كما أنه أربح روجرز فراجع عن كل شيء . .

وليت روجرز اقتصر على التراجع بل إننا نجد في أول يناير سنة ١٩٧٢ يصرح بأن أمريكا قد أعطت إسرائيل معونات جديدة ودخلت معها في عمليات تصحيح ولن تكف عن بذل المعونة لها حتى تظلم متفوقة عسكرياً على العرب مجتمعين . . مسكين . . كان يريد أن يشترى رضا إسرائيل مرة أخرى بعد الدرس الذي أعطته له جولدا مائير ولكن بلا جدوى .

بعد تصريح روجرز وبعد عدم استطاعتي تحقيق وعدى بأن سنة ١٩٧١ لا بد أن تكون سنة الحسم إما مسلماً أو حرباً بدأت أعاني الشمانة في العالم الخارجي وفي الداخل من عملاء السوفييت وبعض من ضللتهم الدعاية السوفيتية ومسلح أمريكا معي . . فما هي سنة ١٩٧١ تنقضي دون أي حسم ما . . لقد

تعهد الاتحاد السوفيتي أن يخذلني بعدم إرسال العناد الذي طلبته وكانهم في موسكو يريدون أن يقولوا لي أنت لا تستطيع أن تقرر شيئاً بدون إذن السوفييت وقد اعترف بريجنيف بعد ذلك بستين للمارشال أحمد إسماعيل عندما زار موسكو في مارس سنة ١٩٧٣ للمصالحة بأنه تعمد عدم إرسال الأسلحة . .

وتستمر سخريه عملاء الاتحاد السوفيتي وعملاء مراكز القوى عندي في مصر من سنة الحسم واضطرر لي أن أكتب الآمي وأخفي جروحي وأذهب إلى مجلس الشعب في فبراير سنة ١٩٧٢ أدافع عن السوفييت رغم أني مطعون في ظهرى منهم فقد زرت موسكو في سنة واحدة أربع مرات أطلب العناد وأح في الطلب ولكن عبثاً . . وفي نفس الخطاب أمام مجلس الشعب عمدت إلى مهاجمة أمريكا وروجرز بأعنف ما يمكن للهجوم أن يكون . . وهكذا بدأ فصل جديد من العلاقات السيئة بيني وبين أمريكا . . مواجهة عاتية كاملة . .

طبعاً أصيب الأمريكيان بذهول يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٧٢ عندما اتخذت قرار الإستغناء عن الخبراء السوفييت ولكنهم حاولوا جهد طاقهم أن لا يأخذ القرار مكانه في إعلامهم . . فالوفاق بدأ . . وكان سيكون قد زار موسكو في مايو سنة ١٩٧٢ أي قبل شهرين فقط من قرارى بالاستغناء عن الخبراء السوفييت . . فكأنما كانت مؤامرة صمت . .

ولكن يخطيء من يظن أني اتخذت قرار طرد الخبراء السوفييت لإرضاء أمريكا أو أية جهة أخرى . . لقد كان قراراً وطنياً سعد به شعب مصر كل السعادة فهو قرارى وقرار شعبي وحده ، وكان هجومى على روجرز وأمريكا لما لقيته من سلوك من جانبهم لا يقل عنفاً عما وجهته للسوفييت وأنا أطرده خبراءهم .

٦

لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى أطيح بروجرز وجاء كيسنجر وزيراً للخارجية - فطلب أن يلتقي بأى رسول أرسله له ولكن سنة ١٩٧٢ كانت سنة انتخابات والحكومة الأمريكية في مثل هذه السنة لا تقدم ولا تؤخر ثم إن الوفاق بين أمريكا وروسيا كان قد أعلن فلم يتحقق لهذا اللقاء الذي طلبه كيسنجر أن يتم إلا في فبراير سنة ٧٣ .

أرسلت له حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي عندنا فالتقى به في باريس مرة في فبراير سنة ١٩٧٣ وأخرى في أبريل سنة ١٩٧٣ .

كانت حصيلة كلام كيسنجر أن الذي فعله روجرز كان بغير مساندة الرئيس الأمريكي ولذلك لم يتم شيء . ولكن الرئيس الأمريكي الآن مستعد للتعاون من أجل السلام . قال له حافظ إسماعيل إن مبادرتنا ما زالت قائمة رغم تحدى روجرز وزير الخارجية الأمريكية لنا في يناير سنة ١٩٧٢ فرد كيسنجر قائلاً : -

- قل للرئيس السادات رغم أنني لا أعرفه شخصياً إن تقديرنا له الذي نبني على تقرير مندوب أمريكا في جنازة عبد الناصر كان خاطئاً . . بل إن الحقائق كلها تشير إلى عكس ما جاء في هذا التقرير . . فقد رأينا يتقدم بمبادرة سلام ثم رأينا وهو يتخذ قرار طرد الخبراء السوفيت . . وهذه مسائل لافتة للنظر : .

« ولكن نصيحتي للسادات أن يكون واقعياً . . فنحن نعيش في عالم الواقع ولا نستطيع أن نبني شيئاً على الأمانى والتخيلات . . والواقع أنكم مهزومون فلا تطلبوا ما يطلبه المنتصر . . لا بد أن تكون هناك بعض التنازلات من جانبكم حتى تستطيع أمريكا أن تساعدكم . .

« فكيف يتسنى وأنتم في موقف المهزوم أن تملوا شروطكم على الطرف الآخر . . إما أن تغيروا الواقع الذي تعيشونه فيغير بالتبعية تناولنا للحل وإما أنكم لا تستطيعون ، وفي هذه الحالة لا بد من إيجاد حلول تناسب مع موقفكم غير الحلول التي تعرضونها وأرجو أن يكون معنى ما أقول واضحاً فليست أدعو السادات إطلاقاً إلى تغيير الوضع العسكري فلو أنه حاول هذا فسوف تنتصر إسرائيل مرة أخرى بأشد ما انتصرت في سنة ١٩٦٧ وفي هذه الحالة يصعب علينا أن نفعل أي شيء . . وسوف تكون هذه خسارة كبيرة لمصر وللسادات شخصياً وهو رجل أحب أن أتعامل معه في يوم ما . . فأنا شديد الإعجاب به لمواقفه وشجاعته الواضحة ولأنه إنسان لأول مرة في هذه المنطقة يضع كل شيء في مكانه بأسلوب علمي سليم ويتخذ خطأً جديداً لم يتخذه أي زعيم عربي من قبله . . »

كان هذا كلام كيسنجر في فبراير ولأبريل سنة ١٩٧٣ فقلت في نفسي لا فائدة ترجى من الأمريكان فقد استولت عليهم إسرائيل وما زالت السياسة التي وضعها جونسون لأمريكا تفضل مصالح إسرائيل على مصالح أمريكا نفسها . وكما يقول رجل الشارع عندنا في مصر . . إسرائيل هي الحارس الوحيد على مصالح أمريكا في الشرق الأوسط . . هذا ما جعلت من نفسها . . أو هكذا جعلتها أمريكا . . والنتيجة في كلا الحالين واحدة وهي أنه لا أمل في تحقيق السلام عن طريق أمريكا ما دامت إسرائيل لا تريد السلام .

V

فوجئت أمريكا بحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ وفوجيء كيسنجر وحزن حزناً شديداً على مصيرى كما قال لي فيما بعد - إذ كان الإسرائيليون في الأيام الثلاثة الأولى للحرب يؤكدون للعالم كله بأنهم يطحنون عظام المصريين والسوريين وأن المسألة كما أعلنت إسرائيل ليست إلا ساعات أو يوم أو يومين ويقضي على المصريين ويدفنون في القناة . .

واستخدموا أفلام هزيمتنا في سنة ١٩٦٧ في كل الإذاعات عندهم وأرسلوها إلى الخارج . . وكان « البروجاندا » السوداء ستجعلهم ينتصرون . . وفي اليوم الرابع للحرب وصلت الخارجية الأمريكية إشارة : « أنقذوا إسرائيل » . . وأن إسرائيل خسرت على الجبهة المصرية ٤٠٠ دبابة مطلوب لإرسالها فوراً من أمريكا لإسرائيل . .

ولا بد أن كيسنجر أصيب بالذهول حتماً حينما أكد البنتاجون بأقماره الصناعية ما أبلغته إسرائيل للخارجية الأمريكية . .

وعلى الفور بدأ كيسنجر - بعد أن أفاق من ذهوله - في العمل على وقف إطلاق النار على أن تعود القوات إلى المواقع التي بدأت منها القتال يوم ٦ أكتوبر . . طبعاً رفضت . . لقد عبرنا وحققنا المرحلة الأولى بالإستيلاء الكامل على خط بارليف ولم يعد أمامنا إلا المرحلة الثانية وهي الوصول إلى المضائق . .

وساء حال إسرائيل أكثر . . . فتقدم كيسنجر بعرض آخر وهو وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية ولكن سوريا كانت في ذلك الوقت قد رجعت عن خط البدء فرفضت هذا أيضاً . . . وخاصة عندما قفز إلى ذهني الموقف في سنة ١٩٤٨ عندما طلب الإسرائيليون هدنة واستجاب العرب فاسترد اليهود أنفاسهم ثم أجهزوا على كل شيء . . . كانت هذه حيلة مماثلة ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . . .

أرسل الاتحاد السوفيتي لى ثلاث طلبات بوقف إطلاق النار ورفضها جميعاً . . . ثم حضر رئيس وزراءهم كوسيجين إلى مصر وبقى عندنا أربعة أيام . . . وفي يوم ١٢ أكتوبر أرسل الاتحاد السوفيتي إلى أمريكا يقول إن السادات قد وافق على وقف إطلاق النار . . . وأراد كيسنجر أن يستوثق فاتصل برئيس الوزارة البريطانية ستر هيث لكي يتصل بي عن طريق السفير البريطاني في القاهرة ليسأل عن مدى صحة الرسالة . . . وفوجئت بالسفير البريطاني يوقظني من النوم فجر ١٣ أكتوبر ليبلغني الرسالة . . . قلت له لم يحدث وأرجو أن تبلغ كيسنجر أن لا أحد يتحدث عن مصر إلا أنا فقط . . .

طبعاً كانت أمريكا تساند إسرائيل منذ بداية الحرب وقبلها . . .

ولكن بعد أن تأزم الموقف تحولت هذه المساندة إلى تدخل واضح وصريح ومباشر . . . فكانت الدبابات تنزل إلى أرض سيناء في العريش المصرية عاصمة سيناء وهي التي تقع وراء الجبهة مباشرة وهي محملة بالبنزين والذخيرة فتدخل المعركة مباشرة . . . كما كانت ثمة أسلحة أخرى لم تستخدم من قبل سبق أن رويت قصتها .

ووجدتني فجأة أواجه أمريكا . . .

وهذا ما جعلني أعلن على العالم يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أني لا أحارب أمريكا . . . وبناء عليه فأنا أقبل وقف إطلاق النار وهو ما رفضته أربع مرات على مدى ١٧ يوماً عندما كان خصمي في المعركة إسرائيل وحدها - لا أمريكا . . . وهنا أحب أن أسجل للتاريخ أن الثغرة هي مسئولية أمريكا بل ومسئولية البنتاجون ذاته والمساعدات التي قدمها لإسرائيل والصور الجوية والعتاد

والأسلحة الجديدة التي استخدمت لأول مرة ولم تكن متاحة لأي إنسان خارج أمريكا إلى ذلك التاريخ . . .

لم تكن الثغرة في ذاتها هي التي جعلتني أقبل وقف إطلاق النار . . . الذي دفعني إلى هذا - كما سبق أن قلت - أنني أصبحت في حالة مواجهة عسكرية كاملة مع أمريكا وهو ما لا قبل لي أو لأية دولة غير عظمى به .

أما الثغرة نفسها فقد كانت من الناحية العسكرية مجرد عملية تليفزيونية كما أسماها بحق الجنرال بوفر رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسية ومن الناحية السياسية كان واضحاً أن الهدف منها هو إعطاء إسرائيل نقطة انطلاق تحفظ ما تبقى لها من كرامة في المفاوضات بينها وبين مصر بعد أن وصلوا على الجبهة المصرية إلى الخيض BOTTOM كما قالت سزمائير وقتذاك . . . لقد حشدوا قوات كبيرة في الثغرة في منطقة صغيرة لا تحتمل هذه القوات وكانوا يأملون أن يخيفني هذا فأعتقد أن القاهرة مهددة . . . طبعاً خاب ظنهم فالحرب النفسية قد تصلح مع غيري ولكنها لا تصلح أبداً معي لأنني أعرف ما أفعل وأعد لكل خطوة أخطوها عدتها . . .

كنت واثقاً كل الثقة من أن عملية الثغرة مغامرة طائشة ساذجة ومكوب لها الفشل المحقق . . . فلو أني صفيت الثغرة حسب الخطة المروعة والتي وقعتنا بنفسى كانت إسرائيل ستفقد ٤٠٠ دبابة وعشرة آلاف عسكري ما بين قتل وجريح ولم يكن هذا بالأمر الصعب أو المحتمل بل الأكيد . . . ففي هذه المعركة لم يكن أمامي قناة أعبرها أو خط بارليف أقتحمه . . . العدو أمامي وعلى مساحة ضيقة من الأرض ظهره للبحيرة ووراءه على الضفة الشرقية خمس فرق كاملة لي ومدخل الثغرة من الضفة الشرقية فتحة هي ستة كيلو مترات فقط عند نقطة الارتكاز بين الجيشين الثاني والثالث . . . كل الحسابات العسكرية كانت تشير إلى أن هذه المعركة لو تمت فستكون مذبحة التاريخ . . .

ولكنها لم تتم . . . لماذا ؟ لأنها كانت ستعني المزيد من الدم والكراهية والأحقاد . . . وأنا أكره كل هذا . . .

بل إنني لأذهب إلى آخر العالم - كما يعرف شعبي وقواني المسلحة - إذا كان ذلك من شأنه أن أتفادي جرح - ولا أقول قتل - فرد واحد .

من ثورة السودان الشيوعية المجهضة ثم قرار الحرب وانتصاري فيها رغم تحذيرهم لسوريا بأنني سأغرق في القناة بعد ساعة وأترك السوريين ليواجهوا إسرائيل وحدهم . . . فإذا بالأمور تسير بالعكس فأعبر القناة أخطر مانع مائي في التاريخ وأسيطر على خط بارليف في ساعات وأدخل سيناء . . . ولكن حتى في هذه المرحلة المتقدمة لم يكف السوفييت عن طلب وقف إطلاق النار ثلاث مرات والرابعة حين حضر إلى مصر رئيس وزراءهم كوسيجين - كما سبق أن رويت - ليقنعني بوقف إطلاق النار وحدثت بيننا مشادة في منهي العنف . . . وأخيراً كان اتفاق مع كيسنجر على النقاط الستة وبداية عملية السلام . . . منذ تلك اللحظة إلى هذا اليوم في سنة ١٩٧٧ وكل شيء عند السوفييت موقوف عنى . . . لا يبيع أسلحة أستعوض بها كما استعوضت سوريا ما فقدت ولا قطع غيار ولا أي شيء على الإطلاق . . . بل موقف متشدد يكاد أن يصل في بعض الأحيان إلى العدا . . .

في ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ جاءني كيسنجر حسب الاتفاق لتنفيذ النقاط الستة فقلت له : « يا هنري أنا لا أطلب بعودة اليهود إلى الضفة الشرقية ولكني أريد عودتهم إلى خط ٢٢ أكتوبر - كان هذا اتفاقاً وقت وقف إطلاق النار فإما أن يعودوا إليه وإما أن أخذه بالقوة » . . .

قال : - ما الداعي إلى المعركة ؟

قلت : - لأن ثمة عريضة إسرائيلية - وهم يتصورون أنهم يخيفوننا بهذه الثغرة - وأنا لست على استعداد لأن أجهض نتائج حرب أكتوبر بل لن أسمح بهذا . . . هل تعرف مدى قوتي ومدى قوتهم في الثغرة ؟

قال : نعم أعرف . . .

وأخرج من جيبه صورة بالقمر الصناعي رسمها البنناجون . كما سبق أن رويت . وقال : قبل أن أحضر إليك طلبت من البنناجون أن يعطوني الموقف فأعطوني هذه الصورة وفيها الـ ٤٠٠ دبابة إسرائيلية ومن حولها ٨٠٠ دبابة مصرية ولديك صاروخ ونصف تقريباً لكل دبابة بخلاف حائط الصواريخ القائم . . . أنت فعلاً تستطيع أن تصني الثغرة بهذه القوات . . .

كان أول لقاء لي مع كيسنجر بعد وقف إطلاق النار الذي تم في الساعة السابعة مساءً ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . . . وخرق إسرائيل لوقف إطلاق النار بعد ذلك بساعتين فقط . . . فقد كانت أمريكا بالتضامن مع روسيا مسئولة عن وقف إطلاق النار فأرسلت إلى القوتين نداءً أحملهما فيه مسئولية ما فعلت إسرائيل وأعلن أنني رغم التزامي بوقف إطلاق النار إلا أنني أعتبر نفسي في حل من التزامي فإما أن يعيدوا اليهود إلى خط ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وهو الخط الذي كان قائماً وقت وقف إطلاق النار وتعرفه أمريكا وروسيا بأقمارهما الصناعية ونعرفه نحن وإسرائيل على الأرض . . . وإما أن أعيدهم أنا بيدي - كيسنجر أرسل يطلب الحضور إلى مصر فقلت على الرحب . . . وأنى . . .

كان ذلك في أواخر أكتوبر سنة ١٩٧٣ واستغرقت الجلسة الأولى ثلاث ساعات . . . بعد الساعة الأولى شعرت أني أمام عقلية جديدة وأسلوب جديد في السياسة وأنى أرى لأول مرة وجه أمريكا الحقيقي الذي كنت فيما مضى أتمنى أن أراه - لا الوجه الذي صنعه دالاس ودين راسك وروجرز . . . وأعتقد أنه لو رأنا أحد بعد الساعة الأولى من اجتماعنا بقصر الظاهرة لاعتقد أننا أصدقاء منذ سنوات وسنوات . . .

لم تكن هناك أية صعوبة في التفاهم فاتفقنا على النقاط الستة ومن ضمنها إقرار أمريكا بخط ٢٢ أكتوبر في إطار فض الاشتباك .

كان الاتفاق على النقاط الستة بداية قيام علاقة فهم مشترك بيننا وبين أمريكا تبلورت فيما نسميه بعملية السلام (PEACE PROCESS) التي سارت فيها أمريكا معي وما زالت حتى اليوم .

نفس هذه البداية اعتبرها السوفييت نهاية للعلاقة بينهم وبيننا - أو هكذا يبدو - على أي الأحوال كان الاتفاق على النقاط الستة بيني وبين كيسنجر بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير - كما نقول في العربية - بالنسبة للسوفييت ، لقد تحملوا كارهين قرار طرد الخبراء السوفييت وتصنيتي لمراكز القوى ثم موقفي

— للأسف يبدو أننا قد وصلنا إلى طريق مغلق فهم في تل أبيب غير راغبين في التفاهم .
قلت له : لقد جاء دوركم أنتم الأمريكان . . فحلوا الموقف أنتم بأنفسكم . .

قال : هل تقبل عرضاً أمريكياً ؟

قلت : بكل سرور . . مستعد ألقاه وأدرسه وأرد عليك . .

تلقيت الاقتراح الأمريكي وتلقته إسرائيل في نفس الوقت . . وبالاتفاق على فض الاشتباك الأول على الجبهة المصرية بدأنا مرحلة جديدة . . المرحلة الثانية في عملية السلام . .

وهنا لا بد لي أن أقول إنه لا يستطيع أحد غير أمريكا أن يقوم بهذا الدور وهو التدخل بين الطرفين اللذين تأكلهما أحقاد رهينة ودماء وكرهية وعنف ومذابح قامت بها الصهيونية في القرى الفلسطينية . .

لم تفرض أمريكا فض الاشتباك الأول بل تدخلت بيننا لتفتح الطريق المسدود . . وفض الاشتباك الأول مكتوب على رأسه كلمة « عرض أمريكي AMERICAN PROPOSAL . . لهذا قلت وأقول إن بيد أمريكا ٩٩٪ من أوراق اللعبة . . مهما أغضب ذلك الآخرين . .

٩

كان من المفروض أن تدخل المرحلة الثالثة من عملية السلام في سبتمبر ١٩٧٤ وهي فض الاشتباك الثاني — ولكن حدثت زيارة نيكسون إلى مصر ثم عاد إلى أمريكا حيث كانت مسألة ووترجيت قد نضجت تماماً وتفجرت فاستقال نيكسون ودخلت أمريكا في دوامة رهيبية استمرت خلال سنوات ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ سنة الانتخابات بعد أن استقال نيكسون وحل فورده محله ، وبدأت دبلوماسية (المكوك) بين أسوان وتل أبيب لإتمام عملية فض الاشتباك الثاني .
في تقديري أن فض الاشتباك الأول استغرقت مفاوضاته من أسبوع إلى عشرة أيام . . أما هذه المرة فقد كان الأمر مختلف .

قلت : هذه سوف تكون معركة التاريخ بالنسبة إلى . . فما هو موقف أمريكا . . إنكم أنتم الذين أخرجتموني من الحرب ولكنكم أنتم المسئولون عن الثغرة . . ما هو موقف أمريكا إذا صفت الثغرة بمعركة . . ؟

قال : سيضربك البتاجسون بكل قوته . . هذا هو موقف أمريكا . . ولكن لي سؤال : هل أنت مصر على تصفية الثغرة بمعركة عسكرية . . ؟

قلت : أبداً . . أنتم تعلمون أنني رجل سلام . . ولو كنتم قبلتم مبادرتي سنة ١٩٧١ لما كانت هناك حرب — فأنا ضنين بحياة الجندي قبل الضابط ولكنكم لم تأخذوا كلامي مأخذ الجد وهذه هي النتيجة . .

قال : كما بدأنا عملية السلام ، نعمل فض اشتباك تنهى هذه الثغرة بمقتضاه سلمياً .

قلت له : أنا معك ١٠٠٪ . . ولكن متى ؟

في ذلك الوقت كنا قد حددنا لمؤتمر جنيف يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩٧٧ وأجل إلى ٢١ من الشهر نفسه ، وفعلاً ذهبت مصر والأردن وإسرائيل وامتنعت سوريا — وعقدنا في جنيف جلتين أو ثلاثة ثم أجلنا الجلسة واتفقنا أنا وكيسنجر على فض الاشتباك في يناير سنة ٧٤ — وذلك بالنسبة للجبهتين المصرية والسورية .

قبل ذلك بفترة — وعلى وجه التحديد في يوم ١٦ أكتوبر بعد بدء المعركة بعشرة أيام وبينما كان انتصارنا واقعاً أذهل العالم كله — خطبت في مجلس الشعب

هنا في مصر وقلت إنني مستعد أن أذهب إلى جنيف شريطة أن تنسحب إسرائيل من الأرض العربية المحتلة في عام ١٩٦٧ ويجتمع في جنيف لنضع اتفاقية سلام . . كان في إمكاني في ذلك الوقت أن أضرب في عمق إسرائيل . .

وهي تعلم ذلك وتعلم أن لدى السلاح الذي يقوم بذلك . .

أي رجل مكاني كان يفعل هذا ولو من باب الانتقام من إسرائيل لثلاث حروب مضت — ولكني لم أفعل لأنني أفضل السلام . . ومن نفس المنطلق

آثرت أن أصب الثغرة سلمياً فجاء كيسنجر حسب الاتفاق في يناير سنة ١٩٧٤ وأخذ يتنقل بين أسوان وتل أبيب فترة من الزمن إلى أن جاء إلى في يوم

وقال : —

استغرقت رحلات كيسنجر أكثر من أسبوعين ولا شيء يلوح في الأفق . . .
وقبل أن تنتهي هذه الرحلات بعشرة أيام قلت له وهو عندي
في أسوان :

- يا هنري لن يتم فض الاشتباك هذه المرة - ولن يستجيب اليهود لكم
ولا للسلام . . . لأنهم يعلمون أن الحكومة الأمريكية في حالة ضعف -
فووترجيت ما زالت متفجرة - والرئيس الموجود معين وليس متخبأ . . .
قال : بالعكس أنا أرى أن العملية تسير سيراً حسناً - صحيح أنها قد تستغرق
وقتا أطول من فض الاشتباك الأول ، ولكن هذا لا يعني الكثير .

قلت له : تقدر تقدم مقترحاً أمريكياً يا هنري ؟

قال : لا . . .

قلت : أرايت ؟ أنت لا تقدر لأنكم في وضع داخلي صعب . . . ولذلك

لن توافق إسرائيل .

بعد عشرين يوماً جاء إلى وقال :

- أنت على حق . . . إنها حالة ميثوس منها . . .

قلت له : لا تعلن هذا من عندي - سافر إليهم وأعلنها من عندهم .

وفعلاً أعلن فشل مفاوضات فض الاشتباك الثاني في مرحلته الأولى من تل
أبيب ، وفي نفس الوقت أعلن وزير خارجية مصر فشل مساعي كيسنجر في
مؤتمر صحفى عقده بأسوان ، وفي صباح اليوم التالي سافر كيسنجر من
عندهم رأساً إلى أمريكا .

الذى أريد أن أقوله للشعب الأمريكى هنا هو أنه برغم أن شريان الحياة يمتد
من أمريكا إلى إسرائيل بكل ألوان الحياة من رغيف العيش إلى القانتوم
إلى سد العجز في الميزانية ، إلا أن إسرائيل رفضت أن تستجيب للسلام لأنه
كان في تقديرها في ذلك الوقت أن الحكومة الأمريكية في موقف ضعف . . .
فهي إذن ليست موضع ثقة إسرائيل - أنا أيضاً كنت أعرف أن الحكومة
الأمريكية في موقف ضعف . . . ولكن رغم هذا ورغم أنني كنت قبل ذلك
في مواجهة صريحة كاملة مع أمريكا لمدة ١٨ عاماً . . . إلا أنني كنت أتق
فيها من أجل تحقيق الخير والسلام . . .

وهنا تتضح حقيقة لا أظن أنها تفوت على الكثيرين . . . وهي أن ما هو معروف
من أن إسرائيل هي راعية مصالح أمريكا في المنطقة هو في الحقيقة مجرد ادعاء . . .
فأين حماية هذه المصالح والبتروال الذى حظره العرب كان يهدد كيان
أمريكا الاقتصادية بل ويهدد المدينة الغربية كلها بالإهيار ؟ إن إسرائيل
لا تنظر إلا إلى مصالحها الذاتية . . . والمسألة بعد هذا أعمق وأدق فهي مسألة
أخلاق . . . ومسألة حب للسلام أو العكس بصرف النظر عن سيدفع ثمن
فشل محاولات السلام . . . وهذا ما دعانى رغم كل علاقائى السابقة مع أمريكا
أن أقول لوزير خارجيتها إنه مهما كان موقف إسرائيل فدعنا نعمل سوياً
من أجل السلام . . .

هل يحتاج الأمر إلى عقد المزيد من المقارنات بين موقف إسرائيل وموقف
مصر في تلك المرحلة التاريخية . . . وما قد تفصح عنه هذه المقارنات من الحرص
على السلام أو العكس ؟ لا أعتقد .

١٠

أنا لا أريد أبداً أن أثبت أنى رجل سلام بالكلام فقط ولذلك فبمجرد
خذلان إسرائيل لمساعي كيسنجر من أجل السلام ذهبت إلى البرلمان وأعلنت
للشعب كل ما حدث ثم تقدمت بقرارات لا تتسم بالعصبية أو رد الفعل ،
وإنما كانت قرارات صادرة عن الثقة بالنفس وبالحق فأعلنت فتح قناة السويس
في ٥ يونيو سنة ١٩٧٥ بعد أن كان لأمريكا هذا الدور الرائع في تطهيرها
مع فرنسا وإنجلترا والاتحاد السوفيتى الذى طهر خليج السويس لوصوله
متأخراً . . . وسمعى شعبى وأمنى العربية والعالم أجمع .

كما سمعى الجميع أعلن أيضاً أن المهجرين سيعودون إلى مدن القناة ،
وأنى سأسلم إسرائيل ٣٩ جثة من قتلاها كانت إسرائيل مستعدة لدفع أى
ثمن لاسترجاعها بواسطة كيسنجر ولكننى أعطيتها لهم بدون مقابل . . .

كل هذا من أجل السلام . . . مع ذلك فقد حذرت إسرائيل من أنها لو
ضربت أى مدينة من مدن القناة أو القناة ذاتها بعد فتحها بمدافعها الأمريكية
طويلة المدى فسوف أرد بالضرب في عمق إسرائيل . . .

كنت طبعاً قد قابلت فورد في سالزبورج (يومى ١ ، ٢ يونيو ١٩٧٥) بعد فشل محادثات مارس واتفقتنا على عملية جديدة يتولاها فورد شخصياً . .

في أغسطس جاءنى كيسنجر وبدأ (المكوك) بينى هنا وتل أيب . . كان الرجل مكسور القلب . . فالوضع السيئ الذى كانت عليه الإدارة الأمريكية فى مارس أصبح أسوأ بكثير فى أغسطس . . فالفضائح تتفجر كل يوم والإضطراب وعدم الإستقرار مستمر . . واليهود ينتهزون كل فرصة ليضربوا مصالح أمريكا عندما تتعارض مع مصالحهم . .

قلت له : كنت قد قلت لك فى مارس إن العملية لن تتم ولكننى أقول لك هذه المرة إنها سوف تتم . . فقد كشفت إسرائيل أمام العالم بفتح القناة وعودة المهجرين . . إلى آخر ما فعلت من أجل إعادة السلام إلى المنطقة . . ولذلك فلو حاولت إسرائيل أية محاولة لإفشال السلام فستضح الحقيقة للعالم كله وهى أنها وحدها المسئولة عن هذا . .

وفعلاً لم تستطع إسرائيل إلا أن توافق ، فوقعتنا فى أول سبتمبر سنة ١٩٧٥ إنفاقية فض الاشتباك الثانى وبذلك تمت المرحلة الثالثة من عملية السلام .

بعد ذلك لم يعد هناك مجال لحل الخطوة خطوة فتحن الآن بصدد تسوية شاملة أى اتفاق السلام النهائى وإنهاء حالة الحرب التى لا تزال قائمة إلى اليوم منذ ثلاثين سنة . . وعلينا أن نسعى إلى السلام الدائم العادل . . بعد ما ثبت من أن مصر التى كانت فى مواجهة مع أمريكا لمدة ١٨ سنة تستجيب للسلام بينما إسرائيل وهى ربيبة أمريكا مستعدة لأن تطيح بمصالح أمريكا إذا شعرت بأن هذا قد يحقق شيئاً من أطماعها .

||

ذهبت لزيارة كارتر بعد أن نجح فى الانتخابات وأصبح رئيساً للولايات المتحدة . . واستعرضت معه كل المراحل التى تمت ، كما وضعت أمامه استراتيجية سلام محددة لا أعتقد أن إسرائيل قادرة أو راغبة فى أن تصنع مثلها أو شبيهة بها .

ما هى استراتيجية السلام التى وضعتها أمام كارتر وأضعها أمام العالم كله اليوم ؟ قبل أن أدخل فى التفاصيل أحب أن أدعو كل من يتعرض لقضية الشرق الأوسط أن يدرك أن المشكلة الأساسية فيها هى المشكلة الفلسطينية . . دعونا إذن نبدأ بحل المشكلة الفلسطينية فليست سيناء أو الجولان إلا أعراض لمرض أساسى هو هذه المشكلة بالذات . . ولعل مما يلفت النظر فى هذه المسألة أن بعض الأصوات ترتفع هذه الأيام تطلب من الفلسطينيين الإعراف بإسرائيل . . تناقض غريب . . فهم يطلبون من أناس فقدوا الأرض والدولة بل وحقوق الإنسان نفسها - يطلبون من هؤلاء وهم المشردون الفلسطينيون أن يعترفوا بدولة هى إسرائيل تتمتع باعتراف ١٤٠ دولة فى الأمم المتحدة ولديها الأرض واعتراف ومساندة الولايات المتحدة وتأييد الإتحاد السوفيتى الذى لم يحاول قط إخفاء مساندته لإسرائيل وحققها فى أن لا تمس . .

حتى أنه فى زيارة حديثة قام بها ياسر عرفات للسوفيت خلال عام ١٩٧٧ طلب بريجنيف منه أن تعترف منظمة التحرير بإسرائيل كأساس مبدئى لحل المشكلة . .

فى استراتيجية السلام الأولى التى أعرضها على العالم اليوم لا أنكر على إسرائيل حقها فى أن تعترف بها دول المنطقة . . ولكن بشرط أن يأخذ كل شىء وضعه الطبيعى . . فاتفاقية السلام يجب أن تتضمن إقامة دولة فلسطين فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، على أن تسحب إسرائيل من الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧ .

وبذلك عندما يجتمع فى جنيف نعلن رسمياً إنهاء حالة الحرب التى استمرت منذ قيام إسرائيل حتى هذه اللحظة . .

وقد قلت للرئيس كارتر إن إسرائيل يجب أن تعطى جميع الضمانات التى تطلبها حتى إذا رأت أن تسليح كل مواطن فيها بدبابية وطائرة وأعطتها أمريكا هذا فلن نمانع . . بشرط أن تستعملها إسرائيل داخل حدودها وليس فى أرض الغير . . لن نمانع إطلاقاً فى أى شىء تطلبه إسرائيل سواء من أمريكا أو الإتحاد السوفيتى أو مجلس الأمن ، وبأية صورة تطلبه . . قوة مشكلة من الأمم المتحدة . . قوات على الحدود . . مناطق منزوعة السلاح على الجانبين . . ميثاق

دفاع مشترك مع أمريكا . . . أقول إنني في استراتيجية السلام مستعد لكل هذا ولا مانع عندي إطلاقاً . . . ولكنني أرى أنه من الحق والعدل أن كل ضمان تأخذهُ إسرائيل يجب أن تحصل عليه نحن العرب أيضاً . . . فيما عدا شيء واحد . . . وهو أنه إذا اختارت إسرائيل أن تعقد مع أمريكا ميثاق دفاع مشترك فلن أطلب بالمثل لا مع أمريكا أو الاتحاد السوفيتي أو أية دولة أخرى . . . فنحن دولة عدم انحياز وسنظل كذلك . . . إرادتنا ملك لنا ولنا فقط . . .

كل هذا وضعته أمام كارتر بوضوح وأكدت له أننا اليوم في سنة ١٩٧٧ مستعدون للسلام كما كنا عندما قمت بمبادرتي في ١٩٧١ بل وأكثر . . . كما أكدت أنني على استعداد لتنفيذ جميع الالتزامات التي يفرضها على قرار ٢٤٢ لمجلس الأمن ولكن على إسرائيل أيضاً أن تفعل نفس الشيء . . . فلا مساومة على حقوق شعب فلسطين أو على شبر واحد من الأرض العربية المغتصبة في سنة ١٩٦٧ . . . بهذا يتحقق السلام الدائم والعدل . . .

١٢

ما هو رد الفعل عند إسرائيل إزاء كل هذا ؟

كلنا يعرف نظرية الأمن التي نادى بها بن جوريون ونشأت عليها إسرائيل والتي تقول صراحة إنه لا بد من فرض الصلح على العرب بالقوة . . . قلت لكارتر وأنا في زيارتي للبيت الأبيض إن السلم لا يفرض لأنه إذا فرض لا يصبح سلباً لأن هذا معناه أن هناك طرفاً يعلى شروطه على الطرف الآخر وإسرائيل لم نستطع أن نمل شروطها علينا برغم هزيمة سنة ١٩٦٧ المنكرة ونحن برغم انتصارنا سنة ١٩٧٣ لم نستطع أن نمل شروطنا على إسرائيل . . . يجب إذن استبعاد فكرة إملاء السلم والحدود الآمنة . . .

لقد كانت أسطورة سقطت بحرب أكتوبر وسقطت معها أسطورة العسكري الإسرائيلي الذي لا يقهر . . . وهذا ما يدركونه جيداً في إسرائيل اليوم ، ولذلك نجدهم يكفون عن الكلام عن نظرية الأمن الإسرائيلي ويحلون محلها موضوعاً جديداً هو طبيعة السلام . . .

ماذا يقصدون بطبيعة السلام ؟ فتح الحدود وإقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية بين إسرائيل والدول العربية ؟

إنهم يعلمون تمام العلم أن هذه كلها معوقات جديدة توضع في طريق السلام . . . لأنه لا يوجد إنسان في العالم العربي بعد ثلاثين سنة من المواجهة مع إسرائيل وأربعة حروب ومذابح ودم وكرهية وتعبئة في كل ناحية مهياً لفتح الحدود فجأة وبين ليلة وأخرى . . . ثم هل السلام لا يتحقق إلا بفتح الحدود ؟

ماذا عن دول كثيرة كانت الحدود مفتوحة بينها ومع ذلك قامت بحروب ضد بعضها البعض ؟ ونفس الشيء يمكن أن يقال عن العلاقات الدبلوماسية فهي أيضاً لا تمنع قيام الحرب . . . خذ مثلاً اليابان في (بيرل هاربر) لقد كان السفير الياباني في زيارة (لِكوردل هل) وزير خارجية أمريكا في نفس الوقت الذي كانت اليابان تقصف فيه (بيرل هاربر) بالقنابل . . .

إن الحدود المفتوحة والتمثيل الدبلوماسي مسألة سيادة ولكل دولة الحق في أن تفتح حدودها أو تقيم علاقات دبلوماسية مع من تشاء من الدول دون أن يكون لهذا أي دخل في قيام الحرب أو السلم . . . وقد دعوت الرئيس كارتر إلى أن يتأمل موقف أمريكا مع السوفييت بعد ثورة سنة ١٩١٧ فقد انقضت تسعة عشر عاماً قبل أن يعترفوا بالاتحاد السوفيتي ولم يكن هذا يعني أو يدعو إلى الحرب بين الدولتين . . . ونفس الشيء بالنسبة للصين الشعبية فمستوى التمثيل الدبلوماسي بينها وبين أمريكا لم يزد إلى الآن عن قنصلية أو شيء من هذا القبيل مع أنه قد انقضى على ثورة الصين الشعبية ما يقرب من ثلاثين سنة . . .

فلماذا نطلب من العرب إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل كشرط من شروط السلام وكأن السلام قد أصبح مرهوناً بمثل هذه العلاقات وهو الأمر الذي لم يكن في يوم من الأيام بين أية دولة وأخرى كما يقول لنا التاريخ ؟

إن طبيعة السلام التي تتطلب إسرائيل معرفتها اليوم ليست في الواقع إلا محاولة جديدة من جانب إسرائيل لإعاقة السلام بهدف من ورائها إلى كسب

الوقت لكي تتمكن من فرض سياسة الأمر الواقع ببناء المستعمرات الإسرائيلية في الأرض العربية المحتلة . . كما نحاول الآن . . ثم على المدى البعيد لكي تنهى أزمة الطاقة فلا يعود هناك تعارض بين مصالح إسرائيل ومصالح أمريكا كما هو حادث الآن . .

وفي هذه الناحية أدعو القارئ أن يعقد معي مقارنة بسيطة بين موقف العرب وموقف إسرائيل إزاء المصالح الأمريكية . .

إن ٩٩٪ من مصالح أمريكا في المنطقة معنا نحن العرب ونحن أصدقاء ونود أن نظل أصدقاء مع أمريكا . . ومصالحها عندنا مصانة وكل ما نطلبه منها أن لا تقف وراء روح التوسع والعدوان الإسرائيلي . . ونحن لا ننادى بأن ترمي إسرائيل في البحر أو أن تقطع أمريكا علاقتها الخاصة معها . . فلنعطها كما تشاء ولكن داخل حدودها . . ولن يؤثر هذا على علاقتنا بأمريكا بأي شكل من الأشكال فنحن كأصدقاء لها نهتمنا بمصالحها وأقرب دليل على هذا قرار رفع حظر التورول الذي اتخذناه عندما وجدنا أن الخطر قد بدأ يضر بمصالح الشعب الأمريكي . .

وهذا عكس ما تفعله وما فعلته إسرائيل في كل مرحلة من المراحل . فملاقتها بأمريكا برغم أنها وطيدة وحيوية ويطلق عليها كلمة خاصة لم تمنعها في أي وقت من الأوقات من التضحية بمصالح أمريكا في سبيل تحقيق ما يعود عليها وعلى أطماعها التوسعية بالنفع . .

هذه حقيقة أدركها العالم كله أخيراً وأرجو أن تكون أمريكا قد أدركتها بالقدر الكافي فأنا أحمل أمريكا مسئولية كبيرة ليس فقط نحو إقرار السلام في المنطقة كدولة عظمى ، بل ونحو نفسها ومصالحها في هذا الجزء الهام من العالم وكل ما نطلبه من أمريكا وهي ترسم سياستها في هذا الصدد شيء واحد وهو أن تفكر تفكيراً أمريكياً خالصاً يتفق مع مصالح شعبها - وأرجو أن لا يغضب مني القارئ الأمريكي لقولي هذا فقد سلمت أمريكا في أوقات متعددة نفسها وسياستها إلى إسرائيل وخاصة في أيام جونسون - عندما قيل لنا وقتها نحن لا نستطيع أن نفعل أي شيء - فتفاهموا أنتم مع إسرائيل إذا شئتم . . وبمعرفةنا بخط إسرائيل وعجزها كان هذا بمثابة تنازل أمريكا عن كيانها كدولة عظمى مسئولة عن السلام . .

أرجو أن لا يتكرر هذا فأنا متفائل جداً بعد مقابلي مع كارتر وواثق أنه سينهض بمسئوليته كرئيس لأعظم دولة في العالم . . وأعتقد أنه سيبتمر في عملية السلام التي بدأها سويماً والتي أرجو أن تتم إن شاء الله في جينيف برغم الحملات الإسرائيلية التي سيتعرض لها الرأي العام الأمريكي والكونغرس لمحاولة فرض شروط إسرائيل على العرب وهو ما لن نقبله . . فقد رفضناه ونحن مهزومون فكيف نقبله بعد انتصار أكتوبر وإثبات ذاتنا ؟

بقي شيء واحد أريد أن أقوله للشعب الأمريكي الصديق : نحن مستعدون للسلام نريده ونرحب به وقد مدت يدي في مبادرتي منذ سنة ١٩٧١ إلى الآن . . كم أتمنى أن تفعل إسرائيل نفس الشيء .

قد أصبح أمراً واضحاً كل الوضوح للعالم بأجمعه بزيارتي التاريخية للقدس في نوفمبر سنة ١٩٧٧ .

١٣

كيف تمت هذه الزيارة ؟

قبل المبادرة بشهرين تقريباً فوجئت برسالة من السفارة المصرية في واشنطن تقول إنها تسلمت خطاباً خاصاً للرئيس السادات من الرئيس كارتر وأنه مكتوب بخط اليد ومختوم بالشمع الأحمر . فقلت لهم أرسلوه . ولكن السفارة لم ترسله في الحقيقة الدبلوماسية بل أصرت على إرساله مع مندوب خاص (كان بالصدفة ابن المرحوم المشير أحمد إسماعيل على الذي يعمل بالسفارة هناك) . قرأت هذا الخطاب الذي لا يعلم أحد عنه شيئاً ، وبخيل إلى أن أحداً لن يعلم عنه شيئاً في المستقبل أيضاً - ثم كتبت الرد عليه بنفس الطريقة . أي بخط اليد ووضعته عليه الشمع الأحمر وسلمته لنفس المبعوث الذي سافر به وسلمه للرئيس كارتر شخصياً .

ربما تسادر إلى ذهن البعض أن هذا الخطاب تضمن طلباً من الرئيس كارتر لي بالقيام بهذه المبادرة . ولكن هذا غير صحيح . إذ أنني منذ أن زرته في إبريل ١٩٧٧ وأنا أتبادل معه الرسائل عن طريق سفارتينا وأتبادل معه تقييم الموقف من

وقت لآخر والإنفاق على الخطوات المقبلة . وأعتقد أنه يفعل ذلك أيضاً مع بقية الأطراف وخاصة مع إسرائيل (وقد علمت أثناء وجودي في القدس أن تمه « خطأ أحمر » بين الرئيس الأمريكي ورئيس إسرائيل) .

ولكن - رغم أن هذا الخطاب كان خطاباً شخصياً لا يمكنني أن أفصح عن محتوياته فقد كان يتضمن آخر تقييم للموقف ويمثل في الحقيقة بدء التفكير في المبادرة التي حدثت بعد ذلك بشهرين .

كما قلت لم يطلب كارتر مني هذه المبادرة فهو لا يستطيع ذلك لأنه يعلم أن بيننا وبين إسرائيل حاجزاً نفسياً رهيباً . ولا بد أنه قد تبين ذلك بنفسه عندما قابلته في واشنطن أثناء زيارتي للولايات المتحدة في إبريل ١٩٧٧ وأعتقد أنه عرف أن ذلك الحاجز يمنعه من طلب هذه المبادرة .

وللتاريخ والحق فإن كارتر رجل صادق مع نفسه وصادق مع الآخرين دون شك .. وهذا ما يجعلني لا أجد صعوبة في التعامل معه . فأنا أتعامل مع إنسان يفهم ما أريده .. مع رجل لديه إيمان ولديه قيم - وإلى جانب هذا فهو فلاح مثلي . كانت رسالته تشتمل - كما قلت - على استعراض للموقف وكان ردى عليها بنفس الروح التي تسود تعاملنا . ومع ذلك فقد فتحت رسالته لي طريقاً جديداً كل الحدة . لماذا ؟

بعد أن أرسلت ردى أخذت أتأمل الموقف فتبين لي أننا داخلون على حلقة مفرغة رهيبه - تماماً كالتى عشناها طوال الثلاثين عاماً الماضية . إذ أنه بسبب الجدار أو الحاجز النفسى الرهيب الذى أشرت إليه - أخذت إسرائيل في هذه المرحلة التمهيدية لعملية السلام تعترض على تشكيلات وإجراءات - من أبسط الأشياء كفاصلة أو نقطة في النص إلى كلمة مضافة أو كلمة محذوفة وكان يهمها جداً أن يقال إن ورقة العمل التى ستكون أساساً لإجماع جنيف ورقة أمريكية إسرائيلية . .

وأخذنا نحن العرب أيضاً بسبب ذلك الحاجز الرهيب نعترض بصورة تلقائية على هذه الشكليات فنقول إننا لا يمكن أن نقبل ورقة عمل أمريكية إسرائيلية بل إننى إذا قبلت من ناحيتى ورقة عمل عربية أمريكية فإن إخوانى

العرب سوف يرفضون كلمة أمريكية (مع علمهم أنه لا يمكن تحقيق حل بدون أمريكا) وبذلك دخلنا الحلقة المفرغة للإجراءات الشكلية وابتعدنا عن جوهر القضية .

والحاجز النفسى الذى أعنيه هنا هو ذلك الجدار الضخم من الشك والخوف والكرهية بل وسوء الفهم إذ أن كلا من الطرفين غير مستعد لتصديق الآخر وغير مهياً نفسياً لتقبل ما يصله منه عن طريق أمريكا (بل ويشك فيه عشرات المرات لو وصله عن طريق آخر) .

ولذلك أشبه هذا الجدار الرهيب بالحاجز المرجاني الضخم عند أستراليا والذى يمكن أن يشطر أى سفينة تقترب منه شطرين .

وإذا كان عمق ذلك الحاجز ثلاثين عاماً - أى منذ قيام إسرائيل - فإن له جذوراً أعمق من هذا التاريخ - أى أنه إذا كان بيجين يدعى أن للمسالمة بعداً دينياً بالنسبة لهم فإن لها بعداً دينياً أيضاً بالنسبة لنا . وهكذا . بدأت أتأمل الموقف من زاوية جديدة وعكفت على دراسته دراسة ذات عمق جديد .

وهنا وجدت ما تعلمته في الزنزارة ٥٤ في سجن مصر بمدنى بقوة جديدة وطاقة جبارة على التغيير . إننى أواجه واقعاً بالغ التعقيد يحتاج إلى طاقات نفسية أولاً وفكرية ثانياً لتغييره ولقد تعلمت أثناء تأملى للإنسان والحياة في ذلك المكان المنعزل أن من لا يستطيع أن يغير أفكاره أولاً لن يستطيع أن يحدث أى تغيير في عالم الواقع ومن ثم لن يستطيع تحقيق أى تقدم . التقدم مستحيل دون التغيير . وليست هذه مجرد فكرة اهتديت إليها بل أسلوب عمل وديدن حياة منذ أن اكتشفت ذاتى في الزنزارة ٥٤ .

ماذا يمكنني إذن أن أغیره ؟ لقد درجنا على اعتبار إسرائيل موضوعاً مشحوناً بحساسية وخطورة إلى الدرجة التى تحرم الاقتراب منه . بل لقد استمر هذا الموقف سنين طويلة حتى بلغت التراكمات حداً يصعب معه التغيير إن لم يكن يستعصى فعلاً - تماماً مثلما حدث بالنسبة للنظرة الإسرائيلية للعرب . وهنا وجدت أن السبيل الوحيد إلى التغيير لا بد أن يتناول صلب هذه النظرة وجوهرها . فإذا كان لنا أن نناقش جوهر القضية وأساسها بغية تحقيق السلام

الدائم فلا بد لنا من أسلوب جديد تماماً - أسلوب يتخطى مرحلة الشكليات والإجراءات ويكسر حاجز عدم الثقة المتبادلة حتى لا نعود للدائرة المغلقة والطريق المسدود .

هذا من ناحية . نظرت من ناحية أخرى إلى موقف أمريكا . ماذا تستطيع الولايات المتحدة أن تفعل ؟ كان لابد من بحث هذا الموضوع على أساس حقائق الحياة وأولها أن قدرة الرئيس كارتر على الحركة مرهونة بالوضع العالمي الراهن . وثانيها أن قدرة أمريكا على المساعدة لا يمكن أن تتخطى طبيعة علاقتها الخاصة بإسرائيل . إذ أنه من غير المعتاد أن أكلف الرئيس كارتر بما لا يستطيع أو أطلب منه إيقاف هذه العلاقة الخاصة أو أن يقف إلى جوارى ضد إسرائيل . أعلم أن هذا غير ممكن وتأكدت منه أثناء مباحثاتي في واشنطن في إبريل ١٩٧٧ .

إزاء هاتين الحقيقتين ومن منطلق النظرة العلمية الواقعية وجدت أن كل ما أستطيع أن أطلب به الرئيس كارتر هو انتهاج خط سياسي أمريكي أي موقف يتسق أولاً مع مصالح أمريكا ويتسق ثانياً مع مسئولية الولايات المتحدة كقوة عظمى مسئولة عن السلام في العالم . ومعنى هذا وضع حد لسياسة « الكارت بلانز » التي أعطتها إدارة جونسون لإسرائيل - أي أن تعطىها التأييد الكامل غير المشروط مهما فعلت .

وربما كان أهم من هذا كله تلك الحقائق الجديدة التي أتت بها حرب أكتوبر إلى العالم وأولها أن العرب ليسوا جثة هامدة بل قوة قادرة على القتال وهزيمة إسرائيل فعلاً (ولعل النداء - نداء «أنقذوا إسرائيل» الذي صدر في اليوم الرابع للقتال أكبر برهان على هذا) وثانيها أن العرب قد استخدموا سلاح البترول - عصب المدنية في الغرب - لأول مرة وبكفاءة عالية .

(وهنا لابد أن أذكر الشعب الأمريكي أنه بمجرد أن شعرنا أن خطر البترول قد بدأ يضر بالمواطن الأمريكي رفعناه فوراً لأن الهدف لم يكن عقاب المواطن الأمريكي أو التسري بل التنبيه بأن الاغبياز الأعمى لإسرائيل له ثمن . فللغرب مصالح مثلها لنا مصالح ولنا قضية وينبغي أن يعود الغرب إلى رشده ويتبين أين مصالحه ومصلحتنا) .

وهكذا - بالنسبة للمبادرة - كانت هذه الحقائق مجتمعة تشكل البؤرة التي تجمعت عندها خيوط تفكيرى بعد أن تلقيت رسالة كارتر .

وفي نفس الوقت استقبلت مبعوثاً من الرئيس حافظ الأسد فوجدته ما يزال يردد نفس العبارات التي سادت العالم العربى سنين طويلة والتي تنصح عن العقيد التي تحكم موقف الجانبيين . قال إن إسرائيل لا تريد التوصل إلى حل وإنما تلعب على الوقت (وهذا صحيح) وقال إن الولايات المتحدة لا تريد حل المشكلة وحتى لو أرادت فإنها لن تستطيع . وهنا أبدت اختلافى مع هذا الرأى وقلت للمندوب السورى إن الرئيس كارتر يريد الحل ويستطيع تحقيقه واستشهدت على ذلك بواقعة فض الاشتباك الثانى عندما كان رئيس الولايات المتحدة معنياً وغير منتخب وكانت أمريكا ما تزال تعاني من فضيحة ووترجيت . وقد بدأت أيضاً تدخل دوامة الانتخابات القادمة - أى أن الإدارة الأمريكية كانت في أضعف حالاتها ومع ذلك استطاعت أن تحقق فض الاشتباك الثانى لأن الرئيس فورد كان لديه العزم والتصميم . فإذا كان هذا هو الموقف بالنسبة للرئيس فورد فما بالك بالرئيس كارتر ؟

استمر تفكيرى في الموقف وبدأت الأفكار تأخذ صورة أكثر تجسيدا ووضوحاً . فإلى جانب الموقف النفسى الذى تبلور في أعماق ذاتى داخل الزنزانة ٥٤ وإيماني بأنه لا يمكن إحداث التغيير في عالم الواقع إلا إذا استطاع الإنسان إحداث تغيير في عالم أفكاره وجدت أن مسئوليتى تجاه شعبي - تلك المسئولية أو الأمانة التي أحملها بالنسبة بليلنا وبالنسبة للأجيال المقبلة تفرض على أن أقوم بما ينبغي أن أقوم به دون اعتبار لكرسى الحكم .

لابد أن أودى واجبي كما ينبغي وإذا كان في إمكانى أن أجنب أجيالنا المقبلة الصورة التي ورثناها - إذا كنت أستطيع ذلك ثم تقاعست عنه فساكون قد أخطأت أمام نفسى وأمام الله الذى سوف يحاسبني على كل ما أفعل . .

انتهت هذه المرحلة من تفكيرى قبل أن أقوم بالمبادرة بشهرين - بعد أن تسلمت رسالة كارتر وقبل أن أقوم بزيارتي إلى كل من رومانيا وإيران والسعودية .

وعندما وصلت إلى رومانيا تحدثت مع شاوسيسكو طويلاً فأخبرني عن اجتماع كان قد عقده مع متاحم ييجين رئيس وزراء إسرائيل واستمر ثماني ساعات (ساعتين ضمن الوفود الرسمية وست ساعات بينهما على انفراد) . سألت شاوسيسكو عن انطباعاته فقال لي :-

- إن ييجين يريد التوصل إلى حل .

قلت له :

- كل ما يشغلني في هذا الموضوع هو هل إسرائيل تريد السلام حقاً أم لا ؟ .. أنا عن نفسي أريد السلام وقد أثبت هذا بما لا يدع مجالاً للشك عند أحد . لكن هل إسرائيل اليوم - وخاصة ييجين زعيم كتلة ليكود المتعصبة - تريد السلام ؟ هل ييجين الذي يسلك هذا النهج المتطرف رجل يريد السلام ؟

فقال لي :

- دعني أقرر لك إنه بالقطع يريد السلام . .

كان شاوسيسكو بالغ الثقة وأنا أتق في حكمه . وإلى جانب هذا فهو على صلة طيبة بالإسرائيليين لم تقطع يوماً ما . ولذلك فحينما أكد لي أن ييجين يريد السلام وأنه « رجل قوى » كان ذلك بمثابة التأكيد على ما شعرت به أولاً من الحاجة الملحة إلى التنوير . . والتغيير من الجانبين . ولذلك عندما ركبت الطائرة في طريقى إلى إيران - وبالذات عندما مرت الطائرة فوق تركيا - وجدت ملامح المبادرة تبرز بوضوح أمامي . . كان معي في الطائرة وزير الخارجية فقط الذى لم تستطع أعصابه تحمل المبادرة واستقال . . مسكين . . قلت له إننى أتصور دعوة الخمسة الكبار كارتر وبريجنيف وديستان وكالاهان وهو كوفينج إلى اجتماع في القدس . . في الكنيست . . لماذا ؟

أنا من المؤمنين بأنه لا ينبغي أن نضغط مرحلتين في مرحلة واحدة وبأنه إذا كان لمؤتمر جنيف أن ينجح فلا بد من التحضير له تحضيراً كاملاً . . وقد

حاولنا التحضير له من قبل عن طريق لجنة العمل التي اقترحتها والتي تقدم بها فانس وزير الخارجية الأمريكية ولم تلق أى استجابة نتيجة لنفس الموقف الذى ساد بين العرب والإسرائيليين - نفس الشكوك ونفس الحذر . . ونفس الدائرة المفرغة . . لا بد إذن من تحضير يتخذ صورة أخرى . وقد تصورت أنه من الأفضل أن أدعو الخمسة الكبار - أصحاب الفتوى في مجلس الأمن - إلى اجتماع في القدس وأن أدعو معهم الأطراف المعنية في العالم العربى ، أى دول المواجهة - سوريا والأردن ولبنان والفلسطينيين ومصر - بحيث يعلم ييجين أننا قد عقدنا العزم على التحضير بصورة جادة لمؤتمر جنيف وأنها بصدد إعداد ورقة عمل تتحدد فيها الموضوعات الرئيسية (Headlines) حتى نبدأ مؤتمر جنيف بنجاح تام .

أما بالنسبة للتوقيت فقد فكرت أن تكون الزيارة مناسبة لي كى أصلى العيد مثلاً (أو الجمعة) في المسجد الأقصى ثم أزور كنيسة القيامة وهما يمثلان لنا مسلمين ومسيحيين قيمة هامة بل وأساسية . . فنقوم معاً بزيارة لهذه الأماكن المقدسة - أصدقائى كارتر وديستان وكالاهان وكذلك هواكوفينج الذى قال ماوتسى تونج عنه لحسنى مبارك إنه رجل ممتاز وقال له وهو على فراش موته : الراجل ده كويس جداً وأنا بازكيه لكم وللدينا كلها . (وكانت هذه آخر وصية له) - أما بريجنيف فلم أكن واثقاً أنه سيقبل رغم أننى أقول وأسجل هنا أنه الوحيد الذى يتمتع بعقلية سياسية في القيادة السوفيتية ولذلك لم أختلف معه مطلقاً . وإنما كان الخلاف دائماً مع زملائه الآخرين والموظفين .

كانت هذه هي الصورة الأولى لمبادرتي - كنت واثقاً من ترحيب أصدقائى كارتر وديستان وكالاهان وهواكوفينج وكان تصورى أن بريجنيف لن يجد مفرأ من القبول إزاء ترحيب هؤلاء . ومن ثم يمكننا أن نعقد اجتماعاً نحن الأطراف المعنية في الشرق الأوسط للتحضير لمؤتمر جنيف حتى نجعل إسرائيل تعلم - في القدس نفسها - أنه لا فكاك لها من العنصرين الأساسيين في التسوية وهما الانسحاب من الأرض العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ وقيام دولة فلسطين كحل للمشكلة الفلسطينية التي هي لب القضية .

اكملت صورة هذه المبادرة في ذهني ومضيت في رحلتي فزرت إيران والسعودية ولكنني لم أخبر أحداً بها . وذلك حتى لا أورط أحداً من أصدقائي فيها . لقد أردت أن أتحمّل مسؤوليتها بالكامل . وعندما عدت إلى القاهرة بدأت أحس أن صلاة العيد أفضل في النفس من صلاة الجمعة وربما كان العيد مناسبة رائعة للقاء أهلنا في الأرض المحتلة . .

كانت المشكلة أن الوقت ضيق إذ كان بيننا وبين العيد أيام معدودة ولم يكن من الممكن ترتيب زيارة الخمسة الكبار ومعرفة مدى ملاءمة مواعيدهم في نطاق هذا الوقت الضيق .

وهكذا تغيرت صورة المبادرة في ذهني وبدأت تأخذ شكل الزيارة التي أقوم بها شخصياً لأصلي العيد في المسجد الأقصى تحقيقاً لما قلته من أنني مستعد أن أذهب إلى آخر العالم لتحقيق السلام . لقد قلت لثاني مستعد أن أذهب إلى آخر العالم في سبيل السلام فكيف أستثنى إسرائيل؟ أنا أعني ما أقول دائماً وأتحمّل مسؤولية الكلمة . . ومن ثم فقد قررت أن أذهب إلى الكنيست ممثل الشعب هناك لأضع أمامهم حقائق الموقف كاملة وأضع على عاتقهم مسؤولية الإختيار والعمل إذا كانوا يريدون حقاً العيش في سلام في هذه المنطقة .

قبلت هذه الصورة المعدلة للمبادرة وتبلسورت تماماً في ذهني وقررت أن أعلنها في خطبة افتتاح الدورة الجديدة لمجلس الشعب . وفعلاً أعلنت أنني مستعد للذهاب إلى آخر العالم بما في ذلك إسرائيل إذا كان من شأن ذلك أن يجنبنا جرح (ناهيك عن قتل) جندي أو ضابط واحد . .

أعلنت أنني أعني ما أقوله تماماً وأنتي على استعداد للذهاب إلى الكنيست إذا كان هذا سيحقق أهدافنا أمام الجميع وكان جميع الوزراء حاضرين ومعهم يامر عرفات . كان رد الفعل المباشر مضحكاً إذ تصور البعض أنها زلة لسان ولم يعلموا أن وراها تفكيراً طويلاً عميقاً . . فما زال البعض يتصور كما هي العادة أن يقول السياسي كلاماً لا يعنيه . . وهذا لا يمكن أن أفعله .

وقد حدث قبل أن أتجه إلى مجلس الشعب لإلقاء خطابي أن اتصل بي الرئيس حافظ الأسد ليذكرني بالوعد الذي كنت قد أعطيته إياه بأن أزوره في الصيف ونجتمتع في اللاذقية . وهنا قلت له إنني سأتي على الفور . وفعلاً . . سافرت إلى سوريا واجتمعت مع الرئيس الأسد الذي سألتني : -

- هل تعني ما قلته في خطابك بالنسبة لزيارة القدس ؟
فأجبت :

- نعم . . أنا لا أقول شيئاً لا أعنيه . .
فتساءل :

- ولكن كيف يتم ذلك ؟

واستمرت مناقشاتنا أربع ساعات كاملة قلت له بعدها : -

- اسمع يا حافظ . . لو ثبت أن هذه آخر مهمة أقوم بها كرئيس جمهورية سوف أقوم بها وأعود لأقدم استقالتي إلى مجلس الشعب في مصر كما ينص الدستور . أما أنا فمقتنع مائة في المائة بإتمام هذه المبادرة .

انفصلنا بعد هذه المناقشة الطويلة التي لم يقنعني فيها ولم أقنعه كما أعلنت ذلك في مؤتمر صحفى لم يحضره الرئيس الأسد ثم عدت مباشرة إلى الإسماعيلية حيث جاءني السفير الأمريكي حاملاً الدعوة الرسمية لي من بيجين . كان ذلك يوم الخميس فقبلتها على الفور وحددت يوم السبت موعداً لسفري وقلت بإعداد الخطاب الذي سألقيه .

وهنا أحب أن يعرف الناس أن وزير خارجيتي خاف من هذه المبادرة . فعندما كنا نستعد للسفر إلى سوريا اعتذر كتابياً عن مصاحبتى بسبب المرض فقلت لا بأس . . يمكنه أن يصاحبني إلى إسرائيل .

ولكن نائب رئيس الجمهورية شرح لي الأمر بعد ذلك وهو أن الوزير معترض على المبادرة كلها من أساسها . وإزاء هذا قلت له إنني لا أكلف أحداً بأن يفعل شيئاً غير مقتنع به . ثم قبلت استقالته .

١٥

وصلت إسرائيل في أقل من أربعين دقيقة استغرقتها رحلة الطائرة من مطار أبو صوير في القناة إلى مطار اللد . لا أحد يصدق والذهول يسود . بمجرد أن خطوت خارج الطائرة وجدنتني وجهاً لوجه أمام جولدا مائير التي كانت في أمريكا ثم قطعت رحلتها وعادت . بادلتها السلام . ثم رأيت ديان .

ديان أنا أعرفه لأنه كان خصمى في معركة ١٩٧٣ . ثم قابلت أبا إيبان وبعده
لاريك شارون الجنرال الذى كان لدينا في الثغرة - قلت له إذا أتيت مرة أخرى
إلى الضفة الغربية للقناة فسيكون السجن في انتظارك ! فقال : أبداً . .
أنا حالياً وزير الزراعة ! . .

ثم رأيت بعد ذلك مورديخاي جور رئيس الأركان الحالى الذى كان قد
حذرهم قبل زيارتى بأنى أقوم بمخدعة وأن الهدف من الزيارة هو تغطية هجوم
وشيك . ولذلك حينما رأيته قلت له لئنى لا أمارس الخداع الأخلاقى مطلقاً . .
الخداع الاستراتيجى والخداع التكتيكى مقبول ولكننى لا يمكن أن أقبل الخداع
الأخلاقى . .

بعد ذلك ركبت السيارة مع رئيس إسرائيل كاتزير وهو أستاذ جامعى
ممتاز . وصلت إلى القدس الإسرائيلية ونزلت في فندق الملك داود .

في الصباح خرجت لصلاة العيد . دخلت القدس العربية لثانى مرة بعد ٢٢ سنة
كاملة (كانت المرة الأولى عندما كنت وزير دولة وسكرتيراً عاماً للمؤتمر الإسلامى) .
ونبين لى على الفور أن المسجد الأقصى قد ساءت حاله إذ ما تزال آثار الحريق
الذى اجتاحه عام ١٩٦٩ قائمة . . وجدت أن منبر صلاح الدين قد احترق تماماً
وأن عملية إصلاحه تسير بصورة بالغة البطء ولهذا أمرت أن يتم بناء المنبر من
جديد على أيدي المصريين الذين بنوا منبر صلاح الدين وبعدها عدت إلى الفندق .

بعد الظهر اتجهت إلى الكنيسة وألقيت خطابى ثم قام بيجين بإلقاء
خطاب مضاد وتلاه زعيم المعارضة بيريز وانتهت جلسة الكنيسة . رغم التعب
والإرهاق الذى كابده ذلك اليوم فقد أحسست بسعادة غامرة لأن ابنتى كما علمت
كانت قد رزقت بمولود (بنت) في الثامنة صباحاً وأنا أصلى في المسجد الأقصى .

لم يكن سبب الإرهاق هو المشاغل الكثيرة أو المقابلات ولو أن هذا أمر مسلم
به - ولكن كان السبب الحقيقى هو التركيز الذهنى العميق إلى أبعد الحدود والذى
يجعل الإنسان يحس بالتعب . كان ذهنى بالغ التركيز لسبب بسيط وهو أننى
كنت أعير هذا المهمة مهمة مقدسة حقاً وصدقاً . ورغم ثقته من تأييد شعبى
لى فقد كنت مستعداً إذا أبدى أى رفض من جانبه أن أتوجه إلى مجلس الشعب
عندنا وأقدم استقالتي .

ولكن ثقته لم تحب . فقد خرج خمسة ملايين مواطن من بين الملايين
الشمانية الذين يعيشون في القاهرة لاستقبالى عند العودة . كانت مظاهرة تأييد
لم يسبق لها مثيل . كان الجميع في قلق على وكانوا يرون أنها مجازفة منى أكثر
منها شجاعة . ولهذا كان الجميع يلجئون بالحمد والشكر لله وهم لا يكادون
يصدقون ولا يعرفون كيف يعبرون عن فرحتهم الغامرة . كان إحساسى
بهذا هو قمة السعادة وبأننى قد كلفت تكليفاً لا فكاك منه بأن أكمل هذا العمل
الذى بدأته . . كان تكليفاً بأن أخدم شعبى وأهلى حتى نحقق سوية الهدف من
المبادرة .

ولابد أن أسجل هنا قبل أن أنتقل إلى النتيجة أن الرئيس جعفر نميرى
زارنى فور عودتى وأبدى تأييده الكامل تماماً مثلما زارنى في أعقاب ثورة
التصحيح يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٧١ . . إنه موقف لا يسعنى إلا أن أذكره له
ولشعب السودان الشقيق .

١٦

ماذا كانت النتيجة ؟ ماذا كانت حساباتى ؟ وهل تحققت ؟

كنت قد قدرت أن تؤدى رحلتى إلى كسر الدائرة المفرغة - الحلقة
التي ظللنا ندور فيها سنين وسنين . . وأنا أضع دائماً لكل شىء حساباته الدقيقة
(تماماً مثلما فعلت في حرب أكتوبر ١٩٧٣) وقد صدق ما حسبته له . إذ أنه
مثلما استقبلنى شعبى هذا الاستقبال الرائع المدهل كانت استجابة الشعب
والناس في إسرائيل - النساء والأطفال والشيوخ - استجابة مذهلة . حتى
القوات الخاصة وقوات المظلات الإسرائيلية التي كلفت بحراستى كانت ترقص
فرحاً ونحية لى رغم أننى حاربتهم في ١٩٧٣ . وألحقت بهم خسائر لم يروا لها مثيلاً
طوال ٣٠ عاماً . . لماذا ؟

لأنهم يحترمون المقاتل ولأنهم يحترمون أكثر ذلك الإنسان الذى يستطيع بعد
النصر أن يقول لهم فلتكن حرب أكتوبر آخر الحروب ولنجلس معاً مثل
كل المتحضرين حول المنضدة لنناقش ما تريدونه وهو الأمن بدلاً من اللجوء
إلى القوة .

عدت من إسرائيل بعد أن اتفقت هناك على شيتين أساسيين :

أولاً : أن تكون حرب أكتوبر آخر الحروب . .
وثانياً : أن تتناقش حول منفضة المفاوضات في موضوع الأمن لهم ولنا . .

وهكذا اتجهت إلى مجلس الشعب ورويت له ما حدث وقد وافق بالإجماع تقريباً (إذ لم يعترض إلا عضوان أو ثلاثة من بين الـ ٣٦٠ عضواً) . . مما زادني سعادة ومن ثم فكرت في أن أعود إلى القناة كى أنال قسطاً من الراحة . ولكنني ما لبثت أن عدلت عن هذا وقررت الدعوة إلى مؤتمر القاهرة حتى لا تضع قوة الدفع .
وقد أرسلت الدعوات إلى جميع الأطراف بغية تمهيد الطريق إلى جنيف . لم تنلق إجابات إلا من أمريكا وسكرتير عام الأمم المتحدة وإسرائيل ولم يرسل باقي الأطراف إجاباتهم ولكنني مصمم على المضي في مبادرة السلام إلى النهاية .

ماذا سيحدث عندما يصدر هذا الكتاب بعد شهر ؟ لا أدري . ولكن الذي أدريه هو أنني أولاً سأظل متمسكاً بمبادرة السلام التي قمت بها . .
وثانياً : هو أنني لن أضيع فرصة على الإطلاق لكي نحل مشكلة السلام في الشرق الأوسط حلاً جذرياً وحضارياً . وهنا أريد أن أردد ما قلته أمام الكنيست الإسرائيلي من أنني لا أبغي اتفاقاً ثنائياً من أجل سيناء (فهذا لا يحل المشكلة) ولكن سلاماً قائماً على العدل وسوف أعمل في الفترة المقبلة - إلى أن يصدر هذا الكتاب وبعده - على إقامة سلام عادل في المنطقة بإعادة الأرض العربية المحتلة عام ١٩٦٧ وحل المشكلة الفلسطينية بإقامة دولة أو - كما قال كارتر معي - وطن قومي فلسطيني .

بطبيعة الحال لا بد من ترك التفاصيل الخاصة بكل دولة عربية أو جانب عربي لهم (سيناء مع مصر والجزولان مع سوريا وال الضفة الغربية مع الفلسطينيين) ولكنني سأستمر في المناقشة إلى النهاية - حتى ولو عارضني العالم كله .
هدفي الأساسي إذن هو إنهاء المشكلة بحل المشكلة الفلسطينية والجلاء عن الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ - وسيكون رائدي دائماً أنني أريد السلام القائم على العدل وأنا مستعد لأن أبذل في سبيل ذلك كل شيء مهما طال الزمن .

أما إذا كان الأمر أمر فرض لإرادة طرف على طرف آخر فلا بد أن أقول إنني مثلما أعلنت عن استعدادي للذهاب إلى آخر العالم في سبيل السلام فأنا أعرب عن عزمي على أن أحارب إلى آخر العالم في سبيل هذا الهدف .

لقد فقدت أخي الأصغر الذي كان بمثابة ابن لي بعد خمس دقائق من بدء معركة أكتوبر ١٩٧٣ ولقد رأيت المصابين في تلك الحرب - شباناً في عمر الزهور كتب عليهم أن يقضوا بقية عمرهم مقيدين إلى كراسي ذات عجلات . ولقد رأيت حالات مماثلة في إسرائيل وتأملت لها ألمي لكل من نالت منه ويلات الحروب . . أيا كان . . ولعل هذه الروح هي التي ساعدتنا على تأكيد الهدفين اللذين تحذدا في زيارتي وهما أولاً ألا تقمع حروب بعد حرب أكتوبر وثانياً أن نحقق الأمن للطرفين . .

ولا بد في النهاية أن أسجل أن الشعب المصري قد استعاد كرامته وثقته بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ مثلما استعادت قواتنا المسلحة كرامتها وثقتها . . لذلك لم تعد تخرجنا أي عقد - سواء عقد النقص والإنهزامية أو عقد التشكك والأحقاد . . وهذا هو الذي جعلنا نلتقي - بعد أن انجلى غبار المعركة - سواء في فض الاشتباك الأول أو الثاني أو عندما قابلت جولدا مائير لدى وصولي إلى إسرائيل .

لم يكن بيننا - بعد أن انتهى القتال - إلا الاحترام - وهذا هو ما يفهمه شعبنا المتحضر . . وهذا هو ما جعل خمسة ملايين مواطن يخرجون لتحييتي وجعل القوات المسلحة تحييني كما لم تحيي إنساناً من قبل .

إن جذورنا الحضارية قائمة . . عمرها أكثر من سبعة آلاف عام وما تزال حية وناضجة . . لم تهن أو تضعف أبداً . . وإذا اندهش البعض فذلك لأنهم لا يستطيعون فهم هذه الحقيقة وإدراك طبيعة المصري الأميل الذي يبني للحضارة اليوم مثلما بناها على ضفاف النيل منذ آلاف السنين في ظل الحرية والسلام . .

فليت هذه قصة الصراع العرى الإسرائيلي أو قصة تحرير مصر من الاحتلال البريطاني أو قصة منجزات وأعطاء ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . ربما كانت ذلك كله وأكثر . . ولكنها في المقام الأول قصة البحث عن الذات - ذاتي وذات مصر - ذلك الكيان الواحد الذي أشرف في نفس منذ الطفولة عندما توحدت ذاتي مع ذات بلادى أرضاً وشعباً .

هل لجمع البحث ؟ هل استطعت تحقيق صورة تلك الذات التي وضعتها نصب عيني منذ طفولتي المبكرة ؟ أتذكر للقارىء الحكم على ذلك - فكل ما أستطيع أن أقوله - وحسب مبلغ علمي - هو هذا :

لم يسهل يوماً برين المتع اللذيذة ولم أحاول فقط أن أبنى سعادتى على حساب شقاء الآخرين . فأنا أصغر في كل قسرات أخذت وكل عمل أقوم به عن الإيمان الراسخ بحق الإنسان في الكرامة والحرية والسلام والمساواة .

لقد وجدت ذاتي في الصداقة . . وفي الحب . . وفي العمل الذي يرقى بحياة من حولي . . وفي انتصار الحق على الباطل . . باختصار في كل ما من شأنه تحقيق صورة كيانى الذي هو كيان بلادى .

لم أسع يوماً وراء السلطة إذ اكتشفت في قديم حياتي أن قوتي تلعب من داخل - من إيماني المطلق بالخير والحق والجمال .

وأحمد الله أنني لا أختلف اليوم عما كنت منذ سنوات بعيدة ، عندما كنت أصغر مع شروق الشمس وأخرج إلى الحقول لأعمل مع الآخرين حتى تعود إلى الأرض الحياة . . وتحمل الأشجار اليابسة الثمار مرة أخرى . . .

لم ينته البحث بعد . . وأعتقد أنه لن ينتهي يوماً ما . . إذ أننا في كل عمل نتخذه لتحقيق ذواتنا نحقق إرادة الله وإرادته عز وجل خالدة .

مزال أمامي وأمام شعبي طريق طويل لا بد أن تقطعه حتى تصنع حياة يسودها الحب والسلام والرخاء والاكتمال .

وقدنا الله وهدى خطانا وخطى الجميع في كل مكان .

وثائق

الرسالة التي وجهها السيد الرئيس
لبريجينيف في ٣٠ أغسطس ١٩٧٢

الصديق العزيز الرئيس ليونيد بريجنيف
المكريم الأول للحزب الشيوعي السوفييتي

أكتب اليك شخصيا لنفسي في مشاعرك الصديقة التي لمستها
بتفسي خلال لقاء اتنا المتعددة لعلنا نخرج من الدائرية
المفرقة التي تجتازها العلاقات بين بلدينا والتي أصبحت
تتسم بمسوء الفهم الذي أحس أنه سيتفاقم اذا لم تتضح الأمور.

لذلك سيكون رائدي في هذا الخطاب الصراحة التامة بما
كانت حتى نكون على علم بوجهة نظرنا كاملة بعيدا عن أي
تحليلات مشبوهة أو مؤثرات مفتعلة .

١ - ان تجربتكم في الحرب العالمية الثانية مازالت
ماثلة في أذهاننا ، فلقد رفضت الشعوب السوفيتية
الاحتلال النازي ولم تستطع صبرا على استمراره ، وماريت
بشجاعة وقدمت كل التضحيات من أجل تحرير الأرض ولم
تبخل بشيء من أجل الحفاظ على كرامتها ، ومن ثم
فليس غريبا أن يكون الشعب العربي في مصر هو
الأخر حريصا على تحرير أرضه مستعدا لتقديم كل

للأ
ري

التضحيات في هذا السبيل مهما بلغت .

ومن هنا في تقديري يجب أن تكون نقطة البدء

الصحيحة .

٢ - من أجل ذلك فأنتى أجد أن واجب الحرس على صداقتنا يقتضى أن أبدأ هذه الرسالة من حيث انقطع الحوار بيننا بعد آخر مقابلة في ابريل سنة ١٩٧٢ لكي * ادخل الى صلب الموضوع الذى أدى الى هذه الوثيقة بيننا لعلنا نستطيع ان نكمل هذا الحوار ونصل الى جوهر المشكلة ، فاذا استطعنا التفهم لوجهة نظر كل منا أمكن معالجة كل الظواهر الأخرى .

٣ - لعلك توافقتى * ايها الصديق العزيز على أنني كنت حريصا أشد الحرس على استمرار صداقتنا ودعمها في جميع المجالات ، ومن ثم كانت زيارتي الى موسكو في مارس وأكتوبر ١٩٧١ ثم في فبراير و ابريل من العام الحالى ، ولقد كان الموضوع الأساسى في جميع هذه اللقاءات هو بحث مشكلة العدوان الاسرائيلى والخيارات التى يلزم ان نتبناها لتحرير الأرض .

وهنا * أرجو أن تسمح لى أن * اذكرك أنني كنت حريصا في جميع اللقاءات التى تمت مع القيادة السوفيتية

برئاستكم على تأكيد مبدئين رئيسيين :

أولهما ... أننا لا نريد ان يحارب معركتنا أحد غير جنسونا .

ثانيهما ... أننا لا نريد ولا نسعى الى ان تكون معركتنا سببا في مواجهة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة لما يحتمه ذلك من كارثة للعالم كله ، واننى كنت أقول بالحرف الواحد ان من يرمى الى ذلك مجنون بلائك .

ولقد كان الرأى الذى اتفقنا عليه في لقاءاتنا وخاصة في اللقاء الأخير في ابريل سنة ١٩٧٢ هو أن اسرائيل ومن ورائها الولايات المتحدة لن يتحركا لتحقيق حل للمشكلة سواء كان سلميا او غير سلمى الا اذا احسست اسرائيل بأن قوتنا العسكرية اصبحت قادرة على أن تتحدى التفوق الحسكرى الاسرائيلى وعندئذ فقط ستجد اسرائيل وايضا الولايات المتحدة ان مصلحتها الوصول الى حل للمشكلة .

وفي مناقشاتنا المتكررة كنت أذكر ان يكون لدينا سلاح للردع ، يجعل العدو يتردد في ضرب عمق اراضينا كما فعل في الماضى عندما يعلم اننا سنكون قادرين

على الوصول الى عمق اراضيه .

وكان واضحا ولايزال اننا بدون توفر سلاح الردع فلن نكون قادرين على التحرك عسكريا وبالتالي فالحاجة تدعو اسرائيل الى ان تخير من موقفها المتحتم بالنسبة للوصول الى أبة تصوية للمشكلة .

• من هنا كانت رسالتي لك مع المارشال جريتشكو الذي زارنا في مايو سنة ١٩٧٢ قبل اجتماع موسكو بأيام ، وقد عملت من جانبي على أن تنجح زيارته على أروع صورة ، ووافقت على اصدار البيان الذي أتى به من موسكو ، وكان هذا البيان ينص على أن الطيارين المصريين قد استخدموا الطائرات الأسرع من الصوت ثلاث مرات (ميج ٢٣) وانقاذ مقاتلة جديدة قد استخدمت في مصر .

وكان هذا كله غير صحيح . .

ولكنني وافقت على اصدار ما صدر لكي تنجح الزيارة كما قلت ، ولأنني كنت أعرف أهداف الزيارة السياسية خاصة قبل اجتماع موسكو بأيام ، وأردت كهدية أن يكون حديثكم في موسكو من موقع القوة .

ولكنني في نفس الوقت حملت المارشال جريتشكو رسالة محددة لك عما يجب ان يكون عليه تصرفنا بعد اجتماع موسكو ، لان التكهين بنتائج اجتماع موسكو بالنسبة لمشكلتنا لم يكن لغزا ولا معضلة ، وحددت ٣١ أكتوبر ١٩٧٢ نهاية لما يجب ان ننجزه في هذه الفترة ، وهي فترة تكفي بالكاد لكي تكمل استعدادنا لجولة ما بعد الانتخابات الأمريكية ، وكما أبلغت المارشال جريتشكو فأنا في حاجة الى كل ساعة وكل دقيقة الى ذلك التاريخ حتى ننجز ما هو ضروري لدخول الجولة الجديدة من أرض صلبة .

حين أبلغني سفيركم برسالتكم عن نتيجة اجتماع موسكو يوم ٦ يونيو ، أي بعد الاجتماع بحوالي العشرة أيام ، لم يكن هذا جديدا ولا مستغربا لنا ، وأرسلت لك في نفس اليوم رسالة محددة في نقاط سبع أكدت فيها رسالتي لك مع المارشال جريتشكو ويتخذيد والتحسست أن لانضيق الوقت الى ٣١ أكتوبر فكل دقيقة لها ثمن .

وفي هذه الرسالة تجدون أنني طلبت رسميا حل مشكلة القيادة والسيطرة فورا ، فلا يحتل ان تكون هناك وحدات سوفيتية في مصر ولا تخضع للقيادة المصرية .

٧ - بعد شهر كامل وبعد الحاج منا مرة عن طريق رئيس الوزراء ومرة عن طريق وزير الخارجية ، جاءت رسالتك لى التى تسلمتها فى ٨ يوليو ، علما بأننى كما أخطرتك من قبيل كنت أحسب اليوم والساعة والدقيقة . وكانت رسالة مخيبة للآمال لأنها تجاهلت بالكامل كل ما سبق أن أرسلته لك سواء مع المارشال جريتشكو لوفى ٦ يونيو ، ولكنها أكدت لى حقيقة هي أن هذا الأسلوب فى التعامل والتجاهل لأوضاعنا ومعركتنا ينبع من عقلية عاتينا منها طوال السنوات الخمس بعد العدوان ، وحاولت أنامرارا طوال سنة ونصف أن أنبه إليها ولكن بدون فائدة .

ومن أجل هذا رفضت هذه الرسالة ورفضت أيضا الأسلوب ، وكان لابد لنا من وقفه كأعداء نحدد فيها مواقفنا بصراحة .

وأود أيضا التنبه ان أخصيك انبها على فسى تلك الفترة ، لان من حرك كمدى ان تعرف مبررات قراراتى .

الامة متجددة ولا توجد طرق مشاحة للشحرك .

الادعاء الأمريكى بتماعد حتى بعد اجتماع موسكو بقدره الولايات المتحدة وحدها ووحدها فقط على الحل...
اسرائيل تزداد عريضة فى المنطقة العربية
بلا رادع ..

البيان الصادر عن مؤتمر موسكو يقول بالاشرخاء
المسكى فى المنطقة بعد حل المشكلة ..

رسالتكم فى ٨ يوليو تتجاهل بالكامل ما اتفقنا عليه وما يتحتم علينا ان نتخذه من اجراءات تؤمن أنها ضرورية لتمكنا من التحرك عسكريا اذا لزم الامر بعد الانتخابات الأمريكية ..

امريكا تعطى اسرائيل بلا حساب ، وتجدد لها سلاح الطيران بالكامل بخلاف الاسلحة المتطورة الأخرى .

موقفكم بعد الرسالة يوضح ان الحظر الجزئى الذى فرضتموه علينا بالنسبة لاسلحة الردع منذ خمس سنوات امتد فى هذه الفترة الحرجة الى ضرورات أساسية كتبت لك عنها فى رسالتى بالتحديد وتجاهلتموها بالكامل .

من كل هذه الاعتبارات كان قرارى بانها مهمة

المستشارين كوقفة ننهي بها مرحلة لأبد ان تنتهي لكي
تبدأ مرحلة جديدة بفهم جديد وتقدير جديد وتحديث
لمواقفتنا .

دعني أبدأ الصديق ان أشرح لك امثلة مما يدور داخل
قواتنا المسلحة وبالتالي بين الشعب ، فليست
القوات المسلحة الا أبناء من ، وكان يجب على
المستشارين ان يبلغوكم بها قبل ان يتفاجئ الامر .

أ - في البحرية مثلا :

ظل قائد البحرية طوال أربع سنوات يطالبنا بجهاز
جديد لكننا الغوامص لان الجهاز السوفيتي الذي
لدينا مداه نصف كيلو متر فقط ، وكان الرد
ولإزالة الى يومنا هذا انه لا يوجد غير هذا
في الاتحاد السوفيتي في الوقت الذي يعرف
فيه كل ضباط البحرية عندنا ان سفنكم مزودة
بجهاز يكشف الغوامص الى الأفق (Horizon ..)
وهو ما لدى الغرب أيضا ، وليس هذا سرا فتعجب
لنا دولة متخلفة ، وانما نحن نقرأ ما عند
الشرق والغرب ، ونفاجئ العالم كله ، والآله من
ذلك ان سنن اسطولكم تعيش بيننا .

في اسواق الغرب معروض جهاز الكشف الى الافق ،
وليس سرا ، ومعروض لها . أجهزة لمسافات على الالف
عشرين مرة اكثر مما عندنا وليس سرا أيضا .

فما اذا يكون تعليق ضباط البحرية ٢٠٠٠ ؟

ب - في الطيران مثلا :

كل ضباط الطيران - وهم خريجو كليانكم - يعلمون
ان لديكم طائرات متفوقة مثل (500 H) التي
كانت عندنا ، ولكن كل شيء عندكم سر ولا يقترب
منه أحد .

طائرات الموارخ عندنا سرعتها وهي تحمل الموارخ
نصف سرعة طائرة الركاب اليوشن ٦٦ النجارية
والبوينج ، والصاروخ ينطلق منها بسرعة أفضل
من سرعة الصوت ويظل معزفا أكثر من ٦ دقائق
للاملحة المضادة ، في الوقت الذي تحمل فيه
الغانتوم ذات المرتين وربيع سرعة الصوت
الصاروخ الأمريكي شرايك وينطلق بأسرع من الصوت
طبعا ، وقد نبهتكم في حينه عن طريق غيركم وقبل
ان يطلق علينا عشرة صواريخ منه ..

فماذا يكون تعليق ضباط الطيران ٢٠٠٠ ؟

ج - في الجيش :

أرسلتم لنا مدفع ١٨٠ مم نظير المدفع ١٧٥ مم الذي زودت أمريكا إسرائيل به ، ولكن المقارنه رهيبة .

المدفع الامريكى محمل على دبابة وسريع الحركة ومعه ادوات ادارة النيران لكي يضرب الى أقصى مدى ... ومدفعكم ثابت يحتاج الى عشرين فرد لتحريكه وليس معه ادوات ادارة النيران لكي يصل الى أقصى مدى فلا يكون هجوميا وهو ما يدخل في الحائر .

امريكا ارسلت اعداد غير محددة من هذا المدفع الهجومى لاسرائيل ، كما أعلن .

وانتم ارسلتم لنا أربعة مدافع فقط على جبهة طولها ١٦٠ كم .

ضباطنا يعرفون ان لديكم ما هو أقوى من المدفع الامريكى ومحمل ايضا ، ولكنه كالعادة سـرر، ومستشاروكم يقولون ليس لدينا شيء .

فماذا يكون تطبيق ضباط المدفعية ؟

وفي المشاء يعرف كل ضابط وجندى ان اسلحة فتح الشخرات تماوى حياته عند بدء العمليات ومع ذلك فما لدينا منها هو اسلحة الحـرب الثانية وكل ضباطنا وهم متعلمون في فرونـزر يعرفون ان لديكم ولدى الغرباء وليس سـرر هو اريخ فتتح الشخرات ، والأحنا سنتبين في طلبها الى اليوم ، والرد كما هو ، لإيجاد في الاتحاد السوفييتى .

هذه عينات بسيطة من مئات الامثلة ، أستطيع أن اسوقها لك، يعرفها كل ضابط وجندى في فـروع القوات المسلحة وانتقلت الى الشعب .

فهل هذا هو اسلوب تعاون الصديق ؟

ان جهازنا الدفاعى ينقصه الكثير من التفاصيل ورغم أننا نقول للناس وللعالم يعكس ذلك ، وهذا هو ما أريد ان نقف عنده لكن نتائج العقلية التى وراء كل هذا .

انكم تعاملوننا وكأننا دولة متخلفة لا تعرف شيئا في الوقت الذى تلقى فيه ضباطنا العلم فى مدارسكم كضباطكم تماما ، علاوة على أننا نتابع

العالم شرقه وغربه في كل شيء وهو ليس سرا لأن التمليح
مكتوب في كتبنا متداولة في العالم كله ، وعندنا
يسأل المستشارون السوفييت كانوا يجيبون أما بالصمت
أو بأنه ليس لدى الاتحاد السوفييتي .

ونحن نعلم وغيرنا يعلم أن لدى الاتحاد السوفييتي

كل شيء ...

وأصارك إياها الصديق اننى استشعر الان خطورة
شديدة على مستقبل علاقتنا .. لخطر ما فيها انها
ستترك لدى شعبنا مرارة من الاتحاد السوفييتي .

فلكم الحق كل الحق بعد مدور قراراتى بأن
تتخذوا الموقف الذى ترونه مناسباً لمصالحكم .
ولكننى لا أعتقد أبداً ان من مصلحتكم ان تتركوا لدى
شعبنا مرارة من الاتحاد السوفييتي بعد هذا الشوط
الطويل من المداقة والبناء الذى أتمناه سوا ..

ان قرار سحب الطائرات (M 500) بعد ان
صدر بيان سوفييتي مصرى أثناء زيارة المارشال جريتشكو
بأن الخيارين المصريين استخدموها في نظرى هو من
أسوأ القرارات التى تصيب شعبنا وقواتنا المسلحة
بالمرة .

وقرار سحب أجهزة النخوين التى كان يعمل عليها
أفراد سوفييت بحجة انها سرا أو أننا لا نستطيع
تشغيلها أو أى حجة أخرى هو أيضاً في نظرى من
أسوأ القرارات التى تصيب المداقة السوفييتية
المصرية في الضمير .

ان معنى هذه القرارات هو فرض الشروط من
جانب الاتحاد السوفييتي ...

ولقد كسرنا احتكار السلاح في العالم سوا
منذ سنة ١٩٥٥ ...
وأمر آخر أخطر ..

اننا في معركة نواجه عدوا مزودا بكل شيء ..
نماذا يكون استنتاج المواطن العادي ..

اننى اترك لك تقدير كل ذلك ، ولكننى أكون
مقصر في حق صداقتنا اذا لم أذكر لك كل هذا
بمثل هذه الصراحة .

١٠- امرا اخيرا أریده ان يكون واضحا امامك ..

لقد سبق لى ان حددت بتاريخ ٣١ اكتوبر في رسالتى
لك مع المارشال جريتشكو وفي رسالتى لك مع سفيركم
في ٦ يونيو ، ولخطركم ايضا به رئيس الوزراء فسو
زيارته الاخيرة لكم .

لقد كان هدفنا من زيارة رئيس الوزراء لكم هو
اصدار بيان مشترك يوفر علينا كل هذا الدس والتشفيء،
ولكنكم رفضتم ..

ويهمنى أن اتول لك بكل صدق وصراحة اننى متمسك
بهذا الموعد ٣١ اكتوبر كتاريخ فاصل بيننا ..

وأرجوك مخلصا وبأخوة ان تدرك اننى لا أوجه
انذارا كما يحلو للبعض ان يفسر ففمن لا توجه لاحد
انذارات ، لاننا لانقبل ان توجه الينا من احد
انذارات .

ولكن هذا التاريخ مبنى على عاملين احدهما
سياسي والاخر عسكري ..

اما العامل السياسي فهو لنا حسب اتفاننا
في آخر لقاء وفي رسائل لكم سنجد انفسنا بعد
انتخابات الرئاسة الامريكية في وضع سنواجه فيه
تحركا امريكيا واسرائيليا يهدف الى فرض حل لصالح
اسرائيل ومالم نكن على أرض صلبة عسكريا كما
اتفقنا فاننا سندخل الى الحلقة المترفة مرة أخرى ...
مهمة يارنج .. وقرار مجلس الامن .. واسرائيل لاتدع
لتفوقها .

اما العامل الثاني وهو العمكري ، فستنتج
ان تسأل العمكريين عندك ماذا سيكون عليه التفوق
الاسرائيلي في نوفمبر وديسمبر القادمين .

ان اسرائيل ستكون قد استوعبت بالكامل كل
التجديد في طيرانها بالاعداد الكبيرة من الفانتوم
والسكاي هوك ، وستتح الفجوة بيننا بأخطر مما هي
الآن ..

ومكذا يفتخرك ايها الصديق ان لهذا التاريخ
مدلولات سياسية وعسكرية سبق ان اتفقنا عليه .

وبعد ...

اننا في مصر نظل مارقين بالجميل لمساعدتكم ،
وليس ادل على ذلك من اننى عندما ما اعلنت قرارات
انهاء مهمة المستشارين السوفيت خروست في احاديثي
الى الشعب العربي في مصر وفي المنطقة كلها على
تأكيد دور الاتحاد السوفيتي في مساندتنا .

ولكن واجب الامانة يدعوني ان اذكر أن اولوية
أولى في هذا التعاون الذي نرغبه هي في تمكيننا
من تحرير اراضينا .

اننا نرغب في دعم التعاون بيننا الى أقصى مدى ..

وهذا المدى سيحدده المدى الذى يذهب السببه
اصداقونا فى الاتحاد السوفييتى فى مدنا بما يساعدنا
على حل مشكلتنا الاولى والاخيرة وهى تحرير الارض .

لقد كتبت اليك لكى اطلب تدخلك شخصيا لشقتى
الكاملة فى مشارك وفهمك لقضيتنا وحماسك من أجل
حلها .

ان مشكلة تحرير الارض هى كل شئ فى حياتنا
وسلوكننا وعلاقاتنا وتصرفاتنا وان اخوف ما نخافه
ان لايقدر البعض هذا الامر حق قدره ، فتحل المرارة
بدلا من الصداقة .

وبعد ذلك فاذا كنتم ترون فيما أوضحت مايساعد
على تفهم اكثر لظروفنا ، فان الدكتور عزيز صدقى
رئيس الوزراء على استعداد للسفر فى زيارة خاصة
للإتحاد السوفييتى فى الوقت الذى ترونه مناسباً
للتعبير لتقابلتنا سوياً و اجراء بحث مستفيض لكل
الامور حتى نتقدم علاقاتنا فى المستقبل على قاعدة
صلبة من الثقة والتعاون القائم على الصراحة
المتبادلة لتحقيق مصالحنا المشتركة .

أرجو ان تتقبلوا خالص مودتى وتقديرى ،
مع أطيب تمنياتى لكم شخصياً ولزملائكم القادة
السوفيت والشعب السوفييتى الصديق .

القاهرة فى ١٩٧٢/٨/٣٠

بسم الله

حوجية صادر الى القائد العام للقوات المسلحة
وزير العربية الفريق اول احمد اسماعيل على

اولا - عن الوضع العام

١ - لقد مفت حتى الان اكثر من ست سنوات على
احتلال العدو الاسرائيلى لاجزاء من التراب العربى .

٢ - ان اسرائيل مزودة بدعم أمريكى خصوصا فى مجال
امدادات السلاح .. حاولت وتحاول فرض ارادتها
عليها وانهاء أزمة الشرق الاوسط على نحو يهدق
لها سيطرة شبه مطلقة فى المنطقة العربية وفى
أمنها وفى مآثرها .

٣ - ان مصر حاولت بكل الوسائل ، ومثذ صدر قرار وقد
اطلاق النار عن مجلس الامن فى ٨ يونيو ١٩٦٧ أن تجد

(يتبع)

- ٢ -

حلا للآزمة .. وفى هذا السبيل فقد خضعت وسائلها
من قبول قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بخارىـــــــــــــــــع
٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ الى قبول جهود الطير جوشار بارشيج ،
ثم جهود الدول الاربعة الكبرى ، ثم جهود قامت
بها القوات الاعظم ، ثم مبادرة تقدم بها وزير
الخارجية الامريكى وديام روجرز ، حتى تقدمت مباشرة
بمبادرة لحل يكون فيه فتح قناة السويس بدايات
لمراحل انسحاب شامل تطبيقا لقرار مجلس الامن .

ولكن كل هذه الجهود لم تصل الى نتيجة ، ففى
اما فشلت أو توقفت .. أو حاول اعداؤها الخروج
بها عن مقاصدها .

٤ - ان مصر قامت بعمليات عسكرية ذات طابع محدود
فى سنوات ١٩٦٨ و ١٩٦٩ و ١٩٧٠ ، كذلك قدمت دعما
كثيرا لثورات المقاومة الفلسطينية لمباشرة عمليات
(يتبع)

فدائية على الخطوط أو داخل الأرض المحتلة .. ولكن هذه العمليات كلها وإن أدت إلى نتائج لها أضرارها فإنها لا تبيح متعمدة لم تحصل في ضغطها على العدو إلى الحد اللازم .

٥ - إن مصر كانت تدرك طول الوقت أنه سوف يجرى وقت يتعين عليها فيه أن تتحمل مسئولياتها .. وكان أهم ما يجب أن تعنى به هو أن تولد لهذا اليوم كل ما تستطيع .. وفي حدود طاقتها .. ومع التزامنا بواجب الدفاع عن الشراك والشرك .

٦ - إن الشعب في مصر يحمل بأكثر مما كان يتصور أحد خصومه وأعداؤه على السواء .. ولقد كانت الأعباء التي تحملها الشعب ، مادية ومعنوية ، أعباء فادحة لا يتحملها إلا شعب يرمي بالحرية ويضحي سبيلها .

(يفتح)

٧ - أن حصيحات مهمة طرأت على الموقف السياسي العربي عموماً وزادت من احتمالات حشره .. ومع جرابيد أهمية أزمة الطاقة وأزمة الحقد في العالم فإن الضغط العربي في أحوال ملائمة يستطیع أن يكون عاملاً له قيمته .

٨ - أن تأشيرات الموقف العربي العام تجلت بشكل واضح في أوضاع صليحتها .. فإلى جانب ما حصلنا عليه من الاتحاد السوفييتي والكتلة الشرقية ، وهو كثير ، فقد أصبحت لنا من مصادر أخرى أنواع من السلاح لم تكن متوفرة لنا .

٩ - إن العدو في شبه عزلة عالمية ، بيد الجهود المصرية الحاجزة في مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة ومروءة مصر ومنظمة الوحدة الإفريقية الأخرى في أدبيات آسيان ، ومروءة الدول غير المتحارزة التي تحفه في الجزائر .

(يفتح)

١٠ - ان الموقف الدولي يتغير .. وما زالت حركتنا مستمرة .. وقد نجد أنفسنا أمام حوارات طويلة الاجل تدور على حرية حركتنا وعلى حقنا في اختيار نوع البدائل .

ثانيا - عن استراتيجية العدو ..

ان العدو الاسرائيلي كما نرى اتضح لنظمه سياسة تقوم على التخويف ، والادعاء بتفوق لا يستطيع العرب تحديده .. وهذا هو اساس نظرية الامن الاسرائيلي التي تقوم على الردع النفس والسياس والعسكري .

ان نقطة الاساس في نظرية الامن الاسرائيلي هي الوصول الى اقتناع مصر والامة العربية انه لا فائدة من تحدى اسرائيل ، وبالتالي فليس هناك مفر من الرضوخ لشروطها حتى وان تضمنت هذه الشروط تنازلات عن السيادة الوطنية .

(يتبع)

ثالثا - عن استراتيجية مصر في هذه المرحلة

ان الهدف الاستراتيجي الذي يتحمل ^{احتمال} المسؤولية السياسية في اعطائه للقوات المسلحة المصرية .. وعلى اساس كل ما سمعت وعرفت من اوضاع الاستعداد يتلخص فيما يلي :

تحدى نظرية الامن الاسرائيلي وذلك عن طريق عمل ^{حبه اللامات القوان العسكري} عسكري (يكون هدفه الحاق اكبر قدر من التأثير بالعدو واقناعه انه ^{واقناعه انه} مواطلة احتائه لارضينا بفرض عليه شمنا لا يستطيع دفعه .. وبالتالي فان نظريته في الامن - على اساس التخويف النفس والسياس والعسكري - ليس درعا من الفولاذ يحميه الان او في المستقبل .

وإذا استطعنا بنجاح ان نتحدى نظرية الامن الاسرائيلي فان ذلك سوف يودي الى نتائج محققة في المدى القريب وفي المدى البعيد .

(يتبع)

في المدى القريب : فان حدى نظرية الامن
 الاسرائيلي يمكن ان يصل بنا الى نتائج محققة تجعل
 في الامكان ان نصل الى حل مشرف لازمة الشرق الاوسط .
 وفي المدى البعيد : فان حدى نظرية الامن
 الاسرائيلي يمكن ان يحدث متغيرات تودي بالتراكم الى
 تغيير اساس في فكر العدو وتسميته وتوضاه العدوانية .

رابعا - عن التحويلات

ان الوقت من الان ، ومن وجهة نظر سياسية
 ملائمة كل الملائمة لمثل هذا العمل الذي اشرت اليه
 في حالنا من هذا الحوجه .

ان اوضاع الجبهة الداخلية واطراف الجبهة العربية
 العامة بما في ذلك التنسيق الدقيق مع الجبهة الشمالية ،
 واطراف المسرح الدولي تعطياننا من الان فرصة مناسبة
 للبدء .

(يصح)

ومع العزلة الدولية للعدو . ومع النمو
 الذي يسود عندهم بخرافات الانتقالات التدريجية
 وصراعات الخصيات - فان احتمالات التفرقة المناسبة
 تصبح اخيرا امامنا .

رئيس الجمهورية
 السيد
 الحاج

العصر
 • رمضان ١٤٩٤
 اول الثور ١٩٧٥

برقية

رقم ٢٠ بتاريخ ٢٠ / ١٠ / ١٩٧٣

السيد الرئيس حافظ الأسد

لقد حاربنا إسرائيل الى اليوم الخامس عشر . وفي الاربعة
الايام الاولى كانت إسرائيل وعدنا فكشفتنا موقعا في الجبهة
المصرية والسورية ومقتل لهم باعترافهم ٨٠٠ جبهة على
البيوتيين واكثر من ماشي طائرة .
اما في العشرة الايام الاخيرة فاض على الجبهة المصرية
أحارب امريكا بأحدث ما لديها من اسلحة . انش بمساحة لا استطع
أن أحارب امريكا أو أن أحمل المشولية الشاريفية لتدمير
قواتنا المسلحة مرة اخرى .
لذلك فاض أخطرت الاتحاد السوفيتي بأرض الجبل وقد اطلق
النار على الخطوط الحالية بالشروط التالية :
١- ضمان الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة لانحجاب إسرائيل
كما عرض الاتحاد السوفيتي .
٢- بدء مؤتمر سلام في الأمم المتحدة للاتفاق على جبهة شاملة
كما عرض الاتحاد السوفيتي .
ان قلبي ليقطر دما واما أخطرت سيذا ولكنني أخص أن
مسؤوليتي تحتم على اتخاذ هذا القرار . وسوف أواجه شعبنا
وأمتنا في الوقت المناسب لكي يعامسون الشعب .
مع أطيب تمنياتي .

١٩٧٣/١٠/٢٠

توجيه إسرائيلي من رئيس الجمهورية
والقائد الأعلى للقوات المسلحة

السيد الرئيس أحمد الأسد
وزير الحربية والقائد الأعلى للقوات المسلحة

- ١- بناء على التوجيه السياسي والعسكري الصادر لكم من
في أول أكتوبر ١٩٧٣ وبناء على الشروط المبينة بالوقت
السياسي والديبلوماسي :
- ٢- إزالة الجورديكي المات كبر وقت المهدد لها باعتبار ان
يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣
ب- تجديد العهد أكبرها مركبة من الجورديكي والهدد
ج- العهد على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نموثر
إمكانات وقدرة القوات المسلحة
- ٤- أخذ هذه اللاإمارة القوات المسلحة المصرية بمنزلة أو بالقرار مع
القوات المسلحة السورية

السيد الرئيس
رئيس الجمهورية

١ رمضان ١٩٧٣ هـ
٦ أكتوبر ١٩٧٣ م

البيد الرئيس
أيا السيدات والسادة
السلام عليكم . ورحمة الله
والسلام لنا جميعاً .

السلام لنا جميعاً . . . على الأرض العربية وفي إسرائيل . . . وفي كل مكان من
أرض هذا العالم لكم المنة بمرامه الدائمة ، المقطوب بالقضاء الحاد ،
الهدوء بين الجن والحسين بالمحرم المرمرة . تلك التي يصنعها الإنسان ليقضي
يا على أمه الإنسان وفي البداية ، وبين أقطاب ما في الإنسان وبين أشلاء
الصعاب من بني الإنسان ، فلا غالب ولا مغلوب ، بل إن المغلوب الحقيق
دائماً هو الإنسان . أرق ما خلقه الله . الإنسان الذي خلقه الله . كما يقول
فلسفي قديم السلام . . . لكي يسي على فتيه ، بين الحياة . . . ويعد الله .

وقد جئت إليكم اليوم على قمتين ثابتين ، لكي أتي حياة جديدة لكي تتم
السلام وكذا على هذه الأرض ، أرض الله ، كلها مسلمون وسعيدون وسعداء .
نعم الله ولا يشرك به أحداً . . . وعالم الله . . . ووصاياه . . . هي حب وصدق
وطهارة وصلاح .
وأني أتمنى العشر لكل من استقبل قراري عندما أعلنت هذا كله ، أمام
جلس القمم العربي ، بالتحفة ، بل بالهدوء ، بل باليقين ، بل بصوت له
الاعتقاد القوي أن قراري ليس أكثر من متذكرة كلامية للاستيلاء أمام الرأي
العام العالمي ، بل وصفه بعض أئمة بأنه تكليف سياسي لكي أضيء نواياي
في شئ حرب جديدة .

ولا أتمنى عليكم أن أحد مساعدتي في مكتب رئيس الجمهورية أنقل في
في ساحة متخرة من القليل جسد عروق إلى بيتي من مجلس الشعب ، ليأني
في قلب . . . وماذا فعل يا سيادة الرئيس لو . وجهت إليك إسرائيل الدعوة فعلا
فأجبت بكل هدوء . سأفعلها على الفور . . .
لقد أمنت أنني سأحارب إلى آخر اليوم . . . صادفني ذلك إسرائيل لئني أريه
أن أشرح الحقائق كلمة أمام شعب إسرائيل . . .
أني أتمنى العشر لكل من أخذ القرار . لو تشكك في سلامة النوايا وراء
إعلان قراري لم يكن أحد يتصور أن رئيس أكبر دولة عربية ، تتحمل العبء
الأكبر والمستولية الأولى في قضية الحرب والسلام ، في منطقة الشرق الأوسط
يكن أن يرضى قراري بالاستعداد إلى التعاقب إلى أرض الحطم . ونحن لا تزال
في حالة حرب . بل نحن جميعاً لا تزال نعاني من آثار أربع حروب فاسية خلال
ثلاثين عاماً ، بل أن أسوأها حرب أكتوبر ١٩٧٣ . لا يزال جيش ثمانين الف رجل
وقد اكتسب واستشهد الآلاف والأكثر .

كما ترى . كما ترى أن أمنت من قبل لم أتداول في هذا القرار مع أحد من ملائي
وأعزق رئيسة الدول العربية ، أو دولي الوصي . . . ولقد اضطررت من اتصال في مهم
بعد إعلان قراري . لأن حالة الشك الكاملة ، وقد كان الله كالماء . بين الدول
العربية والشرق الفلطيني من جهة وبين إسرائيل من جهة أخرى ، لا يزال
خائفاً في قلق الغموس ونحن أن أشيراً طويلاً كان يمكن أن يخل فيها السلام ، قد
ضاعت مني . في حياضات ومناقشات لا حائل منها حول إجراءات عقد
مؤتمر جنيف ، ولكنها غير من الشك الكامل ، وقد كان الله كالماء .
ولكن . . . أسد حكام الدول ، بكل الشك أين شئت . هذا هو دور بيد حكي
طويل ، وأما أوله أم خاطرة كبيرة ، لأنه إذا كان الله قد كتب لي قراري أن
أقول المستولية من شعب مصر ، وأن أشرك في مستولية الفسيفس بالية فليس
أعزق وضم فلسطين . فإن أول واجبات هذه المستولية أن أشهد كل مسلم ،
لكي أصيب شعب المصري الثرى ، وكل الشعب الثرى ، وسبلات حروب
أخرى عظيمة ، مدمرة ، لا يعلم مداها إلا الله .

وقد افتحت بعد تفكير طويل ، أن أمالة المستولية أمام الله ، وأمام الشعب ،
تعرض على أن أذهب إلى آخر مكان في العالم . . . بل أن أضر إلى بيت القدس ،
وأحاطب أعضاء الكنيست مثل شعب إسرائيل بكل الحقائق التي تحمل في نفسي ،
وأترككم بعد ذلك لكي تفروا وأنتمكم ويعمل الله بنا بحسب ناله ما يشاء .
أيا السيدات والسادة :

إن في حياة الأمم والشعوب عظمتها بين غيرها على هؤلاء الذين يتصلون
بالحكمة والرؤية الباقية أن يظفروا إلى ما وراء المادي بتجربته ووراثه من أجل
العلاقة جسورة نحو آفاق جديدة .
وهؤلاء الذين يتحملون مثلنا تلك المستولية الملقاة على عاتقنا هم أول من يجب
أن نعرف عنهم الشجاعة لاتخاذ القرارات المصيرية التي تتناسب مع جلال
الموقف . ويجب أن ترتفع جميعاً فوق جميع صور التصيب وفوق حسد
النفس وفوق تعقيدات الصوق البالية في المهمل التي لا تنسى أبداً أن الصلة قد وردت .
وإذا قلت لئني أريد أن أجب كل الشعب العربي ، وسبلات حروب جديدة مدمرة ،
فأني أظن أمامكم بكل الصدق ، لئني أحمل نفس الشاعر وأحمل نفس المستولية
لكل إنسان في العالم وبالتأكيد نحو الشعب الإسرائيلي .

شعبة الحرب : الإنسان .
ولأن روح التي ترهب في الحرب ، هي روح إنسان ، سواء كان عربياً أو إسرائيلياً .
إن الرغبة التي تترمل . هي إنسان من حها أن تعيش في أسرة سعيدة سواء
كانت عربية أو إسرائيلياً . . .
إن الأملك الأبرياء الذين يفسدهم ، عالة الآباء وعظيهم هم أمتنا جميعاً .
على أرض العرب ، أرى في إسرائيل لهم عينا المستولية الكبرى في أن نوفر لهم
الحاضر الحاضر . . . ولقد المجلد . . .
من أجل كل هذا ، ومن أجل أن نحس حياة أبنائنا وأحفادنا جميعاً .
من أجل أن نتبع جنسنا ، وهي أمة عظيمة . من أجل تطور الإنسان
وبهائه وإعظامه حتى في الحياة الكريمة ، من أجل مستوليتنا أمام الأجيال المقبلة .
من أجل بسمة كل طفل يولد على أرضنا .

من أجل كل هذا التفتت قراري أن أضر إليكم . . . رغم كل المخاطر .
لكي أقول كلمتي . . .
ولقد تحملت وأحملت مطالبات المستولية التاريخية من أجل ذلك أعلنت من قبل
ومدة أعوام وبالتحديد في ٢ فبراير ١٩٧١ ، أنني مستعد لتوقيع اتفاق سلام مع
إسرائيل ، وكان هذا هو أول إعلان يصدر من مسئول عربي منذ أن بدأ الصراع
العربي الإسرائيلي وبكل هذه التوافيق التي تفرضها مستولية القيادة أعلنت
في السادس عشر من أكتوبر ١٩٧٣ وأمام مجلس الشعب المصري ، الدعوة إلى
مؤتمر دولي يقرر فيه السلام للعالمين .

ولم أكن في ذلك الوقت في وضع من يستجدي السلام ، أو يطلب وقف النار .
وبهذه التوافيق كلها ، التي يلزم بها الراجب التاريخي والقبلي ، وقعا اتفاق
عك الاشتباك الأول ، ثم اتفاق فك الاشتباك الثاني في سيناء . ثم سبعا لتسرق
الأبواب المفتوحة والمعلقة لإيجاد طريق مبين نحو سلام دائم عادل وفضحا فلوينا
شعوب العالم كله لكي نتفهم دوافعنا ، وأهدافنا ، ولكن نتفهم فعلاً أننا دعاة
عدل ، وصانع سلام .
وبهذه التوافيق كلها ، قررت أن أضر إليكم ، بعقل مقسوح وقلب
مفتوح وذاكرة واعية ، لكي نقيم السلام الدائم القائم على العدل .
وشامت المقادير أن تحي رحمتي إليكم ، رحمة السلام ، في يوم العيدة
الإسلامي الكبير على الإخصن المبارك ضد الفسحة والفساد ، حين أسؤ ليراهم
عليه السلام ، جد العرب واليهود أول حين أمره الله ، ونوجه إليه بكل جوارحه
لا عن ضعف بل عن قوة روحية عاتلة وعن إيمان حار لتضحية بقلبه كبده . . .
بإمام من إيمانه الراسخ الذي لا يتزعزع يثل عليها نعلي الحياة بجزى صعباً ولعل هذا
الصادقة تحمل مني جديداً ، في لغوة دعماً ، لعله يصعب أملاً حقيقياً في تأنيد
أرض والأمان والسلام .

أيا السيدات والسادة :

دعونا نتصالح ، بالكلية المشقة ، والفكرة الواضحة التي لا تحمل أي
النزاع . دعونا نتصالح اليوم والعالم كله بغيره بشره يتابع هذه العظمتا
العربية . التي يمكن أن تكون نقطة تحول جذري في مسار التاريخ في هذه
المخطة من السلام . إن لم يكن في العام كله .

دعونا نتصالح ونحن نحب من السؤال الكبير : كيف يمكن أن تحقق السلام
الدائم العادل .
لقد جئت إليكم أحمل جوابي الواضح الصريح على هذا السؤال الكبير ،
لكي يسمعه الشعب في إسرائيل ، ولكي يسمعه العالم أجمع ، ولكي يسمه أيضاً
كل أولئك الذين تتصل أصوات دعوات أمواتهم المعلقة إلى أدنى . أملاي أن
يقبل أن أهيا لكم جوابي . أرجو أن أؤكد لكم ، أنني أمتد في هذا
التحقيق في النهاية التالية التي يرجوها الملايين من هذا الإجماع التاريخي .
والجواب الواضح الصريح ، على عدة حقائق لا مهرب لأحد من الاعتراف بها :
- الحقيقة الأولى : أنه لا نغادة لأحد على حساب شقاء الآخرين .
- الحقيقة الثانية : لئني لم ألتفت ، وإن ألتفت بلخني ولم أتعامل ولن أتعامل
بسياستين ولست أتعامل مع أحد ، لا بلغة واحدة ، وسياسة واحدة ، ووجه
واحد .

- حقيقة الثالثة : إن المواجهة المباشرة وأن الخط المستقيم هما أقرب الطرق
والأجملها للوصول إلى التسلف الواضح .
- الحقيقة الرابعة : إن دعوة السلام الدائم العادل ، التي على احترام قرارات
الأمم المتحدة ، أصبحت اليوم دعوة العالم كله ، وأصبحت تعبيراً واضحاً عن
لذاتة المجتمع الدولي ، سواء في العواصم الرجعية التي تصنع السياسة وتتسلط
القرار ، أو على مستوى الرأي العام العالمي الشعبي ، ذلك الرأي العام الذي يتر
في صنع السياسة واتخاذ القرار .

ولعلها أبرز الحقائق وأوضحها أن الأمة العربية لا تحرك
في مسيها من أجل السلام الدائم العادل ، من موقع ضعف أو إعتزاز ، بل إنها على
التمسكي تماماً بتلك من مقومات القوة والاستقرار ما يجعل كلمتها نابعة من لراة
صادقة نحو السلام ، صادرة عن إدراك حذاري بأنه لكي نتجنب كارثة محققة ،
سينا وحليكم وعلى العالم كله ، فإنه لا يتبدل عن إقرار سلام عادل ، لا تزجره
الأشواء ولا تمت به الشوك ، ولا يزيد سوء المفاضة أو النزاه النوايا .
من واقع هذه الحقائق ، التي أريد أن أصعبكم في صورتها ، كما أراها ،
أرجو أيضاً أن أحرككم بكل الصدق ، أحفكم من بعض الخواطر التي يمكن أن
تطرا على أذهانكم .

إن واجب المصالحة يقتضي أن أقول لكم ما يلي :
أولاً : لئني لم أجيء إليكم لكي أقصد الفاعل متسرفاً بين مصر وإسرائيل .
ليس هذا واردة في سياسة مصر ، فليست المشكلة هي مصر وإسرائيل ، وأي
سلام منفرد بين مصر وإسرائيل أو بين أية دولة من دول المواجهة وإسرائيل
فإنه لن يقيم السلام الدائم العادل في المنطقة كلها ، بل أكثر من ذلك ، فإنه حتى لو
تمتلك السلام بين دول المواجهة كلها وإسرائيل ، فبغير عادل للمشكلة الفلسطينية
فإن ذلك لن يحقق أبداً السلام الدائم العادل الذي يبلغ العالم كله اليوم عليه .
ثانياً : لئني لم أجيء إليكم لكي أسي إلى سلام جزئي ، يعني أن نهي حالة
الحرب في هذه المرحلة . ثم نرجس المشكلة رسمياً إلى مرحلة التالية .
فليس هذا هو الحل الجذري الذي يصل بنا إلى السلام الدائم .
ويترتب بهذا أنني لم أجيء إليكم ، لكي نتفق على فرض لاشتباك ثالث في سيناء
أو في سيناء والبولان والصفحة الغربية ، فإن هذا يعني أننا نؤجل فقط لاشتغال
التصلي إلى أي وقت مضى .

بل هو يعني ، أننا ننفذ شجاعة مواجهة السلام ، وإنما أصعبت من أن
نتحمل أهواء ومستوليات السلام الدائم العادل .
لقد جئت إليكم ، لكي نهي معاً ، السلام الدائم العادل حتى لا نراق
تفقد ما أحسده من جسد عربي أو إسرائيل .
ومن أجل هذا أعلنت لئني مستعد أن أذهب إلى آخر العالم .

وهنا يعود إلى الإجابة على السؤال الكبير : كيف تحقق سلام دائم ؟
في رأي . . . وأملها من هذا الشئ تمام كله . أن الإجابة ليست مستحبة
ولا هي بالصيرة على الرغم من مرور أعوام طويلة . . . من أثر المم . والاختلاف
والكرامية . وتنتج آميال على الطبقة الكاملة والفساد المستحكم .
الإجابة ليست سيرة ولا هي مستحبة . إذا عرفنا سبيل الخط المستقيم
بكل الصدق والإيمان .

أتم تربيون العيش معنا في هذه المثلثة من العالم .
وأنا أقول لكم بكل الإخلاص : إننا نرحب بكم . بكل أزم والأشد
إن هذا قدح ذاته بشكل عطف حول عاتلة . من ملامات قول تاريس حاسم .
لقد كنا نرضيكم ، وكانت لنا أساليبنا ودعواتنا . نعم .
لقد كنا نرضي الإجماع بكم . في أي مكان . نعم .
لقد كنا نضعكم بإسرائيل المرموعة . نعم .
لقد كنا نتمتعنا بالمؤتمرات أو التظاهرات الدولية . وكان مصر ولا يزال
لا يتبادلون التحية والسلام . نعم .
حدث هذا ولا يزال يحدث .
لقد كنا نشارك في مباحثات وسبعاً يثني بكل طرف على إيراد . نعم . . .
هكذا تمت مباحثات عصر الاشتباك الأول . وهكذا أيضاً تمت مباحثات
فرض الاشتباك الثاني .

كما إن عقابنا أنفوا في مؤتمر جنيف الأول ، دون تبادل كلمة مغلظة .
نعم . . .
مما حدث . . .
ولكني أقول لكم اليوم . أعلن تمام كله . إننا نقبل بالعيش معكم في سلام
دائم وعادل . . . ولا نريد أن نخطبكم أو نخطبوا بالصورح اختصه لتتصير
أو بقشافة الاعتقاد والكرامية .

ولقد أعلنت أكثر من مرة . إن إسرائيل أصبحت حقيقة واقعة أعترف بها
العالم ، وحصلت القزواتان العظيمتان مستولية لها بحماية وجودها .
ولما كنا نريد السلام فعلاً وحقاً فربما نرحب بأن يتبينوا بينا في أمن وسلام
فعلاً وحقاً .

لقد كان بيننا وبينكم جدار صخيم مرصع حوائطه أن يتبرع على مستوى
قرن من الزمان ، ولكنه تحطم في عام ١٩٧٣ ، كان حداراً من الحرب شعبة
المسترة في ألبانها ولهاضعا .
كان حداراً من التحريف بالقوة القادرة على إكتساح الأمة العربية
من أعضائها إلى أعضائها .

كان حداراً من الترويج بأنها أمة تحولت إلى جنة لا تحرك . بل أن تمكمن من
قال إنه حتى بعد مضي خمسين عاماً مضت ، قد تقوم فرب قائم من جديد كان
جداراً يهدد دائماً بالقرع الطويلة القادرة على الوصول إلى أي موقع وإلى أي
كان حداراً يملؤنا من الإيابة والقائد إذا نحن حاولنا أن نستخدم هذا الشرع
في تحرير أرضنا المحتلة .
وعطينا أن نعرف معاً ، بأن هذا الحدار قد وقس وتحطم في عام ١٩٧٣ .
ولكن نبي حدار أفسس .
هذا الحدار الآخر ، بشكل حادراً نسباً عظماً بيننا وبينكم .
حاجزاً من الشوك حاجزاً من الفسور ، حاجزاً من حية الدفاع حاجزاً
من الأوهام حول أي تصرف أو فعل أو قرار . حاجزاً من التصير الحاد
الفاطير لكل حدث أو حديث .
وهذا الحاجز القضي هو الذي عبرت عنه ، في تصريحاتي وجمي . بأنه
يشكل سبعين في المائة من المشكلة .
وأني سألتكم اليوم - بزيارتي لكم - لسبباً لا أعده أبدية بصدق وإسناد
وإخلاص ، لكي تحطم هذا الحاجز معاً ؟

للسلطة لا تخفى لولاها ، بصفتها وإيمان وإحسان ، لكن تزيل مع كل فتور
القول والظفر والفرق القاصد وزياد حقائق التوبة ؟
لساناً لا تصدى معاً بشهادة الرجال ، وصاروا الأبطال الذين يهون
حياض خدمهم ؟
لأنه لا تصدى معاً بهذه الشهادة والمباراة لكن لغز مرحباً شامعاً للسلام
يضي ولا يبدى . . . يتبع لأخبارنا التقدمة أموره الرسالة الإنسانية لتو الأيدى والسطر
ورخصة الإنسان ؟
فإن ثورت هذه الأخبار نتائج تلك الدعاء . . . ولها في الأرواح ، وتقيم
الأفعال وتزمل الوجع ، وعدم الأسر ، وأمين الضحايا ؟
لساناً لا ترضى بعبادة الحاقق لوردها في أمثال سليمان الحكيم :
والفتى في قلب الذين يفكرون في الشر ، أما الشبهون بالسلام فقم فرح ؟
لقد بانه ومعه سلام ، غير من ليت علمه بالصلاح مع الختام ؟
لساناً لا يرد دعماً من مزمار داود لى .
والله يا رب أصرح . . . أجمع صوت تضرعي إذا استعنت بك ، وأرفع
صوت لي حراستك ، لا أتردد مع الأكرار . . . ومع فعله الإثم ، المعاصين
تصميم بالسلام والشر في ترويض . . . أعظم حسب فقوم ، وحسب شر أمهم ،
أطلب الصلاة وأسمى وراحمه ؟
أيا السادة :
الحق أقول لكم أن السلام لا يكون أصح على مسس ما لم يكن قائماً على الصلاة
وليس على اختلاف أرض الغير .
ولا يسوغ أن تطمأن الأستكم ما تذكرونه على غيركم .
ويكفر من أمة . . . وبالروح التي حدثت لي في القلوب إليكم أقول لكم :
إن حكمكم أن تتخبروا بآيات من أمثال التوراة وأن تتكلموا أيضاً عن الاعتقاد بأن
التوراة من غير وسيلة التعامل مع الغير .
إن عليكم أن تتصوروا جيداً ترويض الواسعة بينا وبينكم فإن يديكم التوسع
تتبعاً .
ولكن تتكلم بوضوح فإن أرضاً لا تقبل المسامحة ، وليست عريضة للعدل .
إن قلب البرطي والقرى يجر كلباً في منزلة الوادى القدس طوي الذي كثر
فيه الله يرضى عليه السلام ، ولا يملك ثمن ما ولا يملك . . . إن يتكلم عن غير واحد
منه ، أو أن يملك معاً العدل والمسامحة عليه . . .
إن قلبك ليرك أيضاً : إن أمدا اليوم الفرصة الثالثة للسلام وهي فرصة
لا يمكن أن يرد عليها الزمان إلا كما جازين حقائق التصالح من أجل السلام
وهي فرصة لم أعتدوا أن يفضلهما صفوف تحلل بالمشي عالياً . . . لئلا
الإنسانية وأمة الفتيح .
ما من سلام بالنسبة لإسرائيل ؟ إن جيش في المنطقة مع جيرانها العرب . . .
في حين وإيطاليان .
هذا سؤال أقول له نعم . . .
إن جيش إسرائيل في حدوده ، أكثر من أي عدوان .
هذا مطلب أقول له نعم .
إن جيش إسرائيل على كثر أنواع الصيانات التي ترمي لها هاتين الحقيقتين
هذا مطلب أقول له نعم .
بل إننا نحن بدأنا نطلب كثر الصيانات الدولية التي تصورونها ونحن نرضونهم
إنهم .
نحن وإننا نطلب كثر الصيانات التي ترميها من القوانين العظمين . . . أو من إعدادهما ،
أو من أخست كثر ، أو من يصيبهم .
وأعدوا نحن بكل الوضوح أننا نعلمون بأن صيانات تصورونها لأننا في القليل .
ستأخذ كثر الصيانات .
تلازمة تلوون إننا عندما نتكلم ، ما من السلام بالنسبة لإسرائيل ؟
يكون الرد من أي جيش إسرائيل في حدوده مع جيرانها العرب . . . في حين
وأعدوا نحن بكل ما نرضيهم من صيانات يحصل عليه الطرف الآخر .

ولكن كيف يتحقق هذا ؟
كثيراً يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة لكن نصل بها إلى السلام الدائم المتبادل ؟
هناك حقائق لابد من مواءمتها بكل شجاعة ووضوح .
ملاك أرض عربية احتلها . . . ولا زال تحتها - إسرائيل بالقوة المسلحة ونحن
نصر على تحقيق الإنجاب الكامل منها بما فيها القدس العربية . . . القدس التي
حطرت لها ، باعتبارها مقدسة للسلام . . .
والتي كانت وسوف تظل على الدوام تتجسد الحى لتعايش بين المؤمنين
بالتدابير الثلاث .
وليس من المقبول أن يفكر أحد في الوضع الخاص للبيت المقدس في إطار
العلم أو التوسع وإنما يجب أن تكون مدينة حرة مفتوحة لجميع المؤمنين .
وأهم من كل هذا فإن تلك المدينة يجب ألا تنصل عن هؤلاء الذين اختاروها
متراً ومترماً لعدة قرون . . . وبدلاً من إيقاف الحروب الصليبية فإننا يجب أن نجني
روح حتر من الخلعاب وصلاح الدين . . . أي روح التسامح وإستمرار الحقوق . . .
إن دور العبادة الإسلامية والمسيحية ليست مجرد أماكن لأداء الفرائض والتعاطف
بل إنها تقوم شاهدة صدق علم وجودنا الذي لم يتقطع في هذا المكان سياسياً وروحياً
وذكراً .
وهنا . . . فإنه يجب ألا يعطى أحد لتدبير الأهمية والإجلال اللذين يتكبهما القدس
نحن معشر المسيحيين والمسلمين . . .
ودعوني أقول لكم بلا أدنى تردد أنني لم أجدني إليكم تحت هذه التبة لكي
تقدم رجاء أن تكونوا تكم من الأرض الحقة . إن الإنجاب الكامل من الأرض
العربية الحقة بعد 1967 أمر بديهي لا تشيل فيه الجدل ولا رجاء فيه لأحد أو
من أحد .
ولا معنى لأي حديث من السلام الدائم العادل ولا معنى لأي عبسوة لتصان
حياتنا معاً في هذه المنطقة من العالم في أمن وأمان وأتم تحفظ أرضاً عربية
مأهولة بالسلمة فليس هناك سلام يستمر أبدياً من أجلنا أرضنا الغير .
لهم .
هذه مدينة لا تشيل الجدل والمناش إذا خلصت الترابا وصدق التصالح لإقرار
السلام الدائم العادل ليطنا ولكن الأخبار من بعدنا .
أما بالنسبة للقبلة الفلسطينية فليس هناك من يفكر أنها جوهر المشكلة كلها
وليس هناك من يخل اليوم في العلم كله شعائر - رفعت هنا في إسرائيل تتجاهل
وجود شعب فلسطين بل وتسلم أن هو هذا الشعب ؟
إن قبلة شعب فلسطين وحقوق شعب فلسطين المشروعة لم تعد اليوم
موضوع تتجاهل أو يفكر من أحد . بل لا يخلل عقل يفكر أن يكون موضع تتجاهل
أو إنكار . إنها واقع استهته المصمم التدفق طرماً وشرفاً . بالتأييد والمساندة
والإعتراف في موقفتي دولة وبيانات رسمية إن يفتي أحد أن يضم لإداه من جونا
الممنوع ليل يبار أو أن يفضى عليه عن تحقيقها التاريخية وحتى الولايات المتحدة
الأمريكية حليفكم الأول التي تحمل قمة الألتزام لحماية وجسود إسرائيل
وأمنها والتي قدمت - وتقدم إلى إسرائيل - كل عون مادي وعسكري .
أقول حتى الولايات المتحدة أختارت أن تراجع الحقيقة والواقع وأن
تتصرف بأن لشعب فلسطين حقها مشروعة وأن المشكلة الفلسطينية هي قلب
الصراع وجوهه . وهذا يقين ملقة بدون علم فإن الصراع سوف يتزايد ويتصاعد
لئلا أجداء جديدة ويكفي الصديق أقول لكم إن السلام لا يمكن أن يتحقق بغير
الفلسطينيين وأنه خطاً جسيم لا يجر مداه أحد أن نفس الطرف من تلك القضية
أو أن تصحيا جانباً .
ولن أستطرد في سرد أحداث الماضي منذ صغر وعده بظهور اثنين عاماً حدثت
فأتم على بيت من الحقائق جيداً . . . وإذا كنتم مع وقدام المدعى القانوني والأختلال
لأعداء وطن قرون على أرضي لم تكن كثرها متأكدكم أقول لكم أن تصحيموا إسرائيل
لشعب فلسطين على إقامة دولته من جديد في وطنه .
وحيث نطالب جنس العلاء والمطهرين أن يتحل الفلسطينيون من هذا المذهب
الاصي . . . فإن سناء في الواقع وحقيقة الأعداء لعد بالتحلل من مؤيديهم وعن
كل أول لهم في المستقبل .

إلى أحيى أصواتاً إسرائيلية . . . طالبت بالأعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني
ودخولاً إلى السلام ونهياتاً له .
والملك ، فإني أقول لكم أيها السيدات والسيدات أنه لا طائل من وراء علم
الأعتراف بالشعب الفلسطيني ، وحقوقه في إقامة دولته وفي العودة .
لقد مررتا نحن العرب بهذه التجربة من قبل . . . معكم . . . ومع حقيقة التواجد
الإسرائيلي والتمثل بنا الصراع . . . من حرب إلى حرب . . . ومن ضحايا إلى مزيد
من الضحايا حتى وصلنا اليوم - نحن وأتم - إلى حافة هوية رهيبة وتكاد تكون مروعة
إذا نحن لم نعلم اليوم معاً فرصة السلام الدائم والعادل .
عليكم أن تتواهبوا الواقع لمواجهة شجاعة كما واجهته أنا .
ولا حل لشكنا أبداً بالمزور منها أو التعلل عليها .
ولا يمكن أن يستمر سلام بمحاولة فرض أو ضاع وعهد . . . أدركا العالم كله
ظلمه . . . وأملن لنماده الاجتياح بوجود احترام الحق والحقيقة .
ولا داعي للتعامل في الملقفة القرفة مع الحق الفلسطيني . . . ولا جلوى من
حقن قنبايت . . . إلا أن تتأخر مسيرة السلام . . . أو أن يفتل السلام .
وكما قلت لكم . . . فلا مساعدة لأحد على حساب شفقة الآخرين . . . كأن المواجبة
المليئة والمظلمة لمتصر مما أفرط الطرق وأصعدها لتعودك إلى المذهب الواضح
والمواجبة المباشرة للشككة الفلسطينية . . . والله الواسعة لعلاجهما نحو سلام دائم
عادل من أي أن تقوم دولتهم .
ومع كل الصيانات الدولية التي تطالبونها فلا يجوز أن يكون هناك خوف من
دولة ولديها تحتاج إلى معونة من كل دول العالم لتبانيها . . . وضعنا تحت أحرارنا
السلام قلن توجد يد لتتق طيون الحرب وإذا وجدت قلن بسبح لما صوت .
ولصغروا بين إفتاق سلام في حثيف ترعه لك العالم المتعطش إلى السلام . . .
إفتاق سلام يتوم على .
أولاً : إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية التي احتلت في عام 1967 .
ثانياً : تحقيق الحقوق الأساسية لشعب فلسطين وسعة في تقرير المصير
بما في ذلك حق في إقامة دولة .
ثالثاً : حق كل دول المنطقة في الجيش في سلام داخل حدودها الآتية
والصسوة عن طريق إجراءات يتفق عليها تحق الأمن المناسب لهؤلاء الدول ،
بالإضافة إلى الصيانات الدولية الثانية .
رابعاً : تنظيم كل دول المنطقة بإدارة العلاقات فيما بينها حقاً لأهداف ومبادئ
ميثاق الأمم المتحدة ، وبصفة خاصة عدم الانحياز إلى القوة . . . وحل الخلافات
بينهم بالوسائل السلمية .
خامساً : إنهاء حالة الحرب القائمة في المنطقة .
أيا السيدات والسادة .
إن السلام ليس توقعاً على منظور مكتوبة ، إنه كتابة جديدة للتاريخ .
إن السلام ليس مبرارة في المساندة به للدفاع عن أية صيوات أو لتسوية
أطباع . فالسلام في جوهره تفصال جبار ضد كل الأطماع والشهوات .
ولعل تجارب التاريخ القديم والحديث تعلمنا جميعاً ، أن الصواريخ والبوابج
والألغام النووية لا يمكن أن تقيم الأمن ولكنها على العكس تعظم كل ما يهدد
الأمن .
ومبينا :
من أجل شعوبنا .
من أجل حداثة شعنا الإنسان ، أن نحسد الإنسان في كل مكان . . . من
سلطان قوة السلاح .
علينا أن نعمل سلطان الإنسانية بكل قوة القيم والبيادى التي نعمل مكتبة الإنسان .
وإذا سمعنا في إن التوجه ببدان من هذا المنبر إلى شعب إسرائيل فإني أتوجه
بالكتابة الصادقة القائمة إلى كل رجل وامرأة وعقل في إسرائيل . . . أنني
أستل إليكم من شعب مصر التي يبارك هذه الرسالة المقدسة من أجل السلام .
أصل إليكم رسالة السلام رسالة شعب مصر التي لا يعرف التعتب ،
والتي يواصل ابتناك من مسلمين ومسيحيين ويهود بروح الوحدة والحب والتسامح .

عليه من مصر التي حطى شعبها أمانة الرسالة المقدسة . رسالة الأمن
والأمن والسلام .
فيا كل رجل وامرأة وعقل في إسرائيل شعروا فإنيكم علم لثبات السلام ،
وتسعة الجهود إلى بناء صرح تسامح سلام ، بخلاص بنا ، الضاح والحق العسة
بصوابير العمار .
فقدوا تعلم كثر ، صورة الإنسان الجديد ، في هذه المظنة من العار ، لكن
يكون قنوة لإنسان مصر . . . إنسان السلام في كل موقع ومكان .
بشرنا أياكم . . . أنا مضي . هو أتم الحروب وسبابة الآلام وإن ما هو
قادم هو البداية الجديدة ، مهمة الجديدة حياة الحب والتخير والحرية والسلام
وبما أيها الأمم شكلي .
وبما أيها الزوجة المزملة .
وبما أيها الأبن الذي فقد الأخ والأب .
يا كل شعابا الحروب .
اعلموا العصور والقرن ، بتمام السلام . . . أخطوا الاستودة حقيقة تعيش
وتتصر . . . أخطوا الأمل بتدبير علم العادل . . . ولادة العصور . من من لبرادة
لك .
أيا السيدات والسادة .
قلنا أن أصل إلى هذا المكان ، ترحبت بكل نصة في قلبي . ولكن عظمة
في صبري ، إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنا أؤدى صلاة التوبة في السند الأقصى
وأن أزرؤ كنيسة القيامة توجعت إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء أن يهبس القوة
وأن يتركه يقين إيمان بأن تحقق هذه الزيارة أعدائها التي أرحمها عن أصل .
حاضر سعيد ، ومستقبل أكثر سعاده .
لقد أتمنت أن أصرح على كل السواقي وتتفادى التي حرقها فتول الصلابة ،
ورغم أن إحتلال الأرض العربية لزال قائماً ، إلا كان إفتاق عن إستعدادي
العقول لدى إسرائيل معاناة كبرى عزت كبراً من الشار . وأعتقت كثيراً من
العقول ، بل شككت في توابعا بعض الآراء ، برغم كل ذلك فإني استلمت
إقرار بكل صفاء الإيمان وطهارته وبكل تعبير الصادق عن إرادة شخص وتوابه
واضرت هذا الطريق الصعب ، بل أنه في نظر الكثيرين أصعب طريق .
أخبرت أن أحضر البكر . بالقلب الفلوح والسكر الفرج .
أخبرت أن أعطى هذه الثقة لكل اليهود العالمية المولودة من أجل السلام .
وأخبرت أن أقدم لكم - ولبي بيكم - الحقائق الجوهرة عن الأخرى والأعداء .
لا لكي أؤرد .
ولا لكي أفسد جوك . أستطرد المولات والنداء في تاريخ العاصر .
معركة السلام العادل والدائم .
إنها ليست معركة فقط ، ولا هي معركة القيادات فقط ، في إسرائيل .
ولكنها معركة كل مواطن على أرضنا جميعاً ، من حقه أن يعيش في سلام .
لها التزام العصور والمسئولية في قلوب الملايين .
وقد شامل الكثيرون ، عندما طرحت هذه المبادرة من تصوري لما يمكن
إيجازه في هذه الزيارة وتوعدنا منها .
وكما كجبت السائين ، فإني أتمن أتمنكم أنني لم أفكر في القيام بهذه المبادرة
من متعلق ما يمكن تحقته أثناء الزيارة وإنما جئت هنا لكي أبلغ رسالة الأمل
بثقت القوم قائم .
الهم أي أردد من زكريا قوله « أحبوا الحق والسلام » .
واستلم آيات الله العزيز الحكيم حين قال : « قل إنما يظن وما أزال عليها
وما أزال على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوقف موسى
وعيسى والنبين من دينهم ، لا أخرف بين أحد منهم . ونحن له مسلمون » .
والله الذي لا يخفى .
والسلام عليكم .

فصول الكتاب

الفصل الأول :

٩ من ميث أبو الكوم إلى سخن الأجانب

الفصل الثاني :

٥٢ نحو تحرير الأرض

الفصل الثالث :

٨٣ نحو تحرير الذات « الزنزانة ٥٤ »

الفصل الرابع :

١٠٧ العمل من أجل قيام الثورة

الفصل الخامس :

١٢٩ الثوار يحكمون

الفصل السادس :

١٥٥ عجز القوة « مصر في حكم عبد الناصر من يوليو ٥٦ إلى يونيو ٦٧ »

الفصل السابع :

١٩٥ فترة إنتقالية « الكفاح من أجل البقاء »

الفصل الثامن :

٢١٨ الثورة الثانية

الفصل التاسع :

٢٤٥ حرب أكتوبر

الفصل العاشر :

٢٨٢ الطريق إلى السلام

٣٢٩ وثائق

رقم الإيداع ٧٨ / ٢٤٤٥
التزقيم الدولي ٩٧٧-٧٠٤٩-٧٠-٦-٦
ISBN